عبد الرحمن منيف



مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار



III

عبد الرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار



III

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

عبد الرحمن منيف

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ذاك الغيم جاب هذا المطر

مثل بدوي

يقول أحد أبطال مسرحية تشيخوف: الأخوات الثلاث:

«لقد آن الأوان! ثمة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية نقية تتهيأ، عاصفة سوف تكنس من مجتمعنا، عما قريب، الكسل واللامبالاة والأوهام والضجر الفاسد. . .

«إننا لن نشارك في تلك الحياة، ولكننا نحيا من أجلها اليوم. إننا نعمل ونتألم ونخلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا».

«إن ما نخاله وهماً قد يكون، في بعض الأحيان، حدساً بالممكن، وإنه في رؤية المُمكن تكمن احتمالات وقوة المستقبل».

أنا يسيس نن

يقول الرياضيون:

بما أن. . .

لذلك. . .

إذن. . .

وقت الهزائم، وفي المنافي،

يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ

مطالع القرن، العقود الأولى.

العالم، كل العالم، في ذلك الزمن الرجراج، المليء بالتوقع والاحتمالات، البطيء كسلحفاة، السريع المتغير كبرق السماء، يتلفت، يتساءل، يرهف السمع إلى الدوي القادم، ويترقب بخوف الغد الذي سيأتي.

في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإِعادة النظر، لإِعادة القسمة: الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار.

دول تنهض فجأة، وأخرى تغيب.

القارات تقسم حسب خطوط الطول، وخطوط العرض.

المناطق والشعوب تجزئ أو تلحق، تبعاً لرغبات الأقوياء، الذين يتخذون القرارات، وتبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة ونقض الوعود والعهود.

الملوك والسلاطين، . ومعهم الجواكر، يُخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور، أو يحكم عليهم بالنفي إلى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسيين، وبصمت.

هكذا كان العالم في مطالع هذا القرن. أما موران، هذه الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان، فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور. كانت «دولهم» تكبر وتصغر، وبعض الأحيان تنتهي، تبعاً للأمطار والجراد، وتبعاً للغزوات أو الهواء الأصفر الذي يصل إلى هذا المكان النائي مع المسافرين. فإذا نجت موران من هذه الويلات، وبدأ أبناؤها ينظمون القصيد ويغنونه، وتكررت سباقات الخيل، وخرجت

الصبايا إلى العيون دون خوف، وأصبح الناس يشبعون، فعندئذٍ لا بد أن يتكفل أمراؤها المائة بتحويلها إلى جحيم. إنهم يصابون بنوع خاص من الجنون، وهذا الجنون، والذي يتكرر كل بضع سنين، يأتي فجأة، وينتهي فجأة أيضاً، لكن خلال الفترة القصيرة التي يكون، يخلّف من الضحايا والأحقاد والثارات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثارات لا تنتهي.

مرخان بن هديب الذي كان أميراً لموران وما جاورها، ولمسيرة يومين في كل اتجاه، هزم في غزوة من غزوات الجراد. طمع به جيرانه الأمراء، استغلوا ضعفه وعيون الماء التي كانت في إمارته، خلال سنة وصول الجراد الطيّار، فبعثوا حلالهم للماء، ثم جاء جندهم بعد الحلال، ولأنه لا يمكن لأميرين أن يجتمعا على عين واحدة للماء، فقد اضطر مرخان بن هديب، مرغماً وصاغراً، لأن يجلو، بعد أن هزم.

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين بلغها خبر هرب مرخان:

ـ العين ما تحمل اثنين خاصة بمثل هذي السنين...

وبعد قليل وبسخرية:

ـ أما لو السيل جاز ومشى فكان فيها ما ينقال. وظني أن مرخان ما له ردة، راح وما يرجع.

وحين بعث مرخان من منفاه إلى نجمة يسألها أخبار الأيام الآتية. أجابت:

ـ السيل إذا به حيل يمشي ويسقي، وإذا فاض وزاد عن حده اما يرغي ويطمي أو يدوّر الحدور.

وحين طلب منها أن توضح أكثر قالت:

ـ السيل إذا وشّل يغور، ولكنه لا بد في يوم من الأيام يفور.

ولأقربائها قالت نجمة المثقال لما سألوها عن احتمال عودة مرخان:

ـ هذا راح وراحت عليه، لكن يجوز الله يبعث واحد من عقبه يسوي اللي هو ما قدر عليه، فخل الثريا تطلع... ونشوف.

أما كيف نجا مرخان بن الهذيب، وكيف استطاع الهرب، فأقوى الروايات تؤكد أن مفلح بن مياح هو الذي حماه، ويسّر له الخروج، إذ حينما جاءه رسول من بني سحيم يطلب منه أن يكون معهم ضد مرخان، قال كلمة انتقلت فيما بعد، ويتذكرها الكثيرون. قال ابن مياح:

ـ اللي يشرب من بير ما يرمي بها حجر، وأنا ومرخان، والشهادة لله، كنا جميع واختلفنا، لكن لا أرفع عليه سيف، ولا أرضى يلحق به حيف، فاتركوه على باب الله، أما إذا صار غير شي فأنا وأنتم قوم إلى قيام الساعة.

وبنو سحيم، في تلك الفترة، كانوا بحاجة ماسة إلى سكوت ابن مياح، أكثر مما كانوا يأملون كسبه، لذلك غضوا النظر ومرخان يقطع الصحراء، تركوه. وهكذا نجا.

ولأن الأمراء المهزومين يظلون أسرى الماضي، ويصبح مستقبلهم وراءهم، كما قال حكيم قديم، فإن مرخان بن هديب، بعد أن شتم وهدد، وبعد أن أقسم الإيمان الغليظة، بالانتقام من بني سحيم، لم يحاول أن يفعل شيئاً، كما أنه لم يسمح لأحد بالمحاولة، خاصة من رجاله وأقربائه، وهكذا غرق في خيبته أولاً، ثم في الصلاة بعد ذلك!

كان يصلي مئات الركع كل يوم، وكان بين تسليم وصلاة جديدة، يدير وجهه نحو موران ويبكي. كان يرفع إلى السماء وجهاً متضرعاً مبللاً بالدموع، طالباً من الله أن ينزل ببني سحيم العذاب، أن يفني جمعهم، ويهلك ضرعهم ويقطع نسلهم. ولأن خيبته كانت ثقيلة، وصلاته بطيئة الوصول إلى المكان الذي يريد، فقد هدّه اليأس وقيل إنه أصيب بالخبل!

خريبط كان الابن الثاني لمرخان. كان يصلي وراء أبيه، لكن موران، والعودة إلى موران، تشغله أكثر من الصلاة. وهذا الحنين ولدته أحاديث الليل، والأغاني الآتية من هناك، إضافة إلى أحلام الشباب، وتلك الخصوبة التي تتولد من لقاء البحر والصحراء. أما في النهار فإن مجلس أمير الفراهيد. وما يجري في هذا المجلس، خلال تلك الفترة الحافلة بالدوي وإعادة النظر، جعله يحلم أكثر، خاصة وأن النصائح الوقورة الميتة التي تتردد في مجلس أبيه مساء كل خميس، وتشلّه، كان يقابلها تحريض

لا يهدأ ولا يتوقف ـ وكل يوم، في مجلس أمير الفراهيد، ثامر الفرهود ـ لأن يتحرك.

قال خريبط، ذات يوم، لعمه دحيم:

ـ رأس مزهر بن سحيم ما ينراد له فيالق وبيارق، ينراد له ظلمة حرامية وطلقة بندقية، وبعدها إذا أمسى جمر يصبح رماد، ونرجع ولا كأنه كان.

هز العم دحيم رأسه موافقاً، وخرج صوته هامساً:

ـ اللي تقوله، يا ابن أخي، ما عليه خلاف، لكن هذه الطلقة ما تصحّ كل يوم، تصير بالعمر نوبة، وما لها أخت، فإذا ما صِبْت بها انصبت، وراحت عليك.

والتفت العم بطرف وجهه نحو المكان الذي يصلي فيه مرخان، فلما تأكد أنه غارق في صلاته، قال:

ـ والأخير، يا بان أخي، أن نتحضر، وحين ننوي ما نعلّم أحد بطارينا، وإذا تأكدنا ندس بليلة ما بها ضو قمر، وهناك اللّي يموت منا يلقى قبر بديرتنا، وإذا ظفرنا. . .

ولم يستطع دحيم أن يتصور النصر، اعتكر وجهه قليلاً، قال بحسرة:

ـ بس بعد بينا وبين ذاك مشوار، أيام وسنين!

ما أن مرت شهور، حتى لم يعد خريبط يطيق الانتظار. ظل أبوه وأخوه الكبير يصليان، وفي مساء الخميس يشتمان مزهر، ويتذكران. أما هو وأخوه الأصغر، عايد، وعمه دحيم، ونتيجة الأحلام، وكلمات قالها ثامر الفرهود: «الوقت كالسيف أن لم تقطعه يقطعك»، إضافة إلى ذلك الدوي الذي أخذ يضرب الشطآن، وتمتد أصداؤه إلى الأمراء المائة المتنازعين، فقد انزلق، وعدد من الرجال، في ليلة ظلماء، ووجهته موران، عبر الصحراء، فوصل بعد شهر. وفي مثل ظلام الليلة التي سرى فيها رمى ورجاله الحبال وتسلقوا أسوار قصر مزهر بن سحيم، واختبأوا إلى الفجر. وحين كان مزهر، مع أضواء النهار الأولى، يتفقد خيله، وقبل أن يصلي صلاة الصبح، خرج الرجال المختبئون وقتلوا مزهر، وبمقتله هزم بنو سحيم، وعاد آل هديب من جديد.

هكذا تقول الروايات الرسمية التي دوّنها، فيما بعد، مؤرخو خريبط، رغم أن معظم الشهود قد غادروا هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، ورغم أنه لم يبق من معالم تلك المرحلة شيء يدّل عليها.

وتقول رواية لم يسجلها المؤرخون، لكن تناقلها الناس في وقتها، أن امرأة سهّلت لخريبط ورجاله الدخول والاختباء! قيل نتيجة عشق أو نتيجة مال، أو ربما بسببهما معاً. وقيل إن ثامر الفرهود، قبل وصول خريبط بشهور، اشترى عدداً من رجال مزهر، وكان هؤلاء وسيلة خريبط في الدخول والاختباء، ثم في النتائج التي حصلت بعد ذلك!

بمقتل مزهر بن سحيم سقطت «دولته» لأن الدول، في تلك الفترة، مرتبطة بأمرائها، فما دام الأمراء أحياء وأقوياء، فإن «الدول» موجودة ومستمرة، وقد تمتد وتتسع، تبعاً لقوة الأمراء وتحالفاتهم. أما إذا هزم الأمراء، أو قتلوا، فالدول تندثر، ولو إلى حين، إذ يحاول أبناء الأمراء المهزومين، مرة أخرى، «استعادة» مُلك الآباء والأجداد، لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر، وأخيراً من الثأر.

خريبط وهو يعود هذه المرة، كان العالم يجتاز هذه الفترة من الزعازع والتقلبات الكبرى، وأن يكون في هذا الجانب، أو في ذاك، معناه الربح الكامل أو الخسارة الكلية. أن يكون مع الذين سيربحون، لا بد أن يحصل على شيء ما. وأن يكون في الجانب الآخر، لا بد أن يخسر كل شيء، وبالتالي ينضم إلى قافلة المغادرين إلى النسيان والصمت فالموت، إذا لم يكن قد قتل منذ البداية، كما حصل للمئات، للآلاف، من الذين كانوا يبحثون عن ملك الآباء والأجداد!

هل هو الذكاء؟ الحظ؟ القدر؟

إن أياً من هذه الكلمات لا تعني شيئاً، إذ تختلف بمعناها، بدلالاتها، بين أن تكون كلمات المنتصرين أو كلمات المهزومين. وما دام خريبط قد انتصر، وفي تلك الفترة بالذات، فإن موران، البلدة الصغيرة المنسية، في هذه الصحراء الشاسعة، امتدت واتسعت، إلى درجة لم تعد تُعرف حدودها!

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين جاءها رسول من بني سحيم يسألها كيف ترى الأيام الآتية:

ـ الدنيا دالوب، يوم فوق والثاني تحت!

وحين ألّح عليها يريد أن يعرف أكثر، ردت:

ـ لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم.

وحين أصّر على أن يعرف أكثر، تلفتت وردت بحدة:

ـ هالحين ما عادت الثريا تكفي، يلزم ندوّر نجم ثاني وننشده، ونشوف، فترجعون، بالسلامة، ما هو بهذي السنة، ولا اللي بعدها، ترجعون لما يتلاقى العقرب بسهيل ومعهم بنات نعش!

كان من السهل أن يبقى رأس مزهر بن سحيم بين كتفيه فترة أطول، وكان من الممكن أن يبدو رأساً جليلاً حين يشتعل بالمجد والشيب، لو أنه لم يلعب تلك اللعبة الخطرة: التحرش بأصدقاء بريطانيا، والذهاب إلى أعدائها، طلباً للمساعدة والعون. إذ ما كاد مزهر يبعث بجماعات من رجاله لمطاردة مرخان بن الهديب، حتى اصطدم بثامر الفرهود، فوقعت بين الرجلين. بدأت بالقطيعة بينهما حين رفض ثامر تسليم مرخان، ووصلت إلى التهديدات فالتحدي، أما حين طلب مزهر معونة الأتراك ودعمهم في مواجهة الفراهيد والإنكليز، فقد حكم على نفسه أن يسير في طريق ليس لها إلا أحد خيارين: اما النصر أو الموت.

لماذا فعل مزهر ذلك وارتكب تلك الغلطة القاتلة؟ وهل الذكاء ما دفع خريبط لأن يختار الآخرين؟

الكلمات العاهرة ذاتها تقفز كالجنادب. فالذكاء والشجاعة، قراءة الرياح والنجوم، استشارة المسنين من الآباء والأجداد والجدات، وحتى قراءة التاريخ ومعرفة أيام العرب، إن أياً من هذه الكلمات لا تفسر اختيارات الرجلين، حتى لو أضيف إليها المكان الذي «اختاره» مرخان، وبالتالي فرض على خريبط أن يكون فيه، وليس في أي مكان آخر.

الدول الكبيرة التي كانت، في أوقات سابقة، تتسامح، وتتظاهر أنها لا تعرف ولا ترى، حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضاً، وتحتمل أيذ.اً ضجيجهم، وأحياناً طيشهم، لم تعد هذه الدول قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة.

فما كاد مزهر يذهب إلى أعداء بريطانيا، وفي ذلك الوقت بالذات،

حتى اعتبر عدواً، ولا بد أن ينتهي. أما حين قتله خريبط، فقد أعطى الدليل أنه يمكن أن يكون الصديق الذي يعتمد عليه، خاصة وأن ثامر الفرهود لم ينسه لحظة واحدة، إذ ظل يبعث إليه بهداياه، وبعث أيضاً عدداً من رجاله، ومعهم بعض الأصدقاء، لكي يساعدوا خريبط ويكونوا قريبين منه.

ولأن الكبار، في هذه المرحلة، ليس لديهم الوقت لأن يتعاملوا مع هذا العدد الهائل من الأمراء الصغار والشيوخ، ولكي يمنعوا انتقال هؤلاء الأمراء من ضفة إلى أخرى، كما كانوا يفعلون في السابق، فقد قامت بريطانيا، ربما نتيجة القرعة، أو تنفيذاً لتوصية من أحد رجالها الحالمين والمحبين للصحراء وضوء القمر وصنع الملوك، باختيار خريبط. لزّمته الأمراء الصغار وحماية طرق القوافل، وطلبت منه مراقبة الجيران والأتراك وشواطئ البحر، من ناحية الشرق.

وخريبط الذي لم يكن يتصور أو يطمح أكثر من العودة إلى موران، وأن يكون أميراً على هذه البلدة وما حولها من الواحات والعيون، فإذا وصلت حدودها لمسيرة يومين من كل ناحية يكون قد استعاد ملك الآباء والأجداد، فينام هادئ البال قرير العين، لكن ما أن تم اختياره عميداً للأمراء الصغار، وممثلاً عنهم، حتى تحرك فيه شيء مجنون: لا بد من كل الصحراء، لأنها وحدها التي تحمي من الأعداء والزمن وغدر الأيام.

وهكذا بدأت موران تمتد وتتسع، ولأن لخريبط قامة مديدة، وجسداً خشناً قوياً، وكان فتياً أيضاً، فقد رأى ما لا يراه الذين حوله، وسمع ما لم يسمعه غيره، ووصلت إليه أموال لم تصل لأحد، ومع الأموال الأسلحة والمستشارون. ولأنه حافظ على ملابسه الخشنة، وظل مع الجند، وكان لا يتردد، في أحيان كثيرة، أن يعطي بسخاء، فقد أصبح بنظر الكثيرين مختلفاً عن غيره من الأمراء. أما حين تذكر صلوات أبيه وأدعيته، كيف كان الناس يهزون رؤوسهم امتثالاً وخشية وخشوعاً، فقد قال لعمه ذات يوم:

ـ ما تقدر على البدوان، أولاد الحرام، إلا بواحد من ثلاثة: الذهب أو السيف، أو جنة الخلد التي تجري من تحتها الأنهار.

والعم دحيم الذي هز رأسه اقتناعاً، كان شديد الغبطة أن ابن أخيه كبر خلال هذه الفترة القصيرة، قال له بحزم:

ـ اللي تقوله يا ابن أخي صحيح وما عليه خلاف، وهذا ينطبق ما هو بس على البدوان، وعلى أهل الحضر...

وأضاف دحيم بعد قليل بنبرة مختلفة:

ـ وهذي موران غدارة تأكل زادك وتنبش حدرك، فيلزم الواحد يتوقى ويحرص، وما ينام إلا نومة الذيب.

لم تمضِ سنوات حتى أصبحت موران تدين بالطاعة والولاء لخريبط، تدفع له الزكاة وتقدم الجنود، وتصلي وراء الأئمة الذين بعث بهم إلى كل مكان، وأصبحت موران أيضاً «دولة كبرى» في هذا الخضم الصحراوي الذي لم يعرف من قبل كيف يصل إلى صيغة يمكن أن يرضي نفسه أو يرضي أصدقاءه.

نجمة المثقال التي تصلها الأخبار إلى الحدرة مشوشة متناقضة، وبعد فترة ليست قصيرة، لما عرفت أن خريبط بن مرخان استولى على القصر وقتل مزهر بن سحيم، فوجئت، وقالت باستغراب:

ـ اللي يمشي بالليل يدبي ما يرمح، وهذّة ابن مرخان هذّة ملحوق، فناظروا اللي وراه: هم أولاد مزهر أم أولاد العماليق وأولاد الفراهيد؟

وأضافت تخاطب نفسها:

ـ صحيح أن الملدوغ من الحبل يخاف، لكن سوايته ما يسويها إلا ملحوق أو مجنون، أو واحد قلبه من الهم خالي.

تطلعت إلى السماء ملياً وقالت بصوت صلب:

ـ النجوم في السما رجوم، العابرة تشير ما تقول، والسايرة لها أول وبها ذيول، والثريا تدور بين العرش وبنات نعش، فإذا وصل مرخان وحكم أقص يدي وأعطيها للكلاب!

ليس المهم ما قالته نجمة المثقال، لأن الناس لا يتذكرون إلا ما يريدون، ولا يسمعون إلا ما يحبون سماعه، وهكذا ملأ خريبط حياة الناس، أيامهم ولياليهم، بالضحيح واستعدادات الحرب وانتظار الجنة!

وإذا كان ثامر الفرهود البداية، فإن خريبط، وهو يتقدم في العمر، وفي غزو المناطق المحيطة به، والتي تتسع سنة بعد أخرى، تجاوز الفراهيد كلهم، خاصة حين جاء بتلر، القائد العسكري الإنكليزي للمنطقة كلها، في زيارة إلى موران. قال له خريبط:

ـ حنا والفراهيد أولاد عم. أخذوا منا وأخذنا منهم، وفضلهم أبد ما ننساه، لكن تعرف، الله يسلمك، هذول البدوان ـ روسهم أيبس من الصفاة، وما يرضون إلا واحد منهم، فنشوف أن تبعثوا لنا خوياً لكم يجلس هنا ونتفاهم وياه.

ولم تتأخر بريطانيا في إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم، ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات، وإنما أيضاً في أمور أخرى كثيرة، ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا.

وبدا واضحاً، من خلال الحركة والضجة، ومن وصول الشيوخ إلى موران أن شيئاً ما يُعَد، ولا بد أن تظهر نتائجه في وقت غير بعيد.

وخريبط الذي بدأ أميراً لموران، ولا يختلف عن غيره من الأمراء، ما لبث أن تغير نتيجة اتساع الإمارة وتزايد قوة الأمير، أكثر من ذلك لم يتردد في أن يعلن نفسه سلطاناً لموران، كما أقترح بتلر. وبهذه الطريقة لم يعد يختلف عن الأمراء الآخرين فقط، وإنما يختلف عن السلاطين أيضاً، فهو يريد أن يصبح قبيلة وحده، «وليس قردين وحارس» كما كتب أحد المؤرخين عن أبيه مرخان، واصفاً هروبه مع عائلته الصغيرة ولجوءه إلى ثامر الفرهود.

يذكر رجال خريبط المقربون أنه تزوج في اليوم التالي لمقتل مزهر بن سحيم، وكان هذا زواجه الثاني، بعد الزوجة التي تركها عند أبيه، أما بعد

ذلك، من أجل أن يعزز علاقاته بالقبائل، بالمناطق، ومن أجل أن تكون له قبيلة خاصة به، فقد تزوج خلال خمس سنين قدر سنوات عمره، كما تقول الشيخة زهوة بفخر، أما بعد أن أغتنى واستقر فلم يعرف أبداً عدد زوجاته أو عدد ذريته، خاصة من الإِناث!

وسنة بعد أخرى يزداد خريبط قوة ونفوذاً، ويزداد عدد أولاده وعدد زوجاته. كما أن البلدان الأخرى المحيطة به تثير شهيته، وتحرضه على أن يضمها، فإذا استطاع، خلال فترة طويلة، أن يؤجل تحريك قواته من أجل الوصول إليها وإخضاعها، فإنه لم يتوقف عن أمرين: الحديث عن ضرورة ضم هذه البلدان، لأنه وحده القادر على قيادتها؛ وإرسال مجموعات من المسلحين في غارات هنا وهناك، لقطع الطريق، لسلب القوافل، لاعتداءات على الحدود، لكن هذه المجموعات دائماً تابعة أو مرسلة من الطرف الآخر، وبالتالي تسبب له الضرر وتشكل خطراً عليه، ولا بد أن يفعل شيئاً لمنعها، لوضع حد لها!

وحين تبلغ الأمور حداً معيناً، حداً مناسباً، يتغاضى الذين كانوا يمنعونه من غزو إحدى هذه البلدان، فيغيب المستشارون، أو يسافرون، ويعود قسم منهم إلى الهوايات التي شغلتهم خلال فترة معينة، وجاءوا إلى موران من أجلها! يعود هؤلاء إلى التنقيب عن الآثار، أو دراسة طبقات الأرض، أو إلى القنص والتعرف على طبيعة الصحراء. ويبدأ خريبط حملة جديدة من حملاته، تكون نتيجتها توسيع السلطنة وجباية الزكاة، وإرسال أئمة جدد لكي يقيموا شعائر الدين القويم في البلدان التي أصبحت خاضعة له.

هكذا كانت معظم الحملات التي قام بها خريبط، ولأنه يريد أن ينشئ قبيلة جديدة، وسلطنة تختلف عن كل ما قام في هذه الصحراء، فكان يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة، وأن يساهموا في إقامة هذا الملك، لكي يكونوا مثله حريصين عليه، وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام. ولذلك بذل جهداً خاصاً في تربيتهم، وتكليف مجموعة من الرجال

الذي يثق بهم ملازمتهم وإعدادهم للأيام الصعبة القادمة، وباعتبار أن منصور وخزعل وفنر هم الأكبر بين الأخوة، فقد وجه إليهم معظم الاهتمام، لكن منصور قتل في إحدى الحملات، وقد سبب مقتله حزناً لأبيه لا يمكن أن ينساه، ومع ذلك التفت إلى خزعل وإلى فنرلعل أحدهما أو كليهما يكون امتداده الحقيقي على هذه الأرض.

إحدى الهوايات التي كانت تروق للسلطان خريبط، ولم يتوقف عن ممارستها: أن «يقرأ» على رؤوس الأولاد. كان، في أحيان كثيرة، يقضي ساعات الصباح من كل يوم اثنين، اليوم الذي حدده لأبنائه، لكي يكونوا في حضرته، ليتأكد من أحوالهم، ويسألهم عن طلباتهم، ولكي يحل مشاكل أمهاتهم أيضاً! وبعد أن يصدر أوامره بمايجب أن يُفعل، وعرفان الهجرس يكتب هذه الأوامر، لتبلغ إلى من يلزم، لا بد أن يبدأ حديثاً من خلال سؤال أو تعليق، من أجل أن يلقي على الأولاد دروساً في التاريخ والحروب والأخلاق والحكمة. كانت الأحاديث تبدأ عامة، بعيدة، ثم لا تلبث أن تصبح خاصة تماماً: كيف فعل عندما بدأ بإقامة السلطنة، من كان معه ومن كان ضده، وماذا فعل كل واحد من هؤلاء. أي نوع من الخصوم واجه، وكيف تصرفوا وكيف تصرف ليتغلب عليهم!

كان يفيض في الحديث، يسترسل، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يؤدي الدور كما لو أنه يقع مرة أخرى. والأولاد حسب الأعمار والمدارك، إذ يتابعون مدهوشين، معجبين، كان يستهويهم أن يتوقفوا عند العجائب والخوارق. وكان السلطان يستجيب، يعيد ذكر الأحداث مع تفاصيل إضافية، وينظر إلى الأثر الذي تخلفه كلماته في عيون الأطفال والحرس وبعض المرافقين. وكلما كان الإعجاب أكبر، والأثر أوضح يزداد رغبة في أن يروي المزيد.

كان يقول لطالع العريفان، أحد المشرفين على القصر، والمسؤول عن الأولاد بشكل خاص، أثناء غياب السلطان:

ـ الأولاد، يا طالع، مثل الخيل، ما تتروض إلا إذا صحت بآذانها،

وما تشرب إلا بالصفير. ومرة بعد مرة تصير تفهم وتجاوب، أما إذا تركتها، ما قريت عليها، تراها تتعبك أو تضيع منك!

وأبناء السلطان الذين يستعدون لهذا اليوم، إذ يلبسون أحسن ثيابهم، ويتعطرون، كان عليهم أن يحملوا من أمهاتهم عبارات معينة أقرب إلى التورية، هي بمثابة رسائل موجهة إلى جلالته. والسلطان الذي يعرف سلفاً معنى هذه الرسائل، وأغلبها تتضمن الشوق والرغبة في الوصال، لا يجيب إجابات واضحة، الأمر الذي يربك الصغار والأمهات معاً. فحين تستعاد الرسائل، كيف نقلت، ماذا أجيب عنها، تتغير تماماً، وكثيراً ما سبّبت مشاكل لحامليها ومرسليها، الأمر الذي يضطر الأمهات لتوجيه رسائل أدق وأكثر وضوحاً في الأسابيع اللاحقة! والأولاد بين تأكيد الأمهات الذي لا ينفك يتزايد بضرورة نقل الرسائل بدقة، ثم نقل الإجابات بدقة أكبر وبحرفيتها، وحرص السلطان على أن تفهم تلك الدروس، لا يعرفون كيف يتصرفون أو ماذا يقولون!

قال طالع لنائبه ناهي الفرحان في صباح اثنين من هذه الأثنينات:

ـ لولا أنه جمل ما حمل هالمحامل، يا ناهي!

ولما ظل ناهي صامتاً، أضاف:

ـ ما يشبعن ولا يرتحن، ولا يخلن أحد يرتاح!

ورغم أن ناهي يعرف عمن يتحدث، وعن أي شيء يجري الحديث، فقد تساءل ببلاهة:

ـ كلامك مثل صلاة البدو يا أبو جازي: ركوع وتسليم، وما يندري ويش تريد تقول!

وبعد ذلك وهو يضحك:

ـ وإذا ببطنك سالفة سولفها يا أبو جازي.

قال طالع العريفان بنزق:

ـ ابن الهجرس يخط وريقات يقول فيها: إلى من يلزم للتنفيذ. ودغيم السرهود بقلمه الأخضر يحولها بعد ما يكتب: نُظر. وحنا بين الهجرس

والسرهود، وبين وليدات طويل العمر وحريماته، ضعنا يا ناهي. وهالحين ينراد لنا علام الغيوب حتى يكشف لنا الدروب.

يرد ناهي بسخرية:

ـ يا أبو جازي: مقرود على مفرود، لكن إذا ما أحد سأل، وإذا ما أحد قال، تظل بأرضها.

ـ لكن الحريمات لا يتعبن ولا يسكتن يا ابن الحلال.

ـ خلهن يدوخن صاحب الأمر والنهي.

ـ وهو ما يعرف غيرنا: ها يا طالع؟ شنهو سويت بالقضية الفلانية والقضية الفلانية؟ وما نخلص إلا إذا سكتن أو إذا سافر.

ـ طول البال ما مثله يا أبو جازي.

ـ منين نجيب طول البال مع العجيان والحريمات؟

ـ الصبر زين ومعه كل شيء يهون.

وتتكرر القصص ذاتها، وطلبات الأمهات والصغار تزداد فترة بعد أخرى، تبعاً لزيادة عدد الأطفال الذين ينضمون للقاء يوم الاثنين. وعرفان الهجرس يدون قدر ما تسعفه يده البطيئة على الكتابة، بعد أن يبلل القلم بشفتيه، ثم يبيّض الطلبات بثلاث نسخ. يضع واحدة في ملف جلالته للحفظ، والثانية في ملفه للعلم، ويرفع الثالثة لدغيم السرهود، الذي يمهرها بالختم والتوقيع، مع عبارة لا تتغير: «نُظر، للتنفيذ» وتحال مرة أخرى إلى عرفان، الذي يحتفظ بها بين أوراقه، بحيث تتجمع النسخ الثلاث لديه مرة أخرى، ولا يحولها إلى طالع للتنفيذ إلا إذا كانت الطلبات ضرورية، أو جرى التأكيد عليها مرة بعد مرة!

ولأن لكل ساكن من سكان القصر طلبات تتناسب مع أهميته ودرجة قرابته من السلطان، ولأن الكثيرين متساوون من حيث الأهمية أو القرابة، أو هكذا يتظاهرون، أو يتظاهر الذين يتابعون طلباتهم، ويريدون تنفيذها على الفور، وقبل غيرها، فإن ما يتولد من الصخب والإلحاح يفوق طاقة المشرفين والمكلفين بالتنفيذ، مما يؤدي إلى التأخير والتغيير، وبعض

الأحيان إلى الخلاف. وما إن تصل الشكاوى إلى المراجع العليا، وقد تبلغ مسامع السلطان، حتى يتغير كل شيء: يوقف تنفيذ جميع الطلبات، وقد يُستبدل المنفذون بغيرهم، مع ما يترتب على ذلك من التحديات والضغائن.

وبقدر ما يكون أصحاب الطلبات الكثيرة والإلحاح المبالغ فيه مثيرين ومزعجين للمشرفين على القصر، بحيث يتساءلون كيف لا يشبع هؤلاء وكيف لا يتعبون، فإن الذين لا يطلبون ولا يحملون الرسائل، أو الذين تكون طلباتهم متباعدة ومتواضعة، يثيرون الاستغراب والتساؤل أيضاً!

فنر الوحيد، أو بالأحرى من القلائل جداً، ليس له مطالب ولا يحمل رسائل. كان يجلس مقابل أبيه يسمع ويتابع، وإذا نظر فإلى تلك الوجوه الصغيرة التي تنقل بتلعثم رسائل غالباً ما تكون أبياتاً من الشعر، أو أمثالاً، لا تعرف كيف تنقلها. أو تقدم قصاصات من الورق، مرت على أيدٍ كثيرة قبل أن تستقر في يد السلطان، وتتضمن في معظم الأحيان طلبات الأمهات وحاجاتهن. كان فنر يتابع هذه المشاهد باستغراب أول الأمر، ثم بدافع حب الاستطلاع، وحب المعرفة بعد ذلك!

قال طالع العريفان، ذات يوم، يحدث عمير خال فنر:

ـ . . . وتلقاه، يا مبارك، كله عيون وآذان. يسمع ويخزن، ولا تسمع منه لا حس ولا نفس، وما له، مثل غيره، طلبات وشرهات. وإذا سأله طويل العمر إن كان له طلب أو حاجة جفل، وقال: ما أريد إلا سلامتك يا طويل العمر.

وحين وجد عمير فرحاً، وقد استثاره الإطراء، تابع بمكر:

ـ وعين فضة ما علّمته الدين وحده، علمته، فوقه، الأخلاق والأدب!

وأضاف بعد قليل، وخرج صوته همساً:

ـ والمرجلة. . . بعد.

والسلطان الذي ظل مفتوناً بإظهار قوته، وإشعار الآخرين بضرورة وأهمية كل موقف اتخذه، وبالتالي رجاحة العقل الذي كان وراء ذلك

الموقف، كان يستعيد قصصاً ربما يعرفها الآخرون مثله أو أفضل منه، لكنه يريد أن يستخلص منها الدروس، ويريد لأولاده أن يستوعبوا جيداً ما يقول.

بعد شهور، ولما تأكد أن فنر أكثر الأولاد رغبة في سماع هذه القصص، وقدرة على استيعابها، قال ذات ليلة لعمه دحيم:

ـ . . . وتعرف، يا طول العمر، الدلال يفسد الأولاد، وكل حرمة من الحريم ما عندها سالفة إلا وليدها، ترطّل به، تدلله، فإذا الأولاد ما تعبوا، إذا ما عرفوا الحر والبرد، وإذا ما خاطروا، تراهم أبد ما يصيرون رجال يعتمد عليهم.

ابتسم دحيم وعلق:

ـ ظني أن اللي شفناه ما أحد يشوفه يا أبو منصور، والتعب اللي تعبناه ما راح يمر مثله، لكن أيامنا اختلفت عن أيامهم، وزماننّا غير زمانهم.

ـ لكن يلزم ندربهم ونعلمهم، يا عم؛ ويلزم نقرا على روسهم.

ـ بس ما نخوطر بهم يا أبو منصور.

ـ الشدايد راحت، يا عم، وهالحين كلها سوالف ودق قهوة وطراد وقنص. وإذا حزّت ولزّت تمشيط لحى وهزة عصا، وإذا سلم العود الحال تعود.

ـ الحق اللي تقوله، يا أبو منصور.

ـ ما هو بس كذا، يا عم. يلزم تأديب الولد حتى لو زعلت أمه، لأن الولد بدون أدب، بدون حرب وضرب يضيع منك ويضيع عليك.

ـ الحق اللي تقوله، يا أبو منصور، بس مثل ما يقول الشوام: مرة على الحافر ومرة على النافر، لأن هذول أولاد، بعد ما طلع لهم ريش.

ـ كبروا يا عم، صاروا رجال، وإذا كبر ولدك خاوه.

وصمت الرجلان طويلاً. تذكرا أشياء كثيرة، تذكرا لما كانا صغيرين، في أية ظروف عاشا، وأية صعوبات واجها، وكيف كانت الأيام السابقة وكيف هي الآن. قال دحيم، وخرج صوته عميقاً من صدره:

ـ اللي راح راح يا أبو منصور، والخوف، هالحين، من اللي يجي. واشوف نفسي خايف، وأخاف أموت وأنا خايف، لأن لا أحد من اللّي نشوفهم حولنا يعرف شلون تعبنا. . .

هز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

ـ هالحين كل شي يجيهم على البارد المستريح.

قال خريبط، وهو يترنم بحزن:

ـ «لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها»

وبعد قليل:

ـ صحيح أنا حضرنا لكل شيء اللي يلزمه، بس يلزم نشد عليهم، وعساهم يقدرون على هذا الحمل.

ـ إن شاء الله ما نقابل وجه ربنا إلاّ ووفينا اللي علينا يا أبو منصور.

رد السلطان وهو يضحك:

ـ لا تخف يا عم، وحنا بعدنا شباب وحيلنا قوي.

ترافق هذا الكلام مع إشاعات متكتمة سرت في قصر الروض، ولأنها تتعلق بالسلطان، فقد ظلت تنقل بحذر، وتروى وراء أبواب مغلقة. قيل إن فضة غضبت وتركت القصر. وقيل إن السلطان غضب عليها وطردها. أما المحاولات التي جرت للشفاعة لها واسترضائه عليها فقد فشلت، ومما أكد ذلك أن إقامتها عند أهلها طالت، كما أن السلطان يبدو هذه الأيام ضيق الصدرد، نزقاً، خلافاً لفترات سابقة.

أما أسباب غضب فضة، وهجرها للقصر، أو طردها منه، فكل إنسان يراها بشكل مختلف عن الآخرين. اثنتان من زوجات السلطان أكدتا أن الشيخة، أمي زهوة، أغلظت القول لفضة، وقالت إحدى الزوجتين إنها ضربتها، وطلبت منها مغادرة القصر. وقالت كبرى بنات السلطان إن أباها هو الذي طلب منها أن لا تريه وجهها بعد اليوم. أما وطفة التي استعادت اعتبارها بعد أن جاءها ولد ذكر، فإنها حين تُسأل عن السبب تبتسم ابتسامة كبيرة، ولا تجيب. لكن طريقتها في التصرف توحي أنها أصبحت المفضلة

لدى السلطان، وأن فضة لم تعد شيئاً بالنسبة له، وهذا ما حملها على الغضب، ثم مغادرة القصر!

موزة التي رافقت سيدتها فضة ترددت عدة مرات على القصر، ونامت في إحدى الليالي، ولم يُستطع فهم الدوافع لمجيئها أو لنومها، كما لم يستطع أحد أن ينتزع منها كلمة واحدة. الذين يكرهون فضة قالوا إن موزة جاءت لتحمل ذهب سيدتها. وإن هجر السلطان لها أصبح مؤكداً. أما الذين يتعاطفون مع السيدة والوصيفة فقد أكدوا أن عودة موزة لها علاقة بترتيب القصر، خاصة غرفة نوم فضة، لأنها ستعود خلال أيام. وقال غير هؤلاء أن السلطان ذاته طلب من موزة البقاء، وقد اختلى بها وقتاً غير قصير، وحمّلها رسالة وهدايا إلى فضة، وكلفها أن تسترضيها، كي تعود!

قالت إحدى صديقات موزة أن موزة كانت طوال الشهرين الأخيرين في حالة حزن شديد. كانت تبكي باستمرار، ولم تعد تطيق الجلوس مع أحد، كما عافت نفسها الأكل، حتى أن من يراها لا يصدق أنها هي ذاتها، إذ فقدت لونها وجحظت عيناها، وتبدو أكبر من عمرها. وتضيف هذه الصديقة أنها حين حاصرت موزة، طالبة منها أن تبوح لها عما في صدرها، تلقت إجابة من كلمتين «ستي وسيدي»، وكانت تهز رأسها بلوعة ولا تضيف شيئاً آخر! وهذا ما يفسر مغادرة فضة لقصر الروض وغيابها الطويل، وأيضاً الوضع النفسي الذي ميز تصرفات السلطان وعلاقاته.

لولوة، خادمة وطفة، أسرت لبعض من تثق بهم، أن قابلة القصر، وريدة، اعترفت لسيدتها، في اليوم الثالث لولادة الأمير الجديد، مفرح، أن فضة طلبت منها بإلحاح، وعرضت عليها مبلغاً كبيراً من المال، إن هي قامت بخنق الطفل بعد معرفتها أنه ذكر، ولكن القابلة رفضت القيام بهذا العمل، فهددتها بالطرد من القصر ومعاقبتها، وقالت لولوة إن سيدتها أبلغت السلطان، وحين شك بالأمر استدعيت القابلة واعترفت له. ولا بد أن يكون هذا هو السبب فيما جرى من تطورات لاحقة!

تهاني، وصيفة الشيخة، أكدت أن الرهان الذي تم بين السلطان وفضة حول الحمل الثالث هو السبب الحقيقي وراء كل ما حصل. فالسلطان

الذي نسي الرهان، أو تجاوزه، بعد ولادة الولد الثالث، بفترة قصيرة، ولم يعد إلى ذكره، ولا يحب أن يذكره به أحد، عكس فضة لم تنس الرهان يوماً واحداً، بل وقيل إنها أبلغت أهلها بالأمر، فأشاع الأهل موافقة السلطان، وأنه سيعلن ذلك في وقت قريب، الأمر الذي ولد هذا الغضب، ثم ما تلاه. وزيادة في تأكيد هذه القصة أن السلطان تزوج خلال فترة قصيرة من مغادرة فضة لقصر الروض، واصطحب الزوجة الجديدة في رحلة قنص، خلافاً لمرات سابقة، حيث كان يصطحب فضة.

تقول تهاني ذلك، وهي تبتسم، وتنظر في الوجوه، لتشعر كل من يسمعها أن أمي زهوة وراء ما جرى، وإنها وحدها التي تقرر كل شيء في القصر.

طالع العريفان، وعادته أنه لا يحب القيل والقال، ولا يتكلم إلا مضطراً، وإلى أقرب الناس، قال لناهي الفرحان، وقد بلغته الأخبار والشائعات:

ـ أهل فضة، يا ناهي، ما ينعطون وجه، وسالفتهم مثل سالفة اللي تردفه وراك، ما أن يركب حتى يمد يده بالخرج. فهذول، بعدهم ما سمعوا كلمة إلا وراحوا يقسّمون: هذا لنا وهذا لنا، وعيون طويل العمر تشوف، وتصله الأخبار. فإذا طويل العمر ما ضرب الخشم ما تدمع العين، والصواب إنه سيّر بنتهم عليهم، وقال لهم: افطنوا زين والزموا حدودكم، يا جماعة الخير!

ـ أخاف تكون سالفة مثل سوالف كثيرة قبلها، يا أبو جازي، وباكر أو اللي عقبه، إذا جتّه بالصبّي الرابع ترجع مثل ما كانت، وأهلها يركبون نوبة ثانية.

ـ ما علينا يا ناهي. ومن قبل قالوا: اللي يتجوز أمنا عمنا!

ـ خلنا، يا أبو جازي نناظر ونشوف توالي السالفة.

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حصل أمر لم يخطر ببال، فقد تزوج السلطان بفتاة أخرى من آل المدلجي أيضاً.

وخلال الأيام التي استغرقها التحضير للزواج امتلأ القصر بالهمس والإشاعات، وهذه المرة بوضوح وبصوت مسموع: «اختارها طويل العمر من آل المدلجي حتى يثبت لفضة أن المدالجة معه ما هم معها، وإنه يقدر على كل شيء». وقال أحد خدم فضة، وكانت تحوم حوله الشكوك أنه ينقل لسيدته كل ما يدور في قصر الروض «عمتي هي اللي اختارتها، وباكر تشوف عيونكم». أما تهاني فقالت كلمات غير واضحة: «غير السلطان بقصر الروض ما أحد كبير» وقال غير هؤلاء أشياء أخرى.

وطفة ظلت تنفي أخبار الزواج الجديد، وأكدت خادمتها لولوة أن السلطان بعث يطلب عودة أولاده الصغار الذين اصطحبتهم فضة معها، وسوف يعودون بين يوم وآخر دون أمهم!

عودة موزة، المفاجئة وما رافقها من ضجة، غيّرت الكثير مما كان يقال: دخلت جناح سيدتها ورابطت فيه، وتظاهرت أنها لم تسمع الأسئلة التي وجهت إليها، لكن بدت في عينيها أشياء كثيرة واضحة، دون كلمات. ومما زاد في القلق والإشاعات أن السلطان استدعاها، ومكثت في جناحه ساعة كاملة، وأكدت اثنتان من الخدم أنهما شاهدتاها تضحك في حضرته، وأمر لها بالشاي أيضاً. وبعد ذلك بساعتين، أو ثلاث ساعات، وقبل الغروب بقليل، غادرت القصر ورافقتها ثلاث سيارات.

ناهي الفرحان جاء راكضاً لطالع بعد أن سمع الأخبار، ورأى بنفسه أشياء كثيرة، قال وهو لا يخفي قلقه:

- الله ستر، يا أبو جازي، حنا ما حطينا أرواحنا بهذي الطلايب، ترى كثيرين إذا خلصوا من طويل العمر، ما راح يخلصون من بنت المدلجي، لأنهم ما تركوا شيء بحقها إلا وقالوه، وأولاد الحلال كثر، وعلم الله أنهم وصلوا كل شيء.

- حنا ما علينا، ما قلنا ولا سمعنا!

وبعد قليل وكأنه شعر بميزة الحذر الذي لا يفارقه:

- الحق اللي تقوله يا ناهي، ومن قبل قالوا: إن تكلمت بالليل

فاخفت، وإن تكلمت بالنهار فالتفت، لكن البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه.

وسارت الأمور بعد ذلك وفق شكل لم يتوقعه أحد: وصلت العنود بنت سالم المدلجي إلى قصر الروض، ترافقها نسوة كثيرات، معهن موزة، وأُفرد لها جناح خاص في المبنى الرئيسي، بجانب جناح فضة، وجرت احتفالات الزواج بشكل سريع. وبعد ثلاثة أيام عادت فضة إلى القصر، ورغم أنها بدت أكثر سمنة، إلا أنها لم تتغير. أكثر من ذلك لم يتغير موقعها في القصر. فنظر الكثيرون بعضهم إلى بعض... وتساءلوا!

حليمة التي أنجبت لخريبط موضي وفنر ومضت بسرعة، خلّفت في نفسية الطفلين آثاراً لا تزول. فالطفلان، من حيث الأم، يحسان أنهما من سلالة تتميز عن سلالات الأمهات الأخريات، ومن حيث الأب بعيدان منسيان، لا يكاد خريبط يتذكرهما إلا كما يتذكر صديقاً قديماً أو شيئاً مفقوداً. فإذا استدعاهما من عين فضة، لكي يقضيا أياماً في موران، لا يتردد، بعض الأحيان، في أن يسألهما عن الدريويش جدهم، كما يروق له أن يسميه، مع أن الشيخ عوض ملء الأسماع والأبصار، كما يبدو للطفلين، رغم الطيبة التي يتميز بها، والبساطة التي تجعله يصل إلى حدود التواضع أو الغياب، ورغم الزيارات التي لا تنقطع لعين فضة من أجل استشارته في أمور الدين.

لم يتكلم الشيخ عوض عن عراقة السلالة أو أهميتها، كما كان يجري الكلام في جلسات خريبط ومضافاته؛ ومع ذلك فإن النسوة في عين فضة، خاصة المسنات، والشبان في مرحلة الانتقال إلى سن الرجولة، كانوا لا يتوقفون عن الحديث عن سلالة الشيخ عوض وأهميتها، والدور الذي لعبته في مساعدة ومساندة خريبط وتثبيت حكمه. وكان هذا الحديث يصل حدود الصخب حين يبلغ أسماعهم أن خريبط يتزوج بامرأة جديدة، أو يعرفون أن زوجة من زوجاته أنجبت ولداً جديداً! كانوا يتكلمون وينظرون إلى فنر، ويتذكرون حليمة التي لم تنجب غيره وموضي. فإذا سمع الشيخ عوض الحديث، أو جاء من يقطع عليه أدعيته، وينقل إليه تفاصيل زيجات خريبط الجديدة، والأبناء الذين ولدوا له، كان يقول، وابتسامة حزينة تطوف على شفتيه: ﴿كل مَنْ عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال

والإكرام﴾. فإذا تابعوا الحديث أو ألحوا فيه، كان يقول بعد صمت طويل وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان محمد يتيماً وكان وحيداً لكن الله مكّنه وأعطاه.

فإذا ألحوا أكثر من ذلك يرد:

ـ وجدّنا كان يتيماً ووحيداً وأنتم تعرفون ما حصل بعد ذلك.

ولأن الشيخ عوض كان يحب النمل والقطط والخراف الصغيرة ويحنو عليها، كان يمنع عنها الأرجل والحجارة. وعن الخراف سكاكين الشرهين، خاصة من الشبان. كما أحب الأطفال وأحبه الأطفال.

إذا تذكر فنر شخصاً في عين فضة فصورة الجد. وأول حزن أحس به حين حملته إحدى النساء وظلت تتشممه وتقبله وتردد: «وين عينك يا حليمة»، أما أول مرة شعر بالزهو فحين ألبسه الشبان في عين فضة ملابس الكبار والتفوا حوله ينظرون إليه بإعجاب ويتحدثون فيما بينهم، أكثر مما يتحدثون إليه: أنه يشبه الملوك، وقد طلبوا إليه أكثر من مرة أن يرفع رأسه وأن يشد ظهره ليبدو كبيراً وقوياً!

موضي التي سمعت أحاديث النساء، وأعجبت بألعاب الشبان أُخذت. لم يعد لها في هذه الحياة سوى فنر. تركت طفولتها بسرعة، أصبحت الأخت التي تكبر عمرها: تعتني به، تهيّئ له أكله وفراشه، ولا تتوقف عن رواية القصص التي سمعتها من الكبار والصغار عن فنر الأمير. وفنر الأمير يغرق في تلك الملابس الفضفاضة، ويتصرف تصرف الكبار، ويردد بعض الكلمات التي سمعها من جده.

في عين فضة يحس أنه أمير حقيقي، وأنه كبير: المدى وأشجار النخيل والعيون التي تتابع حركاته وتصرفاته.

في موران، وأثناء الزيارات التي يضطر إلى القيام بها تلبية لطلب والده، وضمن ذلك الحشد الهائل من الأمراء الصغار والخدم والحراس والزوار، يحس أنه أصغر من النمل الذي يدب في عين فضة، لأن للنمل هناك من يحميه، أما هنا فإنه يضيع في الزحام والصخب والركض المجنون

لتلبية طلبات السلطان الوحيد: خريبط. فإذا انتبه إليه أحد فلكي يسأله من يكون ولماذا يلبس هذه الملابس المضحكة، ولا يعرف هل يجيب عن الأسئلة أم على العيون المليئة بالأفكار والسخرية.

كان يضيق بموران، لا يحبها، ولا يعرف كيف يستطيع الناس أن يعيشوا فيها. فإذا نسيه أبوه، لا يتردد أن يطلب من نصار العودة إلى عين فضة. ويكون جده، قبله، قد أوصى نصار أن ينتهز أول فرصة، وبعد أن يستأذن السلطان، لكي يعود. وكذلك توصيه مزنة. أما موضي فإنها تقبّل يدي نصار وترجوه ألا يتأخر.

تقول خالته مزنة: «موضي من ساعة ما يترك فنر عين فضة تتسودن، يكون برأسها عقل ويطير. لا تأكل، لا تشرب، لا تنام... إلى أن يعود، فإذا طالت سفرته تسقم وتريد تموت، وبالليل والنهار تصرخ وتعيد: وين أخذوه؟ وشنهو اللي صار بيه. وحنا بالنا عند من ولاّ من. نقول لها: يا بنت الحلال: فنر عند أبوه، فنر ضيفهم وبعيونهم يشيلوه، لا تخافي، ولا تصيحي، وتصيح وما تستريح: مالي صبار إلى أن يعود، وتظل موضي مسودنة البيت وعين فضة إلى أن يعود».

إذا عاد، بعد أسابيع، وبعد ذلك الاضطراب والصخب، تستقبل عين فضة ضيفاً كبيراً وعزيزاً. فخاله عمير لا بد أن يجعل عودته مناسبة لاحتفالات تستمر أياماً، ولا بد أن ينتزع عدداً من رؤوس الغنم، رغم احتجاج الشيخ عوض، لكي تذبح، ويجب أن تتذكر عين فضة عودة فنر أكثر مما تتذكر سفره.

وبين عين فضة وموران تتوالى القصص والأخبار والأسئلة، ويتبعها الهمس والتعليقات والقصص الجديدة؛ ثم تعود الحياة بطيئة راضية، كما لو أنها في بداية الخليقة. ترتفع أدعية الشيخ عوض في ليالي الصيف، وتسمع أغاني الشبان في أطراف القرية، وتظل القصص ذاتها تروى مرة بعد أخرى، ويظل الناس يضحكون ويطربون، كما لو أنهم يسمعونها لأول مرة.

لما بلغ فنر الثانية عشرة، وفي إحدى زيارات أبيه لعين فضة، نظر إليه

نظرة مختلفة عن أية مرة سابقة. قال له وقال لجده الذي كان غارقاً في أدعيته، وقال لخاله عمير وللذين يقفون وللجالسين:

ـ من اليوم فنر مكانه بموران، يلزمه يكون قريب منا ويعاونّا، واللي يريد فنر مكانه معروف وأهلاً بكم بموران وألف مرحبا!!

ولأن السلطان بقي في عين فضة، وما جاورها، ثلاثة أيام، فإن الشيخ عوض لم ينم خلال هذه الأيام الثلاثة، يريد أن ينفرد بالسلطان، ويطلب منه بل يرجوه، أن يبقى فنر، لكن السلطان، خلال هذه الأيام، لم يكن وحيداً ولم يكن مستعداً لأن يختلي بالشيخ عوض، لقناعته أنه ليس لديه شيء يقوله، فاستعاض الشيخ عن الحديث بالدعاء.

جدته كانت أكثر فهماً، ربما لأنها أكثر حباً. بعد أن كلمّت نفسها بصوت عالٍ، وقالت ما لا يقال، تريد من الجميع أن يسمعوا، صرخت بالجد ومزنة وموضي وكل الذين حولها:

ـ هذا ابنهم يا جماعة الخير، وإذا ما أخذوه اليوم يأخذونه باكر أو اللي عقبه، كبّروا عقولكم، وإذا تريدون مصلحة فنر مكانه هناك!

خاله عمير كان عملياً، رغم الخيالات والأوهام التي تعبر رأسه في بعض الليالي. كان يريد لعين فضة أن تبقى وأن تكبر، وأن تصبح شيئاً. ويتذكر أن موران لم تكن تقاس بعين فضة، كانت صغيرة مهجورة لولا أن خريبط سكنها وجعلها عاصمة. ومع أن عمير ذبح عدداً كبيراً من الغنم من أجل أن تكبر عين فضة، ورغم الاحتفالات التي أقامها في استقبال فنر وغيره من شيوخ العائلة، ومع أن أباه لم يتوقف يوماً واحداً عن الدعاء، فقد ظلت عين فضة تصغر وتتضاءل، لأن الشبان الذين ملّوا الغناء، وتعبوا من الانتظار، لم يجدوا أمامهم سوى الرحيل باباً يدخلون منه إلى حياة أفضل.

لما رأى عمير السلطان يريد أن يجمع أبناءه، كما يفعل حين يجمع جيشه، قال في نفسه: «من موران يمكن أن نحارب» ولذلك كان مقتنعاً وموافقاً على سفر فنر. وانصرف تفكيره تماماً إلى ما يجب أن يكونه فنر هناك. كيف يعيش، أين يقيم، ومن هم الأشخاص الذين سيكونون حوله.

قال للسلطان في اليوم الثالث، وهو يستعد للسفر:

- . . . وحسب أوامركم، يا طويل العمر، يلزم أن تكون موضي مع الأمير.

رد السلطان وهو يلتفت:

- أي نعم. . . أي نعم.

- وحتى ما يتعب بهم أحد، يا طويل العمر، أصل معهم، وبمشورتكم نرتب الأمور.

وهكذا انتقل فنر وموضي إلى موران، ومعهم الخال عمير.

كانت الجدة صارمة، أقرب إلى القسوة، وهي تودعهم. قالت إنها ستأتي إلى موران لزيارتهم، وقالت إن موران مثل عين فضة. وقد أعطت لكل منهما ليرة رشادية، ولما أطبقت على يد موضي، وهي تعطيها الليرة وشوشتها: «ما أريد أوصيك يا موضي، أنت أخته وأنت أمه، وعليك الاعتماد». أما الجد الذي غاب ساعة الوداع، وقد بحثوا عنه طويلاً، فكان، أغلب الوقت، في الغرفة الصغيرة على السطح يدعو الله أن ينسّي خريبط أخذ الأولاد! أما حين سمع قهقهات خريبط، ولما رأى الجميع يخرجون من المضافة، وكان فنر في المقدمة، بملابسه الفضفاضة، وبدا له أن الله لن يستجيب بهذه السرعة، فقد غادر العليّة، وركض إلى الموكب الذي تحرك. قال عليوي الذي كان يرقب كل شيء بعناية، إن الدموع انحدرت على خدي الجد وهو يلوح لفنر وموضي.

الخالة مزنة كانت بقرب أمها، وقد تحركت كثيراً لتشغل نفسها، وإن ظلت صامتة، ومتأكدة أيضاً أنها ستلتحق بهم حالما يستقرون في موران، قالت بصوت عالٍ:

- إذا نصبتم خيامكم وعمّرتم دلالكم، وبعثتم وراي تري أجيكم إذا مو أول يوم، اليوم اللي بعده!

وتحرك الموكب مغادراً عين فضة إلى موران، وكانت سيارة فنر وموضي الثانية في موكب السلطان!

في قصر الروض، وضمن ذلك الحشد الهائل من الصغار والكبار، ووسط مهرجان من اللغات والألوان لا تجتمع في أي مكان آخر، ضاع فنر وموضي، ولولا بعض عجائز القصر، لما وجدا مكاناً للنوم أو لوضع الأشياء القليلة التي حملاها معهما من عين فضة.

كان القصر شيئاً عجيباً: عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم. في الوسط: البناء الرئيسي، وكان يشغله السلطان وثلاث من نسائه المقربات، وهذا البناء، وهو من طابقين، له شرفات تطل من جانب على الديوان الكبير، ومن جانبين آخرين على الأبنية الملحقة، وأغلبها مستحدثة، وقد أملت وجودها الحاجة والضرورة، أما الجانب الأخير، القبلي، فكان يطل على إسطبل الخيول.

لا أحد يعرف من يتحكم بالقصر أو كيف تدار شؤونه، إذ رغم وجود عدد كبير من المشرفين والمراقبين، فإن الفوضى والاضطراب والصخب أبرز ما يتميز به. القدامى من المقيمين لهم الأولوية في السكن والأثاث وحتى الطعام، وهذا لم يحصل نتيجة قرار أو اتفاق، وإنما فرض نفسه بحكم العادة والتكرار. ونفس الميزة تتاح للضيوف الطارئين في الأجنحة الشرقية، والتي يفصلها عن الداخل سور عالٍ. أما الذين جاءوا حديثاً للإقامة في القصر فإنهم يصطدمون بالصعوبات في كل خطوة من خطواتهم، إذ رغم أوامر السلطان، وغالباً ما تكون غير مباشرة، وعن طريق دغيم السرهود بالتحديد، وفي حالات قليلة عن طريق خدم السلطان أو حراسه، فإن القادم الجديد لا يعرف كيف يتصرف أو إلى من يتوجه،

فإذا توافر له المكان، والعادة ألا يحصل، وغالباً ما ينتزع من آخرين كانوا يشغلونه أو لا يشغلونه، وما يترافق مع ذلك من رفض أو امتناع، وفي حالات كثيرة إلى إغلاق الغرف ومغادرة القصر، أو إضاعة المفاتيح، فإن توفير الأثاث والحاجات الضرورية أمر في غاية الصعوبة. فالمستودعات رغم أنها تزدحم بالحاجات القديمة أو غير العملية، فأن وصول أية كمية من الأثاث الجديد معناه الاستغناء مباشرة، وخلال الأيام الأولى، عن الأثاث السابق واستبداله، وتجري هذه العمليات بأوامر متلاحقة من الأمراء والأميرات، ومن الخدم والحراس، بحيث يختلط القديم بالجديد، ولا يعرف من أخذ ومن أعاد. وبهذه الطريقة تتراكم الحاجات لكن يتعذر تماماً التأكد من وجودها أو عدم وجودها.

إذا أمكن تجاوز هذه المشكلة والتغلب على هذه الصعوبات، وهي في العادة تستغرق أياماً، وتخلف الكثير من المشاحنات والمراجعات وتدخل الكبار، تبدأ مسألة العلاقات بين المقيمين والوافدين: أي قادم، مهما كان كبير المنزلة أو السن، لا يزيد عن أن يكون طريدة أو هدفاً لعشرات الصيادين المنتظرين والمستعدين. فما عدا أعمام السلطان وأخوته، وقد انتقل بعضهم للإقامة فترات طويلة في قصر الروض، وأخبارهم سبقت وصولهم، فإن كل قادم جديد يتعرض إلى مجموعة من الاختبارات ثم الهجمات: تبدأ بأن ينظر الحرس بعضهم إلى بعض، أن يسألوا ويستفسروا عن عددٍ من الأمور أو الأشخاص، فإذا توافرت المعلومات بحيث يكوّن كل فريق صورة عن الفريق الآخر: مدى علاقته بالسلطان، مدى أهميته، وتقاس هذه الأمور بالخيول أو السيارات، بعدد المرافقين والحراس، بنوع الألبسة والأسلحة، ثم طريقة هؤلاء في التصرف. فإذا اكتملت هذه المرحلة، ولم تعد هناك حاجة إلى مزيد من المعلومات، لا بد أن تجري اختبارات من نوع أو آخر للتأكد من بعض النقاط، ومدى استعداد الطرف الآخر. وهذه الاختبارات يتخللها الكثير من المراوغة والمكر، وتتطرق إلى معرفة أدق التفاصيل المرتبطة بالقادم الجديد: لماذا جاء إلى هنا، وإلى متى سيبقى، وعشرات الأسئلة الأخرى، وكلها تطرح بعفوية، وكأنها جزء من

حديث عام يتسم بالبراءة الكاملة، لكن الطرفين يعرفان كيف يمكران وكيف يجيبان، بحيث يضلل أحدهما الآخر، أو يخلق لديه أوهاماً، تحمله من جديد على إعادة النظر والحساب.

هذه المعلومات والتقديرات لا بد أن تنقل على عجل إلى المراكز الخلفية، وهي على درجات. والعادة أن تنقل بطريق غير مباشر، كأن يتظاهر أحد الجالسين، وغالباً لا يشارك في الأسئلة والاختبارات، بضرورة مغادرة المكان، أو أن يأتي أحد الخدم، وبطريقة لا تفتقر إلى البراعة، يطلب مجيء فلان. عن طريق هؤلاء تقدّم معلومات أولية ويعطى تقدير لما قيل ولما جرى، يتحدد على ضوئها ما إذا كان الأمر يتطلب مستوى أعلى من الاستشارة، لمعرفة درجة القرابة أو الأهمية، وهل من الواجب مواصلة هذه الطريقة أم استبدالها. كل ذلك يترافق مع الأمازيح وتقديم الخدمات وإعطاء الرأي بالآخرين.

هدف الاختبارات والخدمات والمعارك أن يتحدد وضع القادم الجديد: موقعه ضمن المواقع الكثيرة المتنازعة في القصر. إذ لا بد أن يكون جزءاً من إحدى القوى المتصارعة، من معسكر، وأن يكون امتداداً لقوة من القوى الكثيرة الموجودة. صحيح أن الأمر لا يتم بتلك السرعة أو البساطة، لكن الساعات الأولى، الأيام الأولى، لوصول القادم الجديد، تحدّد معظم الاحتمالات، وتترك تأثيرها لفترة طويلة.

ومع أن الهدف الرئيسي تحديد موقع القادم، أو محاولة كسبه، فإن النتائج الجانبية التي تتحقق كثيرة ومتنوعة، وغالباً ما تثير الضحك. فالأخطاء التي وقعت، والأكاذيب، ثم تلك الخدع التي يُستدرج بها الكبار والصغار، تصبح موضع حديث وتندر، وتنقل من مكان إلى آخر، بأشكال مختلفة، وبعض الأحيان تصل إلى السلطان، مع ما يرافق ذلك من مبالغات وتحريض ووقيعة، وغالباً ما تؤدي إلى معارك تبدأ في مخادع النساء، إلى أن تعم القصر كله. وقد يتدخل السلطان، أو من ينيبه، من أجل إعادة النظام، وقد يستدعي الأمر تغيير المشرفين، أو نقل عدد من المقيمين أو الضيوف إلى أماكن بعيدة، وربما تقضي الحاجة بناء أجنحة جديدة في

القصر، كل ذلك لوضع حد للخصومات، أو لإيجاد حواجز ومسافات بين المتخاصمين.

لا يمكن لأحد، في قصر الروض، أن يكون محايداً أو غير مهتم؛ فالأحداث التي تقع كل يوم، والأحاديث التي تنتقل، تجعل كل واحد مشاركاً. حتى الزوار والمراجعين والذين يحملون المؤن، يصبحون، بشكل أو بآخر، جزءاً من موضوعات القصر أو همومه.

وإذا كانت اختبارات الرجال ومناوشاتهم تجري في الهواء الطلق، في ظلال الجدران أو تحت أشجار النخيل، ويتخللها الكثير من المرح ومظاهر الود، فإن معارك النساء تجري وراء الأبواب المغلقة، وبتكتم وسرية، كما تأخذ أشكالاً ضارية وشديدة المكر، لأن كل امرأة جديدة تدخل القصر قد تقلبه، وتغير نظامه، وقد تغير مواقع الناس فيه. ويتذكر الجميع ما رافق وصول فضة، الزوجة المفضلة لدى السلطان، إذ ما كادت تصل وتستقر في البناء الأوسط، حتى تغير كل شيء في القصر: فالسلطان الذي كان يقضي شهوراً كل عام، متنقلاً من مكان لآخر، محارباً وغازياً، أو في فض الخصومات بين القبائل التي تؤيده، ما لبث أن تخلى عن أسفاره، أو اختصرها إلى أقصى حد، مكلفاً بعض أبنائه، يساعدهم أعمامه وأعمامهم، لكي يقوموا بهذه المهمات نيابة عنه. أخذ يفعل ذلك، لكي يبقى إلى جانب فضة. لم يقل أحد ذلك صراحة في بداية الأمر، لكن ما إن بدئ بتوسيع البناء الأوسط، وإخلاء قسم من شاغليه، أو على التحديد إخلاء اثنتين من نساء السلطان، حتى تحول الهمس إلى حديث صريح، وأصبحت الوشوشات اتهامات ينقلها الخدم وتصل إلى مسامع الرجال، لكن وجود السلطان في القصر، ولأن الأمر مرتبط به شخصياً، لا يترك مجالاً للتمادي، إذ بالإضافة إلى الخوف الذي يتولد من وجوده، خاصة وأنه لجأ مرات عديدة إلى إنزال عقوبات بعدد من الخدم والعاملين في المخازن، وصلت في إحدى المرات إلى إعدام ثلاثة من هؤلاء، نتيجة أخطاء صغيرة، ووشايات نقلوها أو نقلت عن لسانه. لكن ليس دائماً الخوف وحده الذي يردع، فغالباً ما يرافقه مبادرات من السلطان على شكل

هدايا، أو ترضيات، بالإضافة إلى الزيادات، وهي تأخذ شكل الاعتذار، وفي حالات خاصة فإن نساءه الغاضبات يقبلن بنوع من التسوية، أو هكذا تشيع الزوجة الغاضبة عن طريق الخدم والقريبات، مع تأكيد متزايد على الهدايا الثمينة التي رافقت زيارة السلطان، وكثيراً ما تصبح المبالغات سبباً لعدم التصديق!

إذا لم يكن الأمر متعلقاً بالسلطان، أو بإحدى نسائه القريبات، وغالباً ما تتحدد درجة القرابة إما نتيجة القدم، أو الدم، أو تبعاً لعدد الأبناء الذين تنجبهم تلك الزوجة، وبعض الأحيان لأسباب لا يدركها أحد، وتظل سراً بين السلطان وتلك المرأة! إذا لم يكن الأمر بهذا الشكل، أو على هذه الصورة، فإن الحرب التي تقع، خاصة بين النساء القويات، لا يمكن السيطرة عليها، كما لا يعرف أحد كيف تتطور. تبدأ بالهمس، ينتقل من مخدع لآخر، ومن جناح لثانٍ، ثم تأخذ شكل حدة في العلاقات تتلوها المقاطعة، وأخيراً تصل إلى تبادل الاتهامات، وبعض الأحيان إلى التصفيات.

المرات التي قتل فيها عدد من الخدم في قصر الروض كثيرة، بل ويكاد الأمر يتكرر بين فترة وأخرى، لكن غالباً ما يقع، أو بالأحرى دائماً ما يقع، أثناء غياب السلطان. وأن يقتل الخدم فلأنهم الأداة المباشرة للحرب الدائرة، فهم الذين ينقلون الرسائل والإشاعات والاتهامات، وهم الذين يركضون في هذا الاتجاه أو ذاك للتحريض والاستنفار، بل يكاد يصل الأمر ببعضهم أن يصبح معنياً بالمعركة أكثر من ذوي العلاقة؛ وفي حالات أخرى يصبح الخدم أكثر معرفة مما ينبغي، ويعتبر ذلك سبباً كافياً للقتل!

وإذا كانت العادة أن يلجأ الرجال إلى السلاح، اما نتيجة سورة من سورات الغضب، أو نتيجة القصص الدقيقة المحرجة خاصة في «المنطقة الحرام» لتصفية واحد من الذين يحملون الرسائل، فإن عبيد الطرف الآخر أو حراسه لا يتأخرون في اللجوء إلى تصفيات مماثلة في الليل، إما بحجة الخطأ أو أثناء تنظيف الأسلحة!

هكذا يجري قتل الرجال، أما النساء فغالباً ما يكون قتلهن بواسطة

السم أو أثناء الولادة. وقد صدف ـ وإن لم يتكرر كثيراً ـ عدة مرات بأن ألقت بعض النسوة أنفسهن في آبار القصر، أو متن في الحمام الشمالي مختنقات أواخر الليل، وهذا الحمام غير بعيد عن المبنى الرئيسي! كما أن ثلاثاً من نساء السلطان متن حسرة، كما قالت وطفة زوجة السلطان الرابعة! وأكثر منهن وجدن مشنوقات في غرفهن، وأكد الخدم أن الغرف كانت مقفلة من الداخل!

صحيح أن عمليات القتل قليلة إذا قيست بما دونها، كالإِشاعات أو الاعتداء بالضرب، أو ربما الطرد من القصر، أو بعمليات الملاحقة وإطلاق الرصاص والهرب والاختفاء. أما النكت التي تنتشر وتنتقل، والنوادر، ثم الإشاعات، وما يتخللها من حركات تمثل الطرف الآخر، فإنها كانت تسلية النساء بشكل ظاهر، وكانت حلقات بعض الرجال لا ترفضها. أما الأشعار التي تحرّف أو تنظم في مديح فلان من الناس أو في هجائه، فقد كانت على كل شفة ولسان، وكان الخدم يتفننون في إلقائها، وكأنهم يتشفون أو ينتقمون! ويؤكد عدد من الحرس الخاص، والذين قضوا فترة في القصر، أن هذه الأشعار كانت تصل إلى مسامع السلطان، فيبتسم مرة ويغضب أخرى، وكثيراً ما استعاد واستفسر واستقصى، وغالباً ما تمر الأمور دون نتائج تذكر، خاصة إذا مضى عليها الوقت، أو لم يعرف قائلها، أو كان القصر في حالة من حالات الهدوء والسكينة.

إذا لم يكن القصر في معركة، فلا بد أن يكون قد انتهى من واحدة أو يستعد لأخرى. وفي بعض الحالات تتوقف المعارك، أو تخفت حدّتها نتيجة عودة السلطان المفاجئة، أو نتيجة حدث استثنائي، كأن يتزوج امرأة جديدة من إحدى القبائل الكبيرة أو المخاصمة. ويحرص، عند ذاك، على أن تقام احتفالات خاصة، ويجري توزيع الهدايا، وإطلاق الرصاص. ولا ينسى السلطان أن يقيم احتفالاً لخيوله وللخيول الجديدة التي جاء بها. هذا الاهتمام من قبله، أو بإيعاز منه، ليس تعبيراً عن فرح فقط وإنما تعبير عن قوة أيضاً، وهو بمثابة رسائل إلى الذين يعنيهم الأمر في الداخل والخارج.

والحدث الجديد لا بد أن يحدث هزّة لكل ما هو قائم، وقد يغيّر في

العلاقات والخصومات. فخصوم الأمس قد يصبحون أصدقاء، ومعارك الأمس قد تتحول إلى تحالفات وعلاقات جديدة. أما الإشاعات والاتهامات والنوادر فسرعان ما تنسى وكأنها لم تكن! طبيعي أن يتم الانتقال بهدوء وبشكل غير مباشر، لكنه عادة يتم بسرعة، مع ما يرافقه من اعتذار واعتراف ودعوات، وأيضاً ضرورة إبعاد عدد من الخدم والمرافقين والحراس من كل جانب، والذين تسببوا في الوقيعة والإساءة، وغالباً ما يتم إبعاد هؤلاء بصورة مؤقتة، بسبب عدم الثقة، أو لأن الحاجة تستدعي الاستفادة منهم مجدداً. وقد حصل عدة مرات أن بعض الذين أبعدوا لاقوا حتفهم في ظروف قيل إنها غيرَ واضحة! كما أن عدداً من هؤلاء، وبعد مرور فترة اعتبروها كافية، بعثوا عن طريق معارف أو أقرباء، إلى الطرف الذي خاصموه يعلنون استعدادهم لإبلاغه بأمور خطيرة يعرفونها، وكانوا شهوداً عليها أو مشاركين فيها، ومن شأن هذه الاتهامات والمعلومات أن تولد الخصومات من جديد.

حتى الأطفال والصبية في قصر الروض، لا يترددون في أن يفعلوا ما يفعله الكبار من النساء والرجال. صحيح أنهم يفعلون ذلك في البداية بتحريض من الخدم، أو بتأثير الجو والكلام الذي يسمعونه، لكنهم سرعان ما يتجاوزون ذلك، إذ تصبح لهم أحلافهم وخصوماتهم، ويبرز بينهم القادة والموجهون والمحرضون، ويتفننون بالمكر والقسوة والوقيعة، لا يفرقون بين من يحبهم أهلهم ومن يكرهونهم، المهم أن يبرعوا، وأن يظهروا براعتهم، وأن يعترف لهم بذلك الكبار!

ليس في قصر الروض طفل لم يحصل على مسدس أو بندقية، فلكثرة وجود السلاح، واستمرار الحديث عن المعارك والبطولات، ولأن السلاح أولى هدايا الأب لأبنائه، فقد كان أمراً مألوفاً أن يوجد بأيدي الأطفال. صحيح أن الكبار يوصون الصغار، أو لا يعطونهم الذخيرة، كما يطلبون من الخدم الانتباه، إلا أن تجاوز ذلك كان من أيسر الأمور.

بعد الأهداف الثابتة تصبح الحيوانات هدفاً لرصاص الصغار، إذ يطاردون الكلاب والقطط ويتبارون بقتلها، أو التمثيل بها، وغالباً ما يسببون

لها عاهات دائمة. فما تكاد تصل إلى أيديهم حتى يربطوها لتصبح بعد ذلك أهدافاً صعبة! وقد وجدت بعض الخيول مقتولة أيضاً، وصدف أن قتل أحد خيول السلطان، واسمه الأدعج، ولم يجد المشرفون على الإسطبلات بدّاً من اختلاق الأعذار لتبرير ذلك أمام السلطان. قالوا أصيب بالمرض، وقالوا إن عقرباً لدغه، وقالوا أخيراً إنهم تركوه يرعى في عشب قريب، فأكل فيما أكل نبات الزقنبوت، ولما بحثوا عنه وجدوه في طرف المرعى وقد انتفخ ومات.

ليست الحيوانات وحدها أهدافاً للرماية، إذ يشاركها في ذلك العبيد والخدم، خاصة في أوقات الشدة، وغالباً لا يعرف من الذي قتلهم. والرد في هذه الحالات لا يكون في البحث عن القاتل ومعاقبته، وإنما في الثأر والانتقام من حيوانات وعبيد وخدم القتلة المحتملين، ويجري ذلك في جو من الحذر والتخفي، كأن يصبح الصباح ويُعثر على حصان ميت، أو تشب النار فجأة في أحد الأجنحة. وصدف عدة مرات أن وجد بعض العبيد في أطراف القصر، عند بستان النخيل أو قرب الإسطبل مقتولاً. لا تتوقف هذه الموجة، مؤقتاً، إلا حين يُظهر المشرفون على القصر الحزم والغلظة، ويعلنون بصوت عالٍ أنهم بعثوا إلى السلطان بالأخبار، ولا بد أن يصل بين يوم وآخر، عندها يتدخل الكبار والعقلاء لوضع حد لهذا العبث، ويقولون بصوت عالٍ: «حنا نعرف الفاعلين، وإذا جاء طويل العمر نعلّمه بكل صغيرة وكبيرة، وبعدها كلّ ذنبه على جنبه!».

عند ذاك تهدأ الأمور، وتجري، سراً، مفاوضات يشوبها الكثير من المساومة والضغط، وغالباً ما تقوم بها النساء في البداية، إذا كانت الخصومة بين الرجال، حتى إذا وصلت الأمور حداً من القبول يتابعها بعض المسنين من الرجال إلى أن تنتهي إلى المصالحة، ويكون إعلان انتهاء هذه الخصومات على شكل زيارات ودعوات، وغالباً ما يقوم بها بعض الأقارب وأصدقاء الطرفين.

في فترات السكينة والرضا، خاصة حين يكون السلطان في قصر الروض، وإذا تم تجاوز المبنى الرئيسي وديوان الرجال، فإن القصر يتحول

إلى خلية من الحركة في الليل والنهار، هذه الحركة يباشرها الأطفال والخدم والنساء والخصيان. فالزيارات التي يجري تبادلها، والهدايا التي تنقل من مكان إلى آخر، ولإطلاع الآخرين عليها فقط، والقصص التي تروى، والطلبات الموجهة إلى الخدم بضرورة القيام ببعض الأعمال، هذه الأمور، وغيرها كثير، تجعل القصر مثل خلية النحل. فإذا دخل الليل تبدأ الأمازيح الماجنة، والحركة الخائفة والمرتابة لتأمين مواعيد الليل، ولا تكون بريئة في أغلب الأحيان.

أما ما يشغل القصر أكثر من غيره، وما يبدد الرتابة والسأم المسيطرين عليه، خاصة في أجنحة النساء من الزوجات المهجورات والعمات والخالات، إضافة إلى الزائرات، وعددهن أغلب الأيام بالمئات، فتلك المقالب والمكائد البريئة التي تدبر في معظم الليالي، وقد أصبح لها أربابها والبارعون فيها. فالمرات التي طليت فيها وجوه النائمات بالأصباغ لا تعد ولا تحصى، وتكاد تجرّب مع معظم الزائرات؛ وإخافة النساء، بالأصوات المرعبة، أو بإطفاء الأنوار، وعادة يقوم بها الأطفال والصبية، تتكرر كل ليلة. أما أن تلبس إحدى الخادمات ملابس الرجال وتدخل فجأة، فإن هذه التسلية تقوم بها ربة الجناح للترويح عن زائراتها! وهناك عشرات المكائد المشابهة التي تدخل في الطعام والشراب، وتكون مدعاة للتندر والضحك والصخب المتواصل، وينتقل قسم منها إلى ديوان الرجال.

والمكائد إذا كان ضحاياها من الخدم والعبيد، فتكون عندئذٍ أقسى، وتدبر ببراعة أكبر، ويشترك في هذه ديوان الرجال أيضاً، وكثيراً ما تخللها المراهنات والتحديات؛ والخدم، أو بعضهم، يساهمون فيها عن مكر أو عن بساطة تصل حدود الغباء!

حين وصل فنر وموضي إلى قصر الروض، لكي يبقوا فيه، كان قد مضى على زواج السلطان من فضة أكثر قليلاً من أربع سنين، أنجبت له خلالها ولدين ذكرين، وكانت في مرحلة متقدمة من حملها الثالث، وهذا ما دعا السلطان إلى اختصار عدد من زياراته والعودة المبكرة إلى موران، ليس لأنه في شوق إلى فضة ويحبها أكثر من نسائه الأخريات فقط، وإنما للرهان الذي قام بينهما. فموزة، وصيفة سيدة القصر، التي أكدت في المرتين السابقتين، وراهنت، وقالت للسلطان ذاته وهي تبتسم: «اقطع رأسي يا طويل العمر، إذ ولدت ستي غير ولد»، فإنها هذه المرة أكثر ثقة، ومستعدة لرهان أكبر. والسلطان الذي كان مترقباً ومتشوقاً لولدِ الثالث تنجبه فضة، فلكي يقدّم لنفسه الدليل، قبل أن يقدمه لزوجاته الأخريات، أن فضة تختلف عن غيرها من النساء: لا تتأخر، ولا تنجب سوى الذكور!

موزة وهي تؤكد أن الطفل سيكون ذكراً، مدت فضة يدها، وهي تبتسم، إلى السلطان وقالت بحزم:

ـ أنا مع موزة، وهذي يدي والرهان بيننا!

والسلطان كان راغباً في هذا الرهان، حتى لو خسر، قال وهو يتنحنح:

ـ هذي يدي، وأنا أقول: بنيّة.

وتراهنا. وفي كل ليلة كان الرهان يرتفع وتقسو شروطه، وإن تخللته المداعبات والشكوك، لكن السلطان ظل مشغولاً بهذا الأمر، منذ أن عرف بحمل فضة. حتى في أسفاره ظل يفكر ويأمل وينتظر!

الآن وهو يعود، وما يرافق العودة من اهتمام ونشاط وخوف أيضاً، فقد كان وحده موضع اهتمام الجميع، وكانت فضة والمولود القادم موضع اهتمامه هو، مما أدى إلى نسيان فنر، أو على الأقل لم يحظ بما حظي به في سفراته السابقة. فالسلطان الذي آوى إلى جناحه مبكراً للراحة، ترك لدغيم أن يرتب أمر القادمين، وقد خلق هذا حرجاً وتساؤلات، فلا يُعرف إذا كان الأمر يتطلب إجراء مؤقتاً أو حلاً دائماً. فأن يأتي فنر ليبقى يجعل التفكير متجهاً إلى ما وراء ديوان الرجال وخلف السور، وبالتالي يحتاج إلى إجراءات وقرارات تتناسب مع أهمية الزائر الجديد، لأنه يختلف عن الآخرين، كما لا يعرف ما إذا كان من اللائق والمحتوم أن تكون موضي معه أو أن يفرد لها مكان خاص.

ظل الأمر هكذا بضعة أيام، وخلال هذه الأيام لم يستطع دغيم السرهود أن يكلم السلطان على انفراد ليتلقى منه توجيهات محددة وواضحة، وقد أدى ذلك إلى انتقال فنر وموضي من جناح إلى آخر، بين ليلة وأخرى. وفي إحدى المرات تدخلت اثنتان من عجائز القصر لكي ترتبا مكاناً لائقاً للوافدين الجديدين!

ومثلما وقعت مكائد لمعظم الذين سكنوا قصر الروض، فقد أصابت الأمير أيضاً. صحيح أنه لم يتعرض لمكيدة مباشرة، لأنه كان يقضي معظم وقته في ديوان الرجال، كما طلب منه أبوه وأكد على ذلك، ولكن حارسه، نصار، لم يفلت، فقد سرقت بندقيته في اليوم الثالث، وذهبت كل المحاولات للبحث عنها أو لمعرفة الذي سرقها عبثاً. أما قطمة، خادمة موضي، فقد تعرضت في ليليتين متواليتين إلى المكائد: ففي الليلة الرابعة، وأثناء نومها في الغرفة المجاورة لغرفة موضي، دخل عليها من صبغ وجهها بالسخام، وكانت موضع تندر ونظرات ارتياب في اليوم التالي. وتجرأت إحدى الخادمات وقالت بصوت عالٍ، وكأنها تخاطب نفسها: «إذا الواحد ما حسّ وهم يسخمّون وجهه، ما يندري إذا كان يحسّ وهم يسوون به شيء ثاني» وقطمة التي كانت غاضبة وخائفة ومحرجة، وكانت في وقت

سابق تتباهى أنها تلتقط صوت مشي القطة، حتى لو كانت في سابع نوم كما كانت تقول، ردت على النظرات والابتسامات بأنها كانت شديدة التعب من السفر والركض طوال الأيام السابقة!

وفي الليلة التالية ألقي في غرفة موضي فأر ميت، وقد تسبّب بالكثير من الفزع والصراخ، ووصل الأمر إلى علم دغيم، مما حمله على الإسراع بترتيب سكن القادمين، بعد أن رابط ساعات من أجل مقابلة السلطان ومباحثته في الأمر!

سيدة القصر، الأميرة فضة، كانت مشغولة بالسلطان وانتظار المولود، ولذلك لم تستطع أن تلتقي بالقادمين الجديدين إلا لفترة قصيرة، وأثناء الغداء الخاص الذي أقامه السلطان على المائدة الداخلية، بعد أن أقام في اليوم الذي سبقه غداء دعا إليه الكثيرين، وأشار أثناء الحديث الذي سبق الغداء، أن فنر جاء ليبقى في موران، وقال أيضاً، وهو يبتسم ويتطلع إليه.

ـ وما تمر كم سنة إلا ونزوجه ونفرح بيه!

وفنر الذي غرق في ملابسه الفضفاضة، وغرق أكثر من ذلك في الخجل والعرق، لم يعرف كيف يتصرف حين كان في الديوان ثم أثناء الأكل.

أما الاهتمام الذي أبداه السلطان في استقبال الذكر الثالث الذي ولد له من فضة، فقد فاق كل حد، فالأفراح التي أقيمت في القصر، والخراف التي ذبحت، ثم الهدايا والأعطيات تجاوزت المألوف، وجعلت عدداً من مسني العائلة يفاتح السلطان بعد أن هدأت الضجة. قالوا له في إحدى الليالي:

ـ . . . وتعرف، يا طويل العمر، أن الله، سبحانه وتعالى، هو من يعطي، ومن يجعل النطفة ذكراً أو أنثى، وهو على كل شيء قدير. . .

ولما بدا له أنهم يريدون أن يتكلموا في أمر آخر، ولكي يشجعهم على ذلك، قال وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ اللي تقولونه ما عليه خلاف، يا طويلي الأعمار بس أشوف بوجوهكم سالفة ثانية!

قال دحيم، العم الكبير للسلطان:

ـ يا أبو منصور، حنا معك أن يكون لك ذرية بعدد حبات التراب، وأن تفرح بكل مولود جديد، بس لازم تعرف أن الولد من صلب أبوه، وما دام الأب واحد، وما دمت أنت أب الأولاد، يلزم تعدل بينهم، وما يلزم تقول هذا ابن فلانة وهذا ابن فلانة، هذول كلهم أولادك، الكبير قبل الصغير، والموجود قبل اللي عند علام الغيوب، ورأينا أنك ما تميز بين واحد والثاني.

قيل هذا الكلام نتيجة إشاعات سرت في القصر، وانتقلت، همساً، من مخادع النساء إلى ديوان الرجال، حول ما ذكرته موزة عن رهان بين السلطان وفضة، إذا كان المولود الثالث ذكراً. فقد قيل إن السلطان أبدى استعداده، إذا خسر الرهان، أن يجعل واحداً من أبناء فضة سلطاناً بعده. وقد ترافق ذلك أيضاً مع أخبار متزايدة تؤكد غضب السلطان على خزعل. نقل اثنان من الحرس الخاص لدحيم أنهما سمعا السلطان يقول لخزعل بغضب «انحش عن دربي ولا تخلني أشوف وجهك». وقد سافر خزعل بالفعل مع عدد قليل من المرافقين والحرس، لا يعرف إلى أين أو كم سيبقى. وقال كلمات أخرى لم يسمعاها.

هذا ما دعا مسني العائلة لأن يقولوا ما قالوه، والسلطان الذي سمع بانتباه، وكانت الابتسامة تملأ وجهه، ردّ عليهم.

ـ اللي قالوا لكم، يا جماعة الخير، ما صدقوا وياكم، وأنتم تعرفون، البني آدام كل يوم يطلع له قلب، وما فيه طرف، فإذا أعطينا آذاناً لكلام يأخذنا ولكلام يردنا، ولواحد يقول فلاني، والثاني تركاني تراها وقعت بينا، وأنتم تعرفون مثلي وأحسن مني: إذا اختلف الرعيان، أو إذا تصادقوا، ضاعت الغنم!

هز رأسه عدة مرات ثم فجأة التمعت صورة خزعل وسفره، قال موضحاً:

- وخزعل حنا طرّشناه، كلّفناه بعمل، قلنا له تسوّيه وترجع من يومك، وإذا سمعتم غير هذا الكلام فهو غير صحيح!

وتغيرت النبرة:

- وبسفرتنا لعين فضة قلنا لفنر: هذا حدّك مع أخوالك يا فنر ويلزم تكون معانا، وجبناه وجينا، وقبل أيام شافوه الخويا وقالوا ذهين وما مثله، وأنتم تعرفونه، يلزم يكون قريب منا ويتعلم، وإن شاء الله يشيل هو وإخوانه الحمل عنا. فلا تخافوا يا جماعة الخير ووكلوا الله، وأنتم تعرفون المثل اللي يقول: لا توص حريص، وإن شاء الله بوجودكم وشوركم وحرصكم ما يصير إلا كل خير!

تأثروا لكلام السلطان، وتأثروا أكثر أن السلطان لم ينس فنر، خاصة بعد أن مرض، وقال الأطباء الذين أشرفوا على علاجه أن الأمر لا يتعدى الحصر وتغير المناخ، ولا بد أن يستعيد صحته إذا أحيط بجو من الرعاية والاهتمام، كما كان حاله في عين فضة. قال دحيم بصوت عميق، وصورة فنر، المختلف عن بقية الأخوة، تسيطر عليه:

- ترى يا جماعة الخير دمعة اليتيم تخرق الصفا.

وتذكر الجميع أم فنر وصمتوا بحزن.

ولأن السلطان يعرف الكثير مما يصل إلى الآخرين، عن طريق النساء والخدم الذين كلفهم أن ينقلوا إليه كل ما يسمعون، خشي أن تتطور الأمور ويصبح من الصعب السيطرة عليها، ولكي يبدد الشكوك، والتي قيل إنها وصلت إلى البادية، ووصلت تحديداً إلى أخوال خزعل، وإلى قبائل بعض زوجاته بشكل خاص، فقد أبدى تسامحاً تجاه عدد من الزوجات والأقرباء بدل القطيعة والنفور. ولم يتردد في أن يعقد على زوجة جديدة خلال الشتاء ذاته، وأن يصطحب إحداهن معه في رحلة القنص التي استمرت أكثر

من عشرين يوماً. أما حين بلغه أن وطفة، الزوجة التي تزوجها قبل فضة، والتي خلّفت ابنتين، وأجهضت بالثالثة، وقالوا إنه ذكر، حين بلغه أنها أنجبت ولداً ذكراً وقد سماه مفرّح فقد أقام احتفالات بالمناسبة لا تقل عن الاحتفالات بمجيء الابن الثالث من فضة. قالت أمي زهوة التي كانت تصلها أصداء ما يقال في مخادع النساء: «أبو منصور أولاده عنده مثل أسنان المشط، أو مثل حب الرمان، ما يفرق بين واحد والثاني.. إلا باللون، بس الأمهات ما يشبعن لا بالليل ولا بالنهار!».

لم يكتفِ السلطان بذلك، فقد قام بزيارات لإِثنتين من نسائه أنجبتا إناثاً، وقيل إنه لم يتردد في حمل البنتين، ومداعبتهما، كما أجزل للأمهات العطايا، خلافاً لما عرف عنه في السابق. وقد تبرع الكثيرون في نقل هذه الأخبار. حتى سيدة القصر، فضة، لم تخْفِ امتعاضها، لكنها غلفته بالسخرية. وحين كانت في مجلس ضم عدداً كبيراً من النساء، بمناسبة طهور ابنها الثالث، والذي تأخر طهوره خلافاً لأخوته، لأنه ظل مريضاً فترة طويلة، قالت وهي تبتسم:

ـ حين طهّروه خفت، صرخت وقلت لروحي يا ليته كان بنيّة، كان ما عذبوه هذا العذاب كله.

ولما سمعت كلمات الاستغراب والإِنكار، أضافت وهي تتلفت، وكانت ابتسامتها تتركز على بعض الوجوه:

ـ وبهذي الأيام ما عاد في فرق بين الولد والبنيّة، إلا إذا كانت الأم بغيضة وجابت بنيّة!

قالت موزة، وكانت تملك دالة على الجميع:

ـ لا يا ستي، في فرق، وهذا طوله!

وأشارت بالسبابة والأبهام إلى المقدار الذي تعني!

قالت إحدى الزائرات وكانت لا تخفي ضحكتها:

ـ كبّرتيه أكثر من اللازم.. يا موزة!

ردت وهي تقهقه:

لا تخافي يا بنت الحلال بس يكبر يكبر.. والله يستر بنات العالم!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يقوم بنفسه، أو يكون حاضراً حين تتأكد هزيمة الخصوم، لكي يقبل الاستسلام، ولكي يصدر أوامر القتل أو العفو، والذي كان يروق له أن يقدم دروساً في فنون القتال والشجاعة، والأخلاق والشهامة، ليسمعها خصومه بوضوح، ولكي تنقل عنه بعد ذلك، يتخلى لأول مرة عن القيادة لخزعل. قال له يوصيه، وكان في المجلس عدد من كبار العائلة:

ـ ... والخويا اللي معاك يا خزعل الواحد منهم بميّة، مجربين وأنت تخبرهم، والقواد صيتهم سبقهم، وما مثلهم بموران وبغير موران، فأريدك يا خزعل تبيّض الوجه وترجع لنا سالم وغانم، ورأس ابن الحرام على سن ورمح ولشتة بحثل ما به ملح.

تنفس ملء صدره وأضاف يخاطب المسنين وينظر إلى خزعل:

ـ أملنا بك كبير يا خزعل، وهذا ما هو بس راي ورأي الجماعة؛ ولا تبطي علينا بالأخبار الزينة، ومثل ما قالوا جماعتنا: ما خاب اللي يعطي الصنعة سيدها، ومن الله النصر والتوفيق.

ورغم أن العملية التي أنيطت بخزعل لا تتعدى تأديب قبيلة صغيرة، كانت منازلها قريبة من الحدود، وكانت عرضة لمؤثرات عديدة، وقد اختلف ولاؤها أكثر من مرة، تبعاً للضغط الذي يقع عليها، فقد سرت في قصر الروض همسات تؤكد أن السلطان أرسل خزعل لكي يتخلص منه، لكن هذه الهمسات تراجعت وانتهت بتوالي الأخبار، ثم بتأكيد الكثيرين أن خزعل ذهب إلى القنص ولم يذهب إلى الحرب!

وقيل أيضاً أن السلطان أرسل عمه قبل أن ينقضي أسبوع على تحرك خزعل، وأوصاه بإلحاح أن يتولى كل شيء بنفسه، لخشيته أن تقع أخطاء تصعب معالجتها في وقت لاحق، خاصة بالنسبة لرئيس القبيلة، والذي كان

يريده حياً لأسباب كثيرة: ليكون قوة له على الحدود بدل أن يكون أداة بأيدي الخصوم، ولكي يبرهن للذين يقولون أن خريبط لا يعرف سوى القتل، إنه يعرف كيف يعفو ويسامح، وقد أكدت النتائج أن ما حدس به خريبط كان في مكانه، وأن العم تدارك الكثير، الكثير، لكن، مع ذلك، عاد خزعل منتصراً، واعتُرف له أنه بلغ مبلغ الرجال!

وقبل أن تنقضي السنة أرسل السلطان خريبط ابنه فنر بزيارة رسمية للتهنئة إلى بريطانيا، بناء لاقتراح مستشاره، والذي أكد للسلطان أن العائلة الملكية البريطانية تربي أولادها على تحمل المسؤولية وتكلفهم مهمات إلى البلدان الأجنبية، ليتعرفوا على هذه البلدان ويتعلموا منها، ولكي يتعرف عليهم الملوك والرؤساء.

طوال السنوات التي قضاها فنر في قصر الروض ظل غريباً. لم يستطع أن يكون جزءاً من القصر، أو جزءاً من القوى الخفية التي تتجاذبه وتؤثر فيه. صحيح أن أباه قرّبه، وأخذ إعجابه به يزداد شهراً بعد آخر، إلا أنه كان يخشى عليه من تأثير خاله عمير، خاصة وأن عميراً منذ أن وصل إلى موران لم يدخل لسانه في حلقه، كما يقول السلطان.

ليس ذلك فقط، فقد نقل للسلطان أن عميراً ما إن يترك قصر الروض حتى يغشى المجالس واحداً بعد آخر «هذا يصير وهذا ما يصير. هذا حلال وهذا حرام». والسلطان الذي تبلغه الأخبار يهز رأسه بغيظ ويقول لنفسه: «ناسبناهم حتى يرضوا ويسكتوا، لكن بعد ما خلصنا من منير جانا مناور، بعد ما خلصنا من الدريويش جانا هالحين عمير، لكن يخسا». فإذا التقى به السلطان، يسأله عن أبيه وعن المطر في عين فضة، وفي ذلك تلميح لا يخفى أنه حان الوقت لعودته، فيجيبه عمير إجابات عامة، بعيدة، مع ابتسامة كبيرة للتدليل على أنه راضٍ ومرتاح لإِقامته في موران! أما حين اعتل فنر، فقد أصبح لدى عمير المبرر القوي للبقاء. قال ذات يوم للسلطان يشعره بضرورة وجوده واستمراره:

ـ ومثل ما تشوف عينيك، يا طويل العمر، الصغيّر تعبان وممروض، وأخاف إذا تركناه يحصر.

ـ وكّل الله يا ابن الحلال، فنر الجميع حاطينه ببطن عيونهم ويدارونه.

ـ لكن مداراة الخال شكل ثاني، يا طويل العمر.

ـ المداراة الزايدة تفسد يا عمير.

ـ الحق اللي تقوله، طال عمرك، بس إلى أن يتعافى، ويصير على كتفه لحيمات.

ـ العافية من الله، يا رجال، ويلزمك تعرف: حرار الطيور ما تسمن.

جرى مثل هذا الحوار مرتين أو ثلاث مرات، وعمير يتظاهر أنه لا يفهم، فقد جاء بقصد الإقامة، وليكون قريباً من فنر، وليشرف أيضاً على تربيته وتوجيهه. والسلطان الذي أسف لأنه ترك ابنه كل تلك السنين في عين فضة، وعرف مدى تعلق فنر بأخواله، كان يريد أن يمتحن مدى قدرته على انتزاع الصبي من ذلك العالم وتلك الأفكار، دون أن يلجأ إلى العنف أو القسوة، خاصة وأن الأطباء الذين أشرفوا على علاجه، أكدوا عدم وجود علة يمكن أن يعزى إليها سبب مرض فنر، فقالوا: تغير المناخ. وقالوا، الحصر. ولذلك يجب أن يعتنى بحالته النفسية، وأن يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتكيف مع الجو الجديد.

وفنر مثل النبتة الغضة، تمرض إذا عطشت، وتمرض إذا زاد عليها الماء. يمرض دون سبب، ويتعافى فجأة. والسلطان الذي تطالعه العينان الواسعتان أينما ذهب، أينما تلفت، وتتابع الأذنان كل كلمة يقولها، كان حائراً. قال لعمه دحيم ذات ليلة:

ـ . . . وإذا طالعته، يا مبارك، أشوف بس عيون تناظر، يسمع بعيونه وقلبه وآذانه، ويلزم هذا الخبل، عمير، أن ما يملأ رأسه بسوالف الآخرة وحدها.

ـ بس يتعافى بالخير والسلامة يلزمه يتعلم القنص.

ـ الحق اللي تقوله ياعم، وظني أنه مع القنص يلزمه بارودة حربية، ويبلش بهذول اللي مدوّخينا هنا وهنا.

ولم يتأخر السلطان لكي يصطحبه في واحدة من غزواته. قال لخاله عمير قبل أن يتحرك:

ـ ترى عين فضة تعجب إذا دفت، وإن شاء الله برجعتنا نشوفك هناك، يا عمير.

قال مهيوب، رئيس الحرس الخاص للسلطان، بعد سنين يتذكر تلك الغزوة:

«كانت سنة خير، أمطارها كثيرة والناس راضية، وما عندها إلا تدور رزقها. وطويل العمر أوامره واضحة: يلزمنا نحارب يا مهيوب، إذا ما هو هنا، بمكان ثاني. وحنا نتلفت، نتفطن، وما نلقى أحد. العشيرة الفلانية بمشتاها. الثانية بالمكان الفلاني. وما أحد بباله الحرب. يوم من الأيام، وحنا بخبرة سنيدة جانا بدوان وقالوا: التجار تسلّبوا. ركضنا ندور اللي سلبوهم، لكن الله وقع بأيدينا جماعة غيرهم، كان بينهم واحد مطلوب. وما إن شافهم طويل العمر إلا وأصدر أوامره: ارموهم. كانوا سبعة. والله صفيناهم وكان أولنا فنر، وما إن قال السلطان ارموا حتى رمينا. ذبحناهم. دفناهم ومشينا».

يهز مهيوب رأسه، وتبدو على وجهه ابتسامة حزينة، تتغير نبرة الصوت، وهو يتابع: «قال طويل العمر: هذي ما هي بشي، يلزمنا نخليه يحارب بأسنانه، ولا بد يحس بالخطر. بعد ثلاثة أيام، أو أربعة، بالليل، آخر الليل، قلنا لعشرين من جماعتنا تروحون للمكان الفلاني، ومن هناك ترمون حوالينا، ما هو علينا. عطيناهم فشك يكفي أمة الثقلين، وقلنا لهم ترمون، بس لفوق، فوق روسنا، وتتحذرون زين. وحنا نقابلهم ونرمي، وقلنا ساعة زمان وتغيبون. وهذا اللي صار. بس الحذر ما يرد القدر. حنا مئات، وكل واحد بيده سلاحه، وما قلنا لجماعتنا وين يرمون، خوف ما تنكشف سالفتنا، حتى لو انذبح كم واحد من اللي يقابلونا، لكن، ومثل ما يقولون: بآخر الليل تجي الدواهي. الفشك حيّد عنا كلنا، وفشكة ميتة، نازلة من السما، أصابت فنر. إصابته بيده عند الكتف. خاف طويل العمر، لكن لما شاف الجرح قال وهو يضحك: هذي لك شهادة يا وليدي، ولا تخف. مات من الجماعة قبالنا سبعة أو ثمانية، ومنا ثلاثة مجاريح وواحد انقتل، وما عرفنا وين جته الفشكة.

قال السلطان لعمه دحيم في الشتاء اللاحق، وكان معه في رحلة قنص، ومعهما عدد من أبناء جلالته:

ـ وبعد ذيك الليلة، يا عم، صار قلبه مثل الصوان.

وضحك السلطان وهو يتابع فنر، وكان يهيّئ طيوره للقنص:

ـ لما ذبحنا البدوان خاف. ناظرته وشفته. قلت لروحي: أخطينا، لكن تعرف، يا عم، هذا الدرب ما منه ردة، قلت: نتوكل على الله، ومشينا. وبعد كم يوم حضّر الجماعة اللي قلنا لهم عليه، وهالمرة شفته: لا والله: تنشط، وصار براس الجماعة، وبإذني سمعته يصيح: هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها.

قال دحيم وهو يبتسم:

ـ الصعبة هي النوبة الأولى، يا أبو منصور، بهذي الشغلة وبكل شغلة، فإذا مرت كل اللي بعدها أخف منها!

قال الذين استيقظوا على أصوات البكاء والنحيب في قصر الروض، «إنه قبل أن يصبح الصباح، والناس نيام بسابع نوم، وإلا ذاك الصوت اللي يفزّع اللي ما يفزع. وكل واحد بين مصدق ومكذب، وكل واحد يسأل روحه: ها احترقنا؟ مات أحد؟ دهمتنا السيل، وإلا منام من المنامات؟ لكن بعد الصوت الأول صوت ثاني، وهذي المرة قريّب. ركض الناس ها هنا إلى أن وصلوا إلى جناح الأمير فنر: ها يا جماعة الخير، علمونا شنهو اللي صار واللي جرى، قطمة تناظر الناس وتشوبر وتصيح، وموضي، من داخل، تصيح وما تستريح. علمونا يا جماعة الخير ويش هي البلية؟ ولا أحد يتكلم أو يجيب. دخلن النسا على موضي، لقنها بين الحياة والموت، يدها على كتفها وتصيح: تعوّر فنر، انذبح فنر. قالن لها: وكلي الله يا بنت الحلال، فنر مع السلطان، فنر ما أحد يصله، فنر بالقنص وما هو بالحرب. وأبد: تعوّر فنر انذبح فنر. وإلى الصباح ما استراحت ولا خلت أحد يستريح. وقبل ما تطلع الشمس طرش ابن السرهود أكثر من طارش، وقال لكل واحد منهم: بوجهك تصل طويل العمر تأخذ العلوم وترد. وما هديت إلا بالويلاة. تعبت وارتمت، لكن ما رفعت يدها عن كتفها ودمعتها ثلاثة أيام ما نشفت. في اليوم الثالث، وبرجعة الطارش، وبعد ما حلف ألف يمين ويمين، والشيخة هي اللي حلّفته، قال إن جرح فنر مثل

الدوحاس، أو مثل لطة الجمر، وما عليه خلاف، يمشي ويسولف. وقال الطارش، وهو يقسم من جديد، أن السلطان حرق له عطابة وداواه بنفسه، وانتهى كل شيء على خير».

خلال الأسبوع الأول مرضت موضي. لم تقرب الطعام، رغم إلحاح الكبار والصغار. فما عدا بعض السوائل، أرغمت على شربها، فقد رفضت كل شيء، حتى أن الكثيرين خافوا عليها أكثر مما خافوا على فنر، خاصة بعد أن انفردوا بالطارش الأول، ثم بالذي يليه، وتأكدوا من المعلومات، وعرفوا أن جرح فنر بسيط، وأنه عوفي تماماً.

في الأسبوع الثاني وافقت موضي على تناول وجبات خفيفة، لكن الحزن والبكاء لم يفارقاها، وظلت مرابطة في غرفتها، وكانت قطمة تطمئن الزوار، وتؤكد لهم أن سيدتها تتماثل للشفاء، وترجوهم ألا يثقلوا عليها لأنها بحاجة إلى الراحة والنوم والدواء كما قالت الحكيمة الإنكليزية. والزوار بين رغبتهم في أن يتأكدوا من تحسن صحة موضي، وبين أن يتفرسوا في وجهها وفي عينها ليكتشفوا هذه القوة الخارقة التي جعلتها تحدس، بل وتتأكد أن فنر أصيب.

في الأسبوع الثالث استعادت موضي صحتها. غادرت غرفتها عدة مرات إلى الشرفة، وإلى لقاء عدد محدود من الزوار، لكن القلق لم يزايلها، وظهر الشحوب على وجهها واضحاً، وكان يدعو إلى الحزن والشفقة. وظلت كذلك إلى أن عاد السلطان.

لما عاد فنر إلى موران، إلى قصر الروض، ثم إلى الجناح الذي يسكنه مع موضي، ورأى وسمع ما حصل لأخته، وموضي تتابع كل حركة وكل كلمة تصدر عنه، ثم لما استفسرت كيف أصيب، وفي أي مكان، وفي أي وقت، وكانت تهز رأسها دلالة المعرفة والتأكد، فإن الدهشة التي ارتسمت على الوجوه، والنظرات التي تبادلها الذين يسمعون، جعلت الجميع يتساءلون ويحارون فيما حصل. وفنر لم يكن أقل منهم دهشة وحيرة وتساؤلاً.

تهاني التي لازمت موضي خلال فترة مرضها، لم تكن خائفة أو قلقة،

بل وأكدت أنها في صغرها كانت مثل موضي، وصدف أن توقعت أموراً بعينها، وقد وقعت! أما بعد أن تقدم بها العمر، فقد «تشوش فكرها» كما تقول بحزن «ولم أعد أعرف الجمعة من الخميس». ومع ذلك طمأنت كل من سألها عن موضي؛ كما أرغمت موضي على تناول بعض السوائل التي أعدتها لها بنفسها، وهذا ما ساعد وعجل بالشفاء!

أما الجدة التي جاءت إلى موران خلال هذه الفترة لزيارة «حبات القلب: فنر وموضي وعمير» خاصة وأن أخبار عمير انقطعت تماماً عن عين فضة، فلم تكن تعرف شيئاً مما حصل، وحين وصلت القصر، وأبلغت أولاً بسفر فنر، ثم بمرض موضي، فقد قالت لقطمة، التي حاولت أن تطمئنها وأن تبسط الأمور:

ـ لو ما جيت لكان أخير وأسلم، وهالحين أحمل يا قلب إن كان بك تحمل.

وبعد قليل، وبعد أن ألقت نظرة على موضي التي كانت نائمة.

ـ فال الشيطان ولا فالك، يا مقرودة، على هذي الأخبار.

هزت رأسها بحقد وتساءلت:

ـ ومتى يرجعون؟

ـ علمي علمكي، يا محروسة السلامة.

ـ الله لا يسلّم بك عظم، وهالحين نداري من ولاّ من، نلتفت هنا ولاّ هنا؟ وتابعت تخاطب نفسها:

ـ بعد عين فضة راحت أيام السرور، وهالحين نشوف أولادنا يموتون وينذبحون وما نقدر نسوي شي.

خفضت صوتها وبحقد:

ـ الله يجازي الظلاّم واللي ما بي بقلوبهم رحمة.

وبتحسن صحة موضي، ثم بعودة فنر، استعادت الجدة صحتها وقوتها، مع أن الكثيرين توقعوا لها موتاً سريعاً! أما عمير الذي بقي أياماً في موران، بعد سفر السلطان، فقد غادر فجأة، ولم يذكر لأحد وجهته،

أو المدة التي سيغيبها، ولا يعرف ما إذا كان سيعود إلى موران أم يذهب إلى عين فضة.

هذه النبوءة التي شغلت الكثيرين في قصر الروض، ونقلت بأشكال لا حصر لها، إذ ذكرت النسوة أن الموضع الذي كانت موضي تشد عليه، عند الكتف، لم يكن مماثلاً للموضع الذي أصيب فيه فنر فقط، وإنما أكدت ثلاث أو أربع منهن، واكتفت الأخريات بالصمت، أن بالموضع علامة زرقاء تشبه الجرح المندمل. وزادت لولوة على ذلك، ونقلت الأمر إلى سيدتها، أنها رأت بعينها، في الأيام الأولى، دماً يسيل من الكتف!

كان يمكن لهذه النبوءة أن تظل حديث الكثيرين، إلا أن الأحداث اللاحقة التي مرت على قصر الروض جعلتها تتراجع ثم تُنسى، أو بالأحرى لا تعاد إلا إذا جاء بما يذكّر بها!

فأثناء عودة السلطان إلى موران، وفي العجيرة، حيث راق للسلطان أن يتوقف للراحة، ولكي يتيح لعبيدة محاصرة منطقة مشهورة بوفُرة الغزلان فيها، أثناء هذه الاستراحة، وصل فجأة، وعلى غير توقع أو انتظار: الصاحب، أو هاملتون.

وصل هاملتون، والذي أطلق عليه السلطان اسم الصاحب، وقيل إن هاملتون اقترح الاسم ووافقه عليه السلطان، كان عائداً من رحلة، وبرفقته عدد من عبيد السلطان وحرسه، بعد أن قام بتحديد المواقع المناسبة لحفر مجموعة من آبار المياه، وأعد خارطة لحدود المنطقة الشمالية. وذكر الذين رافقوه أن الصاحب قضى وقتاً طويلاً في نبش تلة الذيب، القريبة من المخيم الذي أقامه، واستخرج منها أصناماً، وأشاروا إلى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام.

كان اللقاء ودياً إلى أقصى حد، وتخللته احتفالات كبيرة أعدت على عجل. فالسلطان الذي لم يتوقع اللقاء بالصاحب، في هذا المكان، أو في هذا الوقت، فوجئ تماماً. ولكي يعبر عن المودة والقوة، فقد أوعز إلى عدد من رجاله «أن لا يتركوا فناً، وأن لا يتركوا مرجلة إلا ويلزم الصاحب يشوفها» ولذلك جرت سباقات الخيل، والنيشان، ومطاردة الغزلان، إضافة

إلى الغناء والعرضات، وصدف أن كان الطقس مؤاتياً، لذلك أعدت الاحتفالات جميعها في الهواء الطلق، في النهار، وليس عند الفجر أو الغروب، مما أضفى عليها طابعاً مشرقاً، الأمر الذي ولد مزيداً من الفرح والمتعة، ولم يخف الصاحب انفعاله، إذ قال للسلطان، وكان حوله عدد محدود من رجاله:

ـ اللقاء بجلالتكم، وفي مثل هذا المكان، يُنسي الإنسان التعب، بل ويجعله يتمنى البقاء هنا إلى الأبد.

استخف المديح السلطان، وكان تواقاً لأن يقنع الصاحب، وأن يستميله لكي يبقى، رد وهو لا يخفي فرحه:

ـ حنا، الله يسلمك، نحتاج إلى معونتك، ومعونة الخيّرين أمثالك. وعسى أن الله يقدرنا على مجازاتكم.

وجرت أحاديث أخرى كثيرة، لكن هاملتون الذي يلتقي بفنر لأول مرة، وبعد أن راقب باهتمام ودقة، وبعد أن سمع من معارفه وأصدقائه حول غزوة السلطان، راقه كثيراً أن يتحدث مع الأمير. ومثلما فعل قبل سنوات، حين وصل إلى موران أول مرة، إذ قضى مع خزعل أياماً في القنص، وقيل إنه تبارى وإياه في النيشان، فقد نظر طويلاً إلى فنر، وراقب تصرفاته وحركاته، كما سأل الذين يعرفهم كيف جرح فنر وأين، لأنه لم يشأ أن يزعج الأمير بهذه الأسئلة، ولم يشأ أن يثقل على السلطان.

قال هاملتون للسلطان، في الليلة الأخيرة، قبل السفر، وكان القمر بدراً، والريح الربيعية تهب منعشة:

ـ ... وهذا الشرق، يا طويل العمر، مهبط الوحي وموطن الرسالات، ولا يمكن لأحد أن يفهمه إذا لم يعش فيه.

والسلطان الذي كان يهز رأسه مثل حرذون، في ضوء القمر، رد بصوت عميق:

ـ الحق الي تقوله، يا الصاحب، وأظنك قررت تعيش معنا، وتعاونّا.

ـ لقد فكرت طويلاً بهذا الأمر، يا صاحب الجلالة، وكنت أنوي، بعد

أن انتهت مهمتي بوضع الخرائط لحدود بلادكم الشمالية، أن استأذن جلالتكم وأسافر. . .

وابتسم وهو ينظر إلى عيني السلطان، وتابع:

ـ لكن رغبات جلالتكم لا يمكن أن ترد، خاصة وأن لهذه الأرض سحراً لا يقاوم!

بدا السلطان فرحاً مثل طفل، وتأكد في تلك اللحظة أنه حقق في هذه الرحلة أهدافاً عديدة وهامة، وتذكر، وهو يمسد لحيته، الجهد الذي بذله مع الصاحب لإِقناعه بالبقاء. قال لنفسه: «رب صدفة خير من ميعاد».

هاملتون ليس واحداً، إنه الكثير في شخص، ومجموع الأشخاص في واحد، والكثير والواحد يجمع بينهم الجوار، وبقدر التفاهم الذي يوحدهم فأن العداء كثيراً ما أدى إلى الخصومة والافتراق. فهو محب لا يستطيع أن يخفي حبه، ومبغض إلى درجة الحقد. هادئ أغلب الأحيان، لكن في لحظة يتحول إلى حيوان ذئبي كاسر لا يشبع من الدماء ولا يمل النظر إليها. رغبة الاكتشاف والمعرفة لديه قوية ومستمرة. فإذا حاصرته الأسئلة امتلأ شعوراً بالحيرة واللاجدوى. مسيحي وزنديق، ولا يتردد في أن يجرب أدياناً أخرى أيضاً! مخلص للأمبراطورية وشديد الكره لها. المال بالنسبة له وسيلة تعامل، وقدرة على التأثير، كما أنه قوة مستقلة لذاتها. يتمنى أن يكون ملكاً لا يمل الناس من النظر إليه، وأن يكون إنساناً مجهولاً لا يعرفه أحد. يقول لنفسه في لحظات الصفاء: «كلما ازداد الإنسان قوة ومعرفة كلما ازداد ضعفاً وضياعاً وجهلاً».

يقول للذين يسألونه لماذا لا يتوقف عن الركض، ولماذا يتعب نفسه هكذا:

ـ قيمة الإنسان بالمعرفة وبخدمة الآخرين. وعلى الفرد ألا يتوقف لحظة واحدة عن التعلم وعن مساعدة الناس، لأنهما المصدر الأساسي للمتعة، والمبرر الوحيد لاستمرار الإنسان على الأرض.

حين يكون على ظهر ناقته، تحت وهج الشمس الحارقة، والصحراء تنطوي تحته كما تنطوي صفحات كتاب، يشعر أنه الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، وأن قوة خارقة انتدبته له. فإذا وصل إلى المكان الذي يقصده أحس بالضآلة وبالظلمة الكثيفة، ولا يعرف لماذا كان على هذا القدر من

الغباء لكي يجيء إلى موران، ويمارس مثل هذا العبث الأخرق.

يعتبر نفسه من كبار الحمقى، لأنه جاء إلى هذه الصحراء الملعونة، وفي اللحظة التالية يتصور نفسه نبياً لموران ولما حولها، لأنه يبشر بدين الغرب، ويريد لهذا الدين أن يعم ويسود، ولا يمكن لأحد غيره أن يفعل وأن يصل. في الليل يمتلئ قناعة أن قومه أرسلوه إلى هنا لكي يتخلصوا منه. وفي النهار يتأكد أن القوة الخارقة التي انتدبته للمجيء إلى هنا، هي ذاتها التي تملي عليه أن ينقل، ليس للأمبراطورية وحدها، وإنما للغرب كله، الأديان القديمة، والتي بدونها لا يمكنهم أن يملكوا أي دين. العرب، بالنسبة له، شاهد حي على أصل الإنسان القديم، ومثل لإِمكانية استمرار الإنسان بحالته الأولى. أما قومه فإنهم مجموعة من المخلوقات الحديثة الصنع ليس لها مستقبل إلا بقدر ما تستطيع أن تمد جذورها إلى الماضي. وبين العرب، ومعهم وحدهم فقط، رغم كونهم خبثاء ومكروهين، يمكن أن يكون هناك دين جديد: الدين القديم بأيدٍ جديدة.

كيف خلق هاملتون هكذا، أو لماذا هو هكذا؟ لا يستطيع أن يجيب إجابة ترضيه، رغم إنه فكّر بهذا طويلاً. يعزو الأمر، في لحظات معينة، إلى الطبيعة. فأن يولد في إحدى مستعمرات الأمبراطورية، وأن يتعرف على شمس الشرق وروائحه، وأن يرى تلك الوجوه الداكنة أو السمراء تطوقه من كل جانب، يجعل بريطانيا بنظره، والقارة كلها، ثم بعد ذلك العالم الجديد، شيئاً مصطنعاً أقرب إلى ألعاب الأطفال.

لا يطيق أن يكون مجرد موظف في جهاز ليس له مهمة سوى تطبيق القوانين وجباية الأموال والضرائب. كما لا يتصور نفسه مجرد جندي، ليس له سوى الرقم والسلسلة، ويحارب من أجل قضية لا يدركها.

إنه يمتلئ حنيناً إلى النور والظلمة اللذين يتداخلان ويتصارعان ويتصادمان لكي يولد منهما ويتكون شيء أكثر صلابة وقوة، وإنسان أكثر ذكاء ونبالة، وجنوناً أيضاً. أما المدرسة التي انتزعته من أقصى الشرق، لكي يصبح في لندن طالباً مجداً بنظر أولئك المدرسين الذين يضعون نظاراتهم على أطراف أنوفهم، ويحشون الذاكرة بكل ما هو جدير بالنسيان،

فقد زادته رغبة أن يكتشف ثقافة بدون مدرسين ولا بلبس النظارات، وخارج أسوار الجامعة، ثقافة تكوّنها الحواس، وتكون أكثر عمقاً وأقل تهذيباً.

قال لأبيه، حين قرر اختيار اللغات الشرقية:

ـ لا يمكن معرفة الغرب دون معرفة الشرق، ولا يمكن معرفة اللغات الحديثة دون معرفة اللغات القديمة.

وأبوه الذي لا يزال يحن إلى الشرق، ويتمنى من أعماقه أن يكون ابنه امتداداً له، ليس بحاجة إلى هذه المبررات للاقتناع. قال له، ولا يزال هاملتون يتذكر ذلك بوضوح:

ـ خلق الشرق ليكون ملعباً لخيولنا وفرساننا!

يقول هاملتون: قال أبي الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، حملت معها كل إرث الأجداد. وكنت فخوراً، لأني من خلال اللغات التي اخترتها، اخترت الشرق. وعرفت أني خُلقت لمهمة عظيمة، ولا بد أن أؤديها بنجاح.

«والشرق»، كما أصبح يردد «ليس مكاناً جغرافياً فقط، أو مجرد ديانات وطقوس، إنه كتلة من العناصر مزجت بطريقة فذة، وربما تدخلت، أو غلبت فيها الصدفة، لكي يكون عصياً على الفهم الأول أو السهل؛ الشرق بدء الحياة، وربما نهايتها، إذ بمقدار الفرح الذي يفيض أيام الخصب، فإنه مستودع لجميع عذابات الإنسان وهمومه وأحزانه، لأنه ذاكرة البشرية، وهو بؤرة تناقضات الحياة أيضاً. والشرق بقدر ما يبدو هادئاً راضياً يحمل في أعماقه قوة البراكين وجنونها. طفولة البشرية وشيخوختها بتآخ يذكّر بالجد الذي يمسك بيده الحفيد يريد أن يطلعه ويعلمه سر الحياة».

هكذا يقول لنفسه في لحظات معينة. لكنه ليس متأكداً، «لأن اللغة المعاصرة» كما يقول بحيرة «تبدو لينة، رخوة، وبالتالي عاجزة عن إعطاء الفكرة دقتها وشمولها، ومع ذلك، تبقى هذه اللغة وحدها الوسيلة

الوحيدة، أو ربما الممكنة، لوضع الأشياء في سياق من أجل أن تُحدّد لكي تُفهم. ومع ذلك يجب أن نظل في حالة من الانتباه الشديد، لئلا نقع في المصائد التي تنصبها لنا عقولنا الضعيفة، والتي تعودت على الرخاوة والكسل، وأصبحت تميل إلى السهولة والبساطة، لكي تتجنب المعتم والخشن والقاسي. ذلك هو الامتحان الأصعب الذي واجه الإنسان في هذه الحياة، وقلّما استطاع اجتيازه إلا الأقوياء المنذورون لإعادة صناعة التاريخ، ولا بد أن يدفعوا ثمناً، وثمناً كبيراً، من أجل أداء هذه المهمة، وربماعدم الوصول أيضاً!».

لا يتوقف هاملتون عند هذا الحد من المقارنة، يقول لنفسه: «إذا ولد الإنسان في الشرق فإنه يولد للحياة، أي للتجربة وللموت. في الغرب يولد ولديه الحنين دوماً إلى النسيان، ولذلك يلجأ إلى الغضب لكي يمتلك قوة إضافية تساعده على التذكر أو أن ينتهي. فإذا هدأ الغضب أو نام فلا بد أن يلجأ إلى الطبول والمظاهر لكي يخلق في دمائه فرحاً، لكن في مواجهة نسيان جديد.

«في الشرق لا يكابرون. يعتبرون أنفسهم شيئاً من الطبيعة، امتداداً لها، أو شكلاً آخر من أشكالها، ولذلك ينظرون إلى الحياة والموت نظرة تختلف عن نظرة الغربيين. يعتبرون الموت الوجه الآخر للحياة. ومثلما لا يستطيع الإنسان أن يرد المطر أو أن يحجب الشمس، فإنهم غير ميالين، أو لا يتصورون أنهم بحاجة إلى مقاومة الطبيعة أو تحديها. إنهم ينسجمون معها، وأول خطوة هي في أن يفهموها، ثم بعد ذلك، أن يتآلفوا معها، حتى تصبح جزءاً منهم ويصبحوا جزءاً منها. وأكبر خطيئة يرتكبها غير الشرقيين، وبرعونة، هي تلك المحاولات البلهاء من أجل مقاومة الطبيعة، لا من أجل فهمها والتكيف معها. الشرقيون، ولا أقصد الذين يعيشون الآن فقط، أكثر واقعية وأبعد فكراً وإحساساً لأنهم ينظرون إليها بإكبار، يتعاملون معها بمحبة، وحتى إذا أرادوا رشوتها، فإنهم يفعلون ذلك بكثير من الخضوع والتوسل، تماماً كما يفعل الطفل مع أمه حين تغضب عليه، إذ رغم فارق السن، واختلاف النظرة، فإن قدراً كبيراً من الفهم والحنان

يقوم بين الطرفين من خلال طريقة التعامل، وهذا نتيجة الإحساس العميق بالامتداد والتواصل بين الطرفين».

لا يقول هاملتون ذلك بصوت عالٍ، أو أمام الآخرين، لأنه ليس متأكداً من سلامة أو قوة الأفكار التي تدور في رأسه وتعبر خياله. إنها تراوده بمكر، وتتجاذبه بغموض، خاصة وهو يقطع تلك المسافات على راحلته، أو حين يتمدد على الرمل، ويتطلع إلى السماء، والنجوم تتدلى منها كالفوانيس: لامعة، قريبة، ودافئة أيضاً.

لكن فجأة تنطوي صفحة الحلم لتبدأ أخرى ليس لها علاقة بما قبلها. فحين وافق، وبصعوبة، أو هكذا تظاهر، على البقاء في موران، إلى جانب السلطان، فقد نحّى جانباً تلك الأسئلة الحارقة التي تقلقه، وأصبح متأكداً أنه بعمله الجديد لا ينصّب ملكاً وإنما يقيم مملكة من طراز جديد، لأن هذا الشرق الذى يتعبه ويستهويه في آن واحد، يعج بالملوك الصغار، ولا يعني له كثيراً أن يستبدل ملكاً بآخر. ما يريده شيء مختلف، وقد عثر على بداياته، أو توهم، في خريبط، ثم في فنر من بعده.

مرت في ذهنه صور من التاريخ، وأخرى من الواقع، ولم يتأخر، لكي يبدأ. قال في نفسه: «الملوك الذين تقدموا بالسن يحتاجون إلى من يقول لهم كيف يجب أن يعملوا، ليواصلوا الحكم، أما الصغار فيجب أن يقول لهم: ماذا يجب أن يعملوا».

أصبح لخريبط مثل ظله، لا يفارقه ولا يفترق عنه، إلا حين يبلغ البوابة الصغيرة، في ذلك السور الطيني، المؤدي إلى جناح الحريم. وخريبط لا يصدق أن الصاحب وافق على البقاء، ووافق أن يكون قريباً منه هكذا. في رحلاته السابقة، ومع الآخرين، كان يقضي أياماً ثم يغادر. وخريبط يعرف أنه غادره إلى منافسيه، وبعض الأحيان إلى خصومه، لكنه لا يقوى على السؤال أو الكلام. الآن يضع هاملتون بين يدي السلطان كل وقته وذكائه وعلاقاته، بل أكثر من ذلك يتبدى له وحده الصديق الذي يمكن ائتمانه والاستعانة به على كل شيء، وفي كل وقت.

ولأن هاملتون قرأ كثيراً عن الصحراء وبشر الصحراء، يريد الآن أن

يصنع شيئاً عجز عنه الآخرون، ولذلك فإن من جملة ما فعله أن قطع الصحراء العاتية المجهولة من الشرق إلى الغرب، ويخطط لقطعها من الشمال إلى الجنوب، وكان فخوراً أنه فعل ذلك. قضى شهوراً طويلة في مضارب البدو يسمع منهم، ويأكل معهم، ولم يتردد أيضاً في أن يرتدي ملابسهم.

بدت له الملابس العربية، حين ارتداها أول الأمر، مثل الخرق البالية، ثم اكتشف أنها وحدها التي تلائمه وتلائم الصحراء. وتذكر، بحزن، زميلاً سبقه إلى موران، وكيف ظل مكروهاً ويخشى منه لأنه رفض أن يتخلى عن ملابسه، ثم كيف قتل هذا الزميل في معركة حربية خاضها بعصبية، فقط ليثبت لهؤلاء البدو أنه شجاع.

لقد بلغ الأمر بهاملتون أن أدمن الملابس العربية، فلا يستطيع التخلي عنها. أما حين يضطر إلى ارتداء زيه القديم، لكي يمتطي الطائرة ويسافر، فكان يشعر أنه يتنكر. كان يتطلع إلى نفسه في المرآة ويبتسم ثم يقهقه، ويفعل الشيء ذاته أصدقاؤه حين ينظرون إليه بالملابس الإفرنجية.. ويبتسمون!

«الصحراء كالمرأة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة، فإنها بحاجة إلى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوهاً لا حصر لها. حين تغضب أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بما كانته من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار. وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها ولا تشبه نفسها أبداً. تتغير كل لحظة، تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر».

هكذا كان يردد هاملتون لنفسه، لكي يبقى باستمرار شديد التنبه والحذر، ولئلا يطمئن إلى قناعات خادعة ونهائية. صحيح أن الصور والمفاهيم التي ملأت رأسه من قبل اهتزت وتغيرت، بل وأخذ يسخر منها، ويعتبرها تصورات وأوهاماً اخترعها عدد من الأفاقين الأدعياء، وهم من الرخاوة التي كانت تسيطر على أجسادهم وعقولهم بحيث لم يستطيعوا التقدم إلى الأمام، أو أن يقدموا أنفسهم بجدارة إلى الصحراء الحقيقية،

فاكتفوا بتدوين ملاحظات، أقرب ما تكون إلى الأكاذيب، أملتها عليهم خيالاتهم المدوّمة والمليئة بالأفيون، أو طرائف التقطوها من أزقة المدن القديمة، ومن أفواه المخنثين والخصيان، ومن أفواه البغايا، خاصة في مباغي المدن الساحلية، حيث قضوا معظم وقتهم وهم يكتشفون الصحراء!

وبشر الصحراء هم النبات الحقيقي لهذه البيئة، واحد مظاهرها وتجلياتها، إذ رغم البساطة والانكشاف الكامل، فإنهم طبقات من الحراشف القاسية المتينة تراكم بعضها فوق بعض بحيث يصعب معرفتها من النظرة العابرة، أو إقامة صلة معها من خلال التملق. صحيح أنهم يسمعون، لكنهم، في الغالب، يفكرون فيما سمعوه، ويفهمونه بطريقتهم الخاصة. وهم كثيرو الشك، لا يثقون بسهولة، أما حين يقطعون، فإنهم يفعلون ذلك بقسوة وحسم. وإذا أعطوا فإنهم يعطون بسخاء. صحيح أنهم يعطون قليلاً أول الأمر، لكنهم إن فعلوا، فإنهم لا يتوقفون بعد ذلك عن العطاء.

الآن، وبعد أن جال موران من أقصاها إلى أقصاها، وعرف الأماكن والبشر والأشياء، واختبر الذئاب المتنافسة، كتب إلى رؤسائه ما يلي: «... وخريبط يعتبر أصلح المتنافسين، لأنه يعترف بالجميل الذي أسديناه له، وأكثرهم ذكاء واستعداداً، ثم إن القوى التي تسانده، ويمكن أن يحركها، تشتعل بحماسة دينية منقطعة النظير، وهذه الميزة الأخيرة لا تتوافر لمنافسيه، وهي ذات تأثير كبير في موران إذا أحسن استخدامها والاستفادة منها». ولم يتأخر رؤساؤه في تأييد وجهة نظره.

في النهار، في المجلس، يربض هاملتون، كقط، غير بعيد عن السلطان. يستمع، يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة، والسلطان يفيض بالأحاديث، لكي يقوي عزائم الرجال ويعبئهم لمعارك قادمة، ولكي يؤكد لهاملتون أنه يملك من القوة والقدرة ما يجعل كل شيء سهلاً، فقط يجب أن يقتنع «الصاحب والخويا»، كما لا يمل السلطان من ترديده.

إذا تكلم هاملتون فإنه لا يتجاوز، في الغالب، سؤالاً أو تعليقاً. ورغم أن الكثيرين لا يتكلمون بحضرة السلطان، إلا إذا سئلوا، أو كان لديهم

شيء هام يقولونه، إلا أن صمتهم يختلف عن صمته. كانوا يعتبرون أنفسهم كتلة واحدة، وبالتالي فإن لسان أي منهم يعبر عنهم، ولذلك لا يضير أي واحد إذا تكلم هو أو تكلم غيره. أما هذا الغريب، الطارئ، فإن صمته يثير الارتياب أكثر من كلامه، ونظراته تجول في الوجوه فتترك في القلوب تساؤلاً مراً: لماذا جاء وماذا يريد؟ لكن هذا التساؤل لا يتجاوز الصدور إلى الألسنة، لأن ثقة السلطان تجعلهم يحارون ويصمتون.

في الليل، وكان السهر يمتد ويطول، فإن هاملتون شخص آخر:

ـ . . . وتعرفون، يا طويل العمر، إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية مضطرة لأن تأخذ بعين الاعتبار ظروف المنطقة وردود الفعل. ورغم أنها تؤيد جلالتكم تأييداً كاملاً، وهذا واضح من خلال المساعدة، ومن وجودي معكم أيضاً، لكن لا تستطيع أن تستفز الآخرين، أو أن تجعلهم في صف أعدائها، لذلك فهي توافق ضمناً، ودون إعلان، أن تتخذوا الإجراءات المناسبة لتصفية المنافسين، كل ما علينا أن نخرج الموضوع بصورة مقنعة ومقبولة.

لقد قال هاملتون هذا الكلام في وقت متأخر، وبعد أن تأكد من أمور عديدة، والسلطان الذي كان ينتظر هذه الموافقة لم يتأخر.

ومع كل خطوة لا بد أن يكون السلطان أكثر إدراكاً لما يقوله هاملتون:

ـ وإذا أمكن ضم هذه المنطقة سلماً، من خلال استمالة القبائل والشيوخ، أفضل من ضمها بالقوة وحرباً. وإذا استطعنا أن نفعل ذلك سراً، أو دون ضجة، أفضل من أن نفعله علناً، أو من خلال إثارة الآخرين.

وشهراً بعد آخر، سنة بعد أخرى، لم يعودا طرفين. أصبحا توأماً سيامياً، جسداً برأسين. فإذا افترقا أواخر الليل، فإن ساعات الليل الأولى، ثم ساعات النهار كلها، تكفي لأن يتحدثا في كل شيء. كيف تفكر بريطانيا، وكيف يفكر أهل الصحراء. ماذا تريد بريطانيا، الآن وفي المستقبل، وماذا يريد السلطان. أما ما تبقى من الوقت فللحديث عن الخيل والتاريخ وأنساب القبائل ومعارك الماضي، فإذا تعبا من الكلام، فإن

المنتظرين، والذين لديهم الكثير ليقولوه لا حصر لهم، عديدون وجاهزون. وحين يتكلمون تبدو الدهشة على وجه هاملتون، ثم يتملكه السرور، ويصبح شديد العجب: «هؤلاء البسطاء المنسيون، الذين لم يتعلموا، كيف يمتلكون هذا الذهن الخصب والذكاء النادر؟».

حين يفكر هاملتون بالأمر يعزو السبب إلى التأمل وصعوبة الحياة، ثم إلى ذلك التراث الخفي، الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء، من الجدات إلى الأحفاد. أما ملكة الحفظ التي تميزهم فإنها نتيجة البيئة والمناخ، لأنه دون حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء فإن الإنسان في هذه الصحراء القاسية معرض للهلاك والفناء.

ويهز هاملتون رأسه بإعجاب، وهو يضيف محدثاً نفسه: «والليل في الصحراء، بقمره ونجومه، ثم انتظار المواسم والأمطار، وحتى القوافل، يجعلهم شديدي الاستعداد لأن يفتحوا عيونهم وآذانهم، وحتى أنوفهم، لكي يتلقفوا أي جديد، ويتعلموه بسرعة، لكن على طريقتهم الخاصة».

ويتذكر كيف أصبح نجم «يعرف» الإنكليزية من خلال ملازمة ادورد هيرست، الذي جاء من بريطانيا لإقامة مراكز للتلغراف، إذ لم تمض بضعة شهور، إلا وأصبح نجم قادراً على التفاهم. صحيح أن إنكليزيته متواضعة، وتتخللها الإشارات، لكنها تكفي، لأن هيرست، وبعد ثلاث سنين قضاها في موران، لم يستطع أن يتعلم إلا عدداً من الكلمات العربية لا تتجاوز العشر. وكان ينطقها كالأطفال، وتثير الضحك، أكثر مما تساعد على أن يُفهم!

أما حين استولى السلطان، بعد سنين، على الحويزة، فقد قال له هاملتون:

ـ قرأت في بعض الكتب، يا صاحب الجلالة، أن من يريد أن يضع يده على ممتلكات جديدة، ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها.

والسلطان الذي هز رأسه، وكان منتشياً بنصره، كان يطبق، غريزياً، ما

قاله هاملتون، دون أن يقرأ ذلك في كتاب، ودون أن يسمعه من أحد. وقد عرف هاملتون، في وقت متأخر، أن الأوامر التي أعطاها السلطان بالتخلص من حاكم الحويزة ومعظم أفراد عائلته، قد أعطيت في وقت مبكر!

وفنر لا يكاد يترك مجلس أبيه. ويوماً بعد آخر أصبح موضع اهتمام هاملتون ورعايته. والسلطان الذي يرقب الأمور بعناية بدا مسروراً من هذه العلاقة، لكن حين تذكر عمير، قال في نفسه: «يجي يوم ونصفي حسابنا ويشوف».

«... **تربية** مخلوق بشري، خاصة إذا كان قد تكوّن ونما، أصعب من ترويض وحش غير قابل للترويض» هكذا قال هاملتون، عندما طلب منه السلطان أن يعتني بفنر، وأن يبعده عن عمير، وأن يبعد أفكار عمير عنه.

وقال هاملتون: «مهما كانت الخبرة أو القراءة، فإن إنساناً لا يشبه الآخر، يضاف إلى ذلك مدى استعداد الطرف الآخر ورغبته» أما حين فكر بملازمة فنر، وأن يكون قريباً منه، فقال لنفسه: «لا يمكن ملاحظة التغير الذي قد يطرأ إذا كان قريباً جداً، فالمسافة القريبة تجعل الرؤية ملتبسة، لا تميز بين الأمس واليوم».

أما وهو يحاول التفكير بأحسن الوسائل التي يمكن أن يعتمدها، فقد قال وهو يضحك: «إذا كانت التربية تعتمد على الكتب والمعرفة النظرية، فإن احتمالات الفشل أكثر من احتمالات النجاح! خاصة إذا بدأنا الكتب من الصفحة الأولى!».

هكذا بدت اللعبة محيرة لهاملتون. وهكذا استمرت خلال فترة غير قصيرة من علاقته بفنر. فهذا الصبي ليس عادياً، بأي مقياس. كما أن التأهيل الذي يحتاج إليه يجب أن لا يكون عادياً، لأنه مشروع ملك أو سلطان. وإذا كانت تربية الملوك أو أولادهم عملية متعبة ومملة، حتى في البلاطات العريقة، والتي تنوء بالتقاليد الصارمة، فإن تربية الملوك في الصحراء المكشوفة، والمعرضة للرياح من الجهات الأربع، تصبح مغامرة محفوفة بمخاطر لا نهاية لها. فإذا أضيف إليها أن ذلك الصبي مملوء بالحذر الأقرب إلى الخوف والتوجس، كأي بدوي مسن يقابل عالماً جديداً

وغريباً، مع هذا الكم الهائل من الابتهالات والبخور والسحر، وتلك الرؤى التي تتخفى بأشكال لا حصر لها، نتيجة الوحدة والتأمل والحزن، وأخيراً المرض، وما يخلفه من مشاعر الألم والكراهية، فإن هاملتون يراهن على قضية خاسرة بكل تأكيد، وهو بموافقته على أن يقوم بهذه المهمة، وكأنه يريد معاقبة نفسه، ربما كتكفير عن شيء دفين، لكنه لا يريد أن يعترف بالخسارة في وقت مبكر.

خلال فترة طويلة، وبأساليب لا حصر لها، حاول مع فنر، لكي يحمله على الكلام، كما يوصي علماء النفس: كيف كانت حياته في عين فضة. ماذا يحب وماذا يكره. هل يحب أباه أم يكرهه. وعشرات الأسئلة التي كان يلقيها، وتبدو بريئة، وكأن اللحظة أملتها، فكان يتلقى الصمت جواباً، أو ابتسامة صبي ماكر، وفي حالات قليلة كلمات محدودة تزيد حيرته وارتباكه.

ولم يعترف هاملتون بالهزيمة ولم يسلم.

أما أن يفصله عن خاله عمير، كما اتفق مع أبيه، فقد حقق خطوة قد تقربه من النجاح. فالسلطان الذي أرسل لعمير من يبلغه أن بقاءه في موران ليس ضرورياً، والأفضل لمصلحته أن يسافر إلى عين فضة، فقد قابل عمير هذا الطلب، أول الأمر، بعدم الفهم، ثم بعد ذلك بالنسيان. ولما توالت رسائل السلطان، وكانت أكثر وضوحاً، هز عمير رأسه بالموافقة، وقال لطالع العريفان، وكان آخر رسل السلطان إليه:

ـ أمر طويل العمر على العين والراس يا طالع، بس الولد ما ينترك للكفار والخصيان.

طالع نقل للسلطان، حين سأله متى يسافر عمير، إجابة مختلفة، قال له وعيناه إلى الأرض:

ـ قال، يا طويل العمر: أمر جلالته على العين والراس، بس لو أحد يدير باله على فنر.

وبعد قليل، وهو ينظر إلى السلطان:

ـ وظني، يا طويل العمر، أن عمير آخذ على خاطره.

ـ الولد ما يربى بالدعا وبرفع اليد للسما يا طالع. الولد يلزمه يعرف الدنيا ويعرف الناس. يلزمه يحارب بيده وأسنانه، وفنر ابن سلطان، ما هو ابن شيخ مسجد.

ولم تتأخر جدته في المجيء إلى موران. وبدا أنها جاءت لتبقى، وكان يروق لفنر أن يقضي معها وقتاً طويلاً. وحين اضطرت، بعد عدة شهور، للعودة، لأن الجد مريض، جاءت بعد أسابيع خالته مزنة.

وحتى عمير الذي غاب فترة طويلة، وكاد ينساه الكثيرون، فقد أصبح يتجر بالإبل في هذه الفترة، وهذا يضطره لزيارة موران بين فترة وأخرى، كما يقول، وأن يقضي فيها شهوراً لمعرفة السوق!

إذا غاب خاله وأقاربه لأمه، فموضي لا تغيب. والذي نسيت الجدة أو مزنة أن تقوله، أو أن تعيده على مسامع فنر، فإن موضي لا تنسى. تقول لها خالتها بمداعبة:

ـ ما أحد يصدق أنك تعرفين هذي السوالف كلها!

ـ وأعرف غيرها وغيرها، يا خالة.

هكذا كانت ترد موضي، وتعني أنها تحارب في أرض تعرفها، وأنها تواجه أعداء غير مموهين!

قال هاملتون للسلطان ذات ليلة:

ـ الطريقة الأفضل، يا صاحب الجلالة، أن يسافر، لأنه إذا تغير المكان يتغير الإنسان. وفنر في هذه السن بحاجة لأن يتعرف على البلدان الأخرى، وأن يرى العالم.

أبدى السلطان تخوفه من الفكرة، واعتبر أن الأمر لم يصل إلى هذا الحد من الضرورة، قال، وهو يهز رأسه:

ـ نسفّره هنا أو هنا، يا الصاحب. يروح للقنص، أو يسيّر على جماعة من جماعتنا، أو يروح يحارب.

ـ الأفضل أن يسافر إلى بلدان أخرى، لتتغير نظرته ويكتشف العالم، لأن هذه الطريقة تغيره.

ـ ويسافر مع من؟

ـ أنا أسافر معه، يا طويل العمر.

ـ وتتركنا؟

ـ لا بد أن نتشاور مع لندن في أمور كثيرة تهم جلالتكم، وأن نصل إلى حلول مناسبة، وهذه لا تتم بالمراسلة، يا طويل العمر، يجب أن تبحث مباشرة، وأن نصل إلى قرارات.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ومن الأفضل أن يكون إلى جانبي ممثل عن جلالتكم، وسيكون هذه المرة فنر.

قال السلطان بانفعال:

ـ فيك البركة يا الصاحب. أنت صرت واحد منا، وتمون، وتعرف كل المشاكل والهموم.

ـ فرصة لفنر لكي يتعلم ويرى.

وبعد تردد لم يطل وافق السلطان، خاصة وأن هناك مشاكل عديدة معلقة، وقد طال انتظار حسمها.

قال عمير عندما عرف بسفر فنر:

ـ كنا خايفين عليه من كافر، هالحين أخذوه لديار الكفر.

موضي مرضت لأن فنر سافر، لكن والدها السلطان قال لها بحزم أقرب إلى التأنيب:

ـ ويلزمك تعرفين: فنر رجال، ما هو حريمة، وإذا راح اليوم يرجع ثاني يوم، وما أريد أسمع كلمة.

أما لفنر، وهو يودعه، فقد قال:

ـ وتسلّم لي على ملك الإنكليز، وتقول له: أبوي يسلم عليك كثير كثير السلام!

بعد سنوات طويلة قال هاملتون:

ـ تعمدت أن يكون السفر بالباخرة، لأنه يتيح لنا وقتاً طويلاً يمكن خلاله أن نتحدث، ويزول خوفه أو تحفظه، ونصبح بالتالي أصدقاء. كنت أريد لهذه النقلة الكبيرة أن لا تصدمه. فأن يتشربها على مهل، أن يتملى بها، تترك في قلبه وعقله أثراً لا يزول. فالتوقف في الموانئ، والنزول فيها، ثم ركوب القطار إلى لندن، يجعله أقدر على تحمل جرعات الدواء المر. لكن ما كاد يركب البحر حتى مرض. التوى عنقه وبرزت عيناه. تصورت خلال مرحلة من السفر أن الصبي سيفارقنا. لمت نفسي كثيراً، وتشاءمت. فهؤلاء البدو الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الطيبة والتسامح لا يتساهلون إزاء موت يعتبرونه غير طبيعي، وهم كثيرو الشك بكل ما ما تقوله لهم، بل ويصابون بالجنون، ولا يستردون وعيهم مرة أخرى إلا برائحة الدم، ولا بد أن يثأروا. بذلت جهداً استثنائياً، وقضيت أسبوعاً في الإسكندرية، إلى أن استعاد الأمير صحته. ولا أعرف كيف ركبني الشيطان مرة أخرى، قررت أن نواصل السفر بالبحر. ربما كانت هذه الحماقة ضرورية! فما كدنا نعبر جزر بحر إيجه، ونتجه غرباً، حتى أصبح الأمير مثل قط أليف. هل هو الشعور بالغربة؟ اختلاف اللغة؟ الريح الشمالية التي تهب من أقصى بقاع الأرض، والتي تختلف عن رياح الصحراء؟ إن شيئاً ما قد حصل، فبعد ذلك الهرب، الأقرب إلى النفور، وبعد المرض الغامض، والذي لم يجد له طبيب الباخرة، ولا أطباء الإسكندرية، سبباً، أصبح يقبل عليّ وفي عينيه ذلك الرجاء: ألا أتركه.

كنت أنتظر هذه اللحظة، وقد جاءت، ومنذ ذلك الوقت لم أتخل عنه!

فنر لا يحب أن يتحدث عن رحلته الأولى إلى لندن، أنها تجرحه، أو تسبب له ضيقاً، حتى بعد مرور السنين. إذ رغم كلمات هاملتون المشجعة، وابتسامات الذين زارهم، فقد ظل خائفاً. كانوا ينظرون إليه بطريقة لم يرتح لها أبداً. وكانوا يتبادلون فيما بينهم النظرات والكلمات ويبتسمون. وهو لا يعرف: هل يرد على ابتساماتهم بمثلها، أو يرد على الأسئلة، خاصة من النساء المسنات، والتي كانت تسبب له حرجاً لم يكن قادراً على إخفائه.

خاله عمير الذي خاف، أول الأمر، من تلك الزيارة، لم تعد له شيئاً يذكر، نظراً لما جاء بعدها. ففي فترة لاحقة أصبح يرد على الذين يسألونه في عين فضة عن فنر وأخباره، مع ابتسامة حزينة وهزة رأس:

ـ يا جماعة الخير: ابن الناس، أو غرض الناس، موكل عليه إبليس، وخريبط من يوم ما حط يده بيد الكفار، وسلمهم أولاده وعياله، ترى ما عاد بالدنيا خير.

وحين يعاودون السؤال عن فنر يرد بنزق:

ـ وفنر، إذا الله سلمه، يرد لأخواله، لأن ثلثين الولد خاله، مثل ما يقولون، وظني أن فنر ما ينسى مية عين فضة، والرحمان إذا دخل قلب البني آدم ما أحد يقدر يطلعه منه.

كان عمير يقول هذا الكلام، وبهذه الطريقة، لأن السلطان طلب منه، وبكلمات واضحة، وتخللها لحظة غضب، أن يترك فنر. قال له، بعد أن عاد فنر من زيارته، وجاء عمير هذه المرة للإقامة بموران من جديد:

ـ اسمع يا عمير، اسمع وتفطن زين، فنر ابنّا، ويربى بشورنا وبمعرفتنا. إذا طلع زين يطلع لنا، وإذا طلع شين حنا مسؤولين. والرجال إذا عنده سالفة، ويريد يعلمها لغيره، يعلمها لأولاده.

وبعد قليل، وقد أصبح السلطان ضيق الصدر:

ـ ودوخة راس يا عمير ما نريد، عندنا منها واجد، وكل واحد يدوّر اللي يفيده.

تهاني لا تتذكر من سفرة فنر إلى ديرة الكفر سوى شيء واحد: السبحة الزرقاء التي جلبها معه، ولا يعرف ما إذا كانت هدية لها أم للشيخة، فقد قيل، في البداية، انها لأمي زهوة، وقيل، بعد ذلك، أن الشيخة رفضت أن تمد إليها يدها، لأنها غير طاهرة. أما تهاني فتؤكد أن فنر قدمها إليها في اليوم التالي لوصوله، وقال إنها فيروز أصلي. أما للشيخة فقد جلب لها شالاً رمادي اللون ظلت تلبسه سنوات وسنوات. ولم تنس تهاني أبداً ذلك. أما حين فقدت السبحة، فقد شعرت بحزن شديد، وتفسر لولوة

حزنها بسبب ما ذكر عن قيمة السبحة، وقيل إنها عرضتها خلال فترة للبيع!

خزعل تأخر أياماً عن رؤية فنر بعد عودته. تعمد أن يبقى يومين إضافيين في وادي الرها، القريب من موران، بحجة أن مصالحة بين اثنين من الشيوخ المتخاصمين لم تنته، رغم أن المصالحة، كما يؤكد العارفون، تمت قبل وصول فنر بيوم واحد. علق خزعل على الكلام الكثير الذي نقل إليه حول سفرة فنر، وما رآه من عجائب، وما اكتسبه من خبرات، بحركتين وكلمة. فالحركات كانت طرقعة متقنة بلسانه، والثانية هزة من يده الكبيرة، إذ دارت في الهواء لتعطي معنى عدم الأهمية، أما الكلمة الوحيدة التي قالها فكانت:

- خرطي.

وموضي أيضاً لم تكن مهتمة أن تعرف أية تفاصيل حول سفرة فنر، كانت تريد عودته، وها قد عاد. ظلت ترقبه غير مصدقة، ورغم محاولته أن يهرب من نظراتها، وشروعه في الحديث عن ركوبه البحر، ورؤيته أشياء كثيرة، لكن حيث همت الدموع من عينيها، وكانت دموعاً هي خليط من الفرح والحزن، فقد احتضنها، ثم بدأ يسألها عن أخبارها وصحتها، وأخبار قصر الروض وعين فضة.

السلطان وحده لم يستطع أن يخفي فرحه وإعجابه. كانت لديه أسباب كثيرة لهذا الفرح، وكان إعجابه يزداد بالصاحب وفنر. أما حين تأكد من التفاصيل، وقد سأل هاملتون أولاً، ثم عرف كيف تم استقبال ابنه في البلاط الإنكليزي، وحفلات التكريم التي أقيمت له في كل مكان زاره، ثم الهدايا التي حملت إليه، والأسئلة التي وجهت للاثنين، وكلها تدور حول صحة جلالته، والصداقة التي تكنها حكومة صاحب الجلالة البريطانية لسلطان موران، والآمال المتوقعة من خلال التعاون بين البلاطين، بعد أن تأكد من ذلك، بدا شديد الفرح، واضح الانفعال. وفي الليلة ذاتها، وبعد أن ودعه هاملتون عند بوابة السور، طلب من فنر أن يرافقه، وأن يعيد على مسامعه تفاصيل الرحلة «من يوم ما تركتم موران، إلى أن رجعتم، يوم بيومه». وفنر الذي أعاد ذكر ما سمعه من هاملتون، في تلك الليلة بالذات،

لكن بطريقته الخاصة، وبمقدار ما فهم، أضاف تفاصيل أخرى حول الباخرة الكبيرة، وأمطار لندن، وعظمة القصور، وسفور النساء، وكان السلطان مسروراً بالغ السرور، ويردد كلمات بذاتها: «تعبنا ما راح، والجماعة يصدقون» وبعد قليل: «أي نعم التعب ما راح، والجماعة يصدقون».

ولم يسترسل السلطان في الفرح، فقد كان عقله يعمل على الأرض: ماذا يجب عليه أن يفعل غداً، وكيف يتعامل مع الآخرين، ومن هم أصدقاء اليوم، ومن هم الأعداء. لقد جاءه هاملتون ببشائر كثيرة، وعليه أن يعرف كيف يصل إليها وكيف يحافظ عليها.

قال السلطان لمهيوب:

ـ . . . ويلزم تعرف، يا مهيوب: ترى الخيل إذا طال قعادها تبغّل!

وحين هز مهيوب رأسه موافقاً ومنتظراً، تابع:

ـ وهالحين راح نطلّع حيفنا وحيفها. الضامرة، بنت الأصايل، ما ينخاف عليها، والمضربة، أما تشيلنا أو نتركها طعام للنسور. ويلزم تحضر نفسك وتخبر أهلك، لأن سفرتنا هذي المرة راح تطول، يا مهيوب، وعسى أن الله يرجعنا غانمين.

قال طالع العريفان:

ـ يا ناهي، يا ابن الفرحان، طويل العمر تحزم وتلزم، وشدوا روسكم يا قرعان. هالحين بلشتنا مع الحريمات والعجيان.

وبعد قليل، وهو يضحك:

ـ وإذا سفرته طالت، يا مبارك، هنا الواحد منا اصقى، ما يسمع إلا اللي يريده، تسمعني زين يا ناهي؟

رد ناهي وهو يقهقه:

ـ شنهو اللي تقوله؟

وبعد قليل، وقد تغيرت نبرة الصوت:

ـ مهما طالت، يا أبو جازي، ترى الحريمات ما ينسن، وما يغفرن،

فاحرص وتوق، وعسى يعود غانم، لأن إذا غنم ما يتذكر إلا غنمه، وإذا خسر يبلش بأقرب الناس إليه.

وما كاد الشتاء يقترب من نهايته وتبدأ أولى بشائر الربيع، حتى بدأ السلطان واحدة من غزواته الكبيرة، وكان يؤمل منها الكثير.

كان مع السلطان، في تلك الغزوة، عمه دحيم وابناه: خزعل وفنر. أما الصاحب فقد تأخر أسبوعين في موران، لأشغال طارئة، على أن يلتحق بالحملة، بعد ذلك.

واضطربت موران من أقصاها إلى أقصاها، ولم يبق أحد إلا وشارك فيما يجري. النسوة تملكهن الخوف، الخوف من الجوع ومن فقد الرجال، وقد عبرن عن ذلك بصوت عالٍ، لكن بمرور الأيام، وتزايد الإِصرار على الحرب ثم اقترابها، فقد غرقن في الصمت. والصبية الذين اقتربوا من سن الشباب ـ وقد اضطر آباؤهم لإبقائهم عند الأمهات والأخوات، لخوفهم عليهم، ولأنهم لم يكونوا واثقين من الوعود التي أعطيت لهم ـ شارك هؤلاء الصبية أكثر من غيرهم في تنظيف وتزييت البنادق الجديدة، وإعداد مجاند الفشك، أما الأسلحة القديمة التي استبقيت في البيوت فقد أعادوا فكّها وتركيبها مرات لا عد لها، ثم جربوها، وبرع عدد منهم بالتصويب. جرى كل ذلك دون أن يعرف الآباء، ودون أن تحس الأمهات، وبلغ الحماس بالكثيرين حداً جعلهم يطالبون أن يسمح لهم بالمشاركة في الحرب!

خدم القصر الذين يعرفون أكثر من غيرهم، وكانوا يرقبون ما يجري، قالوا بثقة: الشيخة فتحت خزاينها وطلّعت ذهبها، وقالت لخريبط: «هذا يومك يا أبو منصور... إذا تريد الذهب فهذا هو الذهب، وإذا تريد السلاح السلاح يجي بالذهب، ما عليك إلا أن تؤمر وتغرف، والناس تنتظر كلمتك، حتى تمشي تحت رايتك» والسلطان لم ينتظر: غرف من الأموال كل ما يستطيع حمله، واشترى من السلاح حمل ألف بعير!

بعض الذين يعرفون مزاج السلطان ورغباته، كانوا على ثقة أن للشيخة علاقة بالأمر، لكن لا يعرفون إلى أي حد. فأن يصطحب وطفة معه في هذه الحملة، وأن تصبح وطفة أحب النساء إليه، فلا بد أن تكون الشيخة

هي التي فرضت ذلك، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار أن ثلاثة من خصيان القصر، وكانوا من خدم فضة، أكدوا أن سيدتهم كانت تستعد لمرافقة السلطان، وقد هيأت كل شيء لتكون معه، إذ أمرت بحزم الخيام، وجهزت أنواعاً من الحنة والبخور، وأوصت على خمسين زوجاً من صغار الحمام، إضافة إلى كل ما كان عندها في الأقفاص، كما جمعت ما استطاعت جمعه من العسل، وبدت في نظر زوارها وكأنها تستعد لولد جديد أو لسفر. ونقل عن الخصيان الثلاثة، وقد قالوا ذلك وهم لا يخفون ابتساماتهم، أن السيدة كانت تصحب زائراتها لكي تريهن الحمام، أكثر من رغبتها في أن تريهن ما عندها من الجواهر والملابس، كما كانت تفعل من قبل. وأكد واحد من هؤلاء أنه رآها أكثر من مرة تتوقف عند أقفاص الحمام وتضحك بصوت عالٍ، تماماً مثل أية فرس حائل. وكانت تبدو سعيدة إلى أقصى حد!

لكن فجأة يتغير كل شيء، ويترافق ذلك مع الصمت، وكأن شيئاً مفاجئاً حدث، لأن السلطان بدا مختلفاً بسلوكه وملابسه وعلاقاته مع الناس، الابتسامات يوزعها أينما سار. الأموال تدفع بسخاء، الأسلحة الجديدة ومعها الذخيرة تعطى دون سؤال عن الأسلحة القديمة، أما الوعود فلا حدود لها ولا تتوقف!

سوق الحلال امتلأ بالإشاعات وكلها تؤكد، أن أسعار الجمال سترتفع إلى عشرة أمثالها.

وبالغ عدد من سماسرة السوق وقالوا إنها سترتفع إلى عشرين أو ثلاثين مثلاً. أما من يملك حصاناً ويريد بيعه فسوف يصبح غنياً بكل تأكيد.

وعشرات الأمور الأخرى حصلت أو تغيرت. فحملة وادي الغيض مليئة بالأخبار المتناقضة، والتي تصل أغلب الأحيان إلى حد التعارض الكامل، إذ رغم الأسلحة والإعداد، فقد قيل إن السلطان فكر بإلغائها أو تأجيلها، لكن فجأة دُقّت طبول الحرب وسار الجند إلى الجبهة. وفي وقت لاحق قيل إن السلطان كاد يقتل، إذ اكتشف في الليلة السابقة لمعركة

الحويزة مؤامرة لاغتياله، فتولى بنفسه إعدام خمسة من المتآمرين. وقيل إن الهزيمة كادت تقع في معركة القلعة، وهي واحدة من المعارك المهمة، وكان من الممكن أن تقرر مصير الحرب، أو ربما مصير السلطنة، لولا وصول إمدادات كبيرة من الأسلحة، ومن المقاتلين الأشداء. أكد الذين رأوا أو عرفوا بوصول المقاتلين، أن هؤلاء تولوا، وحدهم، مشاغلة العدو، أول الأمر، ثم إلحاق الهزيمة به، إلى أن استطاع السلطان أن يعيد تنظيم قواته. وقيل إن هذه القوات انسحبت بعد المعركة، دون أن يعرف الكثيرون من أين جاءت أو إلى أن ذهبت.

عدد من الذين كانوا يعملون في النقل والتموين، رأوا الشيخة زهوة ضمن قافلة كبيرة، وصلت على عجل، وكان معها الصاحب أيضاً، وقد اتجهت شمالاً، وخيمت على مسافة تبعد نصف يوم عن القوات الأساسية للسلطان. وأكد الذين رووا الأخبار أن القوة بوصولها قلبت الأمور وغيرت النتائج، وقد رجعت القوات بعد ثلاثة أسابيع، واتجهت غرباً، لكن لم يعرف ما إذا رجعت الشيخة مع القافلة أم لا. ولم يستطع أحد أن يحدد أو يؤكد دور الشيخة في هذه المعركة!

الأمير خزعل وقع في كمين، وقد أخذ أسيراً إلى قلعة الرفيعة، وحجز هناك، وبدأت مفاوضات بين عويد المشعان والخاطفين استمرت ثلاثة أيام من أجل إطلاق سراح الأمير خزعل. السلطان، حين بلغه الأمر، أبدى تساهلاً كبيراً، طلب أن تستمر المفاوضات مع الخاطفين، وأن يطيلوا أمدها، مع استعداد للاستجابة للمطالب، إلى أن تمكن من الانقضاض عليهم وتحرير خزعل.

وحول هذا الأمر تضاربت الأخبار والروايات. كثيرون على قناعة أن همّ السلطان كان الانتصار في المعركة أكثر من تحرير الأسرى، بمن فيهم خزعل. وغيرهم قالوا إن عدداً من جنود العدو تواطأوا مع السلطان، وقيل مع خزعل. بعد أن أعطاهم مبلغاً من المال. وهذا مما سهّل احتلال القلعة وتحرير الأسرى. أما الذين لا يحبون خزعل، فقد كانوا على قناعة أن الحظ والحظ وحده، هو الذين لعب دوراً في إنقاذه، لأن أوامر السلطان

بهذا الخصوص كانت واضحة: «دمروا القلعة»، وحين سألوه عن الأسرى، ردد نفس العبارة: «دمروا القلعة».

فنر كان ضمن المجموعة التي يقودها العم دحيم، وكانت مهمة هذه المجموعة مشاغلة العدو، إضافة إلى كونها الاحتياطي الرئيسي للقوات. طلب السلطان من هذه القوات أن تستعد انتظاراً لأوامر جديدة، إذ كان يريد أن يستعين بها عند الضرورة، من أجل الضربة القاضية والأخيرة، لكي لا يعزى لغيره تحقيق النصر!

لم يكتف السلطان باستنفار هذه القوات، فقد نقل قيادته إلى مواقع متقدمة، وتولى بنفسه إصدار الأوامر، وقيل أنه طلب من ابن مشعان أن لا يرحم أحداً في طريقه من رجال العدو، وقد سمعه بعض رجاله وهو يخاطب ابن مشعان، إذ قال له بالحرف الواحد:

ـ اذبح وامش يا عويد، ما نريد أسرى.

وحين أوعز لقوات الاحتياط أن تتقدم، كلفها وحدها، وكانت على رأسها عمه دحيم، أن تقبل مفاوضة سكان الحويزة، على أن يتم الاستسلام للسلطان ذاته. أما أثناء زحفه من الجهة الجنوبية تجاه الحويزة، فقد دفع عدداً من عيونه لكي ينشروا أخبار عويد وفظائعه، وأنه لا يضمن سلامتهم إلاّ الاستسلام للسلطان. وقد قبل فعلاً استسلام حاميات عدة وبلدات وهجرات كانت في طريقه.

الصاحب الذي ظل طوال الفترة الماضية في الخطوط الخلفية، وقد تنقل عدة مرات بين السلطان وعمه دحيم، وقائد الجند ابن مشعان، حاملاً رسائل وأوامر وذخائر، رغب في هذه الفترة أن يشارك في المعركة، رغم الاتفاق السابق الذي جرى بينه وبين السلطان على البقاء في المؤخرة، وهذا ما جرى تأكيده حين انتقلت القيادة إلى مواقع متقدمة. لم يكتف هاملتون بأن يرسل للسلطان من يعلمه برغبته في الانتقال، إذ انتقل فعلاً. ولما بلغ السلطان وصول الصاحب إلى هذه النقطة المتقدمة، وكان في ذلك الوقت يحكم حصاره على بعض المواقع المؤدية إلى الحويزة، استشاط غضباً، وبعث بمهيوب ومجموعة من رجاله لمنع الصاحب من

التقدم أكثر مما فعل، إذ كان يخشى من هجوم معاكس، ويريد من الصاحب أن يبقى قادراً على الحركة، وأن يلعب دوراً يتجاوز دور الجندي غير الحاذق، والذي يمكن أن يقوم به، وبكفاءة أكبر، أي من جنود جلالته، كما أنه تذكر كيف قتل فولر قبل بضع سنين، حين أصر على المشاركة شخصياً في معركة الرحيبة. كانت خسارة فولر فادحة، وقد سبّبت للسلطان آنذاك ألماً وحزناً، جعله لا يفارق خيمته لبضعة أيام. لا يريد الآن أن يخسر الصاحب أيضاً، ولا يريد أن يلخص دوره إلى مجرد فرد يحمل بندقية.

هاملتون الذي استجاب بضيق لرغبة السلطان بأن لا يتقدم أكثر مما فعل، كان بشوق عارم للمشاركة في المعركة الأخيرة، والمتوقعة بين يوم وآخر، لأنه يريد أن يعيش لحظات الخطر، كما كان يقول لنفسه، ويريد أن يشهد أيضاً سقوط الحويزة، ومثل هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً في حياة الإنسان. كما أنه ملّ تلك الأدوار المبهمة بنظر الآخرين، والتي يقوم بها في الخطوط الخلفية. يريد الآن أن يدلل على شجاعته وبراعته، ويريد أن يقول لكل إنسان، الآن وفي المستقبل، أنه شارك فعلياً في الحرب. وفي لحظة انفعال تمنى لو يجرح، ليكون الجرح علامة لا تفارقه مدى الحياة، وشهادة أمام عيون الذين قد يتطاولون عليه!

في حالات كثيرة كان يحس أن المسافة التي تفصله عن هؤلاء البدو لا يمكنه اجتيازها أبداً. لم يكونوا يعتبرونه غريباً فقط، كانوا ينظرون إليه بارتياب، وكان يرافق ابتساماتهم شيء ظل بالنسبة إليه عصياً على الفهم أو التفسير، وهذا ما يعذبه صحيح أنهم يظهرون الود، ويستمعون إليه، والكثيرون لا يترددون في أن يتناولوا الطعام معه، لكنه بنظرهم هش، وربما أقرب إلى النساء، أو الأطفال، وكان بعضهم لا يخفي نفوره منه، سواء بالابتعاد عنه، أو بالصمت، رغم الود الذي كان يبديه نحوهم والخدمات الكثيرة التي يقدمها لهم.

هذه المشاعر والمواقف كانت تعذب هاملتون، تجعله دائم الإحساس أنه غريب وزائد، وأن لا أحد يحبه أو يريده. ومع تفتح الطبيعة وتغير النوء

يحس أن جسده لا يطاوعه، إنه يتمرد عليه ولا يمكن التحكم به من جديد، خاصة بعد مرور فترة طويلة لم يلتق خلالها امرأة، إلا من خلال عمل عنيف، وليس أكثر من الحرب عنفاً يمكن أن تعيد له قدرته على ترويض جسده.

أحس السلطان، رغم انشغالاته الكثيرة، أن الصاحب لا بد أن يصيبه الجنون، تماماً كما حصل لفولر، ولذلك لم ينس أن يوجه إليه عمه بعد عودة مهيوب بيوم أو يومين. قال السلطان لعمه:

- . . . ومثل الكباش، يا طويل العمر أو مثل الكلاب، إذا ما صبّيت عليها الماء تظل هايجة وما أحد يحلّها. أتذكر خويه قبل كم سنة، هاش وعنفص، وحنا نهدّيه: يا ابن الحلال، يا صاحب، وابد، اندفع مثل الثور، وبعدها صار اللي صار.

استراح، تذكر، ثم تابع:

- ويلزم أن تقول له، أن توصيه، يا عم، لأنّا نريده لسوالف ثانية أكبر من هذي.

- وكل الله يا ابن آخي، وما يصير إلا كل خير.

مع دحيم كان هاملتون واضحاً:

- . . . ومثل هذه المعركة لا تحصل إلا مرة واحدة، ولا يمكن الكتابة عنها وتسجيلها إلا إذا أتيحت لي فرصة مشاهدتها، والمشاركة فيها.

- يا صاحب. . الجماعة طرشوا لنا مراسيل وقالوا: إذا أمنتم حياتنا وكرامتنا رمينا سلاحنا، والأمر أمر طويل العمر.

- ولماذا لا يريدني السلطان أن أكون إلى جانبه، وأن أشهد استسلام الأعداء وسقوط الحويزة؟

- طويل العمر يقول الجماعة غدارين، ويعرفون أنك أنت عدوهم، ويخاف طويل العمر من حماوة الدم، يمكن واحد تطقّ برأسه ويسوي اللي ما يتسوى.

لم يفطن هاملتون إلى هذه النقطة بالذات. قال لنفسه «إذا تبارى البدو

والثعالب في المكر فإن الثعالب لا تجد ما تفعله بوجودهم».

أخيراً تم الاتفاق، وبعد جهد، وقد تخللته لحظات غضب وصمت، أن يتقدم هاملتون، لكن شرط ألا يشترك في معركة.

كتب هامتلون بعد ذلك بسنوات طويلة:

«قضى السلطان مساء الثاني من أيار في الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم، مصدراً تعليماته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ الخطة، وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع أشجار النخيل، في واحة صغيرة قريبة، وأخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق. بينما وزعت حبال الآبار التي كان يحملها الجميع على أفراد فرقة المتسلقين، كي يدلوها من أعلى الأسوار، حين يبلغون أول هدف من أهدافهم.

وبدأ الزحف مشياً على الأقدام في منتصف الليل، فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الأسوار، فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام إلى الأبد. وقبل أن تفيق الحامية نفسها من الذهول الذي أصابها في الظلام كانت القلعة في أيدي جنود السلطان، فانسحب المدافعون إلى الجامع، وتحصنوا هناك في انتظار ما يجد من التطورات.

وفي هذه الأثناء استولى جنود السلطان على إحدى بوابات المدينة فتدفقت قوات خريبط للداخل، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية، لتزيد من قدر الذعر الذي تملك السكان، وتحمل العدو على الاعتقاد بأنه لا أمل لهم بالنجاة.

ثم إن جنود خريبط أسروا عدداً من الأعداء، فأرسلوهم إلى القائد ليطلبوا منه الاستسلام، ولكي يبلغوه أن السلطان يضمن سلامة أرواح الحامية، ووجهوا للمحاصرين تحذيراً بتفجير القلعة وهدم أسوارها إذا تأخر استسلامهم..

وحينئذٍ لم يجدوا بداً من الاستسلام، وهكذا سقطت الحويزة».

بعد سنوات طويلة والسلطان يتذكر:

ـ الشهادة لله، يا جماعة الخير.. في الحويزة ما تركت أحد إلا دزيته للصاحب. نشف ريقي إلى أن وافق.

وضحك بصوت عال وتغيرت نبرة الصوت:

ـ وهذول، يا جماعة الخير، لهم طبايع غير طبايعنا، إذا الواحد منهم عاند، إذا قال لا، ما أحد يقدر عليه، وبعد التي واللتيا، والله يرحمه عمي دحيم، تولى أمره، ظل يأخذ ويعطي معه إلى أن وافق يكون بالوجه، وقلت له أطرّش لك كل ساعة طارش وأخبرك بالعلوم كلها، ومن الوجه ظل يتابع بالدربيل، ومن عندنا طارش رايح وطارش جاي، ولما استسلموا بعثت وراه، قلت له تعال، جاء وحوطته بجماعة وحرّصتهم، خوف أن ابن حرام دمه فاير ويسوي لنا سواية، لكن الله سلّم وانتهى كل شيء على خير.. وظل الصاحب بعدها زعلان شهر أو شهرين.. وبعدها بكم شهر سافر وغاب شهرين ولما ردّ تغيرت أمور كثيرة!

لم تكد تمضي على معركة الحويزة سوى بضعة شهور حتى سافر هاملتون إلى بريطانيا بإجازة طويلة. كان بحاجة ماسة إلى تلك الإجازة، لأنه أحس بالإرهاق نتيجة الجهد الكبير والمتواصل الذي بذله خلال السنين الثلاث الأخيرة، ولأنه وقع فريسة لحالة سوداوية، بسبب الإحباط الذي جعله غير مفهوم. وبالتالي غير مرغوب فيه، من أغلب الذين يحيطون به، مما دفعه لأن يعتبر العمل الذي نذر نفسه له عديم الجدوى. أما زوجته، دورثي، فقد كانت لديها أسبابها الواضحة للسفر «لا أريد لابننا أن يولد في هذا المكان الموحش، والذي يسبّب للإنسان مرضاً لا يفارقه طوال حياته. أريد للطفل أن يولد في مكان طبيعي، وبظروف لا تجعله معقّداً أو حاقداً على أبويه». وهاملتون الذي وافق على رأي زوجته، وبدأ يعد نفسه للسفر، تذكر طفولته في ذلك المكان النائي. صحيح أن الذكريات تبدو غائمة مشوشة، وبعيدة أيضاً، لكنها تركت آثارها على حياته، وها هو الآن يواصل دفع ضريبة الميلاد، كما يقول لنفسه، خاصة في لحظات الندم.

لم يعترض السلطان على سفر هاملتون، ولم يتردد في الموافقة على أن يصطحب معه فنر. كانت لدى السلطان أسباب لا حصر لها: فبعد أن انتصر، وخضعت له الحويزة، داهمته مجموعة كبيرة من الأعباء والمشاكل لا بد أن يتفرغ لها. وكان بحاجة أيضاً إلى الأموال، خاصة المعونات التي وُعد بها، إذ بعد أن دفع له قسم منها توقف دفع الباقي، وليس مثل هاملتون من يستطيع إقناع الجماعة هناك بدفع تلك المعونات، أو ربما زيادتها. الأمر يتوقف على البحث والمتابعة في لندن، لأن المراسلات

طالت، والموفدين الذين جاءوا ووعدوا لم يفوا بوعودهم. يضاف إلى ذلك أنه لا بد من معرفة الموقف الجديد نتيجة معركة الحويزة. هل يتقدم أكثر في المرحلة الحالية؟ هل يوافقون على التخلي عن بعض أصدقائهم السابقين، والذين لم يعودوا نافعين أو قادرين في المرحلة الجديدة؟ هاملتون الذي كان واضحاً وحاسماً خلال الفترة الماضية يبدو الآن متردداً وأقرب إلى الحيرة، أو ربما لا يستطيع أن يقرر، لذلك لا بد أن يتشاور مع رؤسائه.

أما موافقة السلطان على سفر فنر فكانت لها ملابساتها الخاصة، ففي اليوم الثالث من عودة السلطان ظافراً، وما رافق تلك العودة من أفراح وأعطيات لم تشهد لها موران مثيلاً منذ وقت طويل، وصل رسول من عين فضة يحمل خبر وفاة الشيخ عوض. والسلطان الذي استاء للخبر أن يأتيه في هذا الوقت بالذات، أكثر مما حزن له، اضطر إلى اختصار بعض الاحتفالات، وإلى تأجيل زواجه من شما زوجة أمير الحويزة الذي قتل في المعركة!

خلّفت وفاة الجد لفنر وموضي حزناً أقرب إلى الفاجعة، وكأنهما فوجئا، أو لم يتوقعا موته أبداً. وإذا كانت موضي قد فجرت دموعها، أو تركتها تنفجر دون خشية، ودون اعتبار لرأي مَنْ حولها، فإن فنر الذي عاد من حملة وادي الفيض منتعشاً ومتفائلاً، ما لبث أن غرق في الصمت والحزن. وحين أوفد السلطان عمه دحيم لتقديم العزاء في عين فضة، فقد رافقه فنر دون استئذان، لقناعته أنه يقوم بعمل واجب الأداء، ولا يحتمل التردد أو التأجيل.

ولأن تلك الزيارة لعين فضة تأتي بعد بضع سنين من مغادرته لها، وضمن هذه الظروف، فقد جدد عمير أحزانه، وبعث من يبلّغ «أن الأمير فنر جاء لكي يتقبل العزاء ويستقبل المعزين» مما جعل فنر يمدد إقامته مرة بعد أخرى، ، وكأن الحنين إلى هذا المكان عاوده من جديد، أو على الأقل لكي يستقبل الذين جاءوا من أجل تقديم العزاء.

عمير اعتبرها مناسبة ليعلن نفسه رأساً للعائلة، ولكي يعلن معارضته،

أو على الأقل رأيه، في كل ما يجري، وكان نصيب «الصاحب» من الأخبار والملاحظات، وحتى السخرية وافراً! وقد وجد من نقل للسلطان ما يدور في عين فضة، وما يقوله عمير بالذات، وأضاف واحد من الأقرباء الذين شهدوا لقاء ضم وجوه المنطقة وما حولها، أن ثلاثة من معارضي خريبط حضروا هذا اللقاء أو أرسلوا من ينوب عنهم. لما سمع السلطان تلك الأخبار التفت إلى عمه دحيم وقال له:

ـ لما راح عمير لعين فضة قلنا استرحنا. ولما جاء ولدنا فنر لهنا قلنا خلصنا. لكن اللي به عادة أبد ما يتركها يا عم. وهالحين يلزم نفتّح عيونا زين، لأن عمير يريد يشيخ، وناوي على شر، ويلزم فنر يرجع اليوم قبل باكر، لأنه أبد ما يتأمن للذيب أن يسرح مع الغنم!

حين يتذكر فنر زيارته الثانية لبريطانيا، ويستعيد وقائعها، يشعر أنها وحدها التي غيرته، وكانت ضرورية إلى أقصى حد. فالملاحظة التي سمعها من أبيه عن الأحاديث التي دارت في عين فضة، كانت أقرب إلى العتاب، وجعلته يشعر بتأنيب الضمير، إذ قال له أبوه، وهو يبتسم بحزن:

ـ أنت، يا فنر، أملنا بعد الله، ونريدك سيفنا اللي نحارب به، وظني أنك أبد ما ترضى تكون بمكان أو مع ناس يقولون علينا فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجة السلطان، صارت أبوية تماماً:

ـ وخالك، يا وليدي، متوهم وراعي تمني، يظن إذا صارت القسمة أنك أنت من نصيبه، وكأن ما يعرف أن فنر ابن أبوه، وأن الدم أبد ما يصير ماي. وهذي الأحلام يلزم يشيلها من راسه خالك، يا وليدي، وإلا صار مثل اللي يزرع طاية!

ولم يترك السلطان الندم يستبد بفنر، خاصة في هذا الظرف، ولذلك فإن اقتراح هاملتون جاء في الوقت المناسب. فأن يسافر فنر لفترة طويلة في هذه الرحلة، لا بد أن ينسى، وخلال غيابه يمكن أن ترتب الأمور من جديد. قال له أبوه بمودة:

ـ الصاحب، يا وليدي، طلب وترجى، أن تروح وياه بالسفر، قلنا له: على خيرة الله. شنهو قولك أنت؟

وخلال بضعة أيام بدأت الرحلة.

الزيارة السابقة كانت ثقيلة، أقرب إلى الواجب. يتذكر فنر ذلك بوضوح. أما الآن، وبعد الأحاديث التي سمعها من هاملتون، فقد أصبح مستعداً. وزادت رغبته حين سمع تلك الأخبار، والتي راجت همساً، عن أسر خزعل. قيل إن العملية دبرها خزعل بنفسه، وقد أثارت من السخرية قدراً يفوق ما أثارته من استغراب، مما حمل السلطان على الغضب والتهديد بأوخم النتائج بسبب هذه الخدعة التي انطلت عليه. ونقل عن عدد محدود من نساء القصر أن الشيخة أخذت في هذه الفترة تتحدث عن فنر بكثير من الحمية والاهتمام، الأمر الذي فسر أنها تريده سلطاناً بعد أبيه. وقد أكدت موضي أنها سمعت ذلك من تهاني، وأضافت أن الشيخة حين سألها بعض النسوة، ممازحات، ردت وهي تبتسم: «كل شي بوقته زين».

العم دحيم لما علم بنية فنر على السفر قال له وهو يربت على كتفه:

ـ الخير فيما اختاره الله...

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وبأيامنا، يا وليدي، وكنا بعمركم، أكلنا قلوب أهلنا إلى أن سمحوا لنا نسافر، والسفر ذيك الأيام شلعان قلب، ما هو مثل هذه الأيام...

هز رأسه عدة مرات، ثم التفت إلى أكثر من جهة ليتأكد أن لا أحد يسمعه سوى فنر:

ـ والأحسن أن تغيب عن الوجه كم شهر بعد سوالف عين فضة!

في اليوم الثالث لوصوله إلى لندن تخلى فنر عن ملابس البادية، بناء لطلب هاملتون، وكان سعيداً أن يفعل ذلك، لكي لا يبدو بنظر الآخرين مجرد لعبة لا يملون من النظر إليها والابتسام. وشعر بحرية أكبر حين اقترح هاملتون أن يقضوا أطول فترة ممكنة في الريف: «الريف الإنكليزي هادئ وجميل. هناك لا أحد يزعجنا، والناس، بعد بضعة أيام، يألفون الزائر ويصبح مثلهم أو واحداً منهم. عكس لندن التي تسلّي نفسها وتتغلب

على ضجرها بالنظر إلى الوجوه، خاصة وجوه الأجانب، وتبتسم بسخرية». فهم فنر جزءاً مما قاله هاملتون، أو بالأحرى فهمه بطريقته الخاصة. فتلك الضجة التي كانت تحيط به في كل خطوة يخطوها، في الشارع، في المطعم، في بهو الفندق، كانت تسبب له الخوف، أو على الأقل الحرج، فهو لم يتعود على مثل هذه الأجواء، ويبدو أنه لن يتعود عليها أبداً.

لم يقتصر هاملتون على ذلك، قال له وهو يبتسم:

ـ ويجب أن تتعلم الإنكليزية. إذا تعلمت الإنكليزية سوف تتفوق على جميع إخوتك، وسوف تفاجئ السلطان وتفرحه إلى أقصى حد، خاصة إذا توليت الترجمة بينه وبين زواره الأجانب!

وفنر الذي فتح عينيه بفضول ودهشة، رد بخجل:

ـ اللغة الإنكليزية صعبة، ولا يمكن أن يتعلمها الواحد إلا في المدرسة. قهقه هاملتون وهز رأسه عدة مرات، وبعد أن هدأ قال:

ـ كل شيء يبدو صعباً في البداية. تذكر زيارتك السابقة إلى لندن، كنت خائفاً، وكنت تسألني كل يوم عدة مرات متى نعود إلى موران. الآن أراك في وضع أفضل، خاصة بعد أن لبست الملابس الأوروبية.

التمعت عينا فنر، وهز رأسه موافقاً. تابع هاملتون:

ـ واللغة الإنكليزية تبدو صعبة في المرحلة الأولى، لكن حين تخصص لها بضع ساعات كل يوم سوف تجدها أسهل مما تتصور.

ـ بدون مدرسة؟

ـ سوف ننشئ أنا وأنت مدرسة خاصة بنا...

ضحك، نظر إلى فنر، ثم تابع:

ـ مدرسة ليس فيها سوى طالب واحد، وعدد محدود من المعلمين. وهؤلاء المعلمون يمكن أن يكونوا رجالاً مسنين، أو أفراد عائلة، أو...

وشرح هاملتون، بكثير من الإغراء، سهولة تعلم اللغة وضرورتها، وأن ذلك سيكون في الريف، ومن خلال الاحتكاك والعيش مع عائلة، وأنه

سيتولى الأمر بنفسه، ولذلك لن تكون هناك صعوبات من أي نوع، خصوصاً وأن الحاجة اليومية تتطلب أن يبذل جهداً لكي يتفاهم مع الناس اعتماداً على نفسه بشكل مباشر.

يتذكر فنر أن السببين اللذين جعلاه يوافق: رغبته أن يتفوق على إخوته، وبالتحديد على خزعل، وأن يفاجئ أباه.

فترة طويلة ومضنية مرت على فنر. وقد تخلل تلك الفترة الارتباك، والرغبة في العودة، والتوقف عن «الدراسة»، إضافة إلى المرض. لكن الطرفين أصرا، والجهد الاستثنائي الذي بذله هاملتون، واستقرارهما خلال الشهرين الأخيرين وحدهما، بعد أن سافرت دورثي والطفل إلى ولز، وسافر المرافقون والحرس إلى موران، بناء لاقتراح هاملتون وموافقة فنر والسلطان. كما أن اختيار مكان أقل رطوبة من الأمكنة الأخرى، كل ذلك جعل الأمور تسير سيراً أفضل. أصبح فنر قادراً على أن يتكلم مع الآخرين، وأن يعبر عن بعض ما يدور في ذهنه. صحيح أن الجمل التي كان يستعملها بسيطة جداً وقصيرة للغاية، لكنها كافية لكي ينقل ما يريد قوله.

ومما ساعد كثيراً في الوصول إلى هذه النتيجة المس ماركو، عمة هاملتون، فعندها كانت المحطة الأخيرة من الرحلة، وأطولها. كانت المس ماركو أروع النساء، والإقامة عندها ومعها أجمل وأمتع أيام الرحلة، لأن هذه الكهلة لم تكن تجيد الطعام الشرقي فقط، وإنما تعرف أيضاً كيف تتحدث، وكيف تحمل الآخرين على الحديث، خاصة وأن فنر كان يبقى معها أياماً طويلة متواصلة، أثناء غياب هاملتون، من أجل ملاحقة بعض الأمور الهامة المتعلقة بالسفر والعمل، كما كان يقول موضحاً ومعتذراً، لكي يقضي أياماً عديدة في لندن.

كانت المس ماركو بالنسبة لفنر خليطاً من المعلمة والأم والصديقة. والأيام التي قضاها معها في أكسفورد ظل يتذكرها، ولا يمل من استعادتها، حتى بعد مرور سنين طويلة. أما غياب هاملتون، والذي تكرر عدة مرات خلال هذين الشهرين، فلم يكن يسبب له إزعاجاً، أو فراغاً

كانت المس ماركو تعرف كيف تنظم برنامجاً حافلاً لكل يوم، حتى الأيام الماطرة، وتلك الأيام الأخيرة، حين بدأ يسقط الثلج، كانت تجد ما يفعلانه بكثير من المتعة والرغبة!

والمس ماركو التي قضت عشرين سنة في سيلان كممرضة أولاً، ثم كرئيسة ممرضات، والتي تنقلت في تلك البلاد من مكان لآخر، وعرفت دقائق وتفاصيل حياة الناس وطبيعة الأرض، اكتسبت خبرات ومعلومات لم تتح للكثيرات غيرها، وقد سجلت كل ذلك في كتابين، وكانت فخورة جداً بهذا الإنجاز، لأن الكتابين يمثلان خلاصة تجربة ومعلومات وفيرة.

بعد أن تركت سيلان مختارة، ذهبت إلى جنوب إفريقيا، وقضت هناك سبع سنين، وكانت حصيلة تلك السنين كتاباً ثالثاً. صحيح أن الكتاب الأخير أقل أهمية من حيث المعلومات، لكنه أكثر نضجاً بالنسبة لتجربة الإنسان، هكذا كانت تشير باعتزاز. أما الصفحات التي قرأتها لفنر فقد اختارتها بكثير من الحرص. كانت تضطر أثناء القراءة لأن تتوقف، لتشرح، لتعلق، لتشير إلى ما وراء المعاني المباشرة، وفنر الذي كان يستمع بانتباه لم يكن قادراً على إدراك المعاني الكبيرة التي تلفت النظر إليها وتريد إيصالها، ولم تمل أبداً من إعادة القراءة والشرح. كانت تنزع نظاراتها، وتضعها في طرف الفم، وتبدأ. وكثيراً ما لجأت إلى الوقوف، إلى التمثيل، إلى تحريك يديها وتحريك قطع الأثاث أيضاً!

قبل نهاية الرحلة بأسبوع، وأثناء غياب هاملتون، حرصت المس ماركو أن تهدي كتبها لفنر. فعلت ذلك بكثير من الجلال والاهتمام، ولم تنس أن تشير إلى فلسفتها في الكتابة، إذ ذكرت أن الكتابة إذا لم تكن من القلب، وإنما هي نتيجة القراءة وحدها، أو التأمل وحده، فعندئذٍ لا تكتسب أية أهمية ولا تشكل إضافة حقيقية، وأن هذه الكتابة إذا لم تكتب اليوم فيمكن أن تكتب في وقت آخر، أما التجربة، أما حياة الإنسان، أي إنسان، فإنها لا تتكرر، رغم ملايين البشر، وهي وحدها الجديرة بالتسجيل، لكي ندرك بعمق ودقة من خلالها معنى الحياة.

كانت فنر مفتوناً بكل ما يراه وما يسمعه، فلأول مرة في حياته يكون

قريباً من امرأة بهذا المقدار. جدته، رغم حبها وحنانها، كانت كتلة من السواد والاختلاط، وبعض الأحيان من الغياب. فالملابس السوداء الفضفاضة، وذلك الانشغال بالذين حولها، ثم تلك الليالي المليئة بالصمت أو بأصوات الرياح، كانت تجعلها موجودة وغير موجودة في آن واحد. حتى في ليالي السهر أو ليالي الفرح، حين يتحدث الإنسان مع الآخرين أو يغنّي، أو حين يستمع إلى أحاديثهم وأغانيهم، كانت تشغلها أصوات الأطفال وأمراضهم، وكانت تشغلها طلبات الشيوخ أو نظراتهم، فإن لم تنشغل بهؤلاء فالقطط والكلاب والحيوانات الأخرى لا بد أن تسترعي اهتمامها. ولا يتذكر فنر جدته إلا وهي راكضة، وكثيراً ما كانت تنام وهي جالسة قرب الموقد، وتتظاهر أنها تتابع الأحاديث التي تدور!

المس ماركو امرأة من نوع آخر، إذ رغم تقدمها في السن، كانت تبدو مثل طائر ملون. صحيح أنه لم يجرؤ على النظر إليها طويلاً، أو التدقيق بملابسها وزينتها، لكن كانت تملأ جو الغرفة بوجودها ورائحتها، وتجعل من يجلس في مواجهتها يحس بكثافة هذا الوجود وطغيانه، ويشعر أكثر من ذلك أنها له وحده. أما إذا تحدثت فإنها تستحضر الأشياء وتعطيها ملمساً خشناً، حتى لتبدو في كثير من الأحيان وكأنها تنبثق من جديد. تتكلم بهدوء، تنظر إلى العينين مباشرة، تحرك يديها بطريقة من يصنع شيئاً؛ وحين تبدأ باستعادة ذكرياتها فإنها تفعل ذلك بلذة، وكأنها تعيشها مرة أخرى.

كانت تفوت فنر، في حالات كثيرة، كلمات ترد في أحاديث المس ماركو، لكن يقدّر معناها من الإشارات، من الانفعال الذي يملأها، وكان مستعداً لأن يكتفي بذلك، لكن المس ماركو امرأة حازمة ودقيقة، ليس بالنسبة لنفسها فقط، وإنما بالنسبة للآخرين، وبنفس القدر، إذا أحست أن بعض الكلمات فاتت من يستمع إليها فلا بد أن تتوقف، أن تسأل، أن تشرح، وكانت تلك أيضاً طريقتها في التعليم.

قال هاملتون لسمو الأمير، بعد عدة سنين، وهما يستعيدان ذكريات تلك الرحلة:

ـ المرأة التي أثّرت في حياتي كان عمتي ماركو. أثرت فيّ أكثر من أمي ومن جميع معلماتي. لأن أمي كانت تعتبر أن إقامتنا في ذلك المكان النائي عقوبة حكمت بها علينا الأمبراطورية، وكانت تحسب الأيام والشهور بنفاد صبر لكي تنتهي العقوبة ونعود إلى الحرية، كما تقول، أي نرجع إلى بريطانيا. عمتي ماركو كانت نمطاً آخر: جاءت إلى سيلان بمحض إرادتها ورغبتها، وكانت تجد متعة في أن تكون هناك. أكثر من ذلك كانت تواقة لأن تعرف كل شيء، ولم تتردد في أن تتعلم عدة لغات محلية. وإليها الفضل في أن أتوجه إلى اللغات الشرقية. كانت تقول باستمرار، وربما لنفسها بالدرجة الأولى، وتحب أن يسمع الآخرون: «يجب ألا نخدع بما نراه على السطح، فالشرق أعمق ممّا يبدو، وأخطر مما يفترض الكثيرون، لأن ما يعتمل فيه من التاريخ والتقاليد والأساطير بمقدار ما يعيقه ويثقل عليه، فإنه يمده أيضاً بطاقة على المقاومة والاستمرار... وربما التجدد. وبداية فهم الشرق أن نعيش فيه، أن لا نتعامل معه برفض أو كراهية، وأن نتعلم لغاته، لكي نفهم كيف يفكر وكيف يعبر. فاللغة أساس فهم الآخر، وبداية حوار حقيقي...».

يصمت هامتلون قليلاً، نتيجة الأفكار التي انبعثت فجأة وعبقت في ذاكرته، لكنه لا يريد أن ينساق معها، يتابع بنفس النبرة:

ـ ولأنها عاشت خارج بريطانيا سنين طويلة، واحتكت بأعداد كبيرة من الأجانب، فقد أصبحت أحسن معلم للغة. تعرف كيف تعلّم، وأي شيء أسهل لأن تبدأ به.

ابتسم فنر وكأنه اكتشف أنه كان ضحية مؤامرة بين هاملتون وعمته، سأل مداعباً:

ـ ألهذا السبب اخترتها لي لكي تعلمني اللغة؟

ـ اخترتها بشكل خاص لأنها تعرف كيف تتعامل مع شعوب أخرى، ولأنها تعرف ما ينبغي للملوك أن يتعلموه قبل غيره.

قهقه فنر طرباً، وبعد أن هدأ نظر في عيني هاملتون بإمعان. وهو لا يفعل ذلك إلا نادراً. وهامتلون إذا كان يخاف أحداً أو من شيء، فتلك

النظرات المكتشفة الكاسحة، التي تنفجر، كما يقول لنفسه، فجأة من تلك الوجوه المغبرة القاسية، وجوه البدو. إنها نظرات ليس هدفها الرؤية، وإنما تقشير الشخص المقابل، وتمزيق أي رداء يرتديه، وبهدف أن تمنعه كلية من أية إمكانية للكذب. سحب هاملتون عينيه بعيداً وعاود الحديث:

ـ والعمة ماركو تعرف ما ينبغي للأجنبي أن يتعلمه من اللغة الإنكليزية، ولذلك تجعل هذه اللغة مرنة، حية، وملبية لحاجات حقيقية. أي بكلمة أخرى: لغة محبوبة. إنها تعتبر أن حب أي شعب يتطلب، بالدرجة الأولى، حب لغته، تماماً كما أحبت هي لغات الشرق، وكما جعلتني أحبها أيضاً، وكما تريدك أن تحب اللغة الإنكليزية... وهذا هو الأساس الحقيقي لتعلم اللغة.

وفنر الذي يشعر بالاعتزاز والتفوق إزاء إخوته، لأنه سافر وتعرف على العالم، ولأنه تعلم اللغة الإنكليزية، إلا أنه ظل حتى النهاية خجولاً أو نفوراً من استعمالها. وحين يستعملها مضطراً فإن الكلمات البسيطة والعبارات القصيرة تشكل عماد هذه اللغة. أكثر من ذلك يتجنب استعمالها قدر ما يستطيع أثناء وجوده في موران، نتيجة ما سمعه من تعريض، حتى من خاله عمير، والذي كان يردد مع المسنين: «إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فإن الإنكريزية لغة أهل النار» وقد تجنب عمير سؤاله ما إذا تعلم اللغة الإنكليزية أم لا، لئلا يتغير موقفه منه، ولكي لا يشعر بخيبة أمل فيما لو عرف أنه يعرفها!

لم يكتفِ فنر بتجنب استعمال اللغة الإنكليزية، كان يريد أن يتفوق على الآخرين بلهجة البداوة ذاتها، خاصة وأن خزعل لا يخفي اعتزازه بأنه يتقن هذه اللهجة أفضل من أي بدوي! وإذا كانت إحدى الهوايات المحببة للسلطان أن يقيم المباريات في شعر البادية وأمثالها، وكان يروق له أن تجري تلك المباريات بحضور أولاده وبمشاركتهم، وكان خزعل لا يخفي براعته، فإن ما لدى فنر من رصيد اختزنه في عين فضة، من لياليها الطويلة، ومن أحاديثها التي لا تنتهي، ثم ما جهد لأن يتعلمه في وقت لاحق، لفتا نظر الكثيرين.

قال العم دحيم ذات ليلة للسلطان:

ـ . . . وظني، يا أبو منصور، أن البني آدم إذا ما تعلم وهو صغيّر ما يتعلم إذا كبر.

لم يعترض السلطان، لكن فضّل الصمت، ليفسح لعمه توضيح ما يريد قوله. تابع العم:

ـ وإذ ما رضعه مع حليب الأم ينفطم عنه وعن الحليب جميع!

ـ وأكثر من هذا يا طويل العمر؟

ـ ذيك الليلة، وحنا نسمع كلام فنر عن أمثال عين فضة، ترى قال كلام يعجب، كلام زين، والولد فطن وذهين!

ضحك السلطان بنشوة، ولم يعلق، تابع العم:

ـ وعيشته مع البدوان فادته واجد، يا أبو منصور، تعلم منهم العلوم الزينة!

أما هاملتون الذي كان يحضر هذه المباريات، وكان بعض الأحيان يستعين بمن يشرح له معنى أو مغزى كلمات معينة، وكان دوره الصمت والمراقبة، فقد قال لفنر في إحدى الليالي، وهما في أكسفورد:

ـ . . . ومن الأفضل أن لا يظهر الإنسان كل ما يعرفه، خاصة أمام المنافسين، بل أكثر من ذلك يجب أن يترك لهم بعض الأشياء التي تميزهم، أو التي يفاخرون بها، لأن تركها لا يشكل خسارة بالنسبة له، وربما يشكل بالنسبة لهم وَهْمَ الربح، وفي اللحظة المناسبة، عندما تبدأ اللعبة الحقيقية نكتشف الرابح والخاسر دون خطأ!

وفنر الذي تعود الصمت والإصغاء بعلاقته مع هاملتون، كما تعود مع كبار العائلة، خاصة أبيه، لم يعلق. أما هاملتون فكان متأكداً أنه يكلم نفسه، حتى تلك اللحظة، أكثر مما يكلم فنر. تنحنح وخرج صوته مصقولاً:

ـ أن يعرف خزعل شعر البادية وأمثالها أحسن منك لا يعني شيئاً مهماً، هناك أمور أكثر أهمية، وهذا ما يجب أن تعرفه جيداً!

صمت فنر، لكن عرف، أو بالأحرى أحس، معنى كلمات هاملتون. لأول مرة، بوجود شخص آخر، يحس بالخوف وبشيء من الخطر. وإذا كان قد تعلم شيئاً مهماً في عين فضة، فالكتمان. قالت له جدته ذات ليلة، وقد سمعت كلاماً لم يرضها. قالت وهي تزفر مثل جريح عطشان:

ـ . . . وأخذ حليمة، أمك، الله يرحمها، حتى يلقم جماعتنا حجر، حتى يقول للقريب والبعيد: وهذول أخذنا منهم وصاروا رجالنا، ويلزم يسكتون. لكن أملنا فيك، يا وليدي، ويمكن على يد الله وعلى يدك تتعدل الأمور.

صمتت قليلاً ثم خفضت صوتها وكأنها تتآمر:

ـ هذا الكلام بينّا، يا وليدي؛ حجر ببير، لا أحد شاف ولا أحد سمع، وإذا عرفوا ذبحونا جميع!

بلمح البصر تذكر فنر كلام جدته، وقارن بما يسمعه من هاملتون الآن. بدا له العالم مجموعة كبيرة من الصخور تتلاطم، لكن بصوت مكتوم، ولا بد أن تحطم صخرة باقي الصخور، أو مجموعة كبيرة من السكاكين الهائلة تنغرز في اللحوم، دون صوت وفي الظلمة، ولا بد أن تقضي سكين على باقي السكاكين.

وجاء صوت هاملتون، من جديد، حاداً واضحاً:

ـ وأنت تعرف شيئاً مهماً، لا أدري أين تعلمته، لكن يجب أن تحافظ عليه: الصمت.

تنفس بعمق، وبعد قليل تابع، وكأنه يحدث نفسه:

ـ الصمت سلاح الأقوياء أكثر مما هو سلاح الضعفاء أو الجبناء، لا تنس ذلك!

في لحظات معينة، وبعض الأحيان بشكل مفاجئ، وخلال زمن أسرع من البرق، يتعلم الإنسان ويكتشف ويرى ما لا يتاح له عبر أزمان طويلة. فجأة يتبين ويتأكد أنه كان نائماً أو ساهياً، أو ربما كان طيباً إلى درجة الغفلة. الآن، من الكلمات القليلة، واستبدت في ذهنه صورة جدته، قال

لنفسه بحزن: «إذا نويت لا تعلّم بطاريك. . . وإلا رحت طعام للنسور، والأيام بينا».

ولما كانت معركة وادي الفيض، ثم معركة الحويزة، قد غيرتا الكثير في موران، فإن عودة هاملتون وفنر، بعد هذه الرحلة الطويلة، وما رافقها من حفاوة السلطان واهتمامه، جعلت الأمور تأخذ مسارات لم تكن بالبال.

خلال شهور الرحلة انتظرت موضي كثيراً، وبكت كثيراً، وكان لديها الكثير لتقوله لفنر بعد عودته، لكن حين رأته يعود، اختلطت دموعها بضحكتها، ولم تستطع أن تتكلم. نظرت إليه طويلاً، ثم هجمت عليه، ولم تجد إلا قبضتها وسيلة وحيدة للتعبير، إذ جمعتها وضربت كتف فنر، ضربته بقوة. فلما ضحك بصخب قالت قطمة بعتاب:

ـ عوّرتيه يا بنت الحلال. . ضربتيه على كتفه ذاك!

فتحت موضي عينيها بخوف، إذ تذكرت جرحه القديم. سألت بتوسل:

ـ صحيح تعورت؟

رد بضحكة قوية، أقوى من الضحكة الأولى. قالت قطمة:

ـ وأنت يا سيدي. . ما لك حق، طولت أكثر من اللازم!

قالت له موضي من بين دموعها الصغيرة:

ـ بعد اليوم ما راح تسافر!

قالت تهاني التي وصلت في تلك اللحظة لتسأل عن الهدية قبل أي شيء آخر:

ـ اللي يطوّل الغيبات يرجع بالغنايم.

وبعد قليل:

ـ وهالحين حنا فكينا شلينا ويلزم ترمي به شي. . حتى لو حجر!

وانصرفت موضي وقطمة إلى فتح الحقائب وترتيب الثياب، واستخراج الهدايا، وبدأت تهاني تقصّ على فنر ما حدث في غيابه:

ـ . . . وبسفرتك، يا طويل العمر، جاك ثلاثة أخوة، وخمس خوات. وبعد ما أبوك عرسّ على شما أخذ بنت ملاهد. وأبوك تلاسن مع خالك عمير. والشيخة تطريك دايماً بالخير. وأخوك خزعل عرّس نوبة ثانية. وفضة حامل ومولّدة بين يوم والثاني، ووطفة. . .

صرخت موضي من الغرفة المجاورة.

ـ يا معوّدة. . يرحم والديك، يا تهاني، يكفي، دوختي راسه!

ظلت شخصية عويّد المشعان محيرة، وتثير عواطف متناقضة في عقول وقلوب الذين يعرفونه أو يسمعون به. فهذا الرجل الذي يشبه الظل بملامحه وحجمه، والذي يختبئ في عباءته كما تختبئ قطرة الماء في الغيمة، ولا يكاد يلتفت إليه من لا يعرفه، هو ذاته الذي تخيف باسمه الأمهات أولادهن لحملهم على النوم أو الصمت، أما في مجالس الرجال فقلما تخلو ليلة من حديث أو خبر يحكى عن غزواته وشجاعته وقسوته أيضاً، إلى جانب الأحاديث التي تتطرق إلى عدله وعزوفه عن الغنائم، بحيث يوزعها على رجاله، ولا يمدّ يده إلى قشة منها. أما عن إقدامه وذكائه فإن الوقائع تختلط بالخيال أو الوهم، إذ كثيراً ما ينسب إليه ما وقع لغيره، ويتبارى الرجال في رواية أدق التفاصيل عن حياته، لإظهار معرفتهم الكاملة بكل شأن من شؤونه. حتى الذين لم يكونوا من جنده، أو لم يروه في حياتهم، فإنهم لا يترددون في الحديث عنه بثقة تصل درجة المبالغة.

ليس ذلك وحده مبعث الحيرة والتناقض في شخصية عويّد المشعان، فإن تواضعه، وانعدام الفروق بينه وبين من هم في أمرته، في الملبس والمأكل، ثم ذلك الحرص الذي يبديه نحو كل رجل من رجاله، يجعله مختلفاً عن شيوخ العشائر الآخرين، وعن أمراء الجند، ويجعله مختلفاً بشكل خاص عن رجال خريبط المقربين.

يتعامل معه السلطان بطريقة مختلفة عن تعامله مع الآخرين، إذ بمقدار الإعجاب الذي لا يخفيه نحوه، ولا يتردد في أن يبديه علناً، فإنه شديد الحذر منه، خاصة وأن إحدى الصفات التي لم يتخل عنها عويّد هي الصمت. فوراء صمته كان يختبئ، ولذلك لا يعرف أصدقاؤه وأعداؤه

كيف يفكر، أو ماذا سيفعل. المرات القيلة التي تحدث خلالها عما يجب أن يفعل في حملة وادي الفيض، أو في معركة الحويزة، أو غيرهما، اقتصر حديثه على أفكار واقتراحات قالها بأقل الكلمات.

بعد معركة الحويزة بسنة وبضعة شهور، جرى الحديث بين السلطان وهاملتون لأول مرة عن عويد المشعان. إذ لم يسبق لهما من قبل أن تحدثا عنه حديثاً دقيقاً أو بطريقة واضحة وكاملة. صحيح أن ذكره كان يرد كثيراً، خاصة أثناء التحضير لحملة من الحملات، لكن ما دام غائباً في البقعا، فإن الحديث عنه يرد بشكل غير مباشر، ويغيب بسرعة، ربما لأن الحيرة التي تميز شكله وشخصه تجعل الموقف منه ملتبساً، ومؤجلاً أيضاً.

ورغم الفترات التي قضاها مع السلطان، والرسل بينهما إذا كانا بعيدين، فإن ما كان يحس به السلطان، وما يرشح إليه من أخبار وأحاديث، ثم ما ينقله الرسل، يجعله في حالة من التوجس أقرب إلى الشك أو الخوف.

إذا جاء عويد إلى موران، وكانت له في السنة زيارة أو اثنتان، تتبدد الشكوك، ويسيطر جو من المودة، لأن ما يلقاه من الاهتمام والحفاوة يفوق ما يلقاه غيره من الشيوخ وقادة الجند. لقد كان جزء من الاهتمام الذي يوليه له السلطان، بالإضافة إلى ضخامة ما يحشده من القوات، نوعية رجال عويد المشعان، فهم يختلفون عن الآخرين، لأنهم يعرفون من أجل أية قضية يقاتلون. هكذا كانوا يقولون، وهكذا كان يردد عويد. كان يقول، ويخرج صوته مرتجفاً من الانفعال:

- نحارب في سبيل الله. ومن أجل إعلاء كلمة الحق...

ويقول لرجاله بثقة:

- أنتم مثل المسلمين الأوائل تحاربون من أجل أن ينتصر الإسلام، لا من أجل أرض ومغنم، ولا من أجل إرضاء فلان أو فلان، فإذا انتصرتم سدتم في الأرض، ومن يُقتل منكم فمثواه الجنة.

ولأن الحرب كانت من أجل هذا الهدف، فإن لرجال عويد قدرة غير محدودة على الاستمرار والصبر والتحمل بنظر الجميع.

في فترة مبكرة حاول السلطان أن يسمي إلى جانب عويد عدداً من المساعدين يختارهم بنفسه، لكن المحاولة فشلت لأن الجند لم يطيعوا هؤلاء، مما اضطر السلطان أن يترك له اختيار معاونيه. أما الذين حاولوا منافسته، وأن يرفعوا قاماتهم إلى مستوى قامته، بدافع الطموح أو بدفع من السلطان، فقد انتهى بهم الأمر إلى التسليم الكامل له، وقد أدى ذلكَ إلى أن يكف السلطان عن التدخل بشؤونه.

أما هاملتون الذي تعذر عليه أن يقيم صلة مع عويد، ورغم محاولاته التي تنوعت، ولم تتوقف، إذ كان يصطدم بذلك الطبع البدوي الذي يتسم بالحذر، ويتحصن دائماً بالصمت أو التهذيب الزائد، وبعض الأحيان بادعاء عدم المعرفة، فإنه لم يسلم، ولم يتخذ مواقف العداء أو التجاهل. أكثر من ذلك فإن اتفاقاً ضمنياً قام بين الرجلين: أن يتجنب الواحد منهما الآخر. ولذلك كان عويد بنظر هاملتون ضرورياً وهاماً، ولا يمكن الاستغناء عنه، أياً كان الموقف منه.

عويد كان له رأي مختلف، فهو لا يخاف هاملتون، لأن هذا الأخير مكشوف، لكنه كان يخاف من تأثيره على السلطان. قال، مرة، لعدد من رجاله المقربين:

ـ احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. السالفة ما هي سالفة هذا الإنكريزي، هذا مصلّع ومكشوف، لكن الخوف من اللي يلبسون عمايم.

قال السلطان في إحدى الليالي لعمه دحيم وهاملتون، دون أن يسألاه، وكان عويد المشعان قد غادر موران ذلك اليوم، وقد رافقه السلطان حتى وادي الرها، بحجة أنه يريد مشاهدة الخيول الجديدة التي وصلت تواً. قال لهما السلطان، وكأنه يحدث نفسه:

ـ ابن مشعان يلزمه ما يروح إلا راضي، لأنه يمون على مغرّب كله.

وحين بدا أن كلامه غير مفهوم بالمقدار الكافي، أوضح:

ـ ولو أراد يكون مع غيرنا لكان حالنا هالحين بين صفاقين، لكن الرجال دينه قوي، وحنا، والشهادة لله، ما قصرنا معه.

قال دحيم:

ـ يا أبو منصور: عويد دينه أقوى من الصفا، فإذا كان معنا حنا بألف خير ومنصورين.

تنفس بعمق، وبعد قليل أضاف:

ـ بس يلزمك تعرف: عويد أعند من التيس، وهذا العناد يفيد ويضّر، يا أبو منصور، فاحرص وتوقّ.

هاملتون كان بحاجة إلى مزيد من المعلومات والتقدير، قال ليحرضهما:

ـ عويد المشعان رجل متعب وكثير الشكوك.

قال السلطان بألم:

ـ يا الصاحب، عويد مثل الحريمة والولد الصغير، ما يرضى إلا إذا كان كل شيء على كيفه، ويلزم أن الواحد يرضيه . . . ويلزم أن يتوقى منه.

وفي تلك الليلة اتفق الثلاثة أن عويد ضروري لهذه المرحلة، ويجب أن يكون موجوداً وقوياً، وأن يعطي ما يريد، لكن يجب الحذر منه ومراقبته، أو كما قال هاملتون: العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

عويد وهو يعود إلى البقعا، وكانت معه خمسة رؤوس من الخيل التي وصلت إلى السلطان، وقد اختارها له السلطان بنفسه، وكان يغريه ويلح عليه بقبولها، أو أن يأخذ غيرها، إذا كانت تروقه، وهو يحاول الاعتذار ويحاول الاختصار، رغم الهدايا والحفاوة التي قوبل بها في موران، كانت تؤرقه طبيعة العلاقة بين السلطان وهاملتون، وكان يخاف من نتائجها. وتذكر قبل سنين، حين رأى هاملتون أول مرة. قال له السلطان:

ـ يا أبو مجحم. . الرجال جانا بنيّة صافية وعاونّا بالماء. هو اللي قال: احفروا هنا وتلقون الماء، ومثل ما شار علينا، حفرنا ولقينا، وظني أنه ابن حلال ويريد لنا الخير.

هز عويد رأسه، لكنه لم يقتنع.

العم دحيم تربطه بعويد علاقات مودة قديمة، ويستطيع أن يتحدث معه

بطريقة تختلف عن السلطان، ولذلك تولى إقناعه بأن الصاحب جاء إلى موران ليس من أجل الماء فقط، وإنما لكي يساعد الناس بالطب، إذ حمل معه كميات كبيرة من الأدوية، ويريد أن يدخل دين الإِسلام، لأن الله هداه. وختم دحيم حديثه بأن قال:

ـ ولا بد نساعده يا عويد، فإذا انشرح صدره وأعلن إسلامه تجينا، عند الله، حسنة!

ظلت الأمور كذلك فترة طويلة، وفي كل فترة تتوازى الاحتمالات الإِيجابية مع الشكوك والمخاوف.

بعد حملة الحويزة أصبحت الأمور أكثر وضوحاً، قال عويد للسلطان، بعد أن انتهت المعركة:

ـ هالحين، يا أبو منصور، بساطنا أحمدي ويلزم نقول كل شيء.

ضحك السلطان بصوت مجلجل ورد:

ـ هذا بساطنا، يا أبو مجحم، فهات اللي عندك.

ـ هذا الرجال، الصاحب، يعجب وما يعجب، يا أبو منصور. تشوفه يركض بالليل والنهار، من مكان لمكان، لا يتعب ولا يهدأ، وما ندري إذا كان يشتغل لله أو لأحد غيره.

ـ لا تخف، وكل الله، يا أبو مجحم.

عاود السلطان الضحك ليداري حرجه، وبعد أن استعرض في ذاكرته ما يمكن أن يفكر به عويد قال بحزم:

ـ مثل ما قال الله في محكم كتابه، يا ابن مشعان: إن بعض الظن إثم.

وحنا يا البدوان ما نصدق إلا إذا شفنا بعيونا، ويلزم أقول لك إني شفت وتأكدت، وأعرفه زين، ويكفي.

تنفس بعمق ثم تابع:

ـ والله وبالله وتالله، يا أبو مجحم، إني ما شفت من هذا الرجال إلا كل خير، وما شار علينا إلا بكل شيء فادنا.

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وأنا كنت مثلك يا عويد، كنت أقول لروحي: هذا الرجال، شنهو اللي يريده منا؟ لكن بعد ما شفناه، تأكدنا. وإذا أنت تثق بخويك، أبو منصور، وتعرف معرفته بالرجال، فلا يكون لك بال.

وطوي الموضوع أيضاً.

هاملتون الذي عاد من رحلته مملوءاً بالأفكار والأحلام، وقد استعاد نشاطه وحيويته، وغادرته تلك الرؤى السوداء، كان يستعد لنقلة كبيرة: يجب أن يبدأ في موران عصر جديد.

لم يكن، بعد، متأكداً مما يجب علمه، بل وكان أقرب إلى الخوف، خاصة وإن دوي الفشل كان يملأ لندن أثناء إقامته هناك، وكان الحديث يجري معه متردداً متشككاً لأن القوى التي تتعامل مع قضية الشرق دخلت، فيما بينها، في صراع مكشوف وعنيف، وأصبح كل طرف من هذه القوى يلقي مسؤولية الفشل على الأطراف الأخرى، وكل طرف يشكك بجدوى أية خطة أو بمدى تحقيقها، مما اضطر هاملتون إلى تمديد إقامته أكثر من مرة في لندن، وإلى دراسة ملفات وخطط عديدة لاختيار الأفضل منها. ورغم الدراسة والموافقات المبدئية التي حصلت، فإن التريّث وإعادة النظر، وتعديل بعض الخطط، إضافة إلى التشدد بصرف الأموال اللازمة، كان المناخ السائد. ولم يستطع الوصول إلى نتائج اعتبرها مرضية إلا خلال الأسبوع الأخير.

قالوا له هناك بوضوح: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: أن تدفع لهم باستمرار، دون أن يكلفوا أنفسهم تقديم أي مقابل. ليس هذا كل شيء، إنهم يتشبثون فقط بما يعتبرونه لمصلحتهم، ويستندون إلى كلمات قيلت أو وعود أعطيت في أوقات سابقة واستثنائية، ولا يدركون، كما لا يقدرون، التغيرات التي حصلت في هذا العالم. إنهم يستخرجون من محافظهم القماشية أوراقاً مهترئة، لا يفهمون مما ورد فيها سوى بضع كلمات ترجمها لهم بعض البحارة أو الخدم ويهزونها في وجه الأمبراطورية، مطالبين أن تفي بالوعود! لقد أصبح هؤلاء البدو متعبين إلى درجة لا تطاق، وجاء بعض رجالنا، ولا يعرف إلا الشيطان لماذا، لكي

يملأوا رؤوسهم بأحلام ودعاوى فارغة، ويجب علينا في النهاية أن نواجه هذا الكم الهائل من المشاكل والمتاعب، وكأن مشاكل ومتاعب الأمبراطورية قليلة أو غير كافية!».

كان هذا جزءاً من حديث طويل سمعه في وزارة الخارجية بلندن.

في الأسبوع الأخير، وبعد إلحاح من هاملتون وصل درجة الإِحراج، وافقوا أن يعود إلى موران، وأن يدفعوا المبالغ التي وُعد بها السلطان. وتمّت الموافقة أيضاً على أن يعطى هاملتون فترة ستة شهور، وأقصى حد سنة، من أجل تقديم خطة متكاملة لإِصلاح هذا الوضع المتردي، ولمحاولة بناء صيغة تناسب المرحلة الجديدة.

إنه الامتحان قبل الأخير لهاملتون من أجل إشادة مملكته على الأرض. فلندن تسلّم بفشل الآخرين، ولديها اقتناع أن المتاعب تتطلب عقلاً جديداً لمعالجتها، وأخيراً تطلب منه أن يتحمل المسؤولية كاملة.

في وقت سابق كان مجرد وسيط، يتصل بلندن عن طريق الآخرين، وكانت الدائرة التي يتحرك فيها لا تتجاوز السلطان وحاشيته. الآن تفرد لندن أمامه الخرائط كلها، وتطلب منه أن يتصرف.

من هنا كان مستعداً أن يتعامل مع كل شيء، ومع كل فرد، دون تحريم ودون أفكار مسبقة. يمكن أن يعيد النظر بكل الأفكار والخطط، وأن يلتقي بالمجموعات كلها دون التزام، حتى لو كان مجرد وعد. وتذكر الفترة الأولى التي وصل فيها إلى موران. إنها الآن تتكرر، لكن هذه المرة لحسابه، وضمن ما يراه مناسباً أو ضرورياً. في المرة السابقة، وبعد أن يبعث تقاريره، كان يشغل نفسه بالبحث عن الآثار أو برسم خرائط الحدود، بانتظار أن تصل الإِجابة، وغالباً ما تكون الإجابات: عبارات عامة غامضة، أملتها لحظة نزق أو نزوة الخمر في ليلة من ليالي الشرق الحارة.

الآن يستطيع أن يتصرف بطريقة مختلفة، ويثبت للندن أنه يستطيع النجاح حيث فشل الآخرون. لذلك لم يتردد في الموافقة على أن تبقى دورثي في بريطانيا، وأن ينسى كثيراً من قناعاته، أو نزواته كما يسميها،

لأنه قرر، كما قال لنفسه: «لقد حكمتُ على نفسي بالنجاح، وبالنجاح وحده».

الأموال التي حملها معه من لندن لم يعطها للسلطان دفعة وواحدة، أعطاه نصفها واستبقى النصف الآخر، وأكد له أن البقية سوف تأتي تباعاً. والسلطان الذي كان يهمه اليوم الذي يعيش فيه، وما بين يديه من الأموال، لم يعترض. قال له في محاولة تبرير موقفه إزاء تصرف الآخرين الذين وعدوا ولم يفوا:

ـ . . . وظني، يا محروس السلامة، أن الجماعة اللي وصلوا إلى هنا ما نقلوا كلامنا زين للجماعة هناك، لأن الجماعة أبد ما ينسون.

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ وروحتك كانت ضرورية، وجا من وراها الخير.

كان هدف السلطان، وهو يتكلم بهذه الصيغة، أن يعرف ما إذا كانت لندن قد تخلت عن أصدقائها السابقين، وهل بإمكانه أن يتحرك من جديد. إن هذا ما يشغله أكثر من أي شيء آخر. أما الأموال التي كان ينتظرها فقد وجد مخرجاً بالغنائم التي ربحها من الحملة، إذ ساعدته كثيراً وحلت له ولجنده مشاكل كان من الصعب أن تحل. يضاف إلى ذلك أن أمطار السنة الجديدة كانت وفيرة، وقد خلفت لديه ولدى الآخرين اطمئناناً لم يشعروا بمثله في السنوات السابقة.

قال هاملتون بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ الرحلة كانت متعبة، لكنها ضرورية، لأن تجديد العلاقة مع المسؤولين، ومناقشة كافة القضايا، يختلف كثيراً عن كتابة الرسائل وانتظار الإجابات، هذا عدا عن التأخر، وقد تتعرض إلى الإهمال أو النسيان.

ـ الحق اللي تقوله، لأن المواجهة، العين بالعين، أحسن من ألف رسالة.

والرسائل تذهب، في الغالب، إلى أشخاص لا يعرفون المنطقة إلا على الأطالس، وهؤلاء مهما كانوا حريصين وجادين فإنهم لا يدركون

أهمية القرارات وكيفية اتخاذها، فهم مجرد موظفين يقدمون توصيات على الورق.

تنفس بعمق ثم تابع:

- أما الذين لهم علاقة، الذين يعرفون الأشخاص والأماكن والعلاقات، فإنهم وحدهم القادرون على أن يوضحوا، أن يقولوا ما يجب أن يُفعل، وفي الوقت المناسب أيضاً.

لما وجد السلطان أن الصاحب يبتعد حاول أن يعيده:

- وإن شاء الله الجماعة راضين علينا؟

- بكل تأكيد يا صاحب الجلالة، ولولا ذلك لأخذت الأمور مجرى آخر.

- لكنهم - ويلزم ما تزعل يا الصاحب - هم والجماعة هناك خوش بوش، ولو شدوا لهم الرسن ما كان الأمر صار بهذا الشكل. كانوا قالوا لهم: هذا يصير يا جماعة وهذا ما يصير.

قال هاملتون لنفسه «هؤلاء البدو لا ينسون أبداً ما يريدون، إنهم يبتعدون، لكن من أجل أن يقفزوا ويقتربوا، تماماً مثل اللاعب فإنه لا يتراجع إلى الخلف إلا لكي يعطي لجسده قوة اندفاع ضرورية».

رد وهو يبتسم:

- الجماعة هناك، يا طويل العمر، يكنون لكم تقديراً خاصاً، ويختلفون عن الآخرين كثيراً، وسوف تتأكدون بأنفسكم.

وانتهى الموضوع أيضاً عند هذا الحد.

لم تكد أسابيع تنقضي على زيارة عويد المشعان إلى موران حتى جاء من قال إن عويد غاضب أشد الغضب، وأنه طلب من عمير البقاء عنده في البقعا بعد أن اكتشف أن السلطان استدعى اثنين من أولاد أعمامه، وبحث معهما محاصرة المنطقة.

وكما تتعكر المياه إذا دهمها السيل تعكرت العلاقات وتوترت. والسلطان الذي لم يكن يحفل كثيراً لزيارات عمير لشيوخ آخرين، تحسب

وخاف من هذه الزيارة، خاصة بعد أن نقل إليه ما يقوله عمير عن الصاحب.

قال السلطان لعمه، وفنر موجود ويسمع:

ـ عمير العوض يلعب بدمه يا عم، وأول الرقص حنجلة.

ـ طولة البال ما مثلها، يا أبو منصور.

ـ بالنا طويل يا عم، بس أخاف غيرنا يحسبنا خايفين أو عاجزين.

ـ لا تخف يا أبو منصور، وأنت معروف ومجرب.

ـ قالوا جماعتنا من قبل وصدقوا: اقرأ سورة ياسين وبيدك حجر.

وهز رأسه بحزن ثم تابع:

ـ حنا ما نريد من عمير أي شيء، بس يكفينا شره، وإذا النصيحة ما فادته، وإذا الكلام الزين ما فاد، فيلزم يعرف أن آخر الدواء الكي، فإذا سكتنا كل هذي الأيام، ما نقدر بعد اليوم.

ـ فورة وتنقضي يا أبو منصور.

ـ لكنها طالت وزادت يا عم.

ـ اللهم لا توصلنا إلى الندم.

قال هاملتون لنفسه: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: المال. المال يدير رؤوسهم، يجعلهم أطوع وأسرع من الماء على منحدر، ويحولهم إلى فم لا يعرف غير كلمة واحدة: نعم، فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب على العظام، لا أحد يستطيع أن يقترب منهم، لا يتركونها، ولا يعرفون كيف يتصرفون بها، وأخيراً، بعد أن يقلّبوا الأموال في أيديهم مئات المرات، بعد أن يضعوها تحت الوسائد، وقريباً من الصدور، فإنهم يتركونها تتسرب تماماً كما تتسرب المياه من اليد، لا يفعلون أكثر من شراء بندقية جديدة، أو يتزوجون امرأة ثانية، أو يولمون لمن يعرفونهم ولمن لا يعرفونهم، لكي يأكلوا أكثر مما يطيقون، فقط ليثبتوا لهم أنهم قادرون على أن يفعلوا ذلك. ولذلك فإن الأموال لا تحل مشاكلهم، إنها تفسدهم، تجعلهم أُناساً غير نافعين لا للعمل ولا للحرب،

وليس لديهم مانع أيضاً من أن يحاربوا من أعطاهم المال، حتى لو كان السلطان، لأنهم يتوهمون أنهم أصبحوا أقوى منه!».

جر نفساً عميقاً، وقد مرت في ذاكرته صور كثيرة، ثم أضاف: «ومع ذلك لا بد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم، مهما كان رأينا بتصرفاتهم...».

فنر الذي كان يسمع ويتابع كان يزداد تعباً وحيرة. قالت له موضي إنها مشتاقة لعين فضة، وتتمنى أن يذهبا معاً. رد في محاولة للتهرب:

ـ آخر مرة، بعين فضة، تعبت، والأحسن أن نؤجل الزيارة.

وحين نظرت إليه بطريقة مليئة بالعتاب، رد وهو يضحك:

ـ عين فضة تجينا لهنا، وما يمر يوم والثاني إلا والجماعة يكونون عندنا!

وهكذا لم يستجب فنر لعواطفه أو لطلب موضي في الذهاب إلى عين فضة، خاصة وإن هاملتون قال له والطائرة تهبط في مطار القاهرة:

ـ السنوات القادمة هي أهم السنوات في تاريخ المنطقة، وربما في تاريخ كل شخص، شرط أن يكون الإنسان ذكياً، ويعرف كيف يختار مواقفه وأصدقاءه وعلاقاته، وأن يكون أيضاً في المكان المناسب، في الوقت المناسب!

طوال السنوات الأربع التي أعقبت حملة وادي الفيض لم تهدأ موران ولا عرفت الراحة. حركة دائمة في الاتجاهات الأربعة. زيارات يقوم بها السلطان ورجاله إل كل الأماكن وكل القبائل. الوعود تعطى بسخاء، وكذلك الأموال. الآمال تتزايد وتتراكم نتيجة التوقعات والأحاديث. أمراء الجند وشيوخ القبائل يتوافدون على موران العاصمة، ويقضون فترات طويلة انتظاراً للأموال والأسلحة. السلطان يسمي أمراء للمناطق ويبعث بهم مع الأموال والوعود لكي يجندوا الناس. أعمام السلطان وأخوته وأبناؤه على سفر دائم. وبين فترة وأخرى لا ينسى السلطان أن يتزوج من إحدى القبائل ليكسب ولاءها وسواعد أبنائها. بكلمة واحدة: لم يبق شيء أو أحد في موران إلا وأصابته العدوى وبدأ يتحرك.

خزعل بعد أسر قلعة الرفيعة، أحس بالذنب وامتلأ بالمرارة، خاصة وأن ما يدور همساً في قصر الروض يصله، فيندفع إلى البادية يؤدب العصاة ويفرض هيبة الدولة، هكذا اقترح العم دحيم ووافق أبوه، لكن الشرط أن يكون رحيماً، كما أكد عليه العم وهو يوصيه. قال له عندما تجهزت حملة السمرة:

ـ أعرف، يا وليدي، أنك، والشهادة لله، سبع وعزمك يفلّ الصخر، بس أريدك تفهم وتتوعى: بهذي الأيام نريد نرضي الناس حتى يصيروا ويّانا، ما نريدهم قوم علينا. ويلزم بعد أوصيك: خد وعين. نوبة تمرة ونوبة حجرة والثالثة عين حمرا، وعسى أن الله يوفقك وترجع سالم وغانم.

ويضحك العم دحيم ضحكة صغيرة ثم يضيف:

ـ والباقي، يا وليدي، أتركه علينا.

وبين حملة وأخرى، وبعض الأحيان أثناء الحملة، يبعث خزعل لأبيه، أو يبعث له أبوه، لكي يتزوج من قبيلة يسميها، من بيت يرى ضرورة كسبه. والسلطان الذي تأتيه الأخبار أن خزعل تعلم الكثير، وأن الناس راضية عنه، والخير يسير في ركابه، كان يوافق بعض الأحيان على ما يقترح ابنه، وفي أحيان أخرى يبعث إليه ببيت من الشعر يفهم منه ضرورة إرجاء الأمر، لأن ما ينتظره في مكان آخر أفضل! ولا يتردد خزعل في الامتثال لرأي أبيه، خاصة وأنه يعرف أن الرسل، والعيون في معسكره، ينقلون للسلطان كل شيء، وكان يسر لذلك، إذ يثبت من خلال ما ينقل أنه الممثل اللائق لأبيه!

وبموازة حملة السمرا يبعث السلطان بالرسل والرسائل إلى الحكام المجاورين يطمئنهم، يتفاوض معهم، يبحث شؤون الحدود والمراعي والمياه. يبعث إلى الأصدقاء طالباً القروض والأسلحة، وطالباً أيضاً الاستعداد للمعركة، ويوافق على سفر هاملتون هنا وهناك لكي يستطلع، ويتفاوض، ثم لكي يتفق.

عويد المشعان أصبح يقضي في موران وقتاً يوازي الوقت الذي يقضيه في البقعا، فبعد ما وصلت الأخبار عن غضب عويد، لأن السلطان امتثل لأوامر الكفار، ولا يريد للإسلام أن يمتد ويسود، بعث السلطان عمه دحيم إليه يزوره ويعود وإياه إلى موران.

وفي هذه الزيارة، ثم بإقامته في موران، وفي جو من الإنفعال الديني والحماس، والذي يصل بعض الأحيان إلى درجة الهوس والقسم على القرآن، مع الخشوع، والدموع، وكان السلطان يؤكد أن راية الإسلام سوف ترتفع في كل مكان، ويوضح لعويد أن ما يؤخره فقط، وليس هناك ما يمنعه أبداً، هو المال والسلاح، ثم انتظار الوقت المناسب.

وإذ لاحظ السلطان أن عويد ينفر من هاملتون ويتجنبه، فقد كلف بأمره الكثيرين، واستعان باثنين من رجاله المقربين: عنان بسيوني ورأفت شيخ الصاغة، إذ طلب أن يلازماه، وأن يكونا موضع سره وثقته، والشيء

الذي لم يستطع أن يتوصل إليه هو أو عمه دحيم حققه هذان الإِثنان، كل بطريقته. فعنان الذي كان مملوءاً بروح مثالية، ويريد أن يعيد تشكيل العالم على نسق جديد، والذي يكره الكفرة والملحدين، ويذوب مرارة لأنه هزم في معاركه السابقة، جاء إلى موران ووضع نفسه في خدمة السلطان لكي يحقق هنا ما عجز عن تحقيقه هناك، ولكي يبدأ من الصحراء مرة أخرى كما كانت البداية الأولى.

أما رأفت شيخ الصاغة، فهو على قناعة راسخة أنه إنسان نادر، ولذلك لا بد أن يكون عظيماً، وطريق العظمة، كما زين له رفاق السوء، هكذا يقول، وهو يتذكر تلك الحماقات التي اندفع إليها في مواجهة المحتلين الفرنسيين، لأن شهادة الطب التي عاد بها من فرنسا، لا تكفي وحدها لكي توصله إلى ما يريد، فكانت النتيجة أن سقط في المعركة، ولأنه لم يتعود على السجن، أو على همجية المحتلين، والذين يختلفون عن أولئك الذين عرفهم أثناء دراسته، فقد آثر الهجرة، وحين وضع أمامه الأطلس ليختار ديار الاغتراب احتار ما بين العودة إلى فرنسا أو الذهاب إلى موران، ولم يتأخر في اختيار موران وأن يصبح من رجال خريبط. فهو يستطيع أن يقوم بمهمات عديدة، إذ بالإِضافة إلى مهارته بالطب، فإنه محدث بارع وصاحب نكتة وبديهة، وملم بآداب القصور، خاصة وأن تقاليد العائلة التي نشأ فيها من الرسوخ والقوة بحيث جعلت جده الأكبر شيخاً للصاغة، ومن هنا اكتسب كنيته، واكتسب معها عراقة لم يتنازل عنها في يوم من الأيام!

السلطان حين كلف الرجلين بملازمة عويد المشعان، كان فكره، رغم اضطرابه، يملي عليه «أن نأخذ الناس على قدر عقولهم، فما دام ابن مشعان لا يثق ولا يرتاح لهاملتون، إذن لا حاجة لصداقة مباشرة بين الإِثنين. المهم أن نكسب الاثنين، والمهم أيضاً أن لا يكونا معاً، لأنهما إذا أصبحا سوية ربما تسول لابن مشعان نفسه ويطمع، أو قد يرى فيه هاملتون بديلاً أو منافساً فيستغله. لذلك فإن هذه الصيغة أفضل من أية صيغة غيرها! والمهم أيضاً أن نحشد كل القوى، لكي نحارب معركتنا الأخيرة. فتصبح موران أكبر بلد في المنطقة وأقوى دولة فيها. ومن أجل

الوصول إلى هذا الهدف يجب أن نرضي الكثيرين، وأن نستفيد من كل قوة لكي ننتصر، وبعد ذلك لكل حادث حديث! الذين يكرهون ابن مشعان يقولون إنه دخل، ومنذ فترة طويلة بالإبريق، لفرط ما أصبح متديناً، فيرد السلطان أن هذا شأنه وحسابه عند ربه. ما يهم السلطان الدنيا والانتصار على الأعداء، ومن أجل ذلك لا بد من وجود المال والرجال والسلاح.

عويد طفل في الخمسين من عمره. إذا أحب جرفه حبه، وإذا كره أعمته الكراهية. عنيد إلى درجة اللجاجة وسهل مثل الثمر الناضج. إذا اقتنع لا يتبدل، وإذا وثق ليس من السهل أن يحتمل الوشاة أو الذين يوغرون الصدور. علاقته بدحيم وخريبط وبقصر الروض عموماً أن هؤلاء الرجال يطمحون إلى الشهادة أكثر مما يتطلعون إلى الملك، وأنهم وحدهم الذين يمكن أن يقيموا العدل في الأرض بعد أن امتلأت جوراً. لقد حارب معهم في الرحيبة والقويعة وروضة المشتى ووادي الفيض وأخيراً في الحويزة، وتأكد من ذلك. كانت عينا دحيم تمتلئان بالدموع وهو يصلي على الشهداء، وكان صوت خريبط، وسط الجند، وهو يلعلع: هبت هبوب الجنة أين أنت يا باغيها. ولذلك كان متأكداً من صدق إيمانهم. أما هذا الكافر الذي لا يعرف كيف جاء أو ماذا يريد، فإنه بقدر ما يخشاه، فلم تبدر منه بادرة، حتى الآن، تجعله يتأكد من ظنونه، ثم جاءت تأكيدات دحيم بأن الرجل على وشك الدخول في دين الإسلام، ويجب أن نساعده؛ قال عويد لنفسه بنوع من السخرية المرة «جماعتنا، أهل دنيا نحُوشهم هذي الأيام للدين بالعصا، وينهزمون، وهذا جاي من تلفات الدنيا ويريد يصير مسلم؟ ما ندري نصدق من ولاّ من لكن بتوالي الليل تجينا العلوم... وبعدها نشوف».

هاملتون يرقب المشهد كله، متحرراً من أي التزام. يريد أن يمزج التاريخ بالجغرافيا على نحو فريد؛ فما قرأه في الجامعة عن تاريخ شعوب هذه المنطقة، وما تركه هذا التاريخ من علامات وآثار في الناس والأفكار والأشياء، ثم تلك التقارير التي أتيح له أن يطلع عليها في فترات متعددة، خاصة في سفرته الأخيرة إلى لندن، والمقارنة بين التقارير الأولى والتقارير

الأخيرة، وحجم الفرق بين الرغبات والأوهام، وبين ما تحقق فعلاً على الأرض، ثم هذه الصحراء التي عرفها جيداً، وغامر في أن يقطعها من حدها الأول إلى حدها الأخير، ولم يجرؤ أحد قبله أن يفعل مثلما فعل، يضاف إلى ذلك أنه عرف معظم الذين يملكون القوة، وأولئك الذين يملكون الطموح، وعرف أيضاً الذين يريدون أن يعبروا من ضفة إلى أخرى، أي الذين يريدون أن يعبروا الحياة سريعاً إلى الموت، بعد أن عرف كل ذلك تجمعت لديه صورة لما يجب أن يفعل.

صحيح أن المشهد، رغم كثافته وثقله، يبدو له مهتزاً، مليئاً بالنتوءات والخطر، لكنه، أصبح على يقين أيضاً، أنه الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً، وأن يصل إلى نتائج لا يمكن للآخرين أن يصلوا إليها.

أصبح، في هذه الفترة، أقل خيالاً، وأكثر واقعية، كما دفع إلى الخلف الهوايات التي استولت عليه خلال إقامته الطويلة في الصحراء، بأن يمعن النظر في السماء، ويحاول أن يتحرى مواقع النجوم، وأن يعرف مواعيد بزوغ القمر، والزاوية، ويراهن، وبشجاعة كبيرة، على رؤية الهلال، اعتماداً على حساباته وعلى عينيه اللتين لم تصابا بالتراخوما!

إن كل ذلك جزء من تاريخ مضى وانقضى. لم يعد يرى النجوم تتدلى فوقه كالفوانيس، أو توحي له بالكثير. وأصبح لا يتذكر القمر إلا حين يراه، وهو ابن أيام، كما يقول البدو.

ليس القمر والنجوم وحدهما ما غاب من ذاكرته، فقد غاب أيضاً ذلك الوهم البدوي الذي كان يجعله يصدق الكثير مما كان يروى له. ففي الفترة الأولى من إقامته في موران، كان يروق له أن يستمع بشغف إلى تلك الأحاديث التي تعدّد الخوارق والمعجزات، وتسمي الذين شاهدوها بأم العين، وكيف أن الكثيرين ليس لديهم ما يفعلونه سوى انتظار تكرارها! ولكي يقنع نفسه وينتظر معهم كان يردد في داخله: «لم يتوصل العلم بعد إلى تفسير الكثير من الظواهر الكونية». فإذا بدا له أن هذا التفسير لا يناسب ثقافته وعقله العلمي، يقول لنفسه بتأكيد لا يقبل الرفض أو الشك: «لا يمكن فهم شعب من الشعوب دون فهم أساطيره وبنيته العقلية: ما هي

معتقداته؟ كيف يفكر؟ ما هي منظومة الأفكار والمعتقدات والطقوس التي تجعله هكذا».

ورغم أن أكثر الأسئلة ظل أسئلة، فإنه لم يتوقف عن الاندماج في هذا المناخ «تمهيداً للوصول» كما يقول، حين يعجز عن الوصول إلى نتيجة!

لم يعد معنياً بهذا الفيض الهائل، والذي يزيد كل يوم، من الأوهام والخوارق والأكاذيب التي تشغل ليالي الشرق. أصبح أكثر ميلاً وحرصاً على أن يفكر بالأشياء الواقعية الصلبة.

حتى أفكار خريبط، صداقاته وعداواته، ما يقوله وما يطمح إليه، لا تعني له الآن الكثير؛ لا بد أن يراجعها، أن يضعها في نسق يتناسب مع الخطة الأساسية التي يجب أن تنفذ. بريطانيا نفسها فردت أمامه الخرائط وقالت له: يمكن أن تعيد رسمها. هذه هي مهمته الأساسية. وهذه المهمة التي يفرضها الواقع لا بد أن تتأثر بأفكاره، بثقافته، بإدراكه العميق لما يجب أن تكون عليه المنطقة. أما أن يصبح أسيراً «لسوالف» الشرق، كما يقول لنفسه، فلا يجد غير تلك الكلمة التي يرددها البدو أنفسهم وهم يصفون كلاماً غير مجدٍ أو لا معنى له. كانوا يقولون، مع حركة من اليد: خرطي!

«أكثر من ذلك عويد المشعان ليس عدواً، أو يجب ألا يكون. عواطفه لا تعني شيئاً بالنسبة لي. أن يشتمني؟ أن يتعامل معي بهذه الطريقة؟ يجب ألا أقيم وزناً لذلك، إذا كان لا يؤثر على خطتي، على ما اعتبره أساسياً ومهمّاً من أجل الوصول إلى الهدف».

كان هاملتون يقول لنفسه، وقد بدت له الصورة مغرية:

«في الشرق ينسون، أو لا يدركون، الجوهري. أنهم أبناء اللحظة والشيء الظاهر، وربما كانت الخيمة مثالاً لتكوينهم العقلي، فهي تجسد رد فعلهم الحقيقي. فالخيمة تتأثر بالآني، ولا تملك ثباتاً أو استمراراً. الريح التي تعصف الآن هي وحدها التي تعنيها وتؤثر عليها، ولذلك فهم لا يتذكرون الرياح التي مرت أو الرياح التي ستأتي. وكذلك أفكارهم أو عواطفهم، أنها عرضة للتقلب والتغير بتغير المناخ».

ما يكاد يطمئن إلى هذه القناعة، حتى تهاجمه صور أخرى: «ما يثير عجبي وتساؤلي أيضاً، أن هؤلاء البدو البسطاء، ورغم ما يملأ رؤوسهم من الخرافات والأوهام، فإنهم في أحيان كثيرة، لا ينسون ما يعتبرونه أساسياً بالنسبة لهم. خريبط، مثلاً يثير استغرابي. مهما ابتعدنا، وأينما ذهبت بنا الأحاديث وشعر النبط وأمثال البادية، فحين أودعه ليذهب إلى محرابه، حيث لا يمل من «التعبّد» جزءاً هاماً من الليل، وقيل لي إنه ينتقل من محراب إلى آخر! فأنه لا ينسى ولا يتردد في توجيه الأسئلة ـ الأم. يسألني عن الأمور التي تعنيه، ولو بطريقة عابرة، لكنها مقصودة تماماً، ورغم تصميمي على عدم الإجابة الواضحة، من أجل أن أعطي نفسي الوقت للوصول إلى الحل، فإنه لا يكتفي بتوجيه الأسئلة، ينظر إلى عيني تماماً، ليقرأ فيهما ما إذا كنت أكذب عليه أم لا. هذه النظرات تربكني، تجعلني ضعيفاً، بل وغالباً ما كنت أضطر، نتيجة تلك النظرات بالذات، إلى الإجابة بما أفكر فيه فعلاً، أو ما أريد تنفيذه. كيف يتوارثون هذه الطريقة في النظر إلى الآخرين؟ كيف يتعلمونها؟ حتى الأطفال الصغار، الذين لم يتدربوا بعد على تلك البذاءة ـ البريئة، ينظرون إليك بتلك الطريقة، وحين تكذب، تقول لك عيونهم، بشكل جارح: إنك تكذب.

لا بد من تنحية الكثير من الهواجس والأحمال التي أرهقتني خلال الفترة الماضية، والتعامل مع كل شيء بروح واقعية. هذه هي الطريقة الضرورية، وربما الوحيدة، لإقامة مملكة من طراز جديد!».

لم يكتف هاملتون بذلك، فقد ذهب إلى آخر الشوط: إلى خصوم خريبط، هؤلاء الذين رآهم، وهو يعبر ذلك المحيط الصحراوي الشاسع، إذ لا بد أن يختبرهم مرة أخرى. ذهب إليهم يتفاوض من أجل المراعي والمياه والحدود. مرة يفاوضهم باسم خريبط، وأخرى يفاوض خريبط بأسمائهم، كل ذلك ليختبر قناعات واحتمالات معينة، تمهيداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، والنهائية.

خريبط الذي ظل شديد الحذر من زيارات هاملتون، وبارعاً إلى أقصى حد في إظهار اللامبالاة، لم يكن قادراً على منع تلك الزيارات أو معرفة

حقيقة ما يجري خلالها، بل وكان يتظاهر أنه يكتفي بما ينقله إليه الصاحب. وما لا يستطيع أن يعرفه منه مباشرة، يعرفه عن طريق العيون وردود الفعل. وعلى طريقة البدو لم يكن متعجلاً أو منفعلاً. فما لا يقوله هاملتون اليوم قد يقوله غداً، أو قد يقوله غيره من الذين رافقوه. فإذا لم يتوافر من ينقل الأخبار فلا بد تفضحها تصرفات الأعداء وعطاياهم، ومهما برعوا وتفننوا في إخفاء الأموال التي قد يحصلون عليها، أو تسريبها إلى أتباعهم دون أن يحس أحد، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الخيول. فحين تظهر الخيول الغريبة فجأة، وترفع رؤوسها وتصهل، كان خريبط يقول لعمه:

ـ صاحت مثل الواويات يا عم، ولا بد أن نصلها قبل أن تصلنا.

وبكثير من التكتم والمكر، ولكي يخلق السلطان واقعاً جديداً، يختار مجموعات خاصة من الرجال الذين يثق بهم، والمملوئين شراسة وحماسة وهوساً، وفي النصف الثاني من الشهر القمري، يرسلهم في تلك المهمات الصغيرة، لكن المتعبة، والتي لا تجدي معها الأسلحة أو القوات المنظمة، إلى الحدود، إلى طرق القوافل، إلى مصادر المياه، لكي يفعلوا ما يرونه مناسباً، يقول العم دحيم لقادة هذه المجموعات موصياً: «اللي تغنمونه لكم وحدكم، وحلال عليكم، بس نريدكم تخوفون اللي ما يخاف، وتخلونهم ما يعرفون حلاوة نوم».

ولأن خريبط برع بهذا النوع من الغارات، ومارسه لفترات طويلة، فإنه يعرف ما يترتب عليه من نتائج: ما يكاد يقع عدد من هذه الغارات، مع ما يرافقها من صخب ومخاوف، حتى يلجأوا إليه «لتأديب العصاة وقطع دابر الأشقياء وقطاع الطرق» ويبدي تمنعاً متذرعاً بصعوبة هذه المهمة، أو عدم قدرته على القيام بها، ويعد الكثير من الإلحاح والضغط، ولقاء مقابل كبير، يتم الوصول إلى أكثر من اتفاق!

يقول هاملتون لنفسه: «هؤلاء البدو لا يعملون شيئاً دون مقابل، وغالباً ما يضطرونك لأن تدفع ما كنت ترفضه في السابق. أنهم يحتكرون معرفتهم أو مهارتهم إلى أن تصبح بحاجة ماسة إلى تلك المعرفة أو المهارة...

وعند ذاك فقط يفرضون شروطهم، ولا بد أن توافق على تلك الشروط، وأن تكون شاكراً لهم في نفس الوقت!

«خريبط ليس بعيداً عن ذاك الذي يجري على الحدود، هذه قناعتي، لكن لا أملك دليلاً واحداً على ذلك. وها نحن نلجأ إليه وحده لكي يساعدنا».

لا يكتفي السلطان بذلك، إذ لا بد أن ترتفع أصوات المهووسين والمتطرفين، ولا بد أن يظهر أيضاً بعض الخصوم. وإذا كان هاملتون، في كثير من الأحيان، غير قادر على مفاوضة المعتدلين، أو الوصول معهم إلى لغة حوار مفهومة، فإن حالته النفسية تسوء وجسده ينهار حين تحاصره تلك النظرات الغاضبة، وتملأ أذنيه ضجة أولئك الذين جاءوا فجأة إلى حيث يكون موجوداً، وقد جللهم الغبار، ولا يعرف هل هم خصوم للسلطان أم رجاله، لأن كلمات التعريض والتهديد لا توفر أحداً أو شيئاً. ومرة أخرى يلجأ إلى السلطان، فيبعث السلطان عمه أو أحد أولاده مع رجاله لكي يهدّئوا هؤلاء الذين لا يُعرف ماذا يريدون.

مقابل ذلك التشدد الذي يعم موران، ويتركز بشكل خاص في بعض مناطق الحدود الحساسة، فإن السلطان يكون في أصفى حالاته، إذ يفيض دماثة ورقة، ويظهر خضوعاً ما كان ليعرف عنه سابقاً، كما أنه يميل في مجالسه وأحاديثه إلى الابتعاد عن هذه الذي يشغل الكثيرين، بمن فيهم هاملتون، ويلجأ أيضاً إلى الغياب، بعض الأحيان، في رحلات قنص، أو إلى إقامة مبارايات في الفروسية أو القصيد.

ولكي تكتمل الحلقة لا ينسى السلطان خلال هذه الفترة أن يستعين بفنر لكي يكون رسولاً ووسيطاً في أمور عديدة مع هاملتون. ويقوم فنر بما يطلب منه بكثير من الإتقان والبراعة، الأمر الذي يثير إعجاب السلطان والعم دحيم. وفي هذه الفترة بالذات، وبعد أن قام فنر بالمهمة، وكأن الأمر مفاجئ، أو حصل عفو الخاطر واللحظة اكتشف السلطان أنه تأخر في تزويج فنر!

السنوات العشرون التي مرت من حياة فنر، مرت دون أن يحس بها

الكثيرون. حتى نساء قصر الروض، اللواتي يرتبن الزيجات منذ الميلاد، ويقترحن، بأصوات عالية، أن تكون فلانة لفلان، وغالباً ما يحصل ذلك، فاتهن أن يقترحن له عروساً مناسبة. امي زهوةً، حين استقبلته قادماً من عين فضة، ليقيم في موران، سألت أكثر من واحدة عن عمره، حسبت على أصابع يديها، ثم أغمضت عينها، ولما فتحتهما من جديد نظرت إليه بإمعان لتتأكد وتقارن. وانتهى الأمر بأن نسيت. ولا تتذكر مرة أخرى إلا أثناء زواج السلطان أو خزعل، أو أثناء زواج الأعمام والأخوال. تتذكر وجهه لكنها تنسى السنوات، ويطوي الموضوع!.

تهاني أكثر من الشيخة قناعة أن فنر لا يزال صغيراً. حين تزوج السلطان بفرحة سألتها الشيخة أن تعدّد على مسامعها أسماء زوجات السلطان وسألتها أيضاً أن تذكرهن بأسماء الأولاد وأعمارهم. بدأت تهاني بحماس، عدّدت أسماء أكثر الزوجات، نسيت ثلاثاً أو أربعاً، ولم تفطن الشيخة لذلك. أما حين بدأت تعدد أسماء الأولاد، ووصلت إلى الثاني عشر، فقد قالت بنفاد صبر:

ـ هذا حدي، يا ستي، لأن عين الشيطان حمرا!

وكأن تهاني، التي تذكرت موت اثنين مؤخراً من الأطفال في قصر الروض، تذكّر الشيخة، وتريدها أن تتوقف. قالت الشيخة بطريقة فخمة، وخرج صوتها صلباً:

ـ لا تصدقي اللي ينقال. الحياة من الله والموت من الله!

موضي مع الشيخة وتهاني، لا تزال تعتبر فنر صغيراً، ويجب أن لا يفكر بأمر الزواج، رغم أن جسدها طوال السنوات الماضية كان عبئاً عليها، وقد اقتضى الأمر أن تبقى مريضة دائمة لدى الطبيبة الإنكليزية! أكثر من ذلك اقترح فنر أن ترافقه، في أول زيارة لبريطانيا، لكي تجري فحوصاً هناك.

لولوة أسّرت لعدد من نساء القصر أن لسيدتها أختاً، وأن هذه الأخت ستكون زوجة لفنر، لكن باعتبار أن فنر لا يزال صغير السن، فكل الأمور مؤجلة!

الخالة مزنة أكثر الناس حديثاً عن الزواج، تتحدث عن المبدأ، ولا تتحدث عن التفاصيل أو الأسماء. «المهم أن يتزوج، ولا يهم من» لأنها تعرف أن ابنتها، شيخة، هي الوحيدة في سن الزواج، والفتاة المحتملة لأن تكون زوجة له. فبنات عمير الثلاث لا يزلن صغيرات. أما عمير، حين يجري الحديث عن الموضوع، فإنه يقول بعصبية:

ـ يا جماعة.. اتركوا هذه السالفة. فنر صغيّر، وكل شيء بوقته زين!

فإذا ردت عليه مزنة تذكّره متى تزوجت ومتى تزوج هو يجيب بنزق:

ـ زماننا غير زمانهم، يا بنت الحلال!

وحين تصمت حزينة يتابع:

ـ والمسألة، أولها وتاليها، أنه هو اللي يقرر!

كل هذه الأحاديث كانت تجري وفنر لا يدري. المرة الوحيدة التي ذكرته خالته مزنة أنه يجب عليه أن يتزوج، نظر إليها بطريقة أخافتها، قال وكأنه يهدد بانتهاء العلاقة:

ـ ما أريد هذا الموضوع مرة ثانية!

السلطان الذي كان من السهل أن يقرر لنفسه، أو للكثيرين حوله، وجد نفسه حائراً. فنر لا يزال صغيراً. عدد السنين التي يحملها على كتفيه لا يكفي لتحديد عمره. المرض إذا تركه في الصيف لا بد أن يأتي في الشتاء. جسده هش، أقرب إلى القصب. أكثر من ذلك: هذا الحزن الذي يطل من عينه، وعمير الذي ينتظر مثل الذئب، لا بد أن ينقض إذا سها الراعي ولو لحظة واحدة. أمي زهوة التي تتحمس لأي زواج، وكأنه زواجها، حين سألها السلطان عن فتاة تلائم فنر، ردت بتحذير:

ـ البنيّة، يا أبو منصور، تنغصب، إذا ما كان هذا الرّجال ذاك، لكن الوليد، إذا ما راد، إذا ظهره ما حمي، يخرب... وظني أنك ما تريد لولد من أولادك أن ما يقدر ينام مع مرّية!

بعد الكثير من التفكير والتساؤل، وقد تولّت فضة جزءاً من البحث، وتولى الجزء الآخر العم دحيم، وافق فنر على الزواج. قال للعم دحيم:

ـ إذا ما منه بدّ بنت خالي سند.

وسند الذي كان يسكن في المريجة، والذي يهتم بنخيله أكثر مما يهتم بأي شيء آخر، والذي ترك عين فضة في وقت مبكر، «لأن الناس في عين فضة يفكرون بالآخرة أكثر مما يفكرون بالدنيا» وقد قال ذلك الكلام، وبغضب، حين وجد نخيل عين فضة يتراجع ويموت سنة بعد أخرى، نتيجة الإِهمال، لأن أكثر الناس، وخاصة أبوه، يتحدث عن أشجار الجنة أكثر مما يتحدث عن أشجار الأرض، والناس يستمعون إليه، ويهزون رؤوسهم موافقين.

قال سند لأبيه، لأخوته الثلاثة، لمجموعة من الناس، وبعد أن حزم أمتعته وقرر السفر:

ـ أنا رايح.. وأقولها واسمعوها: ما أريد من هذي الديرة نواة. وحقي وميراثي وصلني.

تطلع في الوجوه بحزن، وبعد فترة ليست قصيرة أضاف:

ـ لكن راح تندمون.

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا كانت عين فضة بها خير، والناس بعدها عايشة، فالفضل لهذا النخل، ما هو لشي تاني. فإذا تركتم النخل يموت، وبس تسولفون عن الجنة والنار، فظني أن بعد كم سنة ما يبقى أحد منكم، اما تموتون أو تهاجرون.

الشيخ عوض الذي كان يسمع بطرف أذنه، لكنه كان غائباً، قام بعصبية وغضب حين وجد النقاش حامياً، قال وكأنه يبرئ نفسه:

ـ عجبي لمن دنياه بآخرته!

أما عمير الذي اعتبر تصرفات سند أقرب إلى النزوة، وربما نتيجة خصومات النساء، فقد قال بحزم مشوب بالغضب:

ـ عين فضة، من يوم ما الله خلق الأرض وهي بهذا المكان وبهذا

الشكل، اللي يريد يزرع ما أحد يمنعه أو يرده، واللي يريد يعبد ربه، ربه يرزقه.

رد سند بعصبية:

- ويلزم تعرفون: الله في كل مكان، ما هو بس بعين فضة.

وبعد قليل وهو يضحك بسخرية:

- وعين فضة مثلها مثل أي مكان غيره، ما هي مكة، ولا هي أولى القبلتين وثاني الحرمين.

في تلك اللحظة رد الشيخ عوض بغضب ومن بعيد:

- كثيرين قبلك، يا سند، راحوا! وعين فضة ما خسرت شي.

وظلت العلاقات مقطوعة بين المريجة وعين فضة. أو بين أولاد الشيخ عوض، لكن البنات لم ينقطعن، ومن ذلك المسرب الصغير الذي ظل قائماً ومفتوحاً، زارت سارة أخاها في المريجة مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تصطحب فنر، ومنذ ذلك الوقت رأى فنر زينة وظلت في ذاكرته.

الآن، وقد حاصره العم دحيم، قال:

- بنت خالي سند

فوجئ العم دحيم وارتبك، سأل بعد أن تلفت:

- وخالك سند له بنت أو أكثر؟

- أريد زينة!

- زينة؟

- أي نعم زينة!

ولأن السلطان في تلك الفترة يريد أن يحتفل، أن يعبر عن قوته، وأن يخلق جواً خاصاً في موران، فقد جاءت هذه المناسبة لكي تتيح له ذلك.

الذي شهدوا الاحتفالات التي أقامها السلطان بمناسبة زواج ابنه فنر، امتلأوا يقيناً أن السلطان سيسمي فنر سلطاناً بعده. والذين لم يشهدوا تلك الاحتفالات، وإنما سمعوا بها، كانوا متأكدين من ذلك، بل وقالوا إنه

الاحتفالات أقيمت بهذه المناسبة أكثر مما هي بمناسبة الزواج. ومما زاد في تأكيد هذه الأخبار أن خزعل لم يحضر وقيل أن فنر ذهب بنفسه إلى الصفرا، حيث كان معسكر خزعل، ودعاه، وألحّ في دعوته، لكن لم يستجب.

السلطان بدا أكثر شباباً من أي فترة سابقة وأكثر قوة، والصاحب كان أحد المدعوين المرموقين، وقيل إنه أهدى بندقية مفضضة للعريس، لكنه أشار بتواضع إلى أنها هدية ملك الإنكليز وليست منه.

أما الشيخة، أمي زهوة، فقد أكدت لولوة أنها أهدت العروسين حملاً كاملاً من الذهب، وقيل إن العم دحيم شوهد لأول مرة يرقص. أما وطفة التي كانت تنتظر أن يتزوج فنر أختها فقد أكدت، بلسان لولوة، أن أختها، تزوجت قبل زواج فنر بثلاثة شهور!

السلطان أهدى فنر حصاناً صقلاوياً عمره سبع سنين، وأكد مهيوب أن لا أحد ركبه غير السلطان.

موضي قبل الخطبة، وأثناء الزواج، كانت مريضة، لكن قابلة القصر التي كانت تحجمها جاءت قبل الزفاف بدقائق حاملة عقداً ماسياً هدية للعروس من موضي.

الرصاص الذي أطلق، العطور التي صُبت على أيدي الرجال والنساء، الحلويات والدراهم التي وزعت على الأطفال والفقراء، الخراف التي ذبحت... وغير هذا كثير، ظل حديث موران أياماً وأياماً.

في نهاية الشتاء وبداية الربيع، بلغت الاستعدادات في موران ذروتها. جمع السلطان كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وعدداً من التجار والوجهاء، إضافة إلى المستشارين، وبجو مفعم بالحماس والانفعال أبلغهم أن الإساءات والجرائم التي صدرت من سلطان العوالي، ومن القبائل الموالية له، وصلت إلى درجة لم يعد من الممكن احتمالها أو السكوت عليها، وأنه إذا لم يوضع حد لها، وبأسرع وقت، فإن موران، بسكانها وأرزاقها، بحواضرها وبواديها، بصغارها وكبارها، معرضة إلى أكبر الأخطار وأفدح المصائب. وأبلغهم أنه، شخصياً، صبر وتحمل الكثير من ابن ماضي، سلطان العوالي، لعله يعود إلى رشده، وأنه لا يفضل أكثر من السلم، ولا يريد أكثر من الأمن لموران وجيرانها. وأكد أنه لم يترك شيئاً أو أحداً إلا وحاول معه، أو عن طريقه لكي تحقن دماء المسلمين، لكن الغرور الذي ملأ عقل ابن ماضي، واستهتاره بالدين، وتعديه على حقوق الإسلام والمسلمين، وسماحه بأن تتعرض المقدسات والحرمات للعبث والخطر، يدفعه الآن لأن يعلن، أمام الخاص والعام، وأمام صفوة أهل موران، أنه لم يعد قادراً، ولا يطيق الصبر أو السكوت.

والسلطان الذي كان مثل اللجام خلال السنوات السابقة، إذ كان يمنع رجاله من التقدم، ويتذرع لذلك بعشرات الأسباب، لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض، أو إلى ذلك الجو الانفعالي. فقد تسابق زعماء القبائل مع شيوخ الدين، وشاركهم قادة الجند والمستشارون إلى التأكيد أن الأمور وصلت حدها الأقصى، ولا يمكن السكوت بعد ذلك. وبالغ بعض الزعماء بأن قالوا، وبكلمات خشنة، أن سكوت السلطان خلال الفترات

الماضية، ومنعهم من تأديب الأعداء، أو منعهم من الشهادة، لا يمكن أن يفهموه أو يغفروه. فقد تحملت موران أكثر من اللازم، وتطاول عليها أعداؤها أكثر مما تطيق، ولولا أن السلطان جمعهم الآن لاتخاذ القرار لاتخذوه دون الرجوع إليه، ولتصرفوا بما يرضي الله ورسوله!

وأفتى رجال الدين، وأيد التجار، وحدد المستشارون ما يجب قوله للقريب وللبعيد، وأبدى قادة الجند استعدادهم بكثير من الرضا والفخار، وبارك الوجهاء كل ما قيل وزكوه، وتركوا للسلطان، بعد أن جددوا تأييدهم وأثنوا على حكمته، أن يتصرف بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يبق أحد من الذين ضمهم السرادق الكبير، بمن فيهم الخدم والحرس وصانعو القهوة والسواس والرواة والخصيان، والصبية الذين رافقوا آباءهم، وبعض المتسولين الذين كانوا في أطراف الخيمة، إضافة إلى خمسة من العميان كانوا يقودون بعضهم، ويجب أن يحضروا كل حفل وكل مأتم، ولا بد أن يقرروا أو يشتركوا في تقرير أمور الحرب والسلم، لم يبق أحد من هؤلاء إلا انفعل واهتز، وطلب أن يكون ضمن الجيش وأول من ينتقم من سلطان العوالي!

عويد المشعان الذي رفض المجيء إلى موران خلال الشهور الثمانية الأخيرة، وكان أكثر غضباً وشتيمة من أية فترة سابقة، وقال علناً، ولرسل السلطان بالذات، أنه لم يعد يثق بأحد، ولا بد أن يفعل ما يأمره به الله، أياً كان رأي السلطان... عويد لم يأت إلى موران، هذه المرة، إلا بعد أن زاره دحيم، عم السلطان، وأكد له في هذه الزيارة: «أن كل شيء انتهى، وهذا اليوم يومك يا أبو مجحم». وبعد أن استوثق وتأكد، جاء، الآن، وهو يرى هذا الحشد، ويسمع هذا الكلام، ويحس الانفعال الحار يسري من جسد إلى جسد، من روح إلى أخرى، يلوم نفسه أنه كان سيّئ الظن، ولم يثق بالآخرين. كان يريد أن يهاجم السلطان، أن يعتبره متخاذلاً أو متواطئاً، لكن بعد أن رأى وسمع سكت. حاول السلطان أن يستشير حميته، نظر إليه عدة مرات وهو يتكلم. أشار إليه، حين تحدث عن منع رجاله من مهاجمة حدود العوالي، ولما تطلعت إليه العيون لترى

وتعرف، قال عويد، دون أن يرفع رأسه:

- اللي نبغيه رفع راية الإِسلام أو الشهادة، وما دام طويل العمر أمر حنّا لها!

ابن مياح كان أوضح وأكثر صراحة، قال:

- يا خريبط، أني أقول كلمة وإن كانت تغيظك: كنا نتحدث فيما بيننا ونقول: قد بدل خريبط الشجاعة بالجبانة، وكنا، قبل قدومه، نتمنى قدومه، أما اليوم فصرنا نقول: ليته ظل في بلده بعيداً عنا، فإن كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القدوم فيبينه لنا حتى نتبعه، وما نحن إلا خدام الشرع، وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما أحد يموت قبل يومه. وما نتمنى والله إلا أن نموت شهداء، فأي قتال أفضل من هذا القتال، وأي عمل جاء فيه الضرر للإِسلام والمسلمين أكثر من عمل سلطان العوالي وأولاده».

وكان آخرون يريدون أن يتكلموا، فالانفعال كان يزداد، والجو يمتلئ بالتوتر، لكن دحيم، الذي كان يجلس إلى جانب السلطان، وقف. دق الأرض بعصاه وقال:

- يا جماعة الخير...

تطلع ملياً في الوجوه وهو يبتسم بحزن، ثم تابع:

- ترى ما هو كل اللي ينعرف ينقال...

التفت إلى السلطان، تطلع إليه وهو يهز رأسه، ثم عاد إلى الجمع:

- هذا الرجال، والشهادة لله، تحمل الكثير. حمل اللي ما تحمله الجبال، وكان بين نار قلبه ونار الآخرين.

دق الأرض مرتين، وكان بين دقة وأخرى فترة، وأضاف:

- تحمل منكم وتحمل من غيركم، وهو ما يريد إلا رفع راية الله ورسوله، وما يريد إلا مصلحتكم. وهالحين ما يلزم إلا شيء واحد: أن نكون كلنا قلب واحد، ويد واحدة، نمشي وراه، وهذي هي الساعة،

وهذا هو اليوم اللي تبين فيه المرجلة، ويثبت الواحد نفسه. فإما ننتصر أو نستشهد، وما بعد هذا الكلام كلام!

سيطر التأثر والصمت على الجميع.

قال ابن مياح:

ـ ما عندنا وقت، يا جماعة، ونمشي هالحين أحسن ما نمشي باكر أو اللي عقبه.

قال عويد المشعان:

ـ ما لأحد حجة، ويلزم نتوكل على الله ونمشي.

قال السلطان، وهو يجيل النظر بالوجوه:

ـ بارك الله فيكم وكثّر من أمثالكم، وأقول لكم أني أشوف الجنة بوجه كل واحد منكم!

وهز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ وبزنودكم وقوة قلوبكم إن شاء الله حنا منصورين.

في لحظة صمت قال أحد العميان الخمسة:

ـ الحرب خطاها قصار، وتاليها ندم يا خريبط. وأنتم يا أهل موران إذا كان عدوكم ما يشوف يلزم تحذروه، لأن دم المسلمين يتحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

التفتت الرؤوس إلى مصدر الصوت، وقد خيم الوجوم، قال السلطان لعمه بصوت سمعه من كان منه قريباً:

ـ البصير: حمد الشايع نوبة ثانية؟

وأضاف وهو يبتسم بأسف:

ـ أولاد الشايع ما تخلص سوالفهم إذا ما لوصوا بأعراض الناس يلوصون بخراهم!

والتفت إلى الخلف ليرى حرسه وخدمه، ولكي يلومهم بنظراته أنهم تركوه، وبعد قليل:

ـ الحق ما هو عليه، الحق على اللي تركوه يصل إلى هنا!

وانفض المجلس بعد أن قال السلطان بصوت حازم، أقرب إلى الحدة:

ـ عشاكم عندنا يا جماعة الخير، ويلزم أن ندبر الأمور كلها وما نضيع ساعة واحدة.

هاملتون الذي لم تكن تعني له هذه الأحاديث أو التفاصيل شيئاً، كان قد اتفق مع السلطان، وبعد الكثير من التأجيل والتسويف والتدقيق، أن الأمور لم تعد تحتمل أو تقبل السكوت. فابن ماضي، سلطان العوالي، لم يعد إنساناً متعباً فقط، بل أصبح مرفوضاً أيضاً. فالمحاولات التي جرت معه طوال الفترة السابقة لكي يكون حاكماً معقولاً، كالآخرين، لم تؤد إلى نتيجة.

كانت هناك كمية هائلة من المشاكل والمسائل المعلقة، وبقدر ما كان خريبط يلح لكي يسمح له بمهاجمة العوالي والاستيلاء عليها أو على قسم منها، فإن هاملتون يريده أن يتفهم الظروف، وأن يؤجل وينتظر، إلى أن تحين الساعة المناسبة. فابن ماضي ليس مجرد خصم أو واحداً مثل الحكام الكثيرين حوله، إنه العدو الحقيقي، وإذا كان يلوم هاملتون، والإنكليز الآخرين الذين زاروه، أو الذين التقى بهم في أكثر من مكان، على حمايتهم له، أو التعامل معه، فلم يستطع أن يقنعهم بالتخلي عنه، أو حتى الوقوف على الحياد. لقد حاول كثيراً، لم يترك فرصة واحدة تفوته. أكد لهم أنه الوحيد القادر، وأن لديه من الوسائل والقوى، ما يمكنه أن يصل معهم إلى نتائج ترضيهم، لكنهم، مثل البغال، لا يفهمون ولا يتحركون إلا حسب مشيئتهم وحسب أهوائهم.

قال له عمه، ذات ليلة، وهما يتساءلان لماذا يرفض الإِنكليز الموافقة على التقدم نحو العوالي:

ـ يا ابن أخي... الإنكريز مثلهم مثل ذيك المرية...

هز رأسه وابتسم. والسلطان الذي ابتسم مجاملة لم يفهم كلامه، تابع دحيم:

ـ ذيك المرّية يا أبو منصور أما تكون لها وحدها، أو هي تصير لكل الناس.

هز رأسه عدة مرات، وتغيرت لهجته:

ـ الإنكريز، يا ابن أخي، إما تكون معهم، وأنت لهم وحدهم، أو يخلون بوجهك ألف نباح ويسدون بابك بألف عدو وعدو. الأنكريز يا أبو منصور، وحنا نعرفهم، ومن زمان، إذا ما كان كل شيء لهم ما يرتاحون ولا يخلون أحد يرتاح. وهذا صاحبك، الصاحب، لوّعنا. كل يوم بديرة، وكل يوم عند عشيرة. كل يوم يجيك بسالفة، وما تعرف على أي جنب تنام.

السلطان الذي يشارك عمه ظنونه ومخاوفه، يعرف أكثر منه أن الأمور لم تعد مجرد رغبات أو بضع مئات من الجنود، لكي يقرروا ما يجب أن يكون. لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار القوى الأساسية، والتي يجب التفاهم معها، لأنها هي التي تقرر. وهذا الكلام لم يقله المستشارون وحدهم، ولا تمليه الرغبة، وإنما الواقع، فالإنكليز موجودون على الحدود الشمالية، وعلى الحدود الشرقية، والآن الغربية أيضاً، وهم الذين أعطوا، وهم القادرون على وقف العطاء، ويمكن أن يغيروا الملوك والدول.

هاملتون، وغيره من الإنكليز الذين جاءوا إلى موران قالوا كلاماً واضحاً. صحيح أن الإنسان لا يتفق معهم في أكثر ما قالوه، لكنه لا يستطيع أن يخاصمهم، أن يكون قاسياً معهم. إنهم يقولون ما يريدون بصراحة ووضوح. وهذه الصفة التي كانت تزعج السلطان إلى أقصى حد، وتجعله عصبياً ومستعداً للقسوة، لم تلبث أن أصبحت بالنسبة له صفة محببة. يريد أن يعرف ماذا يريدون بالضبط، لكي يقرر بعد ذلك ما إذا كان قادراً على الاستجابة أم لا. كثيرون غيره لا يفهمون هذه الصفة، ولا يحبونها، وبعض الأحيان يرتكبون الحماقات، لأنهم يسمعون كلاماً لا يعجبهم.

العم دحيم من جيل آخر، عاش وتكوّن في ظل قيم أخرى. لكنه الآن يلمس النتائج، وهذا ما دعاه لأن يكون هكذا مع السلطان.

قبل سنوات كان يعتبر خريبط مجرد شاب نزق، يملك فقط جسداً قوياً وشجاعة أقرب إلى التهور. لكن بعد أن اختبره، بعد أن رآه في أوضاع وحالات عديدة ومختلفة، وبعد أن امتحنه تأكد. قال له في إحدى الليالي:

ـ جماعتنا، يا أبو منصور، كانوا مساكين، اللي بقلوبهم على لساناتهم، وهذا اللي سوّى بينا كل هذي السوايات.

وبعد قليل وهو يتطلع إليه بإعجاب:

ـ واللي جرى لنا، يا ابن أخي، إنّا ضيّعنا المشيتين، لا حنا بدو ولا حنا حضر، لا أحد يخاف سلاحنا وغاراتنا، ولا أحد يطمع بفليساتنا ويحسب لنا حساب.

فنر الذي نما بغفلة، ولا يعرف أحد كيف، حين استشاره السلطان، وسأله عن رأيه بهاملتون، أجاب:

ـ العالم، يا يوبه، ما عاد بس موران واللي حول موران، العالم كبير. وهذا العالم تحكمه القوة، وأنت تعرف: الإنكليز والأتراك والروس والألمان، كل واحدة من هذه الدول روضت العالم، وسوّت اللي ما يصير. كانت تركيا أول وأقوى كل الدول، لكن زمانها فات. وكان الألمان، أصحاب الصناعة: الدرابيل والسيارات وسكك الحديد وغيرها وغيرها. أهل العلم والقوة. والروس نفس الشيء. هالحين الإنكليز. عندهم الأساطيل، وعندهم المدافع، وهم أهل السيارات والطيارات، والبلاد اللي تتبعهم ما تغرب عنها الشمس، والواحد لازم يتفاهم معهم، لأنهم الأقوى والقادرين.

لما أحس بالتعب، وبالخجل، لأنه يتكلم وأبوه يسمع، تابع بنبرة جديدة:

ـ أنا شفت وقرأت، يا طويل العمر. بريطانيا أهم وأكبر وأقوى دولة في العالم، ولا يمكن لأحد أن يعاديها، أن يقف في وجهها، وأنت تعرف أن أسطولها، مئات السفن، آلاف السفن، وما يصدق الواحد إلا إذا شاف.

يصمت السلطان، يهز رأسه، يغيب، يفكر بأشياء كثيرة، يعرف أن ما

يقوله ابنه وما رآه بعينه، من القوة والأسلحة والأموال، لا يمكن أن يستهين به، صحيح أن فنر يتكلم مثلما يتكلم الشباب، وأن عمه دحيم لم ير شيئاً، ويفكر أن بضع مئات من السيوف ومثلها من البنادق يمكن أن تغيّر الكثير، لكن يجب عليه أن يفكر بطريقته، أن يأخذ الأمور من كل الوجوه، وأن يقرر ما يراه مناسباً، خاصة في هذه الظروف.

لما التقى خريبط في الأسابيع الأخيرة بهاملتون، بعد أن غاب عنه ثلاثة شهور متوالية، سأله، وعيناه في عيني هاملتون تماماً:

- يلزم تقول لي، يا الصاحب، جماعتكم هناك، وصاروا يعرفون كل شيء، يريدونّا أم يريدون غيرنا؟

ابتسم هاملتون بحزن، وأجاب:

- إن بريطانيا، يا صاحب الجلالة، تضع كل ثقلها وثقتها إلى جانب جلالتكم، ويجب أن تتأكدوا من ذلك.

- حنا ما عاد بنا صبار، ويلزم نتحرك.

رد هاملتون بصخب:

- هذا ما جئت لكي نتفق عليه ونقرره يا صاحب الجلالة.

وبعد عدة جلسات بين السلطان وهاملتون، وأغلبها كانا وحدهما، وبكثير من الاهتمام والصبر والدقة، وبعد مراجعة الخرائط ومعرفة مستلزمات الحملة، وتسمية قادة الجند وأي الطرق يسلكون، تمّ الاتفاق على مهاجمة العوالي وانتزاعها من يد ابن ماضي. ومن نتائج هذا الاتفاق كان الاجتماع الذي دعا إليه السلطان، إضافة إلى مجموعة من الرسل الذين بعث بهم إلى عدد من الدول المجاورة والأصدقاء، مع رسائل تعدد، ولا تترك صغيرة أو كبيرة، الجرائم والإساءات التي ارتكبها ابن ماضي، وبالتالي تؤكد أنه لم يعد من الممكن السكوت عليه.

قال العم دحيم للسلطان، بعد أن تم الاتفاق على كل شيء:

- الحمد لله.. كل شيء انتهى بخير وسلامة!

رد السلطان وهو يبتسم:

ـ هالحين يلزم، يا عم، أن نتحزم للواوي بحزام أسد، ويلزم نتحذر واجد، لأن ابن ماضي إذا شاف أن المصائب كثرت وتدردبت فوق رأسه يمكن يلوصها، ويسوي اللي ما يتسوى!

وهز رأسه عدة مرات، وأضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ وهالحين جاء دورنا يا عم، إذا هزمنا ابن ماضي ملكنا الأول والتالي، وإذا صار غير شيء ترى الإنكريز يتركونا ويدورون على غيرنا، لأنهم ما هم مثلنا ولا مثل جمالنا يصبرون وينتظرون!

وبدأت في منتصف الربيع حملة العوالي!

من جملة الأمور التي تم الاتفاق عليها: أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، بحجة الوساطة والتفاوض؛ وأن يكون تقدم جيوش السلطان بطيئاً، بحيث يحكم الحصار على العوالي تدريجياً، ويضطر ابن ماضي إلى التسليم في النهاية. ولكي تحقق هذه الخطة النتائج المطلوبة لا بد من ضربات موجعة، في أماكن مختارة وفي أوقات مناسبة، وتكون موجعة أكثر حين يمارسها أناس قساة، أقرب إلى الجنون، بحيث تذهب مثلاً، ويتناقلها الناس من مكان إلى مكان، ومن جيل إلى آخر. «ولا مانع أن يعفو السلطان عن القرى التي تخضع سلماً لا حرباً، وأن يجزل لأهلها العطاء».

خريبط الذي يعرف رجاله ويعرف أعداءه لم يكن بحاجة إلى خطط وإلى اقتراحات، ولم يكن بحاجة إلى من يوصيه. فقد قضى سنين طويلة ينتظر هذه المعركة ويفكر فيها، كما أن المناوشات بين موران والعوالي، خلال السنين السابقة، علمته الكثير، إضافة إلى ما كان ينقله له عيونه والمسافرون عن تردي وضع ابن ماضي، وكيف أنه أصبح متعباً لنفسه ولمن حوله، ولأصدقائه الإنكليز بشكل خاص. ثم كيف ضاق به الناس وضجوا بالشكوى نتيجة الضرائب والرشاوى، وأنه لم يعد قادراً على التفاهم حتى مع أبنائه وأقرب الناس إليه.

أما أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي بالذات، فإن الحذر البدوي استيقظ دفعة واحدا، وقد ظهر ذلك واضحاً على خريبط. قال له هاملتون يطمئنه:

ـ أن أكون عند ابن ماضي، يا طويل العمر، أفضل، لأن ذلك

يساعدني على أن أفهم كيف يفكر وماذا يريد وكيف يجب أن يعالج الموقف، لكي أتصرف بالطريقة المناسبة.

رد السلطان وهو يهز رأسه:

ـ الحق اللي تقول يا الصاحب.

ـ ويمكن أن أعرف خططه العسكرية، وانبهكم إلى ما يجب أن تفعلوه للتغلب عليه.

ـ هذا، الله يسلمك، اللي نريده!

ـ ولا بد أن تكون النتائج كما تتمنى يا صاحب الجلالة.

ـ إن شاء الله، وبنظركم وجهودكم نلقى كل خير.

لم يكن السلطان قادراً على منع هاملتون أن يكون هناك، ومع ذلك يجب ألا يظهر عواطفه، أن لا يبدي ملاحظة، ألاّ يعترض؛ وعليه أيضاً أن ينتظر ليعرف كيف تسير الأمور. قال لنفسه وهو يستمع إليه: «الجماعة، مثل ما قال فنر، ما يقدّرون إلا القوي، وما يعطون سرهم لأحد، ويلزم حنا نمدّ معهم، حتى نشوف صدقهم من كذبهم، وهذي بلادنا وناسنا وحنا ادرى».

أما خطة التقدم البطيء والحصار، فإنها تثير الشك ولا تبعث على الراحة أو الطمأنينة، هكذا كان يفكر السلطان. «فالبدو روحهم ضيقة، وتعودوا على الغارة، أما تعقلهم، بدون أهلهم، وتقول لهم اصبروا، فإذا كانوا ما تحملونا وهم بديرتهم، بين أهلهم وعشيرتهم، فظني أنهم ما يفهمونا ولا يتحملون. ما هو بس كذا: فوق البلا عوانة؟ تقول لهم: اتركوا البرودة والهوا الزين، واقعدوا ناظروا البحر والجبل؟ لا بالله، هذه السالفة ما تمشي مع جماعتنا».

فإذا وافق السلطان أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، ولا يستطيع أن يعترض، فإن إدارة المعركة، وتحديد سيرها، يعود إليه، وللذين يقاتلون. هذا ما سوف يتحقق فعلاً على أرض المعركة، دون حاجة إلى الإعلان سلفاً، أو الاختلاف بسببه مع هاملتون.

قال لعمه قبل أن تتحرك قوات عويد وابن مياح بثلاثة أيام:

ـ . . . وتعرف، يا عم، ما أخذنا موافقة الجماعة إلا بشلعان القلب ونشفان الروح، وهالحين يلزم نحكم جماعتنا، وما يصح أن الواحد يلعب بذيله. . .

تنفس بعمق وحزن ثم تابع بصوت عميق:

ـ عويد وابن مياح يحسبونها ركضة عرب، ويريدونها بيوم والثاني، هذا ما يصير يا عم، لأن ابن ماضي ما هو أمير القويعة ولا أمير الرحيبة، ولا هو مثل أمير الحويزة، هذا رابطها من الهند للسند، والغلطة معه كفر، فإذا ما كظيّناه كظة فار يلوصها علينا، يصيح وما يستريح: يا غيرة الدنيا والدين، شوفوا خريبط وجماعة خريبط. والإنكريز وافقوا بشرط: خذوا العوالي، بس لا أحد سمع ولا أحد دري، أما إذا سويناها طبل وزمر، فالله أعلم تنقلب علينا!

والعم دحيم الذي فهم ولم يفهم، لم يكن يعرف ما يجب عليه أو ما هو المطلوب منه، فقبل أربعة أيام، وبعد الاجتماع الذي شهده الجميع، وبعد دعوة العشاء التي أقامها السلطان، عقد اجتماعان، وقد حضرهما ابن مشعان وابن مياح، إضافة إلى أقرباء السلطان وأولاده. وفي هذين الاجتماعين تم الاتفاق على كل شيء، وجيء بالقرآن وتم القسم أن لا تنتهي الحرب، وأن لا تتوقف الجيوش حتى تعاد العوالي إلى ديرة الإِسلام، وأن يقضى على ابن ماضي وذريته إلى أبد الآبدين.

قال العم بمسكنة:

ـ بعد يومين، ثلاثة، الجماعة ماشيين، يا ابن أخي، وكل شيء صار معلوم وتفاهمنا عليه.

ـ صحيح يا عم، بس أريدك تحرّصهم، أن تقول لهم اللي يصير واللي ما يصير؛ وأريدك تفهّمهم أن السالفة طويلة، ويمكن ما تخلص بشهر واثنين.

وبكثير من الصبر افهم السلطان عمه أن الجيوش سوف تتحرك، لكن المعركة الحاسمة يمكن أن تتأخر، وقد تتغير أو يطرأ عليها تعديل، لأن

الظروف التي تمر بها موران والمنطقة، بصورة عامة، دقيقة وتختلف عن أي من المعارك السابقة. ويجب ألا يحرجنا الجماعة، أو أن يرتبوا علينا التزامات أو مواقف يصعب الدفاع عنها أو تبنيها.

ليس هذا فقط، طلب السلطان من عمه أن يفهم ابن مياح وعويد أن المعركة مع ابن ماضي وهي تختلف كثيراً عن المعارك السابقة، لذلك يجب ألا يتخذوا أي موقف إلا بعد الرجوع إليه والتشاور معه.

ودحيم الذي فهم على طريقته، وأحس أن الأمر أكثر جدية مما افترض سابقاً، وعد أن يقضي الأيام الثلاثة القادمة مع عويد وابن مياح، وأن يتحدث معهما كثيراً، وبعد لحظة تفكير اقترح أن يكون ضمن هذه الحملة، لكي «نظل نقرأ على روسهم وما يسودون وجوهنا». وافق السلطان على الفكرة بحماس ثم على الاقتراح، وأكد له أنه سيلحقه بالحملة خلال فترة، وسوف تكون معه قوات كبيرة.

فضة، خلافاً لمرات سابقة، لم تُشعر أحداً أنها سترافق السلطان، رغم أن الحركة وراء السور، وفي الجناح الكبير من القصر، أخذت تتزايد يوماً بعد آخر. النسوة، في القصر والأجنحة الملحقة به، تناقلن أخباراً كثيرة ومتضاربة حول أي النساء سترافق السلطان، لكن عندما سرت أخبار قوية أن الشيخة سترافق الحملة، فقد تأكد الجميع أن لا العنود، ولا فضة، وإن كان بنسبة أقل، ستكون أي منهما مع السلطان. وسرت إشاعات، ولا يعرف من أشاعها، أن السلطان سيتزوج قبل بداية الحملة، لكي ينهي الخلاف الذي وقع بين نسائه، ولكي يرضي ابن مياح أيضاً. وطفة التي سمعت ولم تسمع الإشاعات والأخبار استمرت في الاستعداد، وكانت متأكدة أنها وحدها التي ستسافر مع السلطان، ومما عزز هذا التوقع أنها أرسلت ابنها، مفرّح، إلى الرمكة، خوفاً عليه أثناء غيابها. أرسلته إلى أمها مع توصيات وهدايا كثيرة، وكلفت لولوة بالبقاء إلى جانب البنات الثلاث. ورغم أن لولوة أشاعت في وقت سابق أنها سترافق سيدتها، لكن فجأة، وبسبب الخصومة والتنافس في القصر، عدلت عن السفر، فقط لتثبت أن السلطان لا يفضل امرأة على وطفة!

لم يقتصر الأمر على ذلك، تهاني أكدت لكل من سألها أن الشيخة تقرر في الأمور الخطيرة في اللحظة الأخيرة، وبعد أن تبيّت خيرة لمدة ثلاثة أيام متوالية. وأضافت تهاني، وهي تبتسم، أن الذي سيبقى في موران هو فنر، لأن زينة في شهرها الثالث، وتبدو خائفة، وكان هذا أول إشعار بحملها وفنر إلى جانبها، وبعد أن بحث الأمر مع السلطان تم الاتفاق على ذلك. قالت تهاني هذا الكلام اعتماداً على ما فهمته من خادمة زينة. صحيح أن الخادمة لم تقل ذلك بشكل واضح، أو بهذه الدقة، لكن قدّرت مما سمعته أن هذا ما سوف يجري.

خزعل تردد كثيراً على قصر الروض في هذه الفترة، وكان يجزل العطاء ويقدم الهدايا لأغلب الذين يزورهم مودعاً. وقد اتضح لكل من يلتقيه أو يسمع ما ينقل عن لسانه، أنه سيكون في مقدمة الحملة، أي في الكواكب السيارة. وأشار الذين يحبونه، وبأسف، أن مقدمة أية حملة، خصوصاً حملة كالتي تتوجه إلى العوالي، ستواجه أخطاراً كبيرة، وكانوا يضيفون بنوع من الفخر والمباهاة «وفي المقدمة يكون عادة أهم القادة وأشجع الجنود وأقوى الفرسان».

موضي، مثل أغلب المرات، كانت بين الصحة والمرض، ومستعدة أن تصدق كل شيء. حين تنقل لها إحدى الخادمات أنها سمعت من نساء القصر أن فنر باق تفرح وتبشّر كل من حولها؛ وحين تؤكد أخرى أن فنر ليس أقل من خزعل، ولا بد أن يسافر في طليعة الجيش، تلازم غرفتها وتنخرط بالبكاء. أما فنر حين يسأل فإنه يكتفي بأن يبتسم ويهز رأسه، دون أن يجيب. وإذا اضطر إلى الإجابة فغالباً ما تكون سريعة، مبهمة، ولا يمكن أن تفهم بدقة أو على وجه واضح.

والأمراء الأصغر سناً، وحتى أولئك الذين بدأوا في السنين الأخيرة أو في الشهور الأخيرة، يقتربون من مجلس السلطان، بدأوا أيضاً يستعدون للحرب. ومجلس الاثنين الذي لم يتوقف عنه السلطان ولم يوقفه، امتلأ خلال هذه الأسابيع بأسئلة ورسائل وأشعار وكلها تتعلق بالحرب. والسلطان الذي كان مشغولاً ومثقلاً بالوفود والزوار والرسائل التي يجب أن

يبعث بها، كان فخوراً أيضاً أن تكوّنت كتائب دون معرفته، ودون أن يحس بها، وبدأت، بأصوات عالية، وبإلحاح، تطالب أن تكون ضمن الطلائع التي تسافر قبل غيرها!

جو من التفاؤل لم تشهده موران من قبل، لكن إلى جانب التفاؤل مخاوف وتساؤلات وبعض الأحيان تحسب وانتظار.

طالع العريفان الذي تحسب كثيراً، وقلق لسفر السلطان، قال لناهي:

- صار لنا كم سنة يا ناهي راسنا بارد، فما دام طويل العمر موجود فهو البلشان معهن، وحنا ما علينا إلا: خذوا وهاتوا. هالحين، أذا طالت سفرة طويل العمر، الله يستر، وإذا النسا صارن ازكرتّيات، ترى بلشتانا ما هي قليلة، ما تعرف تداري من ولاّ من.

- عرفناهم وتعلمنا يا أبو جازي، لا تخف!

- ما ينحرز عليهن يا ابن الحلال، صارن جيش، ما هن واحدة ولا اثنتين.

- قولك كذا؟

- ما هو بس كذا، صارت الواحدة فصيل، كل واحدة تجر أربعة أو خمسة، وصارت تؤمر وتنهي.

- كان على طويل العمر أن يجندهن، فإذا صارن عماريات لا بد وينتصر، لأن جيش الحريم ينتصر بأول يوم، لأنهن بدون نخوة ينتخن!

قال طالع بحزن:

- ترى، يا ابن الحلال، الحرب هنا أكبر وأخطر، ويجوز أنها الزم من هناك، فما دام طويل العمر موجود كل شيء بخير وسلامة، لكن إذا راح. . .

وضحك بسخرية ثم أضاف يهمس:

- وهالحين بعدهم صغار، بعدهم تحت خيمة العود، باكر، إذا راح، الله يستر.

- لا تخف، ولا تحزن، تدبر يا أبو جازي، ومع ذلك جماعتنا قالوا: الخيل بلا أعنة مثل الرجال بلا أسنة.

ولم يستطع الرجلان أن يتوصلا إلى أية نتيجة.

وكل شيء آخر في موران يحتدم ويتغير. التجار الذين باعوا كثيراً خلال هذه الفترة، توقفوا عن البيع، لأنهم طمعوا بأسعار أعلى، وخافوا انقطاع التموين. فما دامت الحملة قد بدأت لا بد أن تنقطع طريق العوالي. ولا بد أن ترتفع الأسعار من جديد. أصحاب الخيل والجمال، الذين تفاءلوا بسنة الخصب، وقالوا إن السنوات القادمة ستجعلهم في حال أفضل امتلؤوا بالقلق ثم بالخوف، لأن ما اشتري من الدواب، ولا بد أن ترحل مع الحملة لن يمكّنهم من الشراء مجدداً، وعليهم انتظار المواليد الجديدة أو وصول دواب من أماكن أخرى. أما أصحاب الحوانيت والذين ينتظرون المواسم، فقد باعوا في الحملة كل ما عندهم، ولم يكونوا متأكدين أن أشياء ستأتي، أو سيكونون قادرين على تأمينها في المستقبل.

ومثلما حدث في حملات سابقة، بل وأكثر من أية حملة، انشغلت موران بالرواتب التي وزعت، وبالأسلحة الجديدة والثياب، وانشغلت النسوة بالحزن والانتظار. أمّا المسنون الذين كانوا يتابعون فقد استغرقوا في الصمت والتأمل، وكانوا أشد حيرة من أية مرة سابقة: «الإنكريز ما يعطون لله، وإذا كان ابن ماضي، زلمتهم، واللي ما قال لهم في يوم من الأيام: لا، تركوه وقالوا لخريبط: دونك الرجال اذبحه واللي تريد تسويه به سوّه، فالله العليم أن صاحبنا، خريبط، اما صار نصراني مثلهم، أو باكر يتلفت ما يلقي أحد وياه.. ويلزم نْبَحّزْ زين ونسمع زين، لأنا، هذي الأيام، نشوف أشياء ما شفناه من قبل».

حمد الشايع، أو حمد البصير، كما يطلق عليه في موران، تلقى وهو لا يزال في خيمة السلطان، عشرات الضربات والوخزات من الحرس وبالجنود ورجال الشيوخ، وأكدّ الذين تخلفوا عن متابعة موكب السلطان أنهم رأوه مدمى ومشقوق الثياب، وقد ضاعت عترته أو سرقت، وقيل إن جماعته العميان كانوا أول من تصدى له وضربوه، بل وأكد واحد كان قريباً منهم أنه ما كاد السلطان ينهض، إيذاناً بانتهاء الاجتماع، حتى انهال العميان على صاحبهم. كانوا ينادون عليه، وما أن يجيب، ويتحدد مكانه،

حتى ترتفع الأيدي مع الأصوات: خذ يا ابن الحرام، مع ابن ماضي وما تعلمنا؟ مع ابن ماضي وساكت؟ مع ابن ماضي وما نعرف؟ وذهبت صيحاته في الصخب والضجة. وقيل إنه ظل في الساحة القريبة من السرادق وحيداً، كان يحاول العثور على غترته وأن يصلح ملابسه، إلى أن جاء ثلاثة من حرس السلطان وأخذوه لا يُعرف إلى أين!

ولم تهدأ موران ولم تنم طوال الفترة التي استغرقها الاستعداد، وقد شوهد السلطان أكثر من مرة يذهب إلى وادي الرها، وشوهد أيضاً أخوة السلطان وأقرباؤه، وقد ظهر البشر والتحفز على وجوههم. وسمعت عدة مرات، وفي أوقات مختلفة من الليل والنهار، طلقات رصاص، وتبرع الذين يعرفون أكثر من غيرهم في تعليل الأمر بأنه لوداع الأفواج التي تحركت. وقيل إن الرصاص الغزير الذي سمع ليلة الاثنين من جهة وادي الرها، كان لوداع الأمير خزعل الذي تحرك على رأس الكواكب السيارة. وأكد بعض الشباب أن السلطان أول من أطلق الرصاص، إذ أخذ بندقية خزعل، عمّرها بنفسه، رفعها على كتفه وأطلق. وقال آخرون إن الرصاص الذي سمع في الليل المتأخر، من ليلة الإِثنين ذاتها، ومن جهة وادي الرها، هو الرصاص الذي أطلق على ثمانية من جماعة ابن ماضي، وقد قبض عليهم في اليوم السابق، وتفاوتت الروايات كثيراً بخصوص هؤلاء، قيل إنه قبض عليهم يوزعون المال الذي أرسله ابن ماضي، وقيل إنهم جاءوا ليرصدوا حركة الجيش وليعرفوا معلومات عن عدده وأسلحته. وقيل أيضاً إنهم متسببون فقراء جاءوا لشراء بعض الدواب؛ ومما أكد ذلك أن صرر الدراهم التي كانت معهم أثارت السخرية لقلة ما فيها، ولأن بعض الدراهم كان قديماً وغير متداول. أما حمد الشايع الذي ظل غائباً ولم يسمع عنه أي خبر، فقد جاء من أكد أنه أعدم مع الذين أعدموا!.

ما كاد الأسبوع الأخير من آذار يقترب حتى خرج ضارب الطبل ليبلغ الناس. كان يدق طبله بقوة ويصرخ:

ـ لبيك اللهم لبيك ـ لا شريك لك، لبيك.

يستريح قليلاً ثم يتغير صوته:

ـ الحاضر يبلغ الغايب يا أهل موران، السلطان يقول هذا اليوم يومكم يا نشامة. هذا اليوم اللي يمشي به يغنم، وأبد ما يندم، ويلزم الحاضر يبلغ الغايب يا أهل موران.

ويدق الطبل دقات قوية، حتى إذا تطامن الصوت وانزلق إلى الصمت، خرج صوت مبدر الذي يسير إلى جانب قارع الطبل:

ـ يا راكب اللي هجيجها زين

ما ضيقتْ صدر راعيها

ممشى العشر تأخذ بيومين

تجيك ما ملّ راعيها.

وتتابعت قوافل الجند باتجاه العوالي. كان عويد المشعّان على رأس قافلة، وابن مياح على رأس قافلة أخرى. وكان خزعل في قافلة ثالثة، تبعتهما بعد عشرة أيام. أما قافلة السلطان، وكان ضمنها فنر، فقد تأخرت في التحرك ثلاثة أسابيع، وتأخرت في الطريق كثيراً، إذ أخذ السلطان الطريق الشمالي، وهو الأطول، وكان يتوقف في القرى والدساكر ليتلقى تأييد ومبايعة الذي يسكنون على جانبي الطريق، أو الذين يقدمون من أماكن أبعد حين يسمعون باقتراب قوات السلطان.

حرب العوالي، في معاركها الثلاث، من التعقيد والتشابك وتداخل المصالح ثم تضاربها وتناقض المعلومات، إلى درجة تجعل من الصعب روايتها أو الكتابة عنها. فاختلاف الرواة وتناقضهم، وتغير مواقع القوى، وبالتالي تغير مواقفها، ثم غياب الكثير من الشهود، ولا حاجة للوقوف طويلاً عند أسباب غياب هؤلاء! يحوّل التاريخ إلى مجوعة هائلة من الأكاذيب والتلفيقات، وإذا كان التاريخ، بصورة عامة، هو تاريخ المنتصرين، ووجهة نظرهم، فغالباً ما يميل المنتصرون، زيادة في النكاية والسخرية، إلى رواية الحدث الواحد بأشكال مختلفة للغاية، ولا يتم ذلك دائماً بسبب سوء النية أو النسيان، وإنما أيضاً نتيجة الظروف الآنية، وما تمليه من اعتبارات، ونتيجة لتراكم الأكاذيب الصغيرة، والأوهام لتصبح

وحدها في النهاية وهم الصدق المطلق، أو الرواية الحقيقية الوحيدة للتاريخ الموهوم!

فخريبط الذي تأخر في موران، لم يكتف بأن يأخذ الطريق الشمالي للوصول إلى العوالي، وإنما أطال وقوفه في الكثير من محطات الطريق، ليتلقى البيعة، ويطمئن إلى أوضاع الرعية، ولكي يستكمل استعداداته أيضاً. أما النجاب الذي أرسله العم دحيم، قبل موقعة السمحة بثلاثة أسابيع، إلى السلطان، حاملاً معلومات دقيقة حول نوايا ابن مياح، فقد وصل والسلطان على ماء عين دامة، وكان يفترض أن يحمل جواباً ويعود سريعاً، لكنه استبقي، ولم يرسل غيره. أما لماذا حصل ذلك، فحول هذه النقطة الثانوية جداً، مثلاً، إحدى عشرة رواية، كما دونها أحد الباحثين، وقد قتل هذا الباحث بعد سنة من كتابة البحث وقبل نشره، في ظروف غامضة! طبيعي لا يمكن إعادة ما كتبه الباحث لأن أوراق البحث ذاتها اختفت أيضاً، وحول هذه النقطة الأخيرة وجهات نظر متعددة. قيل إن البوليس أثناء التحقيق جمع الأدوات الجريمة والثياب والأغطية الملطخة بالدماء وبصمات الأصابع، وكانت الأوراق ضمن ما جمع. وقيل إن البوليس حين سئل عن الأوراق كانت الإجابة أنه لا يهتم أبداً بالأوراق والكتب ولا بأفكار القاتل أو القتيل، لإنها لا تعني له شيئاً، كما أنها ليست من اختصاصه. وقيل: الكتب والأوراق بيعت، مع أشياء أخرى، باعتبار أن لا أحد طالب بالتركة، ولم يعرف للقتيل أقرباء يرثونه! وجاء من همس أن الباحث، قبل أسبوعين من وقوع الجريمة، سلم المخطوطة لأحد أصدقائه لقراءتها وإبداء الرأي فيها. وهذا الصديق، عندما سئل أجاب أنه أعادها بعد ثلاثة أيام لأنه لم يستطع أن يقرأ الخط. وأكد صديق آخر يعرف الاثنين، أن المخطوطة سلمت بعد يوم واحد فقط، ومن قبل من تسلمها للقراءة، إلى أحد مستشاري السلطان، وحين تم الاطلاع عليها جاء من أشار بضرورة التصرف بسرعة وحزم، لأن المرحلة تقتضي رص الصفوف وشد عزم الأمة، لا إثارة البلبلة وإقلاق الراحة. أما المخطوطة ذاتها فقد اختفت، ولا يعرف ما إذا اتلفت أم حفظت!

أما كيف عرف أن هذا الباحث جمع إحدى عشرة رواية حول وصول النجاب إلى عين دامة، فهذا ما قاله أحد أقرباء ابن مشعان، الذي يعرف النجاب، وقد التقى به في نهاية الحرب وكان هذا القريب ضمن من قابلهم الباحث ليسمع منهم، وبعد أن روى له ما سمع، ابتسم الباحث وقال: هذه هي الرواية الحادية عشرة!

وكما تبدو هذه الرواية مشوشة، وربما مدخولة، فإن الروايات الأخرى لا تقل عن ذلك. مهيوب، رئيس حرس السلطان أشار أن رسالة النجاب، وكانت شفوية، أثارت الريبة لدى السلطان، ولذلك حجز النجاب، دون أن يُشعره بذلك، إذ كلف به ثلاثة يرافقونه ولم يسمح له بمغادرة المعسكر. عنان بسيوني الذي رافق السلطان في هذه الحملة، يؤكد أن السهو هو الذي أدى إلى عدم الإجابة، لأن مشاغل السلطان كانت هامة وكبيرة، ولا يشير بعد ذلك إلى هذه المشاغل أو إبراز أهميتها. شيخ الصاغة، يتذكر أنه سمع بوصول رسالة ورسول من العم دحيم، لكن لا يتذكر ما بعد ذلك. أما السلطان فيعتبر أن كاتبه عرفان الهجرس، هو المسؤول عن نسيانه. فرغم أنه أوصاه، منذ وقت طويل، بضرورة أن يذكّره بالأمور المهمة أو التي تستحق التذكير، «لأن عقل البني آدم ما هو دفتر» إلا أن ابن الهجرس لم يذكّر السلطان في عين دامة. عرفان أسر لبعض الذين يثق بهم من الأقرباء، وقد نقلت إحدى قريباته، وكانت قد سمعت منه أن السلطان تعمد النسيان، وقد ذكّره عرفان بالأمر ثلاث مرات في ثلاثة أيام متوالية، وكان في كل مرة يهز رأسه ويبتسم؛ وعرفان يفهم معنى الحركة والابتسامة، أو ما يعني باختصار: الأمر لا يستحق الاهتمام!.

أقوى الروايات وأكثرها تداولاً، على الأقل خلال الفترة الأولى، تلك التي رويت عن لسان دحيم، عم السلطان. إذ بعد أن وصلت طلائع الجند إلى الصفا، وكان يفترض أن تخيم وتبقى هناك إلى حين وصول جند الأمير خزعل، أو أوامر من السلطان لمتابعة المسير، بدأ ابن مياح يعد العدة، وبسرعة، للوصول إلى السمحة. أكثر من ذلك بدا غير مستعد لسماع أية وجهة نظر أخرى، وكان، بين خاصته، يهدد ويتوعد أن يجعل السمحة أثراً

بعد عين، وقد أدى هذا الموقف إلى خلاف مع دحيم، وإلى حدة في العلاقة بين الإثنين، مما دفع دحيم إلى البقاء في الصفا. ولم يتردد ابن مياح، في إحدى المرات، وأثناء مناقشة مواصلة الزحف والخطة التي يجب أتباعها أن قال لدحيم:

- اترك، يا ابن الحلال، أنا والسلطان، من حلقه لأذني، قال: ما هو كل يوم نقدر على ابن ماضي، وما دام صار لنا فلا تترك حجراً على حجر، ولا تترك أحد يعتب عليك، ولا تسمع أي شيء من أحد ثاني!

أما ما كان يجب أن يُفعل، ولماذا لم يُفعل، ومن المسؤول، فإن اختلاط الوقائع وتشابكها لا تترك مجالاً لحسم الكثير من النقاط.

لكن قبل إصدار الأحكام أو تقييم النتائج، لا بد من السؤال الأساسي: ماذا حدث؟

حتى هذا السؤال الذي يفترض أن لا يكون موضع خلاف كبير، فإن الإجابة عنه تتفاوت أشد التفاوت.

أحد الذين كتبوا سيرة السلطان، وقد جرى ذلك، بعد حملة العوالي بسبع سنين، كتب ما يلي: «وابن مياح، ذلك المتعصب، الضيق الأفق، والذي كان يمتلئ غروراً وطموحاً، لم يمتثل لأوامر السلطان، إذ اندفع، كما تندفع الحيوانات الهائجة، واستغل عنصر المفاجأة، ليهاجم السمحة، وكانت جنود حاميتها في غفلة عما يجري، إضافة إلى أنها حامية قليلة العدد. وبعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات اندحرت الحامية، وأعلن من فيها التسليم، لكن ابن مياح طلب من جنده أن يلاحقوا رجال الأعداء ويفنوهم عن بكرة أبيهم. وقد امتثل الجنود للأوامر، وقاموا بأعمال قاسية، وحين وصلت الأخبار إلى صاحب الجلالة السلطان استشاط غضباً، ثم غرق في الحزن، وقد شاهده الكثيرون يبكي والدموع تتساقط على لحيته. وبعث ابنه فنر على عجل لكي يضع حداً للمجازر والإساءات التي ارتكبها ابن مياح».

أحد «المؤرخين» الذين سجلوا تاريخ موران، كتب عن موقعة السمحة الآتي: «ثم اندفع جند موران دون أن يدري بهم أحد، واشتبك الطرفان

بمعركة دامت عدة ساعات، أسفرت عن هزيمة جنود ابن ماضي، وقد رابط عدد من هؤلاء الجنود في الهضاب القريبة، وشرعوا يطلقون مدافعهم على المجاهدين الزاحفين، ودامت الحال ثلاثة أيام دون فائدة، تدفقت بعدها قوات موران على المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ بعض الأهلين يطلقون الرصاص على جيش موران، مما أدى إلى مذبحة رهيبة لم تقف إلا بتدخل ابن مياح ذاته، ولما درى السلطان بذلك أصدر أوامره المشددة بعدم التعرض للسكان الآمنين المسالمين، وأمر بدفع التعويض لجميع الذين سلبت أموالهم أو أصيبوا بفقد عزيز، وأمر بتأليف لجنة خاصة لهذا الغرض النبيل».

وكتب باحث جاء إلى موران متأخراً ليقوم بمهمات كثيرة، بما فيها كتابة التاريخ، كتب عن تلك الموقعة: «دخل جند موران السمحة كالسيل الجارف، وهم يكبرون ويهزجون ويطلقون بنادقهم في الفضاء، ثم طفقوا يطلقونها في الأسواق، وهم يطوفون المدينة، فقتلوا عدداً من الأبرياء...

«وكان قد تخلف في المدينة جماعات من البدو، ناهيك بمن دخل مع الجيش، فاختلطت هذه الجموع في ظلمات الليل، وكانت ساعة الهول والفزع. راحوا يطرقون الأبواب ويكسرونها فيدخلون البيوت إما قهراً وإما بعد أن يؤمنوا أصحابها، ثم يعملون فيها أيدي السلب، وكانوا يقتلون في سبيل السلب».

أما هاملتون، فكتب عن موقعة السمحة، بعد سنوات ما يلي وقد اعتمد على اليوميات: «فلم يلق جيش موران مقاومة تذكر، وحين اندحر جيش العوالي، فرّ مع الجيش الآلاف من السكان والمصطافين. وطارد جنود موران القوات المتقهقرة واللاجئين، فقتلوا جميع الشاردين منهم، واشتبكوا مع قوات العوالي ففر جند ابن ماضي في حالة من الاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق. أما ابن مياح مع بقية جيشه فقد أعمل السيف في سكان السمحة وأخضعهم لحكم إرهابي، قاتلاً المشركين. ونهب جيشه كل بيت وكل إنسان».

ويضيف هامتلون «كان هذا كافياً لبث الرعب والذعر».

وفي وقت متأخر كتب مؤرخ محايد حول تلك الوقعة «وقد استولى جند موران على خزين الذخائر العسكرية في السمحة، واستبيحت لمدة ثلاثة أيام، وفر الكثير من أبنائها، وسقط المتبقون صرعى بأيدي جند ابن مياح».

والباحث الذي جاء إلى موران والعوالي ليدرس ويدون تاريخ المنطقة وجغرافيتها كتب عن الأيام الثلاثة التي أعقبت دخول المدينة ما يلي: «وبدخول ابن مياح أمر بجمع السلاح وبتفتيش البيوت، فاضطر لذلك أن يخرج الأهالي منها، فسيقوا نساءً ورجالاً وحبسوا في حديقة عامة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم وأذن لمن شاء منهم بالخروج من المدينة».

لم تكن معركة السمحة، إذن، واحدة من معارك عديدة يمكن على ضوء نتائجها أن يتقرر مصير الحرب، ومصير ابن ماضي. كانت البداية، وكانت النهاية معاً.

فالذين شكّوا بقوة خريبط، أو الذين كانوا يشكّون بإمكانية أن يغزو العوالي، رأوا بأم أعينهم جنده يندفعون فلا يقف في وجوههم أحد، وحتى المقاومة الضعيفة هنا أو هناك كانت بهدف المشاغلة والتأجيل، من أجل ترتيب صيغة ما لابن ماضي. والذين أكدوا أن الإنكليز لن يسمحوا بتقدم قوات خريبط، اكتشفوا أنهم كانوا مخطئين، فالإنكليز هم الذين طلبوا من خريبط أن يغزو العوالي، ومما عزز هذه القناعة وأكدها أن الأموال التي صرفت، والأسلحة التي ظهرت، إضافة إلى العدد من المستشارين الذين كانوا يأتون بين فترة وأخرى، وكانوا يدربون الجنود على المدافع الجديدة، لم يكن ليتم لولا موافقة الإنكليز، وتشجيعهم! ولم يكن الأمر بحاجة إلى براعة أو ذكاء لمعرفة هذا التحول الذي حصل. وأن يقع هذا التحول تتحول عواطف الكثيرين ومواقفهم.

أما بعد معركة السمحة، وما جرى خلالها، فقد قال الكثيرون: «أفضل طريقة أن يراقب الإنسان نطاح التيوس والأسلم أن لا يقترب منها».

فابن مياح الذي اندفع بتلك الطريقة، كأنه يريد أن تنتهي الحرب منذ

أيامها الأولى، هدفه أن يكون وحده المنتصر والسلطان كان يرغب للحرب أن تنتهي في أيامها الأولى أيضاً، لكنه يريد أن يكون المنتصر الوحيد، ولذلك نسي الرد على رسالة، عمه، وترك الحرب تمتد شهوراً طويلة لأنه خلال ذلك سيكون أقدر على ترتيب الوضع لما بعد الحرب.

قناصل الدول كتبوا إلى دولهم أن خريبط يتقدم، وأنه وحده الذي يزداد قوة، في الوقت الذي يتراجع فيه الآخرون، خاصة ابن ماضي، ويضعفون. وكتبت الدول إلى القناصل أن يحرصوا على شيئين اثنين: أن يقيموا علاقات، لكن حذرة، بالسلطان خريبط، وأن يكسبوا وده، ويجب أن يبذلوا أقصى جهدهم للمحافظة على أرواح مواطنيهم والمواطنين الأجانب. أما فيما يتعلق بالمذابح التي جرت، والفظائع التي ارتكبت، والتي إقشعرت لها جلود القناصل، وأبدوا تأثراً زائداً، وبالغوا بالوصف والأرقام وإيراد الوقائع، فقد أشارت الدول إلى قناصلها أن الأمر شأن داخلي، ويحسن عدم التدخل فيه، لكن يجب، مع ذلك، مراقبة كل شيء وتقصي أدق المعلومات، لأن الوقائع والمعلومات ستكون ذات فائدة في المستقبل!

ورغم أن رسائل القناصل كانت تفيض بالعاطفة وتمتلئ بالتفاصيل، ولم يتورع قنصل هولندا عن تسجيل أسماء عدد من العائلات التي أبيدت، وتعداد الأموال التي سلبت، وقد أورد القنصل جميع ذلك اعتماداً على مشاهدة رجل عيان، فإنه لم يذكر اسم الشاهد، وكان جواب هولندا إلى قنصلها: «في الشرق غالباً ما تكون الحروب بهذا الشكل، ولذلك نرى أن تتحرى بدقة، وأن تكون شديد الحذر في علاقاتك مع الذين يزودونك بالأخبار!»

الأمهات اللواتي كن يعرفن اسم عويد المشعان، وكن يخوفن أولادهن باسم هذا الوحش، فجأة تراجع هذا الاسم، وأصبح اسم ابن مياح على كل شفة ولسان. وبالغت النساء في رواية الروايات عما حصل في السمحة، وقد أدى ذلك إلى غضب الرجال، لأن الحديث، حين كان يجري كان يولّد ظلالاً من الشهوة، هذا، على الأقل، ما يستشعره الرجال

في أحاديث النساء، وكان غضبهم يتغلف بشجاعة خائفة، أو بذلك المزيج من التقدير مع الكراهية!

ابن ماضي لا يريد أن يصدق ما حصل، فغضبه يزداد يوماً بعد آخر، ومع الغضب الشتائم وتحريك القطع العسكرية، والتدخل بكل صغيرة وكبيرة. حتى ما يكتب في جريدة «الزمان» من مقالات كان يقضي ساعات في مراجعتها و «تعزيز همتها» كما يقول، حين يستبدل كلمات بأخرى، أو حين يضيف بعض الكلمات والعبارات أو أبياتاً من الشعر. ومع زيادة التدخل، وفقدان الثقة بالآخرين، أو الشعور بفتور حماستهم، تزداد الأخطاء، وتتراكم الهزائم، ويزداد معها الشعور بالإِحباط وخيبة الأمل.

لماذا وقع كل هذا وكيف حصل التحول بهذا الشكل وبهذه السرعة؟ ولماذا يصبح حتى الأبناء والأقرباء وأكثر الناس صلة، وخاصة الكبار، خصوماً؟ لماذا يتحولون؟ لماذا يتكلمون في الوقت الذي يجب أن يصمتوا، ويقدمون أفكاراً واقتراحات مليئة بالجبن وإن كان ظاهرها الشجاعة؟ حتى الشجعان الذين يريدون أن يموتوا، فإنهم يفتقرون إلى الأسباب الوجيهة التي تجعل موتهم مبرراً أو ذا معنى!

وإذا كان ابن ماضي يجد نفسه في هذه الدوامة من الهزائم وخيبة الأمل وتراكم الأخطاء وعدم الفهم، وحتى التنكر، فأكثر ما يعز عليه، وأكثر ما يؤلمه، إن لا أحد يفهمه، حتى زوجته التي يحبها، ويسمع منها الكثير، يجدها مع الآخرين أكثر مما هي معه. فالأبناء والمستشارون حين يجدون صعوبة في التفاهم معه، فإنهم يلجأون إلى الأميرة، كما يسمونها، ويبالغ بعضهم فيسميها الملكة؛ وبطرق بدائية، وبحيل مكشوفة، وبتلك القصص التي يتناقلها السقاة والخدم يملأون رأسها، فإذا امتلأ لا بد أن تفرغه، ولا تجد غير زوجها والأولاد الصغار. كان ابن ماضي يعاني أشد المعاناة. كان يصرخ، يعربد، يرفض أن يستقبل هؤلاء المجانين الذين وفدوا عليه دفعة واحدة، ولا يعرف كيف أو من دفعهم. فإذا استطاع لهم رداً، أو استطاع بما تبقى لديه من قوة ودهاء أن يتكلم معهم بطريقة توضح لهم أكثر مما ترضيهم، كان يجدها في القسم الخلفي من القصر، أو في الليل المتأخر،

تنتظره لكي تقص عليه، ما يعرفه الصغير والكبير، وبالتالي لكي تطلب منه طلبات لا يعرف كيف أمكن للآخرين أن يقنعوها بها، أو كيف استطاعت هي أن تقتنع بها. عندئذٍ يثور، يحطم، يصرخ، وأخيراً لا يجد سوى الوحدة ملجأ ومهرباً!

قال بعض خدمه، إنه لا يفعل شيئاً سوى أن يدير رأسه من ناحية إلى أخرى. أصبح رأسه، كما يقول مفرّح، خادمه الذي لا يكاد يفارقه: مثل بندول الساعة، لا يتوقف ولا يهدأ. فإذا أراد أن يستريح فإنه يغير اتجاه حركة الرأس من الحركة الأفقية إلى الحركة العمودية.

الرسائل التي تأتيه من أولاده، ومن قادة الجند، وحكام المناطق، وحتى من شيوخ القبائل أو الأحياء، لا بد أن يعرف مرسليها قبل أن يفضها، وكثيراً ما أعاد الرسائل أو مزقها دون أن يقرأها. كان يعرف لماذا أرسلوها، وماذا يريدون أن يبلغوه بها. ولأنه يخاف قوّته مثلما يخاف ضعفهم، فقد ظل حريصاً على أن يبقى في تلك المنطقة العازلة. إذا لم يمتثل له الآخرون، إذا لم يفهموا، بعد كل ما حدث، ويقفوا عن قناعة إلى جانبه، فإنه من ناحيته لا يريد أن يسمع كلمات الخوف والضعف، ولا يريد للذين عرفهم في أوقات سابقة وأوضاع أخرى، أن يراهم الآن، ومن خلال الرسائل، وقد ضعفوا أو تراجعوا، ليس ذلك فقط، وإنما امتلؤوا فجأة بهذا الكمّ من العقل والحكمة! كان يتساءل، في أحيان كثيرة، كيف يمتلك الجبناء والضعفاء والمهزومون هذا القدر الكبير من الحكمة، يخرجونه كما لو أنهم يَسْلَحُون على أنفسهم؟ ويباعد ما بين ساقيه، يحك هناك، ويقول: «الأصدقاء الجبناء هم الذين يسببون الهزيمة، أكثر مما يفعل الأعداء».

خريبط، في الضفة الأخرى، يلعب اللعبة ببراعة وإحكام: اضرب، اضرب بقسوة، حيث لا يتوقع، ولا تتركه يرتاح يوماً واحد. تقدم دائماً، والتقدم ليس فقط إلى الأمام، إنه في بعض الأحيان بالتراجع، بإخلاء بعض المواقع، حتى لو كان الأمر مجرد عبث، فقط لتجعل الآخر يحار فيما تفعله. والعبث، أو عدم المنطق، أثناء الحرب، يمكن أن يكون منطقاً،

طريقة مناسبة. لإنهاك الخصم، خاصة إذا كان شيخاً، ويفترض أنه امتلك الحكمة كلها! اعمل الشيء الذي لا يتوقعه أبداً. وحارب بأساليب وبقوى لم يألفها ولم يتصور إنك تملكها. ويمكن أن تجند عليه أقرب الناس إليه. لوّح لهم، اقنعهم، إبعث بالرسل والهدايا والوعود، ابعث كل ذلك مع أشخاص يثقون بهم، أو على الأقل يعرفونهم، وليس المهم أن تكون صادقاً في الوعود أو غير صادق، المهم الآن أن تخرّب جبهة العدو، أن تنفذ إليه من كل المسارب، وعند ذاك، وبعد أن تصل إلى المواقع التي تريدها، تبدأ بمفاوضته من حيث وصلت لا من حيث بدأت. أما الشيوخ، فإن أقسى حرب يمكن أن تشنها عليهم هي أن تدمر أعصابهم، إذ لم يبق لهؤلاء سواها، بعد أن غادرتهم قواهم وآمالهم، وعليك أن تضرب في موضع الألم، يجب أن تضرب الرأس والخصيتين، وكلما كانت ضرباتك شابة، كانت مؤثرة. الضربات الشابة هي الضربات المختلفة عما يتوقعون وينتظرون، وهي التي تؤثر فيهم ويمكن أن تدمرهم.

شهور طويلة في حرب لم تتوقف يوماً واحداً، ولا يشبه فيها يوم يوماً غيره، ولا يشبه مكان المكان الآخر.

قال ابن مياح لعويد ذات ليلة، وبعد انقضاء شهور على سقوط السمحة:

- يا أبو مجحم.. ترى سالفتنا طالت، وهذا خريبط حاط يد على الرحمان ويد على الشيطان!

رد عويد وهو يبتسم بحزن:

- اللي به عادة ما يتركها يا ابن الحلال، ومن قبل قالوا: يظل ذنب الكلب بالقصبة أربعين يوما ويخرج أعوج!

- لكن حنا ما عاد بن صبار. أهلنا وديرتنا وأولادنا، فإذا ما مشى، وحدنا مشينا، وإذا ما تحركنا راحت علينا!

- حسابات الشيوخ، يا أبو جازي، طويلة وما تخلص، فإما تصبر عليهم أو يصبرون عليك، لكن أبد ما تعرف شلون يفكرون وشنهو اللي يريدونه.

رد ابن مياح بعصبية:

ـ يا ابن الحلال قلنا لربعنا إنها يوم والثاني، وتذكر يوم السمحة، كنا متفقين إننا إذا صيّفنا هنا نرّبع بآخر العوالي، لكن، مثل ما تشوف عينك: الصيف انقضى، وعقبه الشتاء، وهذا أول ربيع، وما ينعرف بعده كم ربيع يجي. وإذا قلنا وحكينا يقول: طولة البال ما مثلها، وهذا ابن ماضي العود فارق، هالحين أبو الزغب إذا تحمل الصيف ما يتحمل الشتاء، وكل شيء بوقته زين.

العم دحيم الذي غضب خلال فترة معينة، لأن السلطان لم يجب عن رسائله، ما لبث أن أصبح شخصاً آخر. قال له السلطان بعد معركة السمحة بشهرين، وكان هذا أول لقاء:

ـ . . . وتعرف، يا طويل العمر، هذي حرب، وبالحرب كل شيء يصير. حنّا بحاجة إلى ابن مياح وإلى عويد. وأنت تعرف الجماعة: بين الصلاة والصلاة صلاة ثالثة، وبين الركعة والركعة ركعة ثالثة. وكأن الواحد منهم يسلّف رب العالمين، أو أنه يتصور دينه على الله، هالحين، أكبر من الجبال، ومثل ما قلنا بموران: يلزم نأخذ الناس على قدر عقولهم، فتركنا السمحة لابن مياح، وهذا دين، ويلزم نرد دينه، إذا ما اليوم اللي عقبه، والسمحة، والشهادة لله، ما تركت لابن حرة قلب، كل واحد يتلمس على رأسه ويقول: الله يستر. وصل خريبط وجماعة خريبط، ومثل ما قالوا جماعتنا: صيت الغنى ولا صيت الفقر!

رد رحيم، وكان صوته رخيماً:

ـ اللهم قدّم اللي به الخير.

وتغير صوته قليلاً:

ـ وحنا نريد، يا أبو منصور، رضا الله ورضا الوالدين!

وحين بدأ العم دحيم يتساءل، ولا يسأل كيف ستكون المعارك القادمة ومتى، رد السلطان إن الأمر يتطلب مدة، انتظار وصول قنابل المدفعية، وإصلاح المدافع المعطوبة. وأشار إلى أنه بعث بطلب الذخيرة والمهندسين الذين يصلحون الأسلحة.

فضة لم تكن فقط مع السلطان، وإنما كانت في أحسن حالاتها، لأنها أنجبت الولد الرابع، في هذه الحملة، ورغم أن السلطان تزوج في محطة من محطات الطريق، فقد كانت شديدة السرور بعد معركة السمحة، وطلبت، وألحّت كثيراً، أن يسمى السلطان الابن الذي سيولد منصور، لكنه تردد، وانتابه الحزن وعاودته الذكرى، مما اضطر فضة إلى صرف النظر، واختارت، وبمساعدة اثنين من أقربائها. تسميته: فواز، وهذا ما حصل.

هاملتون الذي قضى شهوراً طويلة في بلاد ابن ماضي، وأبدى حرصاً واضحاً لكي يصل مع خريبط إلى نتائج ترضي الطرفين وتنهي النزاع، ما لبث أن صمت ثم غاب، عندما بدأت الوساطة بين الطرفين. أما الآن، وبعد أن سافر ابن ماضي، وجاء مكان ابنه المعز، فقد جاء هاملتون أيضاً في زيارة خريبط:

ـ . . . الجماعة، يا طويل العمر، مستعدون للموافقة على أية مطالب: ترسيم الحدود، بما في ذلك المناطق التي تم الاستيلاء عليها؛ إقامة علاقات حسن جوار وصداقة؛ إنهاء منازعات المياه وإسقاط المطالب . . .

ويبتسم هاملتون ويضيف كأنه يكلّم نفسه:

ـ كل هذه المطالب مرفوضة، ولا بد الآن أن ترحل عائلة ابن ماضي نهائياً وتترك الأمانة للأمة لكي تقرر ما تراه مناسباً لمستقبل العوالي.

وبدون صعوبة يفهم السلطان تماماً.

ولم تمض شهور حتى قال السلطان لابن مياح ولعويد، وبجفاء:

ـ إذا كنتم تريدون تشاركون فنر المعركة فأهلاً ومرحباً، حنا حضرنا كل شيء، والمعركة بين يوم والثاني، ولا بدّ نخلص من آل ماضي ونرفع راية الإِسلام.

صمت قليلاً، تطلع إلى الرجلين بنوع من التشفي وتابع:

ـ وحنا، إذا قلنا كلام، إذا أعطينا قول، أبد ما يصير اثنين ولا نتراجع

عنه، لكن يلزم للبني آدم أن يتحضر، والحرب هذي الأيام ما هي مثل قبل، تحتاج، هالحين: المدافع والذخيرة... وحتى الطيارات، مثل ما شفتو قبل كم شهر، لما رمونا من السما.

تنفس ملء صدره، صمت، ثم أضاف، وكان صوته حاداً ومزهوا:

ـ وهالحين، وبتوفيق من الله، وبعدما حضرنا كل شيء، ترانا إذا ما مشينا اليوم نمشي اللي عقبه، فاللي يريد يمشي معنا فأهلاً ومية مرحباً، واللي ما يريد بكيفه!

ولم يكن أمام الرجلين سوى أن يظهرا استعداداً وصل حد المبالغة، فقط يحتاجان إلى فترة قصيرة من أجل أن يستعدا. قال دحيم:

ـ ترى قوات طويل العمر كافية وزود، بس أبو منصور ما ينسى أحد، وقال: جماعتنا، وأبد ما ننساهم، ويريدكم تكونون معنا.

قال السلطان بنوع من الغضب:

ـ اللي قلته، يا طويل العمر، هو الصحيح، بس يرحم والديك لا تلح ولا تحرج أحد، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها!

قال عويد:

ـ حنا حاضرين وجاهزين يا طويل العمر وإن شاء الله نبيّض الوجه.

قال ابن مباح:

ـ لا أحد يقدر يمنع مؤمناً من الجهاد في سبيل الله.

وبهذه الطريقة تم الاتفاق على معركة الطريفة، وهي آخر معارك العوالي.

أثناء الاستعداد لمعركة الطريفة، والتي يفترض أن تكون آخر المعارك في العوالي، وعلى ضوء نتائجها يتقرر مصير الحرب، وقعت اضطرابات على الحدود، من جهة الحويزة، وقد تضاربت الأخبار حولها كثيراً، الأمر الذي اضطر السلطان لإرسال ابنه خزعل على رأس حملة لقمع الفتنة وتأديب العصاة، وأوفد معه أيضاً ابن مباح والعم دحيم.

وقد أوصى الجميع، وبلهجة قوية، وقيل غاضبة وقد شابها الخوف، أن يكونوا في منتهى الحزم، «لأن الأمور لا تحتمل، وما عندنا لحية مشطة، خاصة بهذا الوقت».

ورغم أن السلطان كان على ثقة أن تلك الاضطرابات ليست بعيدة عن تأثير ابن ماضي، وهي للمشاغلة وتشتيت القوات، أكثر مما هي خطرة، وتشكل تهديداً للسلطنة، فقد حرص أن يكون ابن مياح مع القوات المتجهة إلى هناك، لأنه يريد أن يتفرغ للمعركة الرئيسية هنا، وأن لا يشاركه أحد في جني ثمارالنصر. قال لخزعل يوصيه:

ـ أنت في الحويزة السلطان، أنت اللي تؤمر وتحكم، ويلزم الكل يطيعك؛ حتى عمي دحيم أنت فوقه.

يصمت قليلاً، يفكر، ويخرج صوته صلباً:

ـ وابن مياح إذا شاخ، إذا قال يصير وما يصير، تكسر رقبته، وما عندنا كبير إلا البعير. .

أما مع عمه دحيم فتكلم بطريقة ثانية:

ـ . . . وتعرف يا عم، الجماعة هنا يلزم لهم كم عصا، ويلزم لابن

مياح أن ينفث، فاتركوه يتناطح وياهم إلى حين ما يتعبهم ويتعب، وإن شاء الله شهر والثاني موعدنا، من جديد، بموران!

وتغير صوته:

ـ وخزعل يلزمه يتعلم شلون يحكم، لأن البني آدم مهما عاش آخرته الممات، وإذا كنا هالحين عايشين وفوق راسه، وتقول له سوِ ولا تسوِ، باكر أو عقبه يكون شورة من راسه، ويلزم أنه يكون شاف وتدرب.

وبعد قليل وبلهجة ودودة:

ـ وأنتم فوق رأسه تشورون عليه، وأنا وصيته أنه ما يسوي أي شي إلا بشوركم وبمعرفتكم، وظني أن الأمور هناك سهلة، وهو كان معنا أيام الحويزة ويعرف الديرة والناس، والناس تعرفة وتحبه.

مع ابن مياح كان شخصاً مختلفاً:

ـ . . . بالشدايد ما لنا غيرك يا أبو جازي، وأنا ما اخترتك إلا لثقتي بك ولاعتمادي، بعد الله، عليك.

تنفس بعمق ثم أضاف:

ـ أنا خايف يا أبو جازي أن الجماعة هناك ما تحركوا إلا ومن قال لهم السلطان والجيش كله بالعوالي، وإذا براسكم شي هذا اليوم يومكم، والجماعة ما يقدرون يردونكم، بعيدين ومشغولين بابن ماضي. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ وأريد منك، الله يسلمك، أن تثبت لهم أن يدنا طويلة، وأن إيمانّا بالله ورفع راية الإِسلام ما يؤخرنا عنه شي، ويلزم يتأدبون ويعرفون حدهم، وهذول شيوخهم واللي قالوا لهم ثوروا، أريدك ما ترحم منهم أحد.

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وخزعل مثل ولدكم تشورون عليه وتوصونه. . .

وضحك السلطان وهز رأسه، وبعد قليل:

ـ والأولاد، يا أبو جازي، راسهم حار ومستعجلين، والواحد يلزم يأخذهم على قدر عقولهم!

هاملتون الذي أشار على السلطان أن يبعث إلى الحويزة خزعل وابن مياح كان أكثر خشية من السلطان، أو هذا، على الأقل، ما أشعره به:

ـ في أحيان كثيرة، يا صاحب الجلالة، تتغير الأمور في اللحظات الأخيرة، وهذا تاريخ الحروب يشهد على ذلك، فكم من خدعة انطلت على أكبر القادة، وغيّرت مصائر الحروب والدول. قرطاجنة على سبيل المثال. . .

وكاد يسترسل في حديث تاريخي، لكن السلطان ابتسم وتطلع إليه باستغراب، ابتلع هاملتون ريقه وتابع:

ـ التاريخ يعلم الإنسان الدروس ويجعله أكثر وعياً وأقدر على اتخاذ الخطوات المناسبة.

ولما وجد السلطان بعيداً ويفكر بأمور أخرى، أضاف بلهجة جديدة:

ـ صحيح أن الأمور في العصر الحاضر اختلفت كثيراً عن العصور السابقة، لكن مع ذلك اعتبر أن حوادث الحويزة خطيرة خاصة في هذه المرحلة، ولا بد من معالجتها بحزم وبسرعة.

قال له السلطان وهو يبتسم:

ـ أنتم، الله يسلمك، تعرفون بالتاريخ أحسن منا حنا يا البدو، بس حنا البدوان، ولا تزعل من هذي الكلمة، نعرف جماعتنا وديرتنا أحسن من غيرنا!

ـ بكل تأكيد يا طويل العمر.

ـ وهذول أهل الحويزة، وحنا بهم أدرى، قالوا لأرواحهم ما دام السلطان بعيد، نضرب بهذي الظلمة، فإذ ما حصّلنا اللحم ما يفوتنا المرق.

وتغيرت ملامح السلطان تماماً، أصبحت أقرب إلى الحزم:

ـ لكن، وبمشيئة الله، وبقدرته، سبحانه وتعالى، لا بد ينكسون وترتد رماحهم لصدورهم، ويلزمنا نكسرهم ونؤدبهم زين، حتى نعلمهم ونعلّم غيرهم.

وهكذا بدأت حملة الحويزة الثانية، وبدأت الاستعدادات الأخيرة لمعركة الطريفة.

السلطان الذي بدا واثقاً لم يشغل نفسه بالحملة التي تحركت إلى هناك، وإنما انصرف كلية إلى ما يجب أن يعملهُ هنا.

قال لفنر، وهاملتون موجود ويريده أن يسمع:

ـ إذا خلصنا هنا، بالخير والسلامة، كل الباقي نوافل. هنا راس الحية، ويلزمنا نضرب، وبعدها ما تلقى أحد يرفع راسه!

ما كتب عن معركة الطريفة متشابه، ويكاد يكون من كتبه واحد! فهذه المعركة كانت بمثابة تتويج لمرحلة طويلة من الصراع والعناد والمساومة، وفي جانب أساسي منها انتهت قبل أن تبدأ. قال بعض المتابعين أنها انتهت يوم السمحة. وقال من هم أخبر منهم إنها انتهت قبل ذلك بعدة سنين. فما تراكم خلال فترة طويلة، وما حاول الإنكليز أن يخلقوه أو يؤدوه عن طريق أشخاص عديدين، أداه خريبط وحده. وهذا، وإذا كان يشكل استثناءً للطريقة التي اتبعوها في المنطقة فإنه يؤكدها. فما دام بعض الأصدقاء أصبح متعباً وشديد الإلحاح على ضرورة تنفيذ وعود سابقة، أو الوقوف في وجه مشاريع أخرى، باعتبار أن هناك من هم مستعدون للقيام بأدوارهم وأدوار غيرهم، فإن المهم هو النتيجة، وهذا ما حصل بالضبط!

صحيح أن هناك تفاصيل كثيرة، وقد تختلف بين واحد آخر، لكنها لا تختلف عن وصف عرس أو سباق خيل: أن تكون العروس، أو الفرس، وضعت رجلها اليمنى قبل اليسرى وهي تدخل أو وهي تركض؛ أن تكون بدت واثقة مهيبة أو خائفة؛ أن تكون قد تعرقت أو لم تتعرق أبداً.. كل هذه تفاصيل ثانوية. المهم أن العروس قد زُفّت، وأن الفرس ربحت!

فخريبط دخل الطريفة في اليوم التالي لرحيل المعز، آخر أمراء آل ماضي في العوالي، بعد أن عقد له النصر، وكان معه فنر، وقد أدى الصلاة في جامعها الكبير. وأولم لوجهاء المدينة. وأول المساء طمأن أهلها والقناصل، وقال إنه يترك لأهل العوالي أن يقرروا ما يرونه مناسباً لهم، وهو مستعد لأن يمتثل وينفذ ما يتفق عليه المسلمون.

خريبط ذاته لم يصدق ما تراه عيناه. كان، وحوله جنده، يبدو، رغم حزمه والتماع عينيه، في منتهى العذوبة وهو يرد تحيات الذين اصطفوا على الجانبين، وكان في حالة من النشوة أقرب إلى الخدر. فهذا اليوم الذي لم يتوقعه ولم يحلم به، أصبح واقعاً مجسداً ووحيداً. ورغم أنه كان مستعداً للموافقة على ما هو أقل من هذا بكثير، وقد حاول دون كلل مع ابن ماضي، لكي يعترف به فقط، وأن يوافق على أن يكون في موران وحدها، ورغم الهدايا والعطايا والخضوع، فإن ابن ماضي ركب رأسه ورفض أن يبعث إليه مجرد كلمة ليشعره برضاه وبركاته!

الآن وخريبط يدخل المدينة الأخيرة في العوالي، وقبلها بعام يضطر ابن ماضي نفسه لركوب البحر والهجرة، ويضطر ابنه المعز ـ والذي جاء كحل لمشكلة بدت مستعصية ـ على ركوب البحر بالأمس ويترك العوالي إلى الأبد، فإنه يشعر بغبطة لا يحتملها، تسقط من عينيه الدموع، يتطلع إلى الذين حوله بامتنان، ويخرج صوته متحشرجاً: «إن الله، سبحانه وتعالى، يعطي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء!».

فنر وهاملتون اللذان سبقا السلطان إلى القصر، للتأكد من الحراسة والاطمئنان لمكان إقامته، لم يكونا يريدان أن يناما هذه الليلة أبداً. كانا في حالة من الانفعال أقرب إلى الذهول أو الهوس، وزاد انفعالهما وهما يطلان من شرفة قصر الهازعي على الساحة الكبيرة الذي جرى فيها الاحتفال، قال هاملتون:

ـ ليلة من ليالي التحام التاريخ بالأفكار، بالأماني، ومجنون من ينام في مثل هذه الليلة، لأن مثلها لا يتكرر في حياة الإنسان.

فنر لم يكن أقل تأثراً وانفعالاً من هاملتون، رد:

ـ هذي، يا مستر هاملتون، يسمونها عندنا: ليلة القدر!

في الليل المتأخر، حين عاد السلطان إلى قصر الهازعي، بعد أن شارك في العرضات وإطلاق الرصاص، ولم يترك أحداً إلا وحياه، وأوعز لعرفان الهجرس ألا ينسى تسجيل أي شيء، بما في ذلك أسماء الذين يسلّمون عليه، بغية تقديم الهدايا لهم، وطلب بتأكيد أن يسجل اسم سويلم

الذيب، قارع الطبل، ثلاث مرات، للشعر الذي تلاه، والطرائف التي قالها وتناولت ابن ماضي، ولدقات الطبل التي لم تهدأ ولم تتوقف طوال الليل!

حين عاد السلطان لقصر الهازعي وجد فنر وهاملتون ساهرين وبانتظاره. بعد أحاديث سريعة، أقرب إلى الغزل والنشوة، وفي لحظة انفعال، طلب إلى الجميع أن يخرجوا إلى الشرفة، وهناك بدأ بإطلاق النار، أطلق ناراً غزيرة، وكان مع كل صلية يردد: ظلينا بصدورهم ونحورهم إلى أن مكّنا الله منهم.

ابنه راكان، الذي جاءه ثلاث مرات، يبلغه أن أمه تريده، ولا بد أن يكلمها، لم يتلفت إلى كلماته. صحيح أنه رآه، احتضنه، لكن لم يسمع ما قاله. وحين ألحّ الصغير في المرة الأخيرة، نتيجة إلحاح فضة، وكان السلطان في حالة انفعال يستمع، ربما للمرة العاشرة، إلى خادمه الزين، وكان اسمه من قبل المعتوق، والسلطان ذاته هو الذي أعطاه الاسم الجديد، يروي كيف ركب المعز الباخرة في الليلة السابقة، وأصرّ أن لا يترك الطريفة إلا إذا أطلقت له المدفعية إحدى وعشرين طلقة، فكان السلطان، حين يسمع إحدى وعشرين طلقة يسأل، والضحك يملأ وجه كله: واحد وعشرين شنهو؟ فيرد عليه معتوق: طلقة؛ ومن جديد يسأل: قلت طقعة؟ فإذا أجابه طلقة، يرد السلطان: أي والله يستاهل، وما هو واحد وعشرين طقعة يستاهل ازود. أما حين ألحّ عليه راكان، وفي لحظة صمت، فقد سمعه الذين حوله يقول بمرح:

ـ يكفي يا وليدي، واليوم ما هو دورها، اليوم دور غيرها!

قال الذين شهدوا الليلة الأولى للسلطان في الطريفة، أنه لم ينم ولم يترك قصر الهازعي، أو بالأحرى شرفاته. فقد تنقل من شرفة لأخرى، وعند الفجر، حين سمع الأذان، وقد خيمت لحظة صمت، قال، وخرج الصوت من أعماق صدره:

ـ أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

وتغير فجأة، إذ طلب، وبصوت أقرب إلى الأمر:

ـ الصلاة.. الصلاة يا عباد الله.

وخرج وخرج من معه. هاملتون الذي تخلف، وكان معه عدد من خدم السلطان، قال لنفسه: «من الرائع والمفيد أن يعتقد هؤلاء السلاطين أنهم كبار وعظام، وأن يكونوا واثقين هكذا، وأن ينظروا إلى الآخرين دون أن يرف لهم جفن. أنهم شجعان حين يتحدثون، ولا بد أن يجيء وقت يتوهمون أنهم فعلاً يصنعون التاريخ، لكن من حسن حظ التاريخ، خاصة الآن، أنه يُصنع في أماكن أخرى، وأنه رغم العلامات التي تميزه، ولا يخطئ في قراءتها الكثيرون، فإنه لا يصر على أن يُستهلك في مكان محدد، خاصة مكان صناعته، فهو ملك مشاع، ويمكن لأي قوي أن يدعيه، كما يمكن لأي واهم أن يدعيه أيضاً، مستغلاً ضعف الآخرين أو جهلهم».

ورغم أن هاملتون سجل في يومياته، خلال هذه الفترة، أشياء كثيرة، لكنه لم يعتبرها الأكثر أهمية، خاصة في هذه المرحلة. كان يريد أن يساهم في صناعة تاريخ منطقة في مرحلة معينة، أو على الأقل يسهل لصانعي هذا التاريخ مهمتهم، ولذلك أجل الكتابة بعض الوقت، وانصرف إلى أمور أخرى.

بسقوط الطريفة انتهت مشاكل الحرب لتبدأ مشاكل السلام. صحيح أن عدة جيوب للمقاومة ظلت هنا وهناك، وأخذت وقتاً واهتماماً كبيرين من السلطان، إلا أنه كان واثقاً، فقد وصفها، ذات ليلة لهاملتون، وهما يتحدثان عن شؤون المستقبل، بأنها تشبه بقايا اللحم بين الأسنان، وأضاف وهو يضحك:

ـ وحنا يا البدوان عندنا بدل المسواك عشرة، فإذا ما فاد الأول يفيد الثاني، وبعدها الحلق مثل المسك!

أرسل عويد المشعان في حملة إلى الشمال، وأرسل فنر في حملة أخرى إلى الجنوب، وكان هدف الحملتين أن تجتث ما تبقى لابن ماضي من آثار، وأن تشعر القاصي والداني إن دولة جديدة قد قامت، وأن لهذه الدولة من القوة ما يمكنها أن تصل إلى أبعد المناطق، وأقوى الأشخاص. ولم ينسَ السلطان أن يوصي قادة الحملتين بضرورة الحزم، وبعض الأحيان القسوة.

قال لابنه فنر الليلة الأخيرة، قبل أن تتحرك الحملة:

ـ أنت، يا وليدي، غير الباقين، دارس وتفهم، سافرت وشفت، بس أريد اعلّمك بجماعتنا: ترى إذا رخيت مدوا، وإذا شديت خافوا وارتدوا. العين الحمرا تخوف اللي ما يخاف، وأريد منك ما تعطي وجه لأحد، لأن هذول البدوان إذا انعطوا وجه يطمعون، وما يشبعون. اسمع من الكبار قبل الصغار، واسمع من الشيوخ ولا تسمع من غيرهم. لا تقول لا أبد ولا تقول نعم، خل سرك بصدرك ولا أحد غيرك يعرفك أو يحزر عليك. قبل أن تقبل على قوم خلي خوياك يجوسون ويتأكدون، لأن الطريق ما هي

آمنة، فإذا ما وصلت خلي الأرض ترجف تحت رجلك، وما أحد كبير غيرك، ولا تخجل ولا تخف يا وليدي.

كان بوده أن يضيف، أن يتكلم أكثر، أن يلخص تجربته ومعارفه لفنر وهو يقود أولى حملاته، لكنه كان على ثقة أن فنر استوعب أغلب الدروس. لقد اختبره في أوقات سابقة، تحدث معه طويلاً، وسأل، دون أن يشعره، الذين رافقوه، وقد خرج نتيجة ذلك كله «أن فنر رجال وذهين وما ينخاف عليه». ومع ذلك فقد اختار له أحسن رجاله، من حيث القوة والشجاعة، وقال لهم، بطريقة غير مباشرة، إن فنر ربما احتاج إلى خبرتهم ومعرفتهم بالأرض والناس، وإنهم لن يبخلوا عليه، وختم حديثه مع أخلص الرجال الذين رافقوا الحملة:

ـ . . . وتعرفون أن العمر يعلّم والإِنسان ما يتعلم إلا من كيسه، بس دايماً الكبير يعلّم الصغيّر، واللي يعرف يعلم اللي ما يعرف، وما يلزم ابين لكم منزلتكم عندي وكم تعزون عليّ، وإن شاء الله برجعتكم غانمين، الله يقدرنا على مجازاتكم!

مع عويد المشعان كان السلطان مرحاً ومزهواً:

ـ . . . الواحد، يا أبو مجحم، يوصي اللي ما يعرفه، اللي ما جرّبه، وهذا الشمال لك كله، بحماده ودياره، وما أظن أن الواحد يخرب رزقه بيده!

وحي تطلع ابن مشعان إلى السلطان بتساؤل، تابع:

ـ العوالي صارت لنا يا أبو مجحم، ما هي لابن ماضي أو لغيره، والناس بذمتنا ما هم قوم علينا، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. العاصي، اللي يحمل سلاح، اللي يريد يحارب الحكومة ما له بقلبنا شفقة أو رحمة، نضربه حتى نؤدبه ونؤدب غيره، أما اللي هم على باب الله، اللي ما بي بينّا وبينهم شي، فمرحبا يا أولاد، ويا هلا بالنشامة، وكل ما نريده منكم، يا جماعة الخير، أن تطيعوا الله ورسوله وتدعوا لطويل العمر بالخير والسلامة.

توقف السلطان قليلاً ثم أضاف بنبرة مرحة:

ـ هذا الكلام يا عويد أقوله لنفسي قبل ما أقول لأحد غيري، وأبد ما تفهم منه شي ثاني، وهالحين حنا نريد نسألك...

تطلع عويد المشعان بحذر وترقب، وخرجت الكلمة من فمه بعداء:

ـ سم.. يا طويل العمر.

ـ نسألك، يا أبو مجحم، قبل ما تمشي: توصينا بشيء؟ تريد شيء؟ هل من طلبات سهينا عنها؟ طلبات لك، لأهلك، لجماعتك ورجالك؟

ـ أريد سلامتك، يا طويل العمر، وأنت دايماً مفضّل.

ـ وبرجعتك، الله يسلمك، غانم وسالم، راح تصير حملة العوالي أخبار وأمثال يرويها الكبير للصغير، لولد الولد، ويقولون عويد المشعان، أبو مجحم، سوّى وسوّى... وهذا اللي يريده البني آدم بهذي الدنيا، وكل ما عداه ما يسوى شي!

وهكذا خرج عويد المشعان راضياً، وندم أنه أخطأ، في فترة معينة، بل أكثر من ذلك لام نفسه أنه ظن الظنون بالسلطان!

نشوة النصر التي أدارت رأس السلطان، وملأته ثقة وزهواً، واستيلاؤه على العوالي بمساحاتها الكبيرة ومدنها العامرة، وبسكانها الأكثر وعياً وتطوراً من موران، لم ينسه أن يتلفت حواليه أيضاً. ففي هذه الفترة التي تقام خلالها الممالك أو تزول، وأثناء رسم الخرائط الجديدة للمنطقة، فإنه وحده الحصان الذي يمكن أن يصول ويجول، خاصة بعد غياب ابن ماضي، والقادر على أن يقنع الآخرين، وأن يقتنع به الآخرون.

هاملتون الذي ظل سنوات في موران والعوالي، لا يغادرهما إلا في سفرات قصيرة ويعود، قال للسلطان، بعد شهر من انتهاء حرب العوالي، وكان يستأذنه بالسفر:

ـ في الأماكن الأخرى من العالم، يا طويل العمر، يعتبرون الإجازة، الراحة السنوية، حتى بالنسبة للعسكريين، ضرورية ومقدسة مثلما العمل ضروري ومقدس، وهناك لا يؤخرون إجازاتهم ولا يؤجلونها، لذلك يحق لي أن استأذن جلالتكم في إجازة... بعد هذه السنين.

والسلطان الذي لم يعترض، كان تواقاً لأن يعرف: إلى أين يمكن أن يصل في المرحلة القادمة؟

قال ليواصل الحديث، وبجو من المرح والألفة:

ـ الحق اللي تقوله يا الصاحب، وجماعتنا، هنا، يقولون: اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، فيلزم تصل أهلك وترجع لنا أنت والعيال والأخبار الزينة!

رد هاملتون بمرح أيضاً:

ـ انقضت سنوات، يا طويل العمر، لم أر ولدي إلا بالصور، فإذا لم أذهب الآن، وأقدم نفسي، وأقول له: أنا أبوك يا مايكل، فسوف ينساني ولن يتعرف عليّ في المستقبل.

ـ لا.. لا هذا أبد ما يجوز:

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ولو الله هداك، وصرت مسلم، كان زوجناك وخليناك هنا، بس ما هي باليد، قال عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾.

قال هاملتون، بعد أن انتهى هذا الحديث المرح وخيم الصمت:

ـ كنت اود، يا صاحب الجلالة، لو أن سمو الأمير فنر رافقني في هذه السفرة، لأن الأصدقاء الكثيرين له في بريطانيا سوف يفتقدونه، كما أن زيارته الآن ستكون مفيدة بعد هذه السنين من الغياب.

رد السلطان، وجو المرح لم يزايله:

ـ الخير بالجايّات يا محروس السلامة، وأنت تكفي وتوفي، ولا بد تسلّم على الجميع، وخاصة طويل العمر ملك الإنكريز كثير السلام، وتقول له أن الجماعة هناك يذكرونك بالخير، ودوم دوم يسألون عن صحتك وراحتك، ويتمنون لك السعادة والسلامة.

شكره هاملتون وأكد له أن الجماعة هناك يتابعون الأخبار باهتمام وعناية وسوف يرجع أيضاً بالأخبار الطيبة!

بعد أن تحركت الحملات، وهدأت ضجة الاحتفالات، وبدخول فصل الشتاء، أخذت العوالي تبدو بنظر السلطان ورجاله غير مفهومة بالمقدار الكافي. فالناس الذين كانوا شديدي الضيق بابن ماضي، وضجوا بالشكوى، ولم يخفوا المرارة، بل وكانوا لا يريدون لتلك الحال أن تدوم، وعبروا عن فرح مشوب بالحذر، لأن الحرب انتهت أو كادت، بدأوا يظهرون ضيقاً، وفي أحيان كثيرة يصل حدود الاستياء من تصرفات جنود السلطان ومن رجاله. فالجنود الذين كانوا خائفين في بداية الأمر، وينظرون إلى كل الوجوه بارتياب، ما لبثوا أن شعروا بالطمأنينة والثقة، وهذا دفعهم لأن يواجهوا أي رفض أو اختلاف بالقوة، ولم يترددوا في شهر السلاح، أو ضرب الذين لا يمتثلون لرغباتهم أو أوامرهم، فالاختلاف على البيع والشراء، والمزاح، وتلك التوريات بالحديث، وبعض الأحيان المناداة على السلع بالغناء والتطريب، وغير هذه من الأمور الصغيرة التي كانت تميز العوالي، وتطبع ناسها في المدن الكبيرة وفي أصغر القرى، وتخلق لهم ملامح وعادات يأخذها الصغار عن الكبار، ويتوارثها جيل عن جيل، كانت هذه الأمور تثير رجال السلطان وتدفعهم إلى التحدي. وكثيراً ما وقعت في الأسواق الداخلية، أو في الأحياء البعيدة، عمليات تعدٍ من هذه الطرف أو ذاك. كانت في بداية الأمر عابرة، قليلة ومتباعدة، ولا يذكرها أحد، لكن عندما ترافقت بذلك العناد، وذلك الإصرار الذي يبديه رجال بالسلطان، على ضرورة أن يتغير كل شيء، سواء في عمليات البيع والشراء، أو بطريقة التعامل، وحتى بنظرة العيون، فإن عناداً أقوى وإصراراً أشد بدأ يظهر من الناس. صحيح أن الأمر حصل

بشكل عفوي، ونتيجة رد الفعل، وظل في نطاق الأفراد، لكنه بدأ يتسع ويزداد.

وبدأ يتسع أكثر وازداد أكثر حين ترافق ذلك مع التعليمات التي أخذت تصدر تباعاً حول ما يجب على الناس من التزامات دينية: الصلاة في المساجد، وفي أوقاتها، ومن يتخلف يتعرض للعقوبة. التدخين ممنوع ومن يقبض عليه وهو يدخن لا بد أن يجلد أمام الناس. أما الغناء، أما اللهو فيجب أن يُنسى أمرهما لأن عصر ابن ماضي مضى وانقضى وبدأت الآن دولة الإِيمان.

ظن الكثيرون أن ما نقل إليهم لا يزيد على كونه إشاعات يروجها رجال ابن ماضي؛ وفسر الذين سمعوا الأخبار من أناس ثقات أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة، مثل نزوات كثيرة تظهر في بدايات العهود، أو مع القادمين الجدد، ثم لا تلبث أن تسقط أو تنتهي. وقال بعض الذين يعرفون رجال خريبط أكثر من غيرهم: «يظنون أن كل الدنيا موران، وهم بكل تأكيد لا يعرفون العوالي، ولا يعرفون غيرها، ولا بد يخطون، وبعدها يندمون».

حين قابل الوجهاء والتجار السلطان، وأشاروا، بطريقة بعيدة، إلى بعض ما يجري، ابتسم ثم رد عليهم بطريقة لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً دقيقاً، أو أن يتفقوا على معناها، لكنهم لاحظوا أن وجهه اعتكر وبدا عليه شيء من الضيق، فلم يتابعوا، وتركوا الأمر إلى وقت آخر، أو ظرف مناسب.

وحين أشاروا إلى ما يجب أن يكون في العوالي من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، واستشهدوا بما قاله السلطان ذاته، فقد أكد لهم أنه سيفي بكل كلمة قالها وبكل وعد أعطاه، فقط يطلب تعاونهم والتفافهم، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها. فلما التمسوا منه، وكان ذلك أقرب إلى الرجاء والتوسل، أن يفرج عن بعض موظفي ابن ماضي، وجنود الحامية الذين استسلموا، صاح بصوت عالٍ على ابن هجرس، والذي يقف دائماً غير بعيد، وبيده دفتر وقلم:

- اسمع يا عرفان. . حنّا اليوم بيوم الاثنين، تبلغ الجماعة، وتقول لهم، السلطان يأمركم أن آخر حد معكم يوم الخميس، كل بريء، كل واحد ما حمل بوجهنا السلاح، وما سرق ولا نهب، يلزم يفرجون عنه. تسمع يا ابن هجرس؟

ويتطلع إلى تأثير كلماته في الوجوه والعيون التي تتابعه، حتى إذا رأى رضى أقرب إلى الفرح أضاف:

- ويوم الخميس بنفسي أتأكد، وما يلوم المقصّر إلا نفسه، تسمع يا عرفان، بلغهم هذا على لساني.

والتفت إلى الوجهاء والتجار وقال بلهجة أبوية:

- وإن شاء الله يصلّون ويانا الجماعة جماعة.

وتغير الحديث وأخذ مجرى آخر.

ويوماً بعد آخر يغرق السلطان في دوامة المشاكل والهموم، والتي لا تنتهي. فابن ماضي الذي ركب البحر بعد أن خسر معركته العسكرية، بدأ حروبه الأخرى. بدأ بحرب التحريض وتأليب القوى والرأي العام ضد ما يجري في العوالي من فظائع: القتل، التهجير، هدم الأحياء والقرى، نهب البيوت والبشر، وكان يستغل اللاجئين والفارين من مذابح البدو، لكي يتحدثوا عما يجري هنا. أما ما يفعله رجال خريبط في أمور الدين فإنه حديث القريبين والبعيدين، ومن شأنه أن يستفز ويثير ويعبّئ. والسلطان خريبط الذي بدا غير خائف، أو بالأحرى كان واثقاً من المعركة العسكرية ونتائجها، اكتشف الآن أن هذه المعركة لم تحسم إلا القليل من المشاكل، وخلقت، بالمقابل، مشاكل من نوع آخر. وإذا كان مطمئناً أن أغلب ما يدور في الخارج لا تصل أصداؤه إلى العوالي وإلى موران إلا بعد مرور فترة طويلة، وبعد أن تنكسر حدته، ويصبح جزءاً من الماضي، لعدم وجود وسائل اتصال مع الخارج، حيث تدور الأحاديث، وتنتشر الفظائع والفضائح، ولأن في العوالي صحيفة وحيدة تنشر الأخبار تصدر مرتين في الأسبوع، وما تغيّر فيها سوى المحرر الرئيسي، فبعد أن كان ابن ماضي نفسه في فترة معينة، جاء بعد سفره غالب الدباغ، أحد رجال الأمير معز،

فلما سافر الأمير سافر غالب معه، وبعد أن جاء خريبط أصبح يونس شاهين مسؤولاً عن الجريدة التي تنشر البلاغات والقصائد.

لكن بمرور الوقت أصبح الخارج يؤرق السلطان أكثر من الداخل، فقد اعتبر معركته الأساسية، والتي كانت تثير مخاوفه، قد انتهت، لكنه اكتشف أنها انتقلت من الداخل إلى الخارج. ومثلما بعث بالحملات إلى معظم المناطق شمالي العوالي وجنوبيها، لكي تجتث ما تبقى لابن ماضي، وتبشر بالحكم الجديد، ولكي تفرض هيبة الدولة، فلم ينسَ أن يبعث بعدد من رجاله إلى حيث يكون ابن ماضي. وفي هذ الفترة من الاضطرابات والتداخل وتغير الولاءات، وكان من السهل أن يكون لكل واحد من المتنازعين عيون عند الآخر، وأن تنتقل الأخبار والمعلومات، حتى تلك التي تجري في غرف النوم ووراء الأبواب المغلقة، فلما وصلت للسلطان الأخبار أن ابن ماضي لم يترك أحداً، ولم يترك قولا أو عاصمة إلا وبعث إليها رجاله، وأن الصحافة والناس في الخارج لا تتكلم إلا عما يجري في العوالي، فقد تحسب كثيراً، ولام نفسه أنه ترك هاملتون يسافر، بل وخاف من هذه السفرة.

لم تقتصر الحرب الجديدة على ما يكتب أو ما يقال، فقد ترافقت أيضاً بالأموال ترسل إلى الكثيرين في الداخل، إلى زعماء العشائر وقادة الجند السابقين، وإلى التجار وأئمة المساجد. وترافقت أيضاً مع الصعوبات التي تواجه الناس في تأمين ما يحتاجون إليه، بعد أن اشتريت من الأسواق المواد لحاجة الجنود وحملات السلطان. ومع الصعوبات رجال خريبط وطريقتهم في التصرف والتعامل. صرخ سعيد السقاف وسط السوق، حين لطمه أحد رجال خريبط، وكان في باب دكانه يدندن.

ـ أيش ذا يا أبويه احنا عبيد ولاّ صنف ثاني؟

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وأضاف:

ـ أعوذ بالله جماعة ما يمكن التفاهم معهم، تقول لهم ثور يقولوا احلبوه، نقول لهم احنا إسلام مثلكم يقولون: تخسون. جماعة ما يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، لكن يومهم قريب!

ومع الصعوبات وتزايد نقمة الناس حرب الحدود. فالمعزّ الذي وُجد في ظروف صعبة، واضطر، من أجل الحفاظ على أرواح الناس، كما يقول، ومن أجل أن ينسوا أخطاء الماضي، ولكي يفرض المعركة، لا أن تفرض عليه، بدأ. وكان متأكداً أن الظروف الجديدة، رغم صعوبتها، سوف تتيح له أن يعمل ويتصرف بطريقة مختلفة. ماذا يريد الإنكليز؟ ماذا يريد الفرنسيون؟ ماذا تريد القبائل والناس وكل أهل العوالي؟ إنه مستعد لذلك. وندم أنه ترك الطريفة سلماً. كان يمكن أن يبقى، ويقاوم، لكن المستشارين، هؤلاء الذين قال عنهم أبوه: إنهم يخصون الثيران، ويقتلون خيل السلطان، وكانوا حوله، لا يتعبون من الاختلاف والتنافس، وكان الإنكليز يملأون جيوبهم بالمال، وعند ذاك يسمعون ويسمّعون ما يجب أن يكون!

الآن، يمكنه أن يفكر دون ضغط البدو ودون صراخ اللاجئين والهاربين، ويستطيع أن يخطط بدقة للمستقبل. ماذا يملك خريبط أفضل منه؟ وهل يثقون به أكثر مما يثقون بأولاد الملوك والذين توارثوا الحكم أباً عن جد؟ والبدو... إنهم لا يريدون أكثر من الذي يؤمن لهم قوت يومهم. وإذا كانت مدن العوالي وتجارها قد أنستنا البادية فيجب أن يُصحح الخطأ وأن يُحارب خريبط بالقوى التي حارب بها.

حرب الحدود لها بداية، لكن ليس لها نهاية. ومثلما بدأ خريبط يمكن أن يبدأ هو.

وهكذا، وبانسجام مع الحرب النفسية وحرب الإعلام، ومع الأموال أيضاً، بدأت حرب الحدود. وخريبط الذي كان يخاف من الأماكن البعيدة، والتي تبدو له مجهولة، لم يكن يخاف كثيراً من هؤلاء البدو أن يأخذوا ألف طلقة لكي يطلقوا عشراً، ثم يعودون، ليأخذوا بدلها آلافاً. إنه يخاف من الطلقات البعيدة التي لم تسمع بعد، ويخاف أكثر من الذين لا يحملون البنادق الآن، أو الذين يحملونها ولا يطلقون!

لو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد حلاً، لكن رجال موران ذاتهم الذين كانوا يحاربون بحماس ودون تردد، أصبحوا الآن نمطاً آخر من

البشر: يضغطون، يتكلمون بأصوات عالية، يلومون السلطان أكثر مما يلومون غيره، لأنه يمنعهم من تصحيح الأخطاء، من قمع هؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى أن يجعلوا منهم مسخرة، رغم كفرهم، ولا يترددون في أن يمتنعوا عن بيعهم أو التعامل معهم.

فأهل العوالي الذين أبدوا تساهلاً كبيراً حين وصلت قوات السلطان، وكانوا مستعدين للترحيب بالذين جاءوا والتعاون معهم، وكانوا كذلك خلال الأيام الأولى، ما لبثوا أن تحولوا وتغيروا. فالماء البارد الذي يخرج من البيوت، والخضر النديّة التي يقدمونها، وتلك الابتسامات التي تترافق مع الأحاديث، كل ذلك انتهى ليحل محله نوع من الجفاء أقرب إلى العداوة، وسخرية سوداء بدل الابتسامات والترحيب، إضافة إلى أجوبة تتكرر لدى الباعة والمخابز وفي الأحياء البعيدة، عند أطراف البحر أو قريباً من الصحراء: «ما عندنا يا أخوي، ما فيش، نفقنا وما تتعب روحك». وهؤلاء البدو، رجال السلطان، والذين جاءوا من أبعد الأماكن، من أجل الغنائم، أو من أجل المال والحرب، أو من أجل رفع راية الله، يجدون أنفسهم في وسط أقرب إلى العداء، في وسط مليء بالصمت والريبة والاختلاف.

ولأن رجال السلطان يواجهونه كل يوم، وهم حوله وأقرب الناس إليه، لذلك لا يتركون أية حادثة، مهما كانت صغيرة، إلا ويرددونها المرة بعد الأخرى، حتى إذا وصلت إلى مسامع السلطان، صاح بغضب:

ـ يا عباد الله، هذي غير موران. وهذول غير جماعتنا، ويلزم تفهمون وتصبرون!

وتنقضي أيام الشتاء، وتأتي بعدها أيام الربيع، لكن شتاء هذه السنة كان أشد برودة من سنوات سابقة، وكان أقل مطراً. فإذا احتمل الناس، من أهل العوالي، أو من أهل موران، الشتاء إنتظاراً لأيام الربيع، وانتظاراً للخصب وانفراج الأحوال، فقد جاء الربيع بطيئاً ضعيفاً، وانتهى بسرعة ليبدأ معه الصيف. والصيف إذا جاء مبكراً وكثيفاً هكذا فإن مزاج الناس وتصرفاتهم، وحتى عقولهم تتغير. قال أهل الحواضر في نهاية الشتاء:

«انتظروا الربيع فإنه يحل المشاكل ويفرّج الهموم» فلما جاء الربيع هكذا، قالوا: «اللهم اجعلها سنة يمكن احتمالها، فإذا انقضت تنقضي الهموم» ولما حل الصيف قاسياً ثقيلاً تشاءموا، وقالوا من وراء أبواب مغلقة: «اللهم نجنا من الأعظم». وضاقت خطوات الناس أصبحوا لا يخرجون إلا إلى الأماكن القريبة، ولا يلتقون إلا بالأقرباء أو الذين يعرفونهم. أما أهل البادية، وهم أقدر على تحمل سنوات المحل، فكانوا يجدون حلاً لما يعانون بأن ينزلوا إلى أطراف المدن، أو أن يرابطوا على طرق التجارة، وهناك، وبمحاولات ووسائل لا تخلو من المكر والقسوة، أو المسكنة، كانوا يجدون قوت يومهم، ويواصلون الحياة، رغم صعوبتها.

الآن، وقد هجمت هذه السنة العكرة القاسية، وبعد أن توقف الذين يحسنون عن تقدم الإحسان، وتوقف الذين يدعون البدو لأعمال البساتين، أو لحفر القنوات أو لنقل الحجارة، ليس لأنهم بحاجة إلى كل هذه الأعمال، وإنما لأنهم يريدون أن يساعدوهم وأن يجعلوهم يعملون شيئاً مقابل ما يقدمونه لهم من الطعام والمال، فإن هؤلاء لم يعودوا مستعدين أو قادرين، لأن البدو ارتبطت صورتهم بصورة رجال السلطان، ولأن ليس لديهم من المال فائض يقدمونه لهم.

سنة وليست مثل أي من السنين.

قال خريبط ليونس شاهين:

ـ اكتب يا يونس: «إن الله يرزق الناس من حيث لا يحتسبون». كتب يونس ذلك، لكن الرزق لم يأت.

قال خريبط لرجاله: «لقد صبرنا من قبل؛ أكلنا الجراد، وتحملنا، فيجب أن تتحملوا. وقال أيضاً إن الله يمتحن عباده، وأنتم الممتحنون». سمعوا منه، لكنهم تلفتوا ونظروا لا يعرفون هل يوافقون على ما يقوله أم يفعلون شيئاً آخر!

قبل أن ينقضي الصيف لاحت في الأفق علامات جعلت السلطان يستعيد ثقته ويصبح أميل إلى التفاؤل: حملة الجنوب قامت بدورها

وعادت، أو عاد أغلب الذين شاركوا فيها. فنر بدا لكل من رآه إنساناً آخر: لوحته الشمس وغيرته تماماً، ومع تغير الملامح تغيرت التصرفات، وحتى النظرة والعقل تغير. أبوه السلطان، بعد أن سمع منه، خلال يوم وليلتين، تفاصيل كثيرة ودقيقة حول الحملة وما واجهها، منذ أن تحركت إلى أن عادت، وكان في أحيان كثيرة يستوقفه، يستفسر ويتساءل بدهشة عن الأماكن والأشخاص، قال لنفسه: «يوم حرب ولا سنة تنجيم، لأن الواحد في الحرب شايل روحه على كفه، وما يدري شنهو اللي يصير بعد ساعة، ولهذا السبب ينشّد عصبه وكل يوم يطلع له قلب». أكثر من ذلك بدا له أن وجود فنر إلى جانبه، وقد كبر وتغير هكذا، سوف يساعده كثيراً.

أخبار حملة الشمال مشجعة، لكن لا تزال أمامها مهمات. وابن مشعان، منذ أن تحركت قواته، أصبح أكثر وداً، وأكثر حرصاً على أن يظهر للسلطان التزامه. فالرسل الذين بعث بهم، ليطلعه على تحركات الحملة وأخبارها، أو ليبعث له عدداً من كرام الخيل وأطايب الفاكهة، ثم ليشعره أنه تزوج في الطريق مرتين، مع إشارة، لا تخفى، إن هذين الزواجين كانا ضروريين لاستمالة بعض القبائل والتقرب منها. كانت الرسائل والإِشارات واضحة الدلالة: إنه ينفذ تعليمات السلطان، وإنه يكسب ود الناس أكثر مما يقسو عليهم!

أما حملة الحويزة، فرغم أنها انتهت خلال الشهور الثلاثة الأولى، لكن لا تزال هناك جيوب كثيرة، خاصة قرب الحدود. وهذه الجيوب وإن كانت لا تشكّل خطراً إلا أنها شديدة الإِزعاج، إذ بالإِضافة إلى أنها تتحرك بسرعة من مكان إلى آخر، وفي هذا دليل لا يخفى على أن لها مؤيدين في قبائل وأماكن عديدة، فإن قربها من الحدود، وخطورتها أيضاً، يمكن أن تؤدي إلى مضاعفات أو نتائج غير محمودة العواقب.

خزعل، بعد مشاورات طويلة مع العم دحيم، وبعد رسالة إلى أبيه، قرر أن يترك ابن مياح يتابع أمر هذه الحملة، ورجع إلى موران. كان يريد أن يتابع سفره إلى العوالي، لكن السلطان طلب منه البقاء إذ لا حاجة لمجيئه.

وقبل نهاية الصيف أيضاً، وهذا ما جعل السلطان يتفاءل، عاد هاملتون.

عاد هاملتون هذه المرة عن طريق الحويزة. بقي هناك ثلاثة أيام، تابع بعدها السفر إلى موران. ومن موران بعث إلى السلطان رسالة رقيقة يشعره بوصوله، وأن لديه أموراً كثيرة يريد أن يبحثها معه، ولا يعرف ما إذا كانت لدى السلطان الرغبة في البقاء في العوالي أم العودة إلى موران، لكي يتصرف على ضوء ذلك، خاصة وأن معلومات موران، خزعل والعم دحيم، وجميع الذين سألهم، أكدوا قرب عودة السلطان وإنها متوقعة بين يوم وآخر!

ما كاد السلطان يتسلم هذه الرسالة، حتى قال لفنر، وكان رأفت شيخ الصاغة ويونس شاهين وعنان بسيوني، موجودين، وكان يريدهم أن يسمعوا:

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا: السلاطين ما يسافرون حتى يتسلموا الرسائل، لكن هذا أخوك يا فنر، خزعل، الله يصلحه، قلنا له أمسك الأرض، اثبت بمكانك، لكن أبد!

وزفر السلطان وكأن لهيباً خرج من صدره، ثم تابع:

ـ ترك الحويزة، قلنا على بركة الله. وصل إلى موران، قال أجيك، قلنا له ظل بمكانك. واليوم جاء الصاحب، وبدل ما يدزه، حتى لو أني جاي وتحركت، قال له إسأل أبوي: «ها يا بويه: أنت جاي أو متأخر...» إلى متى الواحد يظل يعلم البني آدم، وهذا البني آدم ما يتعلم؟

قال رأفت شيخ الصاغة:

ـ الغايب عذره معه، يا طويل العمر، ويجوز تكون هناك أشياء لا نعرفها.

قال عنان بحدة:

ـ لكن، يا رأفت بك، في حاجات لا يمكن التساهل فيها، ومثل ما قال جلالته: أي واحد يريد مقابلة السلطان، أو يحمل له رسالة، يجب أن يأتي إلى مقام جلالته؛ ومن الخطأ، حسب ما أرى، أن يكون العكس.

تساءل السلطان بألم:

- لكن، يا عباد الله، حنا نواجه العدى أو نعلّم جماعتنا شلون يتصرفون؟

قال عنان بسيوني:

- أرى، يا صاحب الجلالة، ولأسباب كثيرة وهامة، أن تطلب مجيء هاملتون إلى هنا، حتى لو كنتم تعتزمون العودة إلى موران.

هز السلطان رأسه بحزن، وقال موجهاً الكلام إلى فنر:

- ابعث، هالحين، كتاب، وقل لهم فيه: خلي الصاحب يتوجه نحونا.

وابتسم بحزن، وأضاف:

- وحنا يلزم أن نتحرك نحو موران، لأن غيبتنا طالت، وظني أن الغيبات الطويلة تغيّر كثير من الناس.

بعث فنر الرسالة، وبدأ السلطان يستعد للعودة إلى موران، وكان مقرراً أن يتوقف فترة في عين بنات، وتوقع أن يلتقي هناك بهاملتون.

سمى أمراء للمدن وكلفهم أن يراجعوه بكل صغيرة وكبيرة، وأبلغهم أنه سيعود مرة أخرى قريباً إلى العوالي.

بقي السلطان في عين بنات، ثلاثة أيام إلى أن وصل هاملتون.

وخلال الأيام الثلاثة، «والهوا يلعب» كما قال السلطان، نظراً لارتفاع عين بنات، وبعدها عن البحر، ولأنها أول المرتفعات التي تطل على موران، فقد شعر بالانتعاش والحيوية، خاصة وإنه أزاح عن كتفيه الهموم اليومية، فلم ينظر في الأوراق ولم يسمع الشكاوى التي لا تتوقف ولا تنتهي، وبدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة. كان يريد أن يصل مع هاملتون إلى اتفاق على ما تبقى في الأطراف، لأن هذه الأطراف تشكّل سكيناً في خاصرته إذا ظلت هكذا، ويمكن أن تكون نافذته وطريقه إلى آفاق كبيرة ومهمة إذا ضمها إليه. ورغم أنه في مرات عديدة سابقة، حاول إقناع هاملتون والآخرين، لأن يفعل ذلك، حتى قبل التفكير بالعوالي، لكن الإجابة كانت دائماً الرفض، ولم يكن الرفض مهذباً في كل الحالات!

الآن، وبعد أن أصبح سيد العوالي أيضاً، لا بد أن يتقدم خطوة جديدة إلى الأمام. لقد تأكدوا بأنفسهم من قوته، وتأكد هو أن ما كانوا يقولونه في السابق عن ابن ماضي، وتمسكهم به، وبالمقابل منعهم له من التقدم أو التفكير بالعوالي، أو على الأقل ببعض أطرافها، لم يلبث أن سقط. لقد تخلوا عن ابن ماضي بسهولة بالغة. بل أكثر من ذلك يتذكر السلطان كلمات هاملتون في الأيام الأخيرة قبل سقوط الطريفة: قاله له بوضوح: «لا يمكن التنازل.. ويجب أن يرحلوا». الآن.. يمكن الاتفاق، نعم الاتفاق، على أشياء كثيرة، خاصة وأن هاملتون أصبح صديقاً موثوقاً، ويعرف المنطقة، والناس، كما أنه يختلف عن الكثيرين الذين جاءوا من قبل. إنهم يريدون الحاكم صديقاً، وكلما كان هذا الصديق أقوى ويحكم

بلداً أكبر أمكن الوصول معه إلى نتائج أفضل. ماذا يفعلون بهؤلاء الشيوخ الصغار الذين لا يستطيعون أن يعملوا خيراً أو أن يردوا شراً؟ هكذا كان يفكر السلطان، وهذا ما كان يود أن يصل إليه، خاصة وأن زعماء العشائر الذين ارتبطوا به، وما يتبعهم من الجند، أخذوا في الآونة الأخيرة يتساءلون ثم يسألون: أين نتوجه وماذا نفعل الآن؟ ليس ذلك فقط، أصبحوا متعبين وزادت مطالبهم بعد أن توقفت المعارك أو تباعدت. وإذا أمكنه أن يسيطر عليهم، أو أن يبعث بهم هنا وهناك، ويطلب منهم الصبر والانتظار، فقد لا يستطيع ذلك في المستقبل. قال ذات ليلة لفنر، بعد أن انتهت حملته وعاد:

ـ . . . ويلزم تعرف يا وليدي: الجنود بدون حرب مثل الهم على القلب، وإذا حكمتهم أول يوم يفلتون أكيد في اليوم التالي، ومن كل بد ولازم نلقي لهم درب، لأنهم إذا ظلوا بوجوهنا ما نخلص من طلابيهم!

الآن وقد عاد هاملتون، وخلال الساعات الأولى من اللقاء، وعلى طريقة البدو لم يشأ السلطان أن يثقل أو أن يستبق، فقد ظلت الأحاديث تدور عامة، شخصية، طريفة، وتخللها الكثير من الأسئلة عن الصحة والعائلة والأولاد، ولم يتردد أي من الطرفين في أن يترك لعواطفه أن تفيض، ويتذكر أموراً قديمة، وأحاديث سابقة، وذكريات. كما أبلغ هاملتون السلطان بالتحيات التي حُمّل بها، وأشار إلى الاهتمام الذي لمسه في الخارج، والمتابعة التي تلقاها أخبار موران والعوالي، كما نقل إلى جلالته وإلى فنر تحيات ملك بريطانيا والحكومة البريطانية.

بعد بضع ساعات من وصول هاملتون إلى عين بنات، وصل القنصل الإنكليزي أيضاً من جهة الطريفة، وبدا وكأنهما على موعد. وهذا القنصل، الذي لم تمض شهور قليلة على التحاقه بعمله الجديد، لم يرق للسلطان منذ المرة الأولى التي التقى به. كان إنساناً صعباً، قليل التهذيب، كما أشار بسيوني، حيث كان يضع رجلاً فوق الأخرى، ويبدلهما بالتناوب كلما تعب، في حضرة السلطان، كما أنه لم يستأذن جلالته، منذ اللقاء الأول، بأن يسمح له بالتدخين، إذا أشار أنه لا يستطيع الاحتمال، كما لا

يقوى على التركيز دون أن يدخن، خاصة، «وأن لقاءاتنا ستطول، وسوف نناقش قضايا حساسة» كما قال وهو يبتسم، في محاولة للتوضيح، أكثر مما كانت لطلب الموافقة. والسلطان الذي اعتبر الأمر ثانوياً، وطلب منه أن يفعل ويتصرف بحرية، ما لبث أن تبين له أن الأمر أكثر دقة وخطورة مما افترض في البداية، خاصة حين رآه رجال السلطان من الحرس والخدم والمرافقين وهو لا يكاد يتوقف عن التدخين!

أمر آخر خلق فجوة إضافية في العلاقة بين الاثنين، إن أحدهما لا يفهم على الآخر، تقريباً. فدنيس ايجلتون يعرف العربية الفصحى المطعمة باللهجة المصرية، ولا يفهم لهجة البداوة فهماً جيداً. والسلطان الذي يتكلم العربية بطريقته الخاصة، وهي أقرب إلى البداوة، لا يتصور أن هناك عربية أخرى، ولقد فوجئ كثيراً حين سمع عنان بسيوني يتكلم ذات مرة مع وفد مصري زائر. استغرب الأمر وفكر فيه طويلاً، إذ تصوره إنساناً آخر، وكأنه ليس الذي يعرفه. لكن عجب السلطان أخذ يتراجع سنة بعد أخرى، وكلما ازداد عدد الوافدين إلى موران من الأقطار المجاورة.

كان من السهل لهذه المشكلة أن تحل، أو أن لا تنشأ بالأساس، لو أن دنيس تكلم بالإنكليزية. فعن طريق المترجمين يمكن أن يجري الحديث، ولا يتكلف أي من الاثنين مشقة إزعاج الطرف الآخر. فدنيس الذي يصرّ على استعمال العربية، عربيته، كان يضطر السلطان، بعض الأحيان، إلى النظر في وجوه مستشارية، خاصة عنان، لكي يساعده على فهم ما يقال. وحين يتكلم السلطان، يستوقفه دنيس لكي يستفسر عن معنى بعض الكلمات، أو يعيد على مسامع جلالته بعض الكلمات لكي يتأكد من دقته.

لو أن الأمور اقتصرت على ذلك لوجدت حلاً، لكنها تجاوزتها إلى ما يشبه التفاوت أو الاختلاف، ووصلت في عدة حالات إلى درجة المجابهة. فالأموال التي تم الاتفاق على دفعها، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، والرسائل التي كانت ينتظر الإجابة عنها، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة جرت خلال الشهور الأخيرة، جعلت السلطان أقرب إلى الشك والسلبية، حين يجد القنصل غير مهتم أو ليس معنياً بها بالمقدار الكافي.

ومما زاد في تعقيد العلاقة أيضاً أن أهمية الموضوعات بين الإِثنين تتفاوت كثيراً. فما يعتبره السلطان أساسياً ولا يمكن إرجاؤه أو التهاون فيه، ينظر إليه دنيس بتساهل يصل أحياناً إلى عدم الاكتراث. وبالمقابل، إن الإِجابة عن سؤل أو الاستفسار حول زيارة لأحد ضباط البحرية البريطانية، أو العلاقة بين موران وإحدى المشيخات، أهم من أي أمر آخر. ولا يكتفي بأن يجعل مثل هذه الموضوعات أساسيةً، وإنما في حالات عديدة كان يعتبرها الوحيدة، أو وحدها التي تستحق الاهتمام والمناقشة. أما الموضوعات الأخرى التي يريد السلطان بحثها أو الاستفسار بشأنها «فيمكن أن نتحدث حولها في الزيارة القادمة!»

رغم كل شيء فقد احتمل السلطان، بل وكان يبدو مقتنعاً وراضياً، فالقنصل نافذته وطريقه الوحيدة في الاتصال، خاصة بعد سفر هاملتون. صحيح أنه لم يخف عواطفه أو رأيه في لحظات معينة، أمام بعض المقربين، لكن تلك العواطف أو ذلك الرأي لا يعني شيئاً إزاء الحاجة أو الضرورة. يجب أن يبقى هادئاً ومتماسكاً، لكي يصل إلى ما يريد، ويحصل على ما يطلب.

مجيء دنيس ايجلتون عصر ذلك اليوم غيّر الجو تماماً. فالسلطان الذي تصرف بهذه الطريقة، ليخلق جواً مؤاتياً لأحاديث حميمة مع هامتلون، وكان يعتبر الليل وقتاً مناسباً للبوح والشكوى، وأيضاً للوصول إلى نتائج حاسمة، كما حصل في عدة مرات، سواء أكان مع هاملتون أو مع غيره، فقد اعتبر مجيء القنصل شؤماً. قال لنفسه: «أبد لهذول ما تأمن، وهم بينهم ياكل قلوبهم الشك والحسد. وما يرضي واحدهم أن يكون قوي والكل بالكل، وهذا الأخنب، اللي يحكي من خشمه، ما ترك لنا الصاحب ليلة، حتى نعرف منه ونفهم».

ومع ذلك ظل السلطان مضيفاً عذباً، لم تبدر منه أية إشارة أو ملاحظة يفهم منها الاستياء، بل وبالغ في المودة واللطف، لكي يُشعر هاملتون بالذات، وإلى حد أقل دنيس، بمدى ما يكنه من العواطف والاهتمام، ولأن الليل في عين بنات يميل إلى البرودة، قياساً إلى الطريفة إذ تصله

نسائم الصحراء فتجعله رقيقاً، وبعض الأحيان لاسعاً، ونتيجة لتعب الرحلة، فقد كانت الليلة قصيرة، على غير ما توقع السلطان، أو ما أراد، خاصة حين استقبل هاملتون. أما بعد أن جاء دنيس، فقد بدا مسروراً أن الرجلين يفضلان تناول العشاء مبكراً، وأن يأويا إلى الفراش.

ورغم أنه أعدت لكل منهما خيمة خاصة، وبعد أن انتهى العشاء وغادر الضيوف، فقد مكثا معاً حوالى الساعة. هذه الساعة أقلقت السلطان كثيراً. قال في نفسه: «الصاحب صاحبنا، لكن هذا الاشيقر أبو رِجل ونص، لا بد يكون يهودي أو عدو، وإلا ما جاء بهذه الساعة وبهذا اليوم».

والسلطان الذي بدا موزعاً بين أن يواصل سهره وأحاديثه «مع الخويا» كما فعل في الليالي السابقة، بقصد أن يستريح وينسى، ولكي يكون في أحسن حالاته، وبين أن ينعزل لكي يفكر ويرتب الأمور بطريقة يستطيع معها أن يقنع دنيس أكثر مما يود إقناع هاملتون. فهذا «الخرندعي» كما يسمي القنصل، «مثل أولاد المكتب، ورقته والقصبة، حتى ما ينسى» يبدو مهماً ومؤثراً، لأن أغلب ما أراده أو قرره حصل، سواء بالنسبة للسلاح أو بالنسبة لدفعات المال التي سلمها، ومجيئه الآن يدل على تلك الأهمية «فقبل ما يغلط صاحبنا» ويقول كذا وكيت جاء حتى يلقنه».

قال لمهيوب، والقمر دائرة سمينة كالكرة:

ـ ما دام الإنكريز دجاج وناموا، خلنا، حنا العربان، ننعزل ونطلّع اللي بروسنا واللي بقلوبنا.

ـ اللي تؤمر به يا طويل العمر.

ـ قل للخويا: طويل العمر صدره ضاق، فخلهم يجون؛ وخلي سلمان والعنيزي وابن برقوق يولمون حالهم، لعلهم يروّحون على اللي صدورهم ضاقت وقلوبهم عافت، ويمكن الرب الرحيم يفرجها وتصير أحسن مما كانت.

وخلال فترة قصيرة، وكان الرجال ينتظرون إشارة من السلطان، انتظمت حلقة الرقص والغناء. صحيح أنهم انتحوا مكاناً قصياً، أقرب إلى

نهاية المعسكر تقريباً، لكي يتركوا الضيوف ينامون، كما أشار السلطان، لكن صوت الغناء والصخب، إضافة إلى طلقات الرصاص، وذلك الحنين الذي اشتعل فجأة، وربما ساعد على تفجيره ضوء القمر الذي ملأ السماء، وتلك النسمة العذبة التي كانت تهب من ناحية الشرق، والمحمّلة برائحة الصحراء والذكريات وأيام الطفولة، كل ذلك تكاثف وطغى. والسلطان الذي كان ميالاً إلى الوحدة، أو أن يكون مع أقرب الرجال، ما لبث أن نسي أو رغب أن لا يبقى أحد إلا ويشارك، وأن يشهد ليلة لا ينساها طوال حياته، خاصة بعد أن ارتفعت تلك الأصوات من أعماق القلوب، وأخذت الأودية تردد صداها. ولأن القصص التي تروى والمشاهد التي تقدم لا تحكي حكايا قديمة، أو ترجع صدى أحداث وقعت في يوم من الأيام، وإنما كانت تبتدع وتتكون في تلك الليلة بالذات.

حتى هاملتون الذي آوى إلى فراشه منذ ثلاث ساعات أو أكثر، لم يستطع النوم. ففي ساعة متأخرة من الليل رآه الكثيرون يحوم، من بعيد، حول المكان، وبدا متردداً في أن يقتحمه دون دعوة، فلما أبلغ السلطان، وفي لحظة خلقت بشكل متعمد صاح جلالته:

ـ قولوا للصاحب يلحق ما هي كل ليلة مثل هذه الليلة!

والتفت إلى مهيوب وهمس بإذنه وهو يضحك:

ـ ومن قبل قالوا: كل يا مجوّع ما هو كل يوم عيد!

في تلك الليلة والأيام الثلاثة التالية حاول السلطان تجنب أية موضوعات قد تثير خلافاً أو تظهر تبايناً في وجهات النظر. أكثر من ذلك تعمد ألا يسأل هاملتون عن الأخبار والأمور المهمة التي أشار إليها في رسالته، وأوعز، بالمقابل، لرجاله أن يرتبوا للضيوف برنامجاً حافلاً. وقد حضر بنفسه احتفال اليوم الأول، وكان مجموعة من سباقات الخيل والهجن، إضافة إلى النيشان. أما رحلة القنص في اليوم التالي فقد رافق فنر الضيوف، واكتفى السلطان باستقبال عدد من زعماء القبائل وأولم لهم ذلك اليوم، وربما تعمد ألا يكون هاملتون ودنيس إيجلتون ضمن الضيوف، لئلا يساء فهم وجودهما أو الغاية التي جاءا من أجلها. أما اليوم الثالث،

والمخصص للراحة، استعداداً لتحرك موكب السلطان في اليوم التالي، فقد اقترح هاملتون زيارة منطقة قريبة من عين بنات، وهي منطقة أثرية مهمة كما وصفها، لأنها كانت محطة رئيسية على طريق التجارة منذ أقدم العصور. ودنيس الذي وافق على مضض، كان يريد قبل ذلك عرض صيغة اتفاق مع السلطان، ودراسة هذه الصيغة والبت بها، مستفيداً من وجود هاملتون. والسلطان الذي طلب إرجاء الموضوع، حين كان في الطريفة يرى أن الوقت لا زال مبكراً، وبالتالي فهو ليس مستعداً قبل العودة إلى موران، ومعرفة كثير من الأمور، خاصة بعد زيارة هاملتون الطويلة.

حين قال عنان إن القنصل باحثه في الموضوع أجاب السلطان بنزق:

- تبلغه وتقول له: القراطيس بين الأصحاب ما لها قيمة، الأهم منها الثقة...

تنفس بعمق وتابع:

- وإذا ألحّ تقول له: سلمونا الأوراق نطالعها وندرسها ونرد لكم الخبر.

هاملتون بدا مهتماً بزيارة المنطقة الأثرية أكثر من إجراء مباحثات، وقد أوضح وجهة نظره لدنيس منذ الليلة الأولى. كان متأكداً أن السلطان لن يستجيب، أو أنه ليس في وضع يمكن الوصول معه إلى نتائج حاسمة، فحول أمور أقل أهمية من توقيع معاهدة، كان يبدي تردداً ويفكر وينتظر، بل وكان كثير الشكوك.

قال دنيس لعنان الذي كلفه السلطان أن يرافق الضيوف لزيارة المنطقة الأثرية، وقد تعمد دنيس أن يكون جلفاً، وأن يُسمع الآخرين، خاصة هاملتون:

- ماذا كان جواب عظمة السلطان حول الاتفاقية والاقتراح الذي تقدمت به؟

- كان موضع اهتمام جلالته.

- ومتى سنبت به؟

- عندما يأمر جلالة السلطان.

ـ ولكن متى؟

ـ هو الذي يقرر.

ـ أفهم من هذا الجواب أن الموضوع لن يدرس الآن، وهنا.

ـ إذا كان لا بد من اتخاذ إجراء فإن جلالته يرى أن تسلمُونا الصيغة لكي ندرسها، وبعد أن تدرس في موران سوف نبلغكم الجواب.

ـ إذن كل شيء مؤجل؟

قال فنر الذي كان قريباً ويتحدث مع هاملتون:

ـ مستر دنيس... الوقت غير ملائم لبحث مثل هذه الموضوعات...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وبكل تأكيد سنجد الوقت المناسب لبحثها والبت بها.

نظر دنيس إلى هاملتون بعتب أقرب إلى الحقد، إذ كان على ثقة أن تصلب السلطان، أو بالأحرى رفضه، لا يمكن أن يكون بعيداً عنه.

قال هاملتون بدعابة:

ـ أرى أن ندرس تاريخ الماضي لكي نفهم الحاضر، فإذا تأخرنا فلا بد أن تفسد الشمس رحلتنا، ولذلك يجب أن نتحرك!

دنيس الذي جاء من الطريفة، ويلتقي بهاملتون لأول مرة، كان يفترض أن الظرف ملائم جداً، ليس لإجراء مباحثات ناجحة فحسب، وإنما للتوصل إلى نتائج نهائية، وهذا ما دعاه للاتصال بهاملتون، والاتفاق معه على أن يلتقيا هنا، إذ يعرف طبيعة العلاقة التي تربطه بالسلطان، ويعرف أيضاً أنه عاد من لندن بهدايا كثيرة، ولذلك لا بد للأمرين معاً أن يؤثرا على السلطان ويدفعاه للموافقة على ما كان يرفضه أو يؤجله.

الآن، وقد اكتشف أن هاملتون لا يشاركه الرأي، بل أكثر من ذلك يتواطأ مع الآخرين، ربما لإفشاله أو لإظهاره بمظهر الضعيف العاجز، فإنه لا يجد في نفسه الرغبة لأن يواصل هذه اللعبة العابثة.

قال لعنان:

ـ أرجو أن تبلغ صاحب الجلالة رغبتي في أن أعود إلى الطريفة.

سأله هاملتون بسخرية خفية:

ـ ألا تود أن تشاهد هذه الآثار المهمة يا مستر دنيس؟

ـ أشكرك يا مستر هاملتون، ثم أن لدي الكثير لأفعله في الطريفة!

قال هاملتون لفنر بعد أن غادر دنيس عائداً إلى الطريفة:

ـ أسوأ موظفي صاحب الجلالة ملك بريطانيا أولئك الذين أفسدتهم الكتب، إنهم يرون الحياة من خلال ما قرأوه بشكل رديء أو خاطئ، ويدل أن تصحّح لهم الحياة ما تعلموه، يريدون أن يصححوا الحياة بتطبيق الكتب التي قرأوها عليها.

قال فنر بدعابة:

ـ القنصل بينه وبين هذه الديرة عداوة، ما أحبها ولا يريد يفهمها...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ الله العليم إن هواء الطريفة ما والمه!

السلطان الذي أُشعر بموقف القنصل ورغبته في المغادرة، طلب من عنان ومهيوب أن يرافقاه إلى الحلوة، وأن يبذلا جهدهما من أجل امتصاص غضبه وترضيته، وإشعاره أن الأمور سوف تأخذ مجرى إيجابياً وسريعاً.

ولأن هاملتون كان في هذه المنطقة من قبل، فقد ذهب مع عدد محدود من الرجال ليلقي نظرة، وقد كتب في يومياته ما يلي: «عندما هبطنا في النقطة التي كنا فيها، بدأت جولة في المنطقة، فرحت أجوس خلال تلك الناحية وأجمع النقوش من هنا وهناك. وكان معظمها يعود إلى عهد ثمود. وقد تحولت من صخور «المذبح» إلى الوادي كي أفحص الناحية الشرقية من الصخور، حتى وصلنا إلى نقطة يلتقي فيها واديان عند أقدام صخور المذبح. وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة، وبعد أن اتجهنا شرقاً عبر طريق ضيق صغير ينحاس قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح، وجدنا صخرة منعزلة يبدو أن الطبيعة قد نحتتها على شكل أبي الهول. ومما

يستثير الإِعجاب والدهشة رأسها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر، وكذلك الرقبة والجسم، الأمر الذي جعلني أتصور أن «المذبح» قد أقيم هنا حيث توجد الصخرة، كي يقدم الناس عليه قرابينهم لأحد الآلهة. وقد اكتشفت أن فخد (أبي الهول) قد كشط حتى غدا أملس ناعماً، ومن ثم نقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة أنشات إلى ثمانية. غير أن هذه النقوش كانت ـ بكل أسف ـ قد تآكلت بشكل بشع بحيث كان من المستحيل أن ينسخها أحد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية. وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً، غير أنني كنت على شبه اليقين من أننا قد اكتشفنا المذبح الذي وهب المنطقة اسمها. ولما كان الوقت، آنذاك متأخراً، فقد عدنا إلى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة.

«رأينا أثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبة الشكل، لكنه لم يكن معنا ما نصيدها به... كما أنني عجزت عن التعرف على أنواع هذه الطيور، أو أين تعيش. وربما كانت من الطيور المعروفة باسم سيسي، إذ أنها لا تشبه الطيور المعروفة بالحبارى».

حين عاد هاملتون إلى معسكر السلطان، عند الغروب، بدا له أن جزءاً من المعسكر قد تحرك، فما عدا خيام الحراسة في المقدمة، وخيمة السلطان في الوسط، إضافة إلى خيمة الأمير فنر، وعدد من الحرس والمرافقين، فقد بدت الأرض خلاء، وأقرب ما تكون سوقاً للحلال أو ملعباً.

زيارة دنيس إيجلتون غير المتوقعة، ثم رحيله الغاضب، تركا في نفس السلطان مرارة، فهؤلاء الأصدقاء، حين يبعثون مثل هذا الشخص، وربما يوصونه كيف يتصرف، فهم يخطئون كثيراً، لأن الكبير لا يمكن أن يصبح صغيراً، إذا عرف كيف يتصرف، ويحافظ على منزلته. ثم إن سلطان موران والعوالي أيضاً ليس مثل أي من الشيوخ الذين يدللونهم ويتعاملون معهم بهذه الطريقة.

كان السلطان يتوق لأن يسمع الكثير من هاملتون، ورغبته أيضاً في أن

يحدثه عن «خويه الأشيقر أبو رجل ونص»، لكنه شعر بالحرج أن يبدأ، إذ لا يريد أن يظهر لهفته أو تعجله، ويريد أن يترك هاملتون نفسه يبدأ.

كان يفترض أن يقضي السلطان في عين بنات يوماً وليلتين، لكي يلتقي هناك بابن مشعان، إذا بعث إليه لأن يوافيه، ثم بعد ذلك يأخذ السيارة ليعود إلى موران، فقد طال بعده عنها وزاد شوقه إليها، وليس ما يدعوه للإِبطاء، كما كان الحال أثناء مجيئه للعوالي.

هاملتون أحس أن الظرف في الليلة الأخيرة لإقامتهم في عين بنات ليس مناسباً للخوض في مواضيع جدية أو دقيقة، ولذلك أخذ يحدث السلطان عن الآثار القريبة وأهميتها، وأية حضارات تكونت في هذه المواضع، وكيف أنه ينوي تخصيص بضع سنوات من حياته لدراسة هذه الآثار والكتابة عنها. والسلطان الذي كان مفتوناً بما يسمع، ويبدي دهشته لوجود هذه الآثار، وقربها من معسكره، وإنه لم يزرها أيضاً، فقد قال تعليقاً على الرغبة التي أبداها هاملتون بقضاء بضع سنوات لدراسة هذه الآثار:

ـ إذا خلصنا من الهموم الكبيرة، ياالصاحب، وصفي بالنا، اطلب وتمنى، وحتى هذه الحجارة والأصنام، إذا ردت،نخلي الخويا يحملونها وينقلونها للمكان اللي يعجبك!

ضحك هاملتون بصخب، وقال بعد أن هدأ:

ـ التاريخ لا يمكن أن ينتقل، يا طويل العمر، وكل من يريد أن يدرسه وأن يكتب عنه يجب أن يأتي إليه طائعاً مختاراً، ومن أكبر الأخطاء التي وقع فيها كثير من المؤرخين، أنهم جردوا التاريخ من روحه، من المكان الذي وقعت فيه أحداثه، ومن البشر الذين كانوا جزءاً من هذا التاريخ.

رد بالسلطان مازحاً:

ـ ما دام هذا رأيك، الله يسلمك، فالحجارة بمكانها، وجماعتنا قالوا: الحجر بمكانه ينفع، فإذا خلصنا شغيلانا ابشر.

ولأن المسير سيكون في السرى فقد آوى الجميع إلى فراشهم مبكرين.

في اليوم التالي، وأثناء الاستعداد لتحرك موكب السلطان، قال هاملتون بدعابة:

ـ الأصلح، يا طويل العمر، أن أتأخر عنكم أو آخذ طريق ثاني، لأن نجمي ونجم ضيفكم ما توالموا، ويكفي اللي حصل من القنصل!

ضحك السلطان، وتذكر أشياء كثيرة، قال لهاملتون وهو ينظر إلى البعيد:

ـ إذا كان هذا رأيك ما يخالف، وبموران نسولف وما يصير إلا كل خير!

بعد عودة السلطان إلى موران، وما رافق تلك العودة من فرح واحتفالات، وما تخللها أيضاً من مفاجآت، خاصة في قصر الروض، إضافة إلى الوفود التي جاءت من أنحاء متعددة، من السلطنة وخارجها، جعلت السلطان، رغم توقه لأن يبحث مع هاملتون القضايا الأساسية، أو التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها، مأخوذاً بما يراه وبما أحسه من اهتمام الوفود الأجنبية الزائرة بشكل خاص، الأمر الذي اضطره لتأجيل بعض الموضوعات، وأن يركز أحاديثه وأسئلته مع هاملتون على ما يجب أن يقال لهذه الوفود، وكيف يكون التصرف معها.

ليس هذا فقط، كل شيء حول السلطان يبدو جديداً، رغم أنه رأى كل ذلك ولم يمضِ على ذلك بعد وقت طويل.

نساؤه في القصر... كل واحدة جديدة، وكأنه لم يرها، أو لم يعرفها من قبل: الشكل، نظرة العيون، الشعر، وحتى العطر والحناء، إضافة إلى ألوان الملابس، وطريقة المشي ورنة الصوت، هذا عدا عن رسائل التأثير الأخرى، بما فيها الأولاد.

أما الحفاوة، أما طريقة التصرف، فإن أموراً كثيرة جدّت أو تكونت خلال غيابه. صحيح أن الصور اختلطت، وبدت غير واضحة في لحظات معينة، لكنه يعرفها ولا يعرفها. ورغم القناعات التي ترسخت لديه من قبل، وكانت أقرب إلى العناد، تبين له أن لا بد من إعادة النظر. قال في نفسه «تغير الأماكن والوجوه تجعل الإنسان غير متأكد» وبدأ يستعيد في ذاكرته: الزوجات، الأولاد، الحرس، وحتى الخدم. تصور، إزاء بعض

الوجوه، وكأنه يراها لأول مرة. قال لنفسه: «الغريب أن الإنسان لا يرى الأشياء القريبة. لا بد أن يبتعد عنها مسافة كافية، أو وقتاً غير قصير، لكي يراها بوضوح».

ورغم أنه لا يريد أن يشغل نفسه بهذه الأمور إلا أنه انشغل، وأصبح يفكر فيها.

فنسوة القصر، سواء أكنّ الأمهات أم القريبات، أم حتى الخادمات، وبعض الأحيان بتحريض من الزائرات، أخذن يدفعن إليه، وبأوقات يتخيرنها بشكل مناسب، «رسل الوداد والمحبة». ولأن الأطفال كبروا أثناء غيابه، وتغيروا أيضاً، كان ينظر إليهم بكثير من الاهتمام، يريد اكتشاف الشبه أو العلاقة، وكان في غالب الأحيان يحار، لا يعرف، بل وبلغ به الأمر أن يحزّر نفسه: «من ناقة لناقة». فبعد أن يمعن النظر بالوجه الصغير الذي يقابله، وبتينك العينين اللتين تضحكان، يقول في نفسه: هذا ابن فضة، أو هذا ابن حفصة، أو ابن العنود، وبعد أن يحزم أمره على أنه ابن فلانة يسأله: شنهو اسم أمك.. يا وليدي؟

في مرات كثيرة كان يخطئ.. أما المرات التي حزر فيها فكان يضم الطفل إلى صدره، وبعض الأحيان يغطيه بعباءته، خوفاً من الحسد، وحسد عينيه بالدرجة الأولى، ويعتبر أن هذا الطفل محبوب ومقرب إليه أكثر من الآخرين!

بنات السلطان، اللواتي لا يستطعن الوصول إلى مجلسه، أو حتى الاقتراب منه، ولا يغادرن السور إلاّ من الجهة الغربية ومع المربيات، كن بالنسبة إليه شيئاً عجيباً. فالذكور، رغم أحاديث الأمهات وتعليم المربيات والدم، كانوا أقرب إلى القسوة والتكبر، أو هكذا كان يتبادر في أحيان كثيرة للسلطان. يتصرفون بطريقة مسرحية، وبأكبر من أعمارهم. حتى الأشعار التي يرددونها، كانت أقرب إلى حفلة مدرسية مملة. البنات كن شيئاً آخر: تضحك الواحدة بطريقة ترغم أباها على أن يشاركها الضحك ثم المرح. أما إذا مشت، أو أجابت عن سؤال، إذا نظرت إليه وأصبعها

بفمها، فكان لا يقوى على أن يتمالك نفسه: «لماذا لم أعرف هذه المخلوقات؟ لماذا لم أكن قريباً منها؟».

واكتشف السلطان أن العالم الكبير لا يغني عن العالم الصغير. ودون تردد، وفي محاولة للتعويض، ومن أجل أن يكون أقرب إلى أبنائه، قرر أن يعيد مجلس الإِثنين، بل وفكر أيضاً أن يخصص يوماً آخر، لكن بعض الأمور الطارئة جعله يرجئ قراراً من هذا النوع.

وفي مجلس الإِثنين اختلط الصغار بالكبار، الأحاديث بالطلبات، الأشعار بالنكات؛ وإذا كان السلطان قد توخى منذ البداية أن يكون هذا المجلس مدرسة يتعلم فيها أبناؤه، فقد اكتشف في هذه المرحلة أن الأبناء تعلموا الكثير قبل هذه المدرسة وبدونها! أصبحوا، أو أغلبهم على الأقل، كباراً. ورغم أنه بذل جهداً واضحاً من أجل أن يعطي المجلس نسقاً ثابتاً، كما كان الحال من قبل، إلا أن الأشغال الكثيرة، والوفود الزائرة، إضافة إلى الطلبات التي لا تنتهي، والمرسلة مع الأبناء، والتي أخذت تطغى على ما عداها، جعلته يفكر بإنشاء مدرسة داخل القصر، يختار لها أفضل المعلمين، من الرجال الذين يعرفهم واختبرهم من قبل، تتولى المهمة نيابة عنه. سوف يداوم على مجلس الإِثنين، وإن كان مضطراً، بعض الأحيان، لاختصاره، لكن المدرسة تبقى ضرورية. يمكن أن يوعز للمعلمين أن يتبعوا طريقته ذاتها في التعليم، بل ويمكن أن يعاونهم في المرحلة الأولى، وقد يحضر بعض الدروس، حتى إذا أخذت الأمور مجرى ثابتاً، سوف يكون أكثر اطمئناناً!

خزعل الذي اختص بالقسم الشمالي من القصر، وقد بنى في هذا القسم عدة أجنحة، ووسعها المرة بعد الأخرى، تبعاً لعدد الزوجات وتزايد الأولاد، وما يتبع ذلك من زيادة عدد الخدم والمرافقين والحرس؛ تخير وقتاً مناسباً لكي يستأذن أباه في أن ينتقل إلى القصر الجديد الذي بناه، متذرعاً أن المكان أصبح ضيقاً؛ وأشار إلى أن الكثيرين بحاجة إلى هذا القسم من القصر إذا أخلاه. فوجئ السلطان بالطلب، لكنه لم يعط جواباً.

ثم تبين له أن أموراً كثيرة يجب أن يعاد فيها النظر. أكثر من ذلك يجب أن يرسخ تقاليد جديدة في القصر، وفي التعامل مع الأولاد. قال لنفسه «كل ولد يصل إلى سن البلوغ يجب أن نفكر بزواجه وتحضيره من أجل الزواج، يلزم له هدية: «حصان ومرافق وقريشات، وبعد أن يتزوج، ويجيئه الولد الأول، يقام له احتفال ويسمح له، إذا أراد، أن ينتقل لكي يؤسس عائلة ويعتمد أكثر على نفسه».

وافق السلطان على انتقال خزعل فانتقل خلال شهور قليلة إلى قصر الغدير. أما أول من حظي بالتكريم نتيجة التقاليد الجديدة، وقد نقلت عن لسان السلطان بأشكال مختلفة، وفسرت تفسيرات متناقضة، ولم يتردد بعض الخبثاء من الخدم والحرس من إشاعة أن هذا لا ينطبق على الذكور فقط، بل والإناث. أول من كُرِّمَ كان فنر. ففي يوم من أيام جمادى الآخرة، في بداية الربيع، وبعد انتقال خزعل بأسبوع واحد، دعا السلطان كبار العائلة وعدداً من وجوه موران، وبطريقة مليئة بالأبهة والمهابة، قدم لفنر واحداً من أحسن خيوله، وأبلغ المجتمعين أن حفيداً آخر ولد له. وفنر الذي بدا محرجاً، وكان يريد أن يبقي الأمر دون إعلان ودون ضجة، وجد نفسه وسط العيون والاهتمام.

نساء القصر اللواتي راقبن الاحتفال من أماكن متعددة، وبوسائل متعددة أيضاً، من الأسطحة أو من النوافد، وقد احتطن كثيراً لئلا يراهن الرجال. وبعضهن، اللواتي كن يسكّن في أماكن أبعد نسبياً، راقبن بالمناظير المقربة، أو عن طريق الخدم والخصيان. لاحظت النسوة أكثر، وقبل الرجال، غياب خزعل. وقبل أن يسألن أو يتأكدن تذكرن غيابه أكثر من مرة، عن المناسبات التي تعني فنر: يوم أن عاد من سفرته الطويلة، يوم معركة الحويزة. وأضفن أنه تعمد الانتقال من قصر الروض. أيضاً قبل مجيء الوليد الجديد بأيام.

ومثلما تنتقل الرائحة الكريهة، وقبل أن ينتهي الاحتفال، ودون معلومات من أي نوع، ملأت قصر الروض الإِشاعات على أن هذا

الاحتفال ليس لتهنئة السلطان بالحفيد الجديد، أو لتهنئة فنر بالمولود الأول، وإنما هو احتفال لتسمية فنر ولياً للعهد. ومما أكد هذه الإشاعات وأعطاها رسوخاً لا يقبل الشك أو الاحتمال، أن فنر وقف إلى يمين أبيه، أثناء استقبال الوفود وأثناء توديعها، وأن العم دحيم وقف إلى يساره!

ومما زاد في قوة هذه الإِشاعات أيضاً أن اثنين من أولاد فضة كانا مشاركين في الاحتفال، ومعنى ذلك أن فضة بالذات كانت على علم بما انتواه السلطان، وقد وافقت عليه، ودليل الموافقة أنها بعثت بأولادها الكبار أولاً، وإنها كانت وراء «طرد» خزعل من قصر الروض! ومما يؤكد ذلك، ويجعله أكثر أهمية ودلالة أن عدداً من أولاد السلطان، من هم بمثل أعمار أولاد فضة ومن هم أكبر سناً تغيبوا عن الاحتفال، وهذا معناه أن أمهاتهم لا يعرفن بما قرره السلطان، أو كان لهن رأي آخر.

تهاني التي انتقلت من مكان إلى آخر، لمراقبة الاحتفال، كانت ترد على الأسئلة، أو نظرات التساؤل، بابتسامة كبيرة وواثقة، وكأنها تريد أن تجيب كل من يسألها، دون كلمات، أن هذا الذي يرونه من تدبير الشيخة وبموافقتها. لم تقل هذا أبداً، لكن طريقتها في التصرف أكدت مثل هذه القناعة. ومما أكدها أيضاً أن تهاني قضت أطول فترة من فترات المراقبة في قصر السلطان ذاته، مع فضة، ونقلت ثلاث من الخادمات، أن المرأتين تشاورتا همساً عدة مرات، رغم وجود عدد من النسوة، وفي إحدى المرات خرجتا معاً إلى غرفة جانبية!

سرور، خادم أمي زهوة، ترك الاحتفال مرتين، وجاء إلى القسم الغربي من القصر، وقيل إن الشيخة اختلت به خمس دقائق. وطلبت منه في المرة الثانية أن يسرع بالعودة، وأكد من رآه أنه بعد أن أسر بشيء لمهيوب، غادر ولم يعرف إلى أين!

وأمي زهوة، التي كان يروق لها في حالات مماثلة، أن تمر قريباً من مجلس الرجال، وأن تحييهم، تجنبت هذا اليوم المرور، ظلت ملازمة لجناحها لم تغادره. وقيل أنها تعمدت ذلك، لكي لا يُعرف إنها وراء كل

ما يجري، وقيل أنها طلبت من تهاني أن تذهب إلى فضة، وأن تزور عدداً من زوجات السلطان، لتعرف وتسمع، ثم لتبلغها بما سمعت.

الرجال الذين حضروا الاحتفال كانوا خالي البال مما يدور في الأقسام الأخرى من القصر. لم يلاحظ بعضهم غياب خزعل. والذين لاحظوا، وقد حصل ذلك في وقت متأخر جداً، لم يعتبروا الأمر مهماً، ولا يستوجب التوقف، لأن الاحتفال يعني فنر ويعني الجد، وكل من حضر من العائلة غير هذين نافلة.

الذين يعرفون أكثر من غيرهم، كانوا مطمئنين، لأنهم على علم أن السلطان أوفد خزعل لكي يلتقي بابن مياح بالقرب من الزعفرانة، وقيل إن السلطان دعا ابن مياح للمجيء إلى موران لكنه ادعى أنه لا يستطيع ترك الحويزة، وأقصى ما يستطيعه أن يلتقي برسول عند أطرافها، وهكذا تم الاتفاق على الزعفرانة، وعلى أن يكون خزعل هو الرسول، وهذا ما حمله على السفر، وبالتالي لأن يغيب عن الاحتفال!

عمير الذي غاب عن قصر الروض، وارتاح منه السلطان، لم يغب عن ابن مياح، فقد جاء من نقل للسلطان أنه جنّد كتيبة كاملة من عين فضة وما جاورها، والتحق بالحويزة في الفترة الأخيرة. لقد فعل ذلك بعد عودة خزعل إلى موران بأسابيع قليلة. وأكد عدد من الذين كانوا هناك في الفترة ذاتها، أن ابن مياح لا يفعل شيئاً دون مشورة عمير وموافقته. ومما عزز هذه الأخبار أن دنيس إيجلتون سأل السلطان عدة مرات ما إذا كان يثق برجاله، وبالقادة خصوصاً، الموجودين في الحويزة ومنطقة الحدود، وحين استغرب السلطان السؤال، ثم تكرار السؤال، أبلغه دنيس أن لديه معلومات مؤكدة تشير إلى وجود قوات مناوئة لبريطانيا هناك، وأنها تعبئ القبائل وتحرضها لعمليات واسعة، بهدف محاربة الإنكليز وراء حدود الحويزة.

أما لماذا اختار عمير الحويزة، ولم يختر العوالي، ولماذا بدأ خلال هذه الفترة بالذات ومع ابن مياح بالتحديد، فقد أثار الأمر مخاوف السلطان، وهذا ما دعاه لإرسال خزعل، ليسترضي ابن مياح ويطمئنه ولكي

ينبهه من عمير أيضاً. وهذه المخاوف تزايدت مع تزايد العمليات على الحدود، وما أدت إليه من تهديدات وتوتر. وقد استغل ابن ماضي هذه الأجواء ليحرك بعض القبائل في العوالي، وليرسل عدداً من السفن المحمّلة بالمتطوعين. وتواردت الأخبار من العوالي، وكلها تشير إلى أن الفترة القادمة ستكون صعبة، إذا لم يبعث السلطان بنجدات كبيرة وسريعة، خاصة إلى جبهة الطريفة.

إيجلتون الذي اعتبر نفسه مخذولاً ومحارَباً من القصر، لا يمكن أن يسلم أو أن يسكت. والأخبار التي وصلت إلى موران أكدت أنه زار عدداً من رجالات ابن ماضي وراء الحدود، وأنه قدم لهم أموالاً ووعوداً، وقيل إنه طلب منهم تأليب أنصارهم والرأي العام في العوالي على الحكم الجديد. ومما يحمل على تصديق هذه الأخبار، أن الناس في العوالي أصبحوا يجاهرون بعدائهم ورفضهم، ويطالبون أن تتمتع العوالي بالحرية وأن تحكم نفسها دون أن يشيروا إلى ابن ماضي. أما المشاكل التي يعاني منها الناس، والمصاعب التي أخذت تتزايد فإن كان بعضها طبيعياً، فلا شك أن القسم الآخر من تدبير أناس معادين.

مع هذه التحركات والرسائل غير المباشرة، يبعث إيجلتون أيضاً، وبعد أسابيع من عودة السلطان إلى موران، بمسودة المعاهدة التي يفترض أن توقع بين بريطانيا العظمى ودولة موران. ويربط تقديم المعونة المخصصة بالموافقة وبإبرام هذه المعاهدة.

قال السلطان لهاملتون، بعد أن هدأت ضجة الاحتفالات وانتهت زيارات الوفود:

ـ وبغيبتك، الله يسلمك، حصلت أمور كثيرة، هنا وهناك، وقلنا لأرواحنا ما نسوي شيء إلى أن يرجع الصاحب، وهالحين رجعت بالخير والسلامة فيلزم نسولف.

قال هاملتون وهو يتبسم:

ـ أنا رهن إشارتك، يا طويل العمر، وكلي آذان صاغية.

ـ حنا نريد نشوف. . . أنتم شنهو شوركم؟

ـ حول أي القضايا، يا طويل العمر؟

ـ القضايا كلها!.

وضحك السلطان وتطلع بتحديد إلى عيني هاملتون، وهو حين يفعل ذلك، يقول، دون كلمات: لنترك، جانباً، كل المجاملات، ونتكلم بصراحة. وهاملتون الذي فهم معنى هذه النظرة، ابتسم وقال:

ـ تعرفون، يا طويل العمر، منذ أن وصلت إلى بلادكم ونزلت بضيافتكم، كان هدفي أن أقوم بدور إيجابي، وأن أكون واسطة خير، بينكم وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وتعرفون أنه ليس لي صفة رسمية يمكن من خلالها أن أطلب أو افرض، فلبريطانيا ممثلوها. وأياً كان الرأي بالسيد دنيس إيجلتون، فهو الوحيد المفوض أن يتكلم باسم الحكومة، وقد تبين لي أن بعض المشاكل قامت بينكم وبين ممثل بريطانيا، والآن لا أدري ماذا أستطيع أن أقدمه من خدمات وكيف أكون نافعاً لجلالتكم.

ورغم نبرة الإِخلاص الذي اتسم بها كلام هاملتون، إلا أنه لم يكن مقنعاً، قال السلطان:

ـ اسمع، يا الصاحب، وهذا الكلام أقوله لك وما أقوله لغيرك: حنا عرفنا كثيرين بس ما نعرف غيرك، وأنت واحد منا قبل ما تكون واحد منهم، وأنت غير هذا الخرندعي، الأشقر، أبو رجل ونص، ولولا معرفتنا وثقتنا بك كانت السالفة كلها تغيرت.

ضحك هاملتون لهذا الإطراء ولهذه الصراحة، وبعد قليل سأل بانفعال:

ـ ما هو المطلوب مني يا صاحب الجلالة؟

وحين تطلع إليه السلطان باستغراب، تغيرت لهجته وهو يضيف:

ـ إذا حددتم لي مطالبكم بدقة: ماذا تتصورون، وماذا تريدون، يمكن أن أساعد في الوصول إلى نتائج مرضية.

وهذا السؤال رغم بداهته، بدا للسلطان شديد الصعوبة، وأقرب إلى التحدي. صحيح أنه لم تمر عليه ليلة من الليالي دون أن يفكر بما يريد، أو بما يحلم به، لكنه الآن لا يعرف كيف يصوغ أفكاره وأحلامه بمطالب واضحة ومحددة. أكثر من ذلك، يكتشف، فجأة، أن ما اعتبره محلولاً ومنتهياً، ليس محلولاً وليس منتهياً. فالحويزة التي كانت هادئة إلى وقت قريب، بدأت تتململ، أو بالأحرى تتداخل فيها القوى وتتشابك، بحيث لا يعرف كيف ستتطور الأمور. العوالي التي أصبحت ملك يديه، وقد وافقوا على ذلك، يراهم الآن يحرضونها وكأنهم يريدون أن يقلبوها على رأسه. الأطراف التي يفترض أن تكون امتداداً له، ونافذته على الخارج، يحولونها إلى قلاع محصنة ومسلحة، وليس لها هدف إلا إمداد المتمردين بالأسلحة والأموال من أجل خلق المتاعب.

أما عن المعونة التي لم تُدفع، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، فلم يكتفوا بتأخيرها، بل وضعوا شروطاً قاسية لاستعمالها، وبالتالي لا يفكر بالموافقة عليها. يضاف إلى ذلك، أنهم بعثوا إليه بهذا القنصل الأرعن، والذي يعرف اختراع الأعداء أكثر مما يقوى على كسب الأصدقاء، وزرعوه في وجهه.

وماذا أيضاً؟

لا شيء أبداً يسير كما قُدّر له، أو كما اتفق والصاحب عليه. وهذا هو ما يحيره بشكل خاص ويقلقه ويجعله أقرب إلى التشاؤم.

مرت هذه الأفكار والصور برأسه، وسؤال هاملتون يقف مثل شوكة في حلقه. قال بأسى:

ـ . . . وأنتم تعرفون أنكم ورطّونا، قلتم سيروا وحنا معاكم، وقلتم حنا نأمن لكم كل شيء: السلاح، المال، الرجال، بس نريد نخلص من ابن ماضي، لأن ابن ماضي ما عاد ينحمل. وحنا، والشهادة لله، نريد العوالي، هذه من أملاكنا وأملاك أجدادنا، ويلزم ترجع لنا، بس البني آدم يمد رجليه على قدر بساطه، وأنتم مديتم لنا بساط له أول وما له تالي،

وبعد ما تورطنا صرتم تفرضون شروطكم: يصير وما يصير، ما هو بس كذا، بدأ جماعتكم يحركون علينا، باسم الدين: بالفلوس، بالسلاح، وهالحين ما يندري أنتم معنا أو قوم علينا؟

ومثلما كان السلطان صريحاً، كان هاملتون صريحاً أيضاً:

ـ . . . لا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن من مصلحة بريطانيا أن تقوم في هذه المنطقة من العالم دولة كبيرة وصديقة، لأن الدول الوحيدة التي يمكن التفاهم معها هي الدول الكبيرة، وما دام من الممكن التفاهم مع الدول المنافسة والمعادية، فإن الدول الصديقة من السهل أن يتم التفاهم معها، كل ما هو مطلوب: تنظيم العلاقة، وإذا كان دنيس إيجلتون لم يستطع أن يقيم العلاقة المطلوبة فيمكن استبداله. أماالمال، أما السلاح، فيمكن التفاهم حولهما بسهولة.

كان هاملتون يريد أن يتابع، لكن وجد أن هذه الطريقة في الكلام يمكن أن تورطه. ابتسم وهز رأسه عدة مرات. خلق فاصلاً وحالة من الصمت، ، وحين نظر إليه السلطان تابع:

ـ ولا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن المعلومات حول هذه المنطقة من التضارب والاختلاف إلى درجة كبيرة، ولذلك لم أستطع أن أتوصل أو أن أقنع الجماعة هناك بأشياء نهائية. كل ما توصلت إليه: أن أجيء إلى هنا، أن أفهم التطورات وأفهم وجهات النظر، ثم أعود مرة أخرى، من أجل اتخاذ القرارات المناسبة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ لقد استطعت، خلال هذه الشهور، يا صاحب الجلالة، أن أكوّن فكرة كاملة عما يجري هنا، وإذا سئلت الآن يمكن أن أقدم وجهة نظر متكاملة، قد تكون مفيدة لصانعي القرار.

سأل السلطان:

ـ بعد أن عرفت كل شي، شنهو رأيك هالحين؟

ـ السؤال كبير وعام جداً يا صاحب الجلالة، ولا يمكن أن أجيب عنه بكلمات!

وقبل أن تنتهي هذه الليلة، اتفق السلطان وهاملتون أن الطريقة المفيدة والضرورية، أن يسافر هاملتون ويسافر معه فنر، وأن يدرسا هناك كل القضايا الأساسية، تمهيداً للوصول إلى صيغة ملائمة للمستقبل.

ولم تمض أيام حتى استعد الاثنان، مع مجموعة من المرافقين والحرس. وقد أوصى السلطان الاثنين، وهو ينقّل نظراته من الواحد إلى الآخر، أن لا يتأخرا.

أما مع فنر، فقد قضى السلطان عدة ليالٍ، وفي هذه الليالي تحدث معه كثيراً، وحول أمور لا حصر لها، وكان يريده أن يكبر، أن يختزن تجارب وذكاء يمكنانه من الوصول إلى نتائج مناسبة!

مس مارگو انتقلت من أكسفورد إلى لندن، وكان أحد أهم الأسباب لانتقالها أن تكون قريبة من مكتبة المتحف البريطاني، لأن الكتاب الجديد الذي تعده يتناول: مدى مساهمة بريطانيا في التغلب على الأمراض المستوطنة في شبه القارة الهندية، وكانت بحاجة ماسة إلى الاطلاع على الوثائق! أما الكتاب الذي أنجزته خلال السنوات الماضية، وهو مزيج من الذكريات والانطباعات، إضافة إلى القراءة، فكان يتناول جانباً من التأثيرات المتبادلة بين الثقافتين الإنكليزية والهندية، وانعكاس ذلك على قصص الأطفال، تحديداً.

فنر حمل معه لمس مارگو مجموعة من الهدايا: ثلاث قطع حريرية، عقداً من الذهب يتوسطه حجر كريم بلون الزبرجد، إضافة إلى شالين من الصوف الكشمير، الأول رمادي، والآخر بلون جلد الغزال؛ ولم ينس أيضاً أن يطلب من مرافقيه شراء بساط محلي متعدد الألوان، مثل ذاك الذي رآه عندها، وقد جلبته من كولومبو، وكانت شديدة الاعتزاز به؛ وثلاثة جلود لوعول كبيرة؛ ومجموعة من الحلي الفضية والخرز.

كان بوده أن يحمل لها هدايا أخرى، لكن سفره العاجل، والذي تقرر خلال بضعة أيام، لم يمكنه. ليس ذلك فقط كان ينوي أن يزورها في أكسفورد، «مهما كان الوقت ضيقاً» كما قال «وأن أبقى عندها بضعة أيام». وقد كانت مفاجأته كبيرة حين عرف أنها في لندن. هاملتون الذي أبلغه عدة مرات أن العمة مارگو تبعث إليه بتحياتها، نسي أن يخبره بانتقالها. الآن، وقد عرف، كان شديد اللهفة لأن يزورها في أقرب فرصة.

لم تتغير المس مارگو وكأن السنين التي مرت أخطأتها أو لم تصل

إليها، هكذا كان انطباعه في اللقاء الأول. بالمقابل أنكرت تماماً أن يكون ذلك الصبي الذي قضى عندها شهرين قبل بضع سنين، هو ذاته الذي تراه أمامها الآن. وفنر الذي لم يجرؤ طوال فترة إقامته الأولى عندها على النظر إليها بتحديد وإمعان، وجد نفسه يفعل ذلك هذه المرة. بل وطلب منها أن تضع على صدرها الشالين، وأن تقف ليتأكد من مدى ملاءمتهما! العقد استبقته بين يديها فترة طويلة وهي تتمعن به، وحين رفعت إليه وجهها، لكي تشكره، قالت بتلعثم:

ـ كان يفترض أن أمتلك مثل هذا العقد قبل ثلاثين أو أربعين سنة..

وتنهدت بحرقة ثم أضافت:

ـ الكثير من الأشياء الجميلة، أو الأشياء التي يتمناها الإنسان، تأتي متأخرة!

وابتسمت بحزن، لكن لم تترك نفسها تستسلم للكآبة. قالت وهي تفرد البساط:

ـ البسط تعكس نفسيات الشعوب أكثر مما تعكسها خطب الزعماء والسياسيين! وضحكت مثل قطة تموء، وأضافت:

ـ أرجو المعذرة، فأنا لا أريد أن أعرّض بأحد.

وبعد قليل وهي تهز رأسها:

ـ يمكن اكتشاف الشعوب، ومعرفتها بدقة، من خلال الأغاني، والمصنوعات النسيجية، وقصص الأطفال...

كانت تريد أن تسترسل، لكن هاملتون تدخل:

ـ نسيت أن أبلغك، يا عمتي، أن سمو الأمير رزق بولد جميل خلال الأسابيع الماضية...

ـ لا أصدق أبداً يا هاملتون!

وبعد أن ضحكوا، أضافت بنبرة مختلفة:

ـ لا أغفر لك إنك لم تخبرني من قبل عن زواج الأمير!

وقطبت ما بين حاجبيها وهي تضيف:

لكنهم في الشرق ينظرون إلى الزمن ويتعاملون معه بطريقة مختلفة عنا.

ولكي لا يساء فهمها غيّرت نبرة صوتها:

ـ اقصد أنهم يتزوجون في وقت مبكر، وليس كما في بريطانيا. ومن الطبيعي أن الذين يتزوجون مبكراً أن ينجبوا مبكراً، أيضاً!

وانصرفت إلى فنر تسأله عن حياته الجديدة، وعن الطفل الذي جاءه، وتساءلت لماذا لم يصطحب معه زوجته، ولم تتركه يجيب، أجابت نيابة عنه أن الأم لا تستطيع أن تترك طفلها في الشهور الأولى، كما أنها تعتبر من غير المناسب وغير الصحي أن تصطحب، في سفر طويل، طفلاً رضيعاً.

ورغم أنها لم تتعود أن تهدي كتبها إلا لمن يستحقها كما تقول لنفسها، وبعد فترة من الاختبار، وأحياناً بعد فترة من الانتظار، فقد نهضت إلى المكتبة، في صدر الغرفة، واستخرجت كتابها الأخير. نظرت إلى غلافه، وهي لا تزال تعطيهما ظهرها، وقالت وهي في ذلك الوضع:

ـ إذا استطاع الكبار أن يفعلوا شيئاً مهمّاً للصغار، للمستقبل، فإن يحافظوا على ما تسلموه من الآباء لكي يسلموه للأبناء.

قالت هذه الكلمات، وتريد أن يُفهم منها أكثر من معنى ودلالة، وحين استدارت نحوهما، تابعت وهي تسير:

ـ لقد اكتشفت من خلال هذا لكتاب أن العالم الذي نعيش فيه صغير، وبعض الأحيان صغير جداً. فالقصص التي ترددها الجدات في ماتال أو كمبولولا هي ذاتها التي تتردد في أصغر قرى إنكلترا، مع فارق وحيد، إذ تتغير أسماء الأشخاص والأماكن فقط. وهي ذاتها التي تتكرر في أحمد أباد، وربما تتكرر عندكم أيضاً في الناصرة وبيت لحم.

جلست، نظرت إلى فنر ثم نظرت إلى هاملتون، وكان لديها ما تضيفه:

ـ صحيح أن هناك فروقاً بين مكان وآخر، وبسبب هذه الفروق بالذات، تكتسب الأماكن نكهتها وتميزها، وهذا ما يجب أن نحافظ عليه،

وأن نجعله ينتقل من جيل إلى آخر. أما إذا تشابهت بلدان العالم تماماً، أي إذا انعدمت الفروق، فعندئذٍ تكون البشرية قد وصلت إلى نهاية مرحلة كبيرة، ولا بد أن تنتهي، تماماً كما حصل في حضارات قديمة، عندما كانت الحضارة الأقوى تدمر ما عداها من الحضارات.

كان لدى هاملتون ما يقوله تصويباً لوجهة النظر هذه، بل وشعر أن ما جمعته عمته من معلومات في إعداد الكتاب جعلها تفكر بهذه الطريقة، تحت تأثير الجزئيات، لكن لم يجد أن الأمر يستحق الاختلاف، كما أن الوقت ليس مناسباً. قال ليغير اتجاه الحديث قليلاً:

ـ لو أتيح لك، يا عمتي، أن تزوري آثار العوالي وموران، لوجدت أشياء كثيرة تستحق الاهتمام!.

ـ بكل تأكيد، ولا بد لي من أن أعترف بذلك.

ولما ساد الصمت قليلاً، مدت بيديها الاثنتين الكتاب إلى فنر، وقالت وهي تنظر إليه:

ـ حينما يكبر ابنك ويقرأ هذا الكتاب، سوف يجد حوله من القصص والأساطير الكثير مما يشبهه، وسوف يتذكر الأجيال التي سبقته في هذه الحياة.

قال فنر، ولا يعرف كيف عنّت له هذه الفكرة:

ـ وحين يكبر ويقرؤه ربما يكتب شيئاً مشابهاً، لكن عن بلادنا بطبيعة الحال!

ردت وكانت لهجتها حازمة:

ـ يجب أن يفعل، أرجو ذلك، وإذا لم يفعل هو فسوف يفعل غيره، المهم إلاّ تضيع ممتلكات البشرية وتنتهي إلى النسيان، مما يضطر الأجيال القادمة إلى البدء من الصفر مرة أخرى!

في نهاية الزيارة الأولى، قال هاملتون لعمته، وكان ينظر إلى فنر:

ـ يجب أن تكون ضمن اهتماماتك المبكرة زيارة موران والعوالي، لكي تعدّي كتاباً جديداً!

ـ بكل تأكيد ستفعلين، مس ماركو، وإنه لشرف عظيم أن تقبلي دعوتنا، وسوف تسرّين من هذه الزيارة.

ضحكت بغبطة قبل أن ترد:

ـ يسعدني أن أفعل ذلك، لكن لن أستطيع قبل أن أنجز كتابي...

وبعد قليل وكأنها تستدرك:

ـ أو على الأقل قبل أن أهيّئ المواد الأساسية.

وفي معظم أيام الأسبوع كان لدى هاملتون وفنر ما يفعلانه، فالاجتماعات لا تكاد تنقطع، والأشخاص الذين يشاركون في هذه الاجتماعات من التنوع واختلاف الاختصاصات إلى درجة أثارت دهشة فنر، بل وأخافته: موظفون من الخارجية، ضباط عاملون، وآخرون متقاعدون، أساتذة، بحارة، علماء لغة وتاريخ، رسامو خرائط، وأشخاص بدون صفات، أو لا يقدمونهم بصفات محددة. وفي هذه الاجتماعات التي كانت تطول وتمتد لم يترك شيء إلا وجرى الحديث فيه أو عنه. وفنر الذي كان يتابع المناقشات بعناية، اكتشف أنه بحاجة ماسة إلى معونة هاملتون، في الترجمة، في فهم بعض التعابير والمصطلحات، في السؤال عن بعض الأماكن أو الوقائع التاريخية. وهاملتون، لم يكن مفيداً فقط كان ضرورياً إلى أقصى حد، لأن هذا العالم من الاتساع والخطورة بحيث أن فنر كان بحاجة إلى أكثر من المساعدة، كان بحاجة لأن يشعر بوقوف أحد إلى جانبه.

«إنهم يعرفون الكثير عن موران» هكذا قال فنر، في نهاية أحد الاجتماعات، لهاملتون، وهما يخرجان إلى الهواء بعد ساعات طويلة، فردت خلالها عدة خرائط، وكانت من الاتساع إلى درجة ملأت جداراً كبيراً، وتناوب على هذه الخرائط أشخاص عديدون. كانوا يشرحون، ويشيرون بعصا طويلة: كيف يجب أن تكون الدول في هذه المنطقة!

وفنر الذي استفاد الكثير من المعلومات خلال الشهور الستة التي قضاها هنا قبل بضع سنين، يجد أن كل يوم من الأيام الحالية يعادل

شهوراً، إذا لم يقل أكثر. عزا ذلك إلى أنه أصبح الآن أكبر سناً، ويفهم كل أو معظم ما يقال. عزاه أيضاً إلى أن الفرصة أتاحت له هذه المرة أن يلتقي بالعديدين من الذين، خدموا، أو على الأقل زاروا المنطقة، ولذلك فإنهم يعرفون الكثير! لكن ما آثار دهشته واستغرابه أن الموظف المسؤول عن الخرائط، والذي كان يُسأل باستمرار ويستخرج بين فترة وأخرى خارطة تختلف عن التي سبقتها، أو التي تليها، من حيث الألوان والتضاريس، لم يزر المنطقة؛ ولم يخرج من إنكلترا! وحين أبدى فنر استغرابه، تطلع إليه هذا الموظف وقال له كلمة ظلت ترن سنوات طويلة لاحقة:

ـ لا يكفي المرء أن يسافر هنا وهناك، في البواخر والقطارات، ليتعرف، المهم يسافر في عالم يريد، وبتصميم، أن يكتشفه، وأن يتعرف عليه بشكل جدي، وأن يكون جزءاً منه.

ولما هز فنر رأسه إعجاباً، تابع الموظف، وكان ذا دعابة:

ـ كثيرون يسافرون ولا يرون شيئاً، يا سيدي، وغيرهم يديرون العالم بين أيديهم، كما يدير الله الكرة الأرضية، لكي يروا كل شيء!

المناقشات السياسية كانت تختلف، جوهرياً، عن مناقشات الجغرافيا والتاريخ واللغات. فالرجال الذين كانوا يقودونها بدوا أكثر قسوة ومباشرة، بل وكانوا، بعض الأحيان، أقرب إلى الجلافة: «ماذا يريد سلطان موران؟» «كيف يستطيع أن يؤمن الموارد المالية؟» «ماذا يعود علينا إذا سمحنا لسلطته أن تمتد وتشمل كذا وكذا؟».

هكذا كانت أسئلتهم. كانوا يسألون وهم ينظرون إلى العينين تماماً، يريدون أن يعرفوا كل شيء. بل أكثر من ذلك لم يترددوا في السؤال عن عمير وابن مياح وعويد المشعان. كانوا يريدون أن يعرفوا أدق التفاصيل. لم يخفوا أوراقهم ولم يخجلوا. قال مستر ادموند ريكسون في إحدى المناقشات: «لو افترضنا أننا سمحنا لموران أن تضم بعض المناطق المجاورة، ولا حاجة لأن اسميّ أو احدّد، ماذا يعود علينا من وراء ذلك؟» وفنر الذي لم يكن متأكداً ما إذا كان مطلوب منه الإجابة عن هذا السؤال أم لا، لا يعرف بماذا يجيب. لقد علّمه أبوه أن يكون صلباً، أن لا يقبل بما

يطرحون عليه، أن يساوم، لكن ماذا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال، علماً بأنه ليس السؤال الوحيد؟ كانت هناك عشرات الأسئلة، وكان هناك عشرات الرجال الذين يقولون الأشياء ذاتها، وأن بصيغ مختلفة، ولا يعرف ماذا يجيبهم أو كيف يتصرف معهم.

حتى مشروع المعاهدة الذي أرسله دنيس إيجلتون إلى موران، كان لديهم نسخة عنه. استخرجوا هذا المشروع، وكان مؤشراً عليه بالأحمر والأخضر، وقالوا، أو بالأحرى سألوا: هل توافق موران على هذه المعاهدة؟

بعد أن تنتهي هذه المناقشات الطويلة المتعبة، وهاملتون، أغلب الأحيان، لا يقوم بأكثر من دور الترجمة أو شرح بعض الفقرات أو المصطلحات، كان فنر بحاجة إلى جو آخر مختلف. وهاملتون دائماً العون والسند معاً. يكون قد فكر بما يجب عمله لكي تنسى المناقشات التي جرت، الوجوه التي سدت الذاكرة، استعداداً ليوم جديد.

ففيما تبقى من النهار أو الليل: جولات حرة، اطلاع على معالم لندن، زيارات لحدائق أو معارف. وفي هذه الجولات والزيارات كان يستعيد فنر نفسه. كان يكتشف أن العالم ليس مجرد خرائط أو ضباطاً متقاعدين. كما أنه لا يُلخص بكلمات صلبة تشبه أدراج كنيسة سان بول. إن العالم أكثر اتساعاً وغني من تلك الوجوه والكلمات القاسية.

ستة أيام متوالية من الاجتمعات واللقاءات والخرائط، انتهت ببضع صفحات.

قال أمرسون لفنر في اللقاء الأخير، قبل السفر بيومين، في وزارة الخارجية.

ـ سمو الأمير...

توقف طويلاً بعد العبارة، ورغم أن الصمت ظل مخيماً، فقد اعتقد الذين يسمعون أن المستر أمرسون عدل عن المتابعة، أو عنّت له أفكار جديدة، أو مختلفة. انتظروا، وكان فنر أشدهم لهفة لأن يسمع، قال أمرسون من جديد:

ـ سمو الأمير . . .

تنحنح ثم تابع :

ـ أخذنا بالاعتبار الكثير من الملاحظات التي ذكرها المستر هاملتون، والتي جاءت من المستر دنيس إيجلتون، كما حصل لنا الشرف أن نسمع وجهة نظركم، وتوصلنا، نتيجة ذلك، وبعد الدراسة الدقيقة، إلى مشروع المعاهدة الذي نرجو أن تحملوه معكم، وأن تعرضوه على صاحب العظمة السلطان، من أجل دراسته وإقراره.

ولما وجد الصمت مسيطراً، وليست هناك أية نية للتعليق أو السؤال، تابع بنفس النبرة:

ـ لقد راعينا وجهات نظر عظمة السلطان، ودرسنا الأمر من كل جوانبه، ونرجو أن نلقى إجابتكم خلال شهرين من الآن.

وإذ استغرب فنر هذه الطريقة في عرض المشروع، أو المبررات التي سيقت من أجل القبول به، وقد عبر عن ذلك لهاملتون، في الليل المتأخر، وبعد انتهاء الاجتماع بعدة ساعات، فقد كان جواب هاملتون:

ـ لا داعي لأن أشرح لك، يا سمو الأمير، طبيعة بعض موظفي صاحب الجلالة، خاصة الذين خدموا في مصر أو الهند، أنهم لا يعرفون إلا توجيه الأوامر، ولا يفترضون الناس إلا فقراء أو متسولين؛ وهذا الموظف وأمثاله، هم مشاكل الأمبراطورية!

وهز هاملتون رأسه عدة مرات بأسى وتابع:

ـ وإذا كان هناك خطر قد يلحق بالأمبراطورية، أو قد يلحق بأصدقائها، فعن طريق هؤلاء، أو أمثالهم.

وبعد فترة صمت قصيرة:

ـ لكن ليس لنا الخيار الآن. يجب أن نسمع وقد نضطر للموافقة، لأنهم وحدهم الذين يملكون القرار!

وإذا كان فنر قد تعلم من هذه السفرة الكثير، فقد تعلم قبل كل شيء أن لا يرد بلا أو نعم. وتذكر كلمات أبيه يوصيه أثناء الحملة الأخيرة. قال

في نفسه: «يجب أن نسمع جيداً، أن نفهم جيداً، وأن نتصرف على قدر ما نملك من القوة».

عندما قال هذه الكلمات وجدها حكيمة وقوية، ووجد أنها وحدها التي يمكن أن تساعده في الوصول إلى النتائج المناسبة.

هاملتون استأذن خلال الأسبوع الأخير لزيارة زوجته. كان يجب عليه أن يذهب إلى ويلز.

سافر وعاد لوداع فنر، فقد كان مضطراً للبقاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، من أجل متابعة بعض الأمور: الخرائط، دفعات المال، الأسلحة الجديدة التي وعدت بها السلطنة، بما في ذلك أربع أو خمس طائرات، وأيضاً لقضاء أسبوعين من الراحة، كإجازة، مع زوجته وابنه.

الليلة قبل الأخيرة، وكانت مع المس مارگو أيضاً.

ومس مارگو حين تبدأ بالكلام يروق لها أن يكون بسيطاً ومباشراً، ويروق لها أكثر من ذلك أنْ يكون حكيماً. وهذه عادة إنكليزية، كما كانت تحب أن تردد وهي تبتسم.

قالت المس مارگو حين أكد فنر دعوتها لزيارة موران:

- إذا امتد بي العمر، إذا استطعت، حتى لو لم توجه إليّ الدعوة فربما بعت ما لدي من العقود والأحجار الكريمة...

وضحكت وغمزت بعينها، ثم تابعت:

- يروق لي أن أزور الشرق، والشرق هذه المرة غير الذي كنت فيه.

هزت رأسها عدة مرات، ثم أضافت:

- شرقكم يحيرني: إنه مزيج غريب، إنه، وربما هذه الكلمة متداولة أو مبتذلة، لقاء الطرق والحضارات والديانات، ولذلك أصبح مزعجاً لنفسه ولغيره، أنه مثل الامرأة الحامل، وقد تجاوزت شهرها، فلا يعرف هل تلد نبياً أو مسخاً، هل تتابع مسيرها ضمن منطق التاريخ والجغرافيا أم تحاول أن تكون شيئاً آخر؟

تنهدت بأسى وبعد قليل، وجاء صوتها خشناً:

ـ نعم، لشد ما يحيرني هذا الشرق، إنه كتلة من الغموض والتناقض، ليس لنفسه فقط وإنما بالنسبة للآخرين أيضاً. إذ بمقدار ما هو مؤهل، وبمقدار ما تساعده الظروف، فإنه يبدو ثقيلاً بطيئاً تائهاً حتى لتظنه أصبح جثة لا تحتاج إلا إلى الدفن، لكنه أيضاً، وفي كثير من الحالات يفاجئك. ومثلما كنت أقول لهاملتون: هذا الشرق بمقدار ما يحتويه من حضارات وأساطير، وما تتوافر فيه من رغبات وجنون، فإنه مؤهل للأمرين معاً: أما أن ينقذ العالم، أو أن يكون نهاية العالم.

وتنهدت مرة أخرى وبأسى:

ـ سمو الأمير: لا أريدك أن تقع تحت تأثير عجوز فانية، امرأة من عصر مضى، لكن لا أزال أجد في نفسي القوة لأن أقول بضع كلمات: الكتب التي ألفتها، الخدمات التي قدمتها، الأحلام التي لا تزال تملأ رأسي، كل هذه تجعلني على قناعة أن في الشرق شيئاً كثيراً، ولا يزال هذا الشيء، قابلاً للحركة والبقاء، وهذا سر وجوده واستمراره، ولولا ذلك لانتهى منذ وقت طويل، بسبب الأوبئة، بسبب الحروب، وتلك المصائب التي لو مرت على شعب آخر لما بقي منه أي أثر.

قال فنر بدعابة:

ـ كل هذا الحديث عن الشرق، عن بلادنا، قبل أن تزورينا؟

ردت بنزق:

ـ سمو الأمير. . .

وبعد فترة صمت، واهتز رأسها وجسدها مرات عديدة:

ـ ربما كانت الصورة عن الشرق أفضل من الشرق الآن، لكنه مع ذلك يبقى مخزناً لكل الاحتمالات المتناقضة. وكما قلت: قد يكون مرة أخرى بداية لعالم جديد، أو نهاية لهذا العالم.

ـ إنك شديدة التفاؤل أو التشاؤم يا مس مارگو.

ـ سمو الأمير. . . الأمر لا يتعلق بالتشاؤم والتفاؤل، إنه يتعلق، بالدرجة الأولى، بالتاريخ والإرادة. لا زلتم تملكون الكثير من التاريخ،

وهذا إرثكم وربما ليس لكم فضل فيه، وإن كان ملك أجدادكم، ولكنكم لا تملكون شيئاً من الإِرادة أو رغبة الإِرادة.

ومس ماركو التي لا تدخن إلا نادراً، وعندما تكون في حالة قصوى من حالات الفرح أو الحزن، سحبت من درج طاولة صغيرة إلى جانبها علبه سجائر. عرضت على الأمير، الذي رد بابتسامة اعتذار، أشعلت لنفسها سيجارة، جرت نفسين متواليين وواصلت الكلام:

ـ لا أعرف ماذا تريدون، أو كيف تصلون إلى ما تريدون، وليس من حقي أن أتدخل في أمور لا تعنيني، كما لا أحب السياسة، بمعناها اليومي والمتداول، ولكن ما أفترضه: يجب أن تكون لكل شعب من الشعوب مثل عليا يعتز بها، ويحارب من أجلها عند الضرورة، وهذه المثل تكون أكبر وأخطر لشعوب التاريخ، الشعوب التي كانت لها أدوار في العصور السابقة، ولذلك أحس، دون أن أعرف بدقة، أن أمام بلادكم مهمات كبيرة يجب أن تؤديها.

لما وجد هاملتون أن الجو امتلأ بهذا القدر الكبير من الجدية، قال ليكسر حدته:

ـ ولهذا السبب نحن هنا، يا عمتي!

ـ هنا؟

هكذا سألت بسخرية، وبعد قليل تساءلت:

ـ ماذا يمكن أن يُفعل هنا؟

ولأنها تعرف أشياء كثيرة، ورأت في حياتها الكثير، خاصة في الأماكن التي عاشت فيها، فقد قالت كأنها تخاطب نفسها:

ـ لا أحب أن أتدخل في شؤون الآخرين، ولا أحب، وبنفس القدر، أن يتدخل الآخرون في شؤوني، ولذلك إذا كان يمكن عمل شيء، فيجب أن يعمل هناك.

أطفأت السيجارة بعصبية، نظرت بطرف عينها إلى فنر، ابتسمت وهي ترفع رأسها، وتغير لهجتها تماماً:

ـ مثلما قلت لك من قبل: لا أريدك أن تقع تحت تأثير امرأة عجوز، وبالتأكيد فإنك لن تفعل، لكن تجربة الإنسان في هذه الحياة يجب ألا تذهب سدى، وهذا ما أحاول أن أقوله من خلال الكتب.

ـ يجب أن تأتي إلى شرقنا لكي تكتبي واحداً من الكتب المهمة عن الشرق!

هكذا قال الأمير فنر بدعابة.

ردت بمرارة:

ـ إذا عشت ما يكفي لأن أصل إلى الشرق، وكانت لدي القوة، وكان لدي ما أقوله، فسوف أفعل؛ ليس ذلك فقط ثم إن هناك الكثيرين، ممن يمتلكون الخبرة والعمر، ولديهم ما يقولونه، سوف يفعلون!

نظرت إلى هاملتون وابتسمت، وكأنها تعنيه. قال هاملتون:

ـ أنت التي قلت لي ذات يوم: لا يمكن لإنسان أن يكون بديلاً عن آخر، وليس هناك شعب مثل شعب آخر، ولذلك فإن ما قد تفعلينه لا يستطيع غيرك أن يفعله.

ـ لا زلت قادراً تماماً على أن تدير حديثاً ناجحاً مع امرأة عجوز...

وضحكت فخرج صوتها مثل المواء.

قال فنر:

ـ نحن بانتظارك، مس ماركو، هناك. وأكون شاكراً إذا حددت الوقت الذي يناسبك لكي نرتب الأمر بشكل جيد، وأعتقد أنك لن تندمي أبداً.

وافترقوا على وعد أن يبقوا على اتصال خلال الفترة القادمة، وليس كما كان الحال من قبل. ولم تقل المس ماركو لا ولم تقل نعم، شيعتهم إلى الباب، ولما أصبحوا في الشارع لوحت لهم من النافذة، وبعد أن خيم الصمت، سحبت من درج الطاولة علبة السجائر، أشعلت السيجارة سحبت نفساً ثم آخر، وغرقت في التفكير!

توقع السلطان أن يعود فنر من لندن حاملاً معه الكثير. انتظره شهراً طويلاً مضنياً، ولما عاد كان يحمل معه فقط الأخبار والوعود والانتظار... ولا شيء غيرها. أما الأموال، والأسلحة، أما الموافقة على وقف تدخل الجوار، خاصة ابن ماضي، أما الموافقة على ضم بعض مناطق الحدود، فقد علقت كلها إلى حين إقرار وتوقيع المعاهدة. معنى ذلك أن كل شيء مؤجل ومهدد. وزاد في تعقيد الموقف أن دنيس إيجلتون سافر بإجازة، وهاملتون تأخر، ثم أجل عودته. «هؤلاء الإنكليز يعبّرون جيداً حين يصمتون أو يغيبون» هكذا قال عنان بسيوني للسلطان، «وإلا ما معنى أن يسافر الواحد ولا يرجع الثاني؟».

والمعاهدة التي عاد بها فنر لا تختلف عن تلك التي قدمها دنيس إلا بتفاصيل قليلة، إذ لا تزال تعتبر السلطان مجرد حاكم صغير مثل عشرات من الشيوخ والأمراء الذين حوله، وتفرض عليه من الشروط والقيود ما يضطره للعودة إليهم في الكبيرة والصغيرة، مقابل المعونة التي يدفعونها، والحماية التي يوفرونها. صحيح أنه اضطر قبل خمس عشرة سنة إلى الموافقة على معاهدة تجعله مثل الشيوخ الآخرين، لكنه في ذلك الوقت لم يكن مسيطراً على موران ذاتها. الآن وقد سيطر، بالإضافة إلى موران، على الحويزة والعوالي، وأصبح الوحيد الذي يتكلم باسم هذه المنطقة الواسعة، فلماذا يريدونه أن يبقى صغيراً؟ ولأي سبب يتعاملون معه بهذه الطريقة؟

ليس ذلك فقط، موران ذاتها أصبحت ترتج. إنه يستطيع أن يلتقط الأصوات الخفية، ويشعر بذلك المزاج الذي لا تعبر عنه الكلمات أو التصرفات، ولكنه يملأ الجو وذرات الهواء.

ورجاله، الذين يعتمد عليهم في كل شيء، أخذوا يتغيرون. فما بين الصمت والغياب، هناك من بدأوا يكبرون ويتمردون. وإذا كان تمردهم ما زال موجهاً ضد بعضهم، أو ضد الآخرين، فإن من السهل فهم الرسائل التي يبعثون بها بين فترة وأخرى. فابن مياح والذين معه على الحدود، يريدون إفساد علاقاته مع الجوار جميعهم، وتخريبها مع الأصدقاء، خاصة الإنكليز، لكي يقطعوا عليه خطوط الرجعة، ولكي يضطروه في الأخير إلى الموافقة على ما يريدون.

وابن مشعان، في العوالي، أصبح يجمع النساء كما يجمع الخيول، ويريد أن يخضع البلد سلماً لا حرباً! فإذا تبقى لديه وقت يخطب في الناس ليعلمهم مناسك الحج ونواقض الوضوء والدخول الصحيح! وبين فقرة وأخرى لا ينسى أن يردد على مسامع من حوله أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها. فإذا سئل من يعني، هل يعني ابن ماضي أم خريبط، يدير رأسه إلى هذه الناحية ثم إلى تلك ويقول: الملوك عند الله سواسية كأسنان المشط!

الحويزة التي سكنت مثل حجر، بدأت تتململ وتتحرك. والحدود التي ظلت هادئة طوال سنوات، إلا إذا أراد هو أن يحركها، خرجت عن طاعته، ولا يعرف ما إذا كانت لا تزال له ومعه أم ذهبت إلى الآخرين.

أما ابن ماضي الذي اضطر لأن يحزم أمتعته ويأخذ معه الذهب كله، ويركب البحر ذاهباً بلا عودة فقد عاد أو يكاد، إذ ارتفعت أصوات مؤيديه، وامتلأت عيونهم بالحمرة والشر، وأصبح تحديهم علناً في كل مكان، وتختلط مع أصواتهم وتحدياتهم واحتجاجهم أصوات الآخرين، الذين أخذوا يعلنون أنهم ينتظرون الفرج اليوم فإذا تأخر... فلا بد أن يأتي غداً.

ولا يكفي أن يكون البشر وحدهم ضده، فالله ذاته بدأ أيضاً. بعث السنة الأولى القحط. سنة طويلة سوداء، طغت على الزرع والضرع، فجاع الناس وصرخوا، ونفقت الماشية، وانتقلت البادية إلى المدن أو أطرافها، ومعها جوعها وتحديها، وبدا أن كل شيء على وشك الانهيار والنهاية. فالأرض تهتز، وتوشك أن تنقلب. وابن ماضي يبعث بالأموال

والمتطوعين، مستغلاً الجوع والحاجة والضيق، ليحرك من لم يتحرك بعد، ولكي يحرض القريبين والبعيدين. وتأتي بعد ذلك جرائد العالم كله لتقول «أي مجرم ولدته صحراء موران، وإلى متى يبقى، ولماذا لا يذهب اليوم قبل الغد؟».

وإذا كان قد بذل كل ما يستطيع من أجل أن يقنع رجاله وأهل موران لأن يصبروا وينتظروا، فكيف يستطيع إقناع الآخرين؟ ولماذا ينتظر الآخرون، أو ماذا ينتظرون؟

لو أن الأمر توقف عند هذا الحد لصبر وصبر معه الناس واحتملوا، لكن ما كادت سنة الجوع تتراجع حتى جاء الهواء الأصفر. وفي طريقه حصد الكثيرين، من الصغار والكبار، ولم يتوقف عند أبواب قصر الروض، بل تجاوزها ودخل.

فزينة التي اعتلّت منذ أيام النفاس، طمأنتها قابلة القصر أنها أعراض تصيب جميع البكاري، فإذا أكلت من كبد الجمل وشربت من زيت السمك، فلن تمضي فترة حتى تسترد صحتها. ولما ظلت صحتها تتراجع جاءت الحكيمة الإنكليزية، وقالت، بتأكيد جازم، أن الأمر يسير، وظل يسيراً هكذا بضعة شهور، فلما وصل الهواء الأصفر حصد الأصحاء والمرضى، فتدهورت صحة زينة، ولم يجد معها أي علاج، وهكذا غادرت هذا العالم وتركت طفلاً رضيعاً، ورجلاً يتيتم للمرة الثانية.

والسلطان الذي كان يهيّئ فنر لكي يكون ساعده ويده، رآه يغرق في ذلك الحزن الذي لا يمكن لأحد أن ينتشله منه، فبوفاة زينة عادت أيضاً أحزان عين فضة، وعاد معها الماضي بكل ذكرياته وجراحه، وأخيراً مرضت موضي، أصبحت بين الحياة والموت، ولا يعرف ما إذا كانت ستبقى أم ستلحق بالذين ذهبوا. وفنر لم يكن بحاجة إلى هذه الأحزان كلها ليصبح إنساناً آخر، كان يكفيه قسم منها!

وظل السلطان واقعاً في تلك المساحة الفاصلة بين الغضب والشفقة. فيوماً يغضب إلى أقصى الدرجات، وفي اليوم التالي يتذكر ما عاناه فنر نتيجة فقده لأمه، وبعده الطويل في عين فضة، وكم جر عليه ذلك من

الأحزان والآثار. . . وحين يراه هكذا الآن يتابع السيرة ذاتها، يمتلئ قلبه شفقة وحسرة عليه، ويتساءل لماذا يصبح الأبناء الذين يفقدون أمهاتهم بهذا الضعف؟ ومن أين لهم هذا الحزن كله؟

وقبل أن يمضي شهر على حزن فنر وانقطاعه، يغيب العم دحيم أيضاً.

ذلك ليلة، بعد سهر طويل، وبعد حديث أطول، حول ما يجب عمله لمواجهة الجوع وتنكر الأصدقاء وشماته الغرباء وحصاد الموت، يتفق الاثنان أن يسافر العم دحيم إلى الحويزة مرة أخرى، لكي يرتب أمورها، بعد أن عجز خزعل عن ذلك، وأن يتفاهم مع ابن مياح على إبعاد عمير وأمثاله، وأن تُعطى للسلطان فرصة أخرى من أجل التغلب على المصاعب وإعادة ترتيب الأمور. ويتفق الاثنان أيضاً أن يسافر السلطان إلى العوالي، وأن يبقى هناك فترة تكفي لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

في تلك الليلة، في نهايتها، جاءوا ليبلغوا السلطان أن العم دحيم قد فارق الحياة. التفاصيل ليست مهمة. فإن يكون قد تقيأ. أو شعر بأسياخ من نار تشق صدره، أو أن يكون قد صرخ طالباً المساعدة، ثم هدأ وطمأن الجميع أن حالته تحسنت، ولا يحتاج إلا إلى النوم، وأن ينام، ويبقى نائماً إلى الأبد. . . كل هذه تفاصيل لا تغير شيئاً ولا تدفع حزناً: فقد أصبح السلطان وحيداً، فامتلأ بشعور الوحدة وسيطر عليه هذا الشعور.

خزعل بين الحويزة وموران يركض مثل البعير الضائع، ولا يُعرف إن كان هنا أو هناك، فإذا استراح قليلاً، فعند واحدة من نسائه الكثر، وأغلب الأحيان لا تُعرف من تكون، لأنه لا يبقى في مكان، أو عند واحدة، أكثر من وصول الخبر ورد الجواب!

حتى زوجات السلطان في قصر الروض، امتلأن بالنكد الذي يولده الخوف والمرارة، وأصبحن يتعاركن مع الخدم والأطفال والمربيات، لأنهن لا يجرؤن على أن يتعاركن فيما بينهن. وقصص الأطفال والنساء، التي كانت محصورة بطالع وناهي الفرحان، أو من هم دونهما من المساعدين، أصبحت تتجاوزهم كثيراً. أخذت تنتقل على شكل شكاوى أو

احتجاجات، بسبب الأخطاء والتعديات التي تزايدت كثيراً، ولا أحد يستطيع منعها. فإذا زادت الأمور عن حد معين، فلا بد عند ذاك أن تصل إلى السلطان، وأن تسمى الأمور بأسمائها.

والأولاد الذين كانوا ينتظرون بشوق ولهفة يوم الاثنين، ليحضروا مجلس السلطان، وقد لبسوا أحسن ثيابهم وتعطروا، وكانوا يتسابقون لرواية الأشعار والأناشيد التي تعلموها من المربيات والمعلمين، وكل واحد منهم يحاول أن يتميز عن أخوته، وأن يروي شيئاً جديداً أو طريفاً، وقبل الآخرين، لأنه يكون قد قضى أسبوعاً من أجل أن يتعلمه... تحول الأولاد إلى الشكوى والمشاحنات. فما لم يستطيعوا حله فيما بينهم، وبتحريض الأمهات والمربيات، انتقل كل ذلك إلى مجلس الاثنين. والسلطان الذي كان يبدي تسامحاً، وبعض الأحيان يوافق أن يكون قاضياً بين المتخاصمين، ما لبث أن ضاق صدره، فبدأ يؤجل مجلس الاثنين مرة بعد أخرى، وكان مطمئناً أن ما فات أولاده كيما يتعلموه منه، فإن المدرسة التي افتتحها في القصر لا بد أن تغني عنه، لأن أولاده الطلبة يواظبون على مدرستهم ودروسهم! لكنه اكتشف في وقت متأخر أن المدرسة انتهت إلى يوم أو اثنين في الأسبوع، ثم تحولت إلى مدرسة لأولاد الخدم والحرس، الأمر الذي دفع القائمين عليها إلى تعليق الدروس فيها، ريثما يتسنى للسلطان الوقت من أجل استقبال القيمين على المدرسة، لكي يشرحوا له أين وصلت الأمور!

حتى من بقي من الحرس والخدم، ورغم أنهم يعيشون في القصر، وفي القصر يأكلون وينامون، فإنهم ضجوا بالشكوى، نتيجة عدم دفع الرواتب وغياب الاعطيات. أما الذين يعتمدون على الرواتب لكي يؤمنوا أكلهم وثيابهم ومعاشهم، فقد سبقوا الخدم والحرس إلى الشكوى والاحتجاج، والكثيرون طلبوا أن يُلحقوا بالجند في الحويزة أو العوالي. والذين اضطروا للبقاء أخذوا يسرقون ويبيعون ما يصل إلى أيديهم من أجل تأمين ما يحتاجون إليه.

والسلطان الذي كان قادراً على تأمين المال، في أصعب الظروف،

يستخرجه من باطن الأرض، أو يستنزله من أعالي السماء، كما يقول الذين يقدرون مواهبه، أصبح الآن حائراً، ولا يفعل إلا أن يبعث بالرسل إلى هنا وهناك: «دين، قرضة حسنة، يا جماعة الخير، وكم يوم ونرد دينكم وحبة مسك» فيعود الرسل بصرر صغيرة لا تكاد تفي بحاجات القصر، أو يعودن بصمت ولا يريدون أن يقابلوا السلطان، لئلا يحملهم مسؤولية الفشل. «كلها منكم وجوهكم تقطع الرزق وتنشف الغدران».

قال طالع العريفان لناهي بسخرية مرة:

ـ الحق روحك يا ابن الفرحان، دوّر لك على شغيلة هنا.. هنا، قبل ما تتسلب بهذا المكان... وتندم.

ـ وتذكر يا أبو جازي سوالفه قبل ما يروح للعوالي؟ «يا النشامة، يا قرابتنا وجماعتنا، يا اللي يريد دنياه وآخرته جميع، هذا اليوم يومكم، اللي يسير معنا يطلب ويتمنى: الخيل، الأباعر، الغنائم.. كل شيء له» وراح يوم وجاء الثاني، وهالحين تشوف عينك: «اصبروا يا أولاد الحلال، وكل واحد له حق يصله، بس يلزم تصبروا وتطولوا بالكم» وشهر بعد شهر الناس فاتحين حلوقهم وينتظرون!

ـ مثل ما قلت لك يا ناهي، واليوم أحسن من اللي عقبه، يجوز تلقى اليوم شغيلة بسوق الحلال، تسرح بغنم، يطرّشونك بأباعر... خاف باكر تدور ما تلقى.

ومثلما كانت موران تحتال على المصاعب، أو تقاومها، بأن تبعث بأبنائها إلى الأماكن البعيدة بحثاً عن الرزق، أو بأن تشجعهم على استعمال القوة لدفع الذين يريدون مزاحمتها على رزقها، وقد فعلت ذلك خلال معظم العصور، فإن أغلب الأبناء الذين كانوا يذهبون بعيداً، يجدون أنفسهم مضطرين للعودة في يوم من الأيام. كانوا يعودون بدوافع غامضة. فرغم الخضرة والمياه والرزق الوفير في الأماكن التي كانوا يعيشون فيها، يحسّون، فجأة، وقد امتلأوا بأحزان لا يعرفون كيف تسربت إليهم وطغت على البيع والشراء، وعلى كل ما هم فيه من ثراء أو راحة بال، واضطرتهم لأن يفكروا بموران مرة أخرى. تعربد في رؤوسهم أفكار غريبة أقرب إلى

الجنون. ومثلما كانوا مجانين حين تركوا موران، وأقسموا، كاذبين، ألا يعودوا إليها مرة أخرى، بسبب ما لاقوا فيها من العنت وصعوبة الحياة، فإن موران الغافية في أعماقهم، المتظاهرة بالغياب، لا تلبث أن تنفجر مرة أخرى، وبنفس قوة الجنون التي دفعتهم ذات يوم إلى مغادرتها، وهذه القوة ذاتها هي التي تدفعهم إلى العودة مرة ثانية.

الذين تركوا موران إلى أقصى الأرض، فوصلوا جاوة وسومطرة، وصلوا إلى زنجبار وممباسا، ولم يكونوا يتصورون أرضاً بعد موران، أو أبعد منها، وغامر بعضهم فوصل إلى الأرض الجديدة، بحثاً عن موران أخرى هناك، ولأنهم لم يجدوا، أو لم يقتنعوا بغير مورانهم، فقد بقوا فترة ثم تركوا جزءاً كبيراً من أرزاقهم، أو تركوا وكلاءهم يصفّون ما بقي لهم من الرزق، وعادوا.

إن شيئاً في أهل موران يستعصي على الفهم أو المنطق. فهم نمط من الناس مشدود دوماً إلى حبل السرة. أنهم يذهبون بعيداً، يتصرفون، بعض الأحيان، كما يتصرف الآخرون. يتعلمون ويعيشون، لكنهم يظلون دوماً مختلفين. وهذه الصفة تحددهم أكثر مما تميزهم. حتى الذين تعلموا، وأصبحوا جزءاً من الأماكن الأخرى، فإن في أعماقهم ما يدعوهم إلى الاعتزاز، أنهم من موران، ولو لم يكونوا منها لما أصبحوا هكذا.

وفي سنوات الجوع والمصاعب، أكثر من سنوات الرخاء، فإن أهل موران المسافرين يحسون بحاجة لأن يكونوا مع أهلهم، أو أن يبعثوا إلى أهلهم ما يستطيعون.

لقد حصل ذلك مرات لا حصر لها. الجدات في أيام الرخاء، حين لا يعض الجوع، ولا يحصد الموت أو تقسو الحياة، لا يملّن من ذكر القصص التي تذكّر الصغار بالأقرباء الذين عادوا فجأة، لكي ينقذوا ويساعدوا، في الوقت الذي لم يتوقع أحد ولم ينتظر عودتهم. بل إن هؤلاء قد نسوا وغابوا من الذاكرة، لأن غيرهم، من هم أقرب منهم، لم يسمعوا أو لم يستجيبوا.

في هذه السنة الصعبة رجع إلى موران عثمان العليان.

قضى عثمان سنيناً في جاوة. قال الذين يعرفون طرفاً من حياته، إنه قضى هناك اثنتي عشرة سنة. كان طفلاً أو صبياً حين وصل إلى هناك مع عمه. ومثل القصص التي تروى أيام الشتاء، فتح الله على عثمان ورزقه. فبعد أن كوّن ثروة، وتاجر بكل التجارات، وسافر إلى كل الأقطار، استقر به المقام في مصر. ولا يعرف كم من السنين قضى هناك. الذين يحبون مصر يقولون إن رزقه كله جمعه منها، والذين يخافون مصر أو لا يحبونها يقولون إنه جاء بأمواله من الأماكن الأخرى، وفي مصر لم يفعل أكثر من أن يتزوج امرأة ثم ثانية، وأن يستعين ببعض المصريين لكي يعتنوا بخيوله. أما أمواله فكانت على ظهور المراكب، أو موزعة في أماكن عديدة في البصرة وغزة والشام، وقيل إنها وصلت إلى مانشستر البريطانية.

المهم أن عثمان العليان وجد نفسه في يوم من أيام الربيع، وكان في بلبيس، يبكي حنيناً إلى موران. الذين يعرفونه يقولون إنه ترك موران وعمره أربع عشرة سنة، وغيرهم يقولون ابن سبع سنين. وفي لحظة هي بين الغضب والوجد وضيق النفس، قرر أن يعود إلى موران. لقد غاب اثنتين وثلاثين سنة، وبعض الذين يكرهونه يقولون إنه غاب أربعين. لكن مثلما يخفي ما عنده من أموال فإنه يخفي عمره، خاصة أمام النساء!

هكذا فجأة قرر أن يعود. وخلال أسابيع قليلة صفى ما له من أرزاق في مصر وغيرها، وقيل إنه لم يصف شيئاً أبداً، إذ جمع ما له من الديون، واستبقى غيرها، وكلف وكلاء عليها، وعاد.

عاد إلى موران يبحث عن أهل وأقارب، ولا أحد يعرف ما له أو ما عنده. ولأن موران لا تنسى أبناءها، ولأن في مجلس السلطان يلتقي الغرباء والمغامرون الذين يبحثون عن الأقارب والأصدقاء فسرعان ما وجد عثمان أقاربه.

وبعد أن رأى وسمع قرر أن يكون في خدمة السلطان.

علاقة السلطان بابن العليان غامضة، غريبة إلى أقصى حد. فكأن الاثنين كان أحدهما ينتظر الآخر منذ زمن طويل، وما أن التقيا حتى أصبحا أكثر من صديقين. قال بعض الناس أن عائلة العليان ترتبط مع عائلة السلطان بصلة

قرابة. وجاء من صحح هذا الخطأ، وقال إن العلاقة هي علاقة نسب. وقال غير هؤلاء إن العلاقة بين الإثنين ليس لها صلة بالقرابة أو النسب، وإنما بالمصلحة، وقيل لها صلة بالمزاج وتقارب السن. وقال غير هؤلاء، إن الواحد منهما يكمل الآخر، وأنهما بحاجة بعضهما إلى بعض.

لم تكد تمر بضعة شهور وباعتبار أن عثمان العليان، يعرف التجارة والمحاسبة، «ولديه أموال يريد أن يشغلها»، حتى اتضح كل شيء، كما قال يونس شاهين، فقد «وضع شحمته على فطيرة السلطان» وهذا تعبير يونس ذاته، لكنه لم يقله علناً أو في حينه، وإنما قاله بعد بضع سنين حين أصبح عثمان العليان أمير المال ومدبر شؤون السلطان.

القصص والأخبار، وحتى الإشاعات، التي تتناول موضوع العلاقة، ثم موضوع الأموال، وأموراً أخرى أيضاً، من التشعب والتناقض نتيجة اختلاف الرواة والدوافع، إلى درجة لا يمكن معها الوصول إلى الحقيقة أو إلى جزء منها.

بعد أن انتهت سنة القحط، وبعد أن انتهى الهواء الأصفر، بدا وكأن السلطان قد اجتاز أصعب الأيام وأقسى التجارب والظروف.

في الفترة التي عاد خلالها عثمان العليان، أو على التحديد بعد شهرين من ذلك، عاد أيضاً، وبعد غياب دام ستة شهور، هاملتون، أما دنيس إيجلتون فقد بقي في بريطانيا. وحول بقائه تتناقض الروايات، لكن أكثرها ترجيحاً أنه اختلف مع زوجته. فالزوجة لا تريد أن تعود، وقد هددت بالطلاق إذا أجبرها على العودة. ولأنه يحبها فقد طلب أن تسمح له الوزارة بالبقاء فترة إضافية، ريثما يسوي هذه المشكلة. وافقت الوزارة على أن يبقى، ولم تصغ إلى ما عداه، ولم تكتف بذلك، فقد اتخذت بسرعة قراراً وعينت في الوقت نفسه بديلاً عنه. ولأن هذا البديل من طبيعة مختلفة، سواء بالتصرف أو باللغة، فقد جاء إلى موران ليقدم احترامه إلى السلطان، ويطلب تأجيل مناقشة أي موضوع «إلى حين استكمال دراسة الملفات» وأبدى رغبة كبيرة «للتعاون وتذليل الصعاب».

أما كيف استطاع عثمان العليان أن يدبر المال للسلطان، فإن الإجابات

تتعدد وتتنوع وتتناقض بقدر عدد الذين يجيبون، خاصة وأنه لم يبق أحد في موران إلا واجتهد وأفتى! فالتجار في موران والعوالي، الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لدفع مبالغ حددت حسب إمكانيات كل واحد منهم، لا يعرفون هل ما يدفعونه ضريبة أم دين، أم زكاة، لأن الإجابة، حين سألوا، كانت تتراوح بين الزكاة والدين، مع تأكيدات لا تنفك تتزايد، أن كل ما أُخذ منهم سوف يرد إليهم، وإذ أضاف بعض رسل السلطان «... وفوق الدين زودة» فإن المتشددين خافوا، وقالوا: لا نأخذ على أموالنا الربا، والمتساهلين سموا ذلك ربحاً ولم يجدوا غضاضة في الموافقة، لكن تساءلوا: متى يعاد الدين والربح؟ أما غيرهم، والذين تأخروا في إخراج الزكاة، فقد اعتبروا أن الله عاقب عباده بالقحط والوباء لأنهم لم يصرفوا حقوق الله، ولذلك دفعوا برضا وسماحة! وغيرهم دفعوا خائفين، لأن مع كل موظف، أو مع كل رجل من الذين أرسلهم ابن عليان، كان عدد من حرس السلطان، وكان هؤلاء يقلّبون نظراتهم فيما حولهم، وكأنهم يقدرون ممتلكات كل واحد، أو يحددون ما يجب أن يأخذوه إذا امتنع أو تردد عن أداء ما يُطلب منه.

هكذا فسرت أو فهمت الأموال التي أخذت من التجار، ومع ذلك، لم تكن كبيرة، ولا تكفي لكي يواجه السلطان أعباء الحملات وحاجات الجند، ولتأمين المواد الضرورية، خاصة بعد أن تزايدت المصاريف، فقال الكثيرون: «هذا غطاء لما يفعله ابن عليان».

خدم القصر، الذين يدققون بعيون الصقور ويرون الصغيرة والكبيرة، ويظلون، أغلب الوقت، صامتين، لاحظوا في هذه الفترة، أن الشيخة التي اعتزلت الناس فترة طويلة ما لبثت أن خرجت، وقيل إنها خافت خلال الفترة السابقة من الهواء الأصفر، ولم تكن تفعل طوال شهور، خاصة بعد وفاة عدد من سكان القصر، سوى أن تحرق الملح، وتكثر من استعمال ماء الورد، وتمنع أي واحد من الخدم الاقتراب من جناحها. وقيل إنها لم تأكل يوماً واحداً مما كانت تعده مطابخ القصر، كانت تهاني تعد لها الطعام، وتشرف هي بنفسها عليه.

خروجها الآن لا يفسره انحسار الوباء فقط، إذ قيل إن عدة خلوات جرت بينها وبين السلطان، وقد حضر عثمان العليان معظم هذه الخلوات، ممّا جعلها تقتنع بإخراج ما تحت يدها من مال!

حين سئلت تهاني عن الأمر لم تجب بكلمة، لكنها ابتسمت وبرقت عيناها، وحار الذين سألوها في تفسير ذلك.

ومما يشجع على الاعتقاد أن شيئاً ما له علاقة بالشيخة قد حصل، طريقتها في التصرف. فقد بدت أكثر فتوة، واستبدلت بملابسها السوداء أخرى رمادية. وقيل حول الموضوع الكثير، فهناك من قال إن السلطان طلب منها ذلك لكي تساعد فنر على أن يخرج من حزنه، وهناك من قال، مع ابتسامات ماكرة، إن القرابة التي تحدث عنها الكثيرون، بين السلطان وآل عليان، يراد تجديدها، ولا يستبعد أن حديثاً جرى في إحدى الخلوات حول الموضوع! وغير هؤلاء قالوا إن ابن العليان تعهد أن يعيد، وسريعاً، للشيخة، مع الربح، ما يستدان منها قبل أن يحول الحول، وقد ضمن السلطان ذلك.

الذين سافروا وعرفوا البلدان الأخرى، خاصة الذين عرفوا مصر وعاشوا أو مروا فيها ـ ومن عادة مسافري موران أن يسألوا ويتقصوا ـ قالوا: إن أموال ابن عليان لا تأكلها النيران، وما أعطاه للسلطان، وهو بالتأكيد دين بأجلٍ، وعليه شهود وكتب بأوراق، اعتبره تجارة؛ ومثلما كان يمول الكثيرين، ويبعثهم بتجارات إلى الشام والعراق والبحرين، وغيرها من البلدان، وهو متأكد أنه سيسترد ما أعطاه، وربما رهن له السلطان قصوره وخيوله إلى حين استيفاء الدين.

وقال بعض الذين سافروا، وكانوا لا يخفون سخريتهم، أن ابن عليان لا يبول على يد مجروح، ولذلك لا يمكن أن يخرج شيئاً من ماله، ولكنه أشار على السلطان أن يتصل بأهل موران المسافرين في الأماكن الذين يقيمون فيها، وقد سمى له عدداً منهم، وكتب رسائل وبعثها مع أقرباء، مع تحيات ووعود كثيرة، وقد مهر السلطان الرسائل بخاتمه، وحمّل الرسل، مع الرسائل، تمراً جيداً وطيباً وحنة، وقيل أيضاً حمّلهم مجموعة من

البسط والحذيانات والعباءات، وقد تم اختيارها بعناية، وأرسلت إلى هؤلاء، وسلمت إليهم بكثير من الاهتمام والحفاوة وهذا ما دفعهم لأن يقدموا القروض بسخاء.

ولأن السرقات بدأت تتزايد في قصر الروض، وكانت في الغالب تستهدف الأشياء الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة، فقد اقترح عثمان العليان على السلطان تخصيص غرفة كبيرة في القصر، وأن تجهز بالأقفال الألمانية القوية، ويتولى رجاله حراستها ليل نهار، وهذا ما وافق عليه وفعله السلطان. أما مفتاح هذه الغرفة، وهو المفتاح الوحيد، فقد استبقاه معه. وطُلب من نساء السلطان أن تضع كل واحدة ما عندها من الذهب والمجوهرات والنقود في صندوق صغير، وأن تقفله بنفسها، لكي توضع الصناديق جميعها في الغرفة. وهذا ما فعلته النسوة، بعد تردد، وبعد أن اقتنعن نتيجة السرقات العديدة التي جرت.

أما ماذا حصل بعد أن أودع الذهب والمجوهرات، فقد اختلفت الروايات كثيراً: رواية تؤكد أن السلطان باع الذهب كله في أسواق حيفا ويافا. ورواية أخرى أن ابن عليان حمله كله وسافر إلى الهند وهناك باعه. وأكد من يعرفون أكثر من غيرهم أن بيعاً نهائياً لم يجر، وإنما تم إيداع الذهب أو رهنه في بغداد لدى عدد من الصاغة والصيارفة اليهود، مقابل مبالغ دفعت لأجلٍ وبفائدة.

المهم أن الضائقة التي كادت تفتك بالسلطان توقفت ثم أخذت بالتراجع. صحيح أن الأمر تم ببطء وترافق مع الخوف والشكوك، وترافق أيضاً مع الإشاعات التي لم تتوقف يوماً واحداً، لكن حين وصل تجار الإبل يحملون كميات كبيرة من الطحين والشاي والخام والسكر، وقالوا إنهم يفضلون أن يبيعوا هنا أكثر من أي مكان آخر، لأن الأرباح هنا كبيرة ومضمونة، ولأن الدفع يجري دون تأخر ودون تحويل... عند ذاك بدأ الأمن يدخل إلى قلوب الناس.

ولأن هؤلاء التجار وصلوا في نهاية الخريف وبداية الشتاء، ثم جاء المطر الوسمي مبكراً ووفيراً في هذه السنة، فلم يبق أحد إلا وتفاءل. قال

الناس بصوت عالٍ: الأيام الصعبة انتهت، ونرجو الله أن تكون خاتمة الأحزان والمصائب.

ومع أخبار المطر في موران، تواردت الأخبار عن سقوط أمطار في العوالي لم تشهد مثلها منذ سنين عديدة، فبدأ المسنون يتذكرون متى جاءتهم أمطار مثل هذه. أما الذين تأخروا في الزرع، لأنهم كانوا خائفين أن تكون هذه السنة مثل باقي السنين، فقد تراكضوا بسرعة ليتداركوا هذا التأخير، ومع الزرع والبيع والشراء بدأ الغناء وبدأ المزاح، فكان يسمع رجال السلطان الغناء والمزاح لكن يتظاهرون أنهم لا يسمعون!

قال السلطان لعثمان:

ـ إذا مرت هذه السنة على خير، يا عثمان، ترى السنين اللي تعقبها تنسّي الناس مصايبها، وعسى أن تفرج.

رد عثمان العليان وهو يجر من صدره نفساً عميقاً:

ـ انتهت، يا طويل العمر، السبع العجاف وبدأت السبع السمان، وإذا عشنا نشوف!

ـ حنا نريد سنة سمينة واحدة، وبعدها الله كريم.

ـ لا تخف يا طويل العمر، وهذا الله يمكن يفتح عليك خزائن الأرض كلها!

قال عنان بسيوني الذي كان يسمع هذا الحوار المتفائل:

ـ ربنا. . . كفافنا، خبز يومنا.

وضحك بقهقهة ثم أضاف:

ـ هذا ما نتمناه ونرجوه.

قال السلطان وهو ينظر إلى البعيد:

ـ كل عقدة ولها حلال.

وتطلع إلى فوق، إلى السماء، وقال، وخرج صوته هادراً:

ـ أن الله على كل شيء قدير!

اللقاءات بين السلطان وهاملتون كانت مزيجاً من الاستطلاع والاستفسار والعتب. فبعد هذه الفترة الطويلة من الغياب، والتي بدت غير مفهومة وغير مبررة، يريد السلطان أن يعرف أين موقعه وكيف يتصرف. وهاملتون الذي كان محرجاً، ويبدا حزيناً في بعض اللحظات، خلال الأيام الأولى، ما لبث أن استجمع نفسه، قال للسلطان، وهما على عين المليحة، وقد خرجا في رحلة، خلال يوم من أيام الشتاء الدافئة.

ـ وتعرفون، يا صاحب الجلالة، أن الرجال الذين بيدهم القرار هناك، يكونون أغلب الأحيان مضطرين إلى أخذ الكثير من الاعتبارات قبل أن يقرروا شيئاً نهائياً. كانوا في اليوم الأول يستمعون إلينا، وفي اليوم نفسه، أو في اليوم التالي، يستقبلون وفداً أرسله ابن ماضي، ويستمعون إليه ويناقشونه، ثم يبعثون وراء ممثلي صاحب الجلالة في المنطقة ليستمعوا منهم أيضاً، وبعد ذلك يفاوضون الفرنسيين والأميركيين وغيرهم من القوى حتى إذا توصلّوا إلى بعض الصيغ الأولية، تبقى كلها خاضعة لإعادة النظر والمراجعة والضغط، ثم مفاوضة الأطراف جميعاً مرة واثنتين، وفي النهاية، وغالباً ما يحدث ذلك، تعلّق مرة أخرى المفاوضات، ريثما تدرس من جديد، أو يتهيأ الوقت المناسب، أو تتوافر بعض الشروط.

كانا يسيران على أرض بدأ نباتها يخضر نتيجة المطر المبكر، وكانت تعد بربيع خصب، خلافاً لسنوات سابقة، خاصة بعد أن تتابعت الأمطار، ورافقتها ريح جنوبية مشبعة برائحة أمطار جديدة. والسلطان الذي اختار هذا المكان، وهذا الوقت من النهار، كان يشعر أنه هنا أقدر على الوصول

إلى موقف يطمئن إليه، خلافاً لفترة سابقة، حين كان يفضل الليل. لقد تذكر كلمات عنان بسيوني وهما يتناقشان ويتساءلان حول احتمالات المستقبل، وكيف أن غياب هاملتون ثم دنيس لا يبعث على الطمأنينة. قال له عنان بسيوني: «كل ما كانوا يقولونه، يا طويل العمر، مجرد وعود، وكانوا ينسون في اليوم التالي ما قالوه في الليلة الفائتة، تماماً كما يقال: كلام الليل يمحوه النهار»!

وهاملتون الذي أحس أن السلطان، حين اختار هذا المكان، كان يهدف إلى أن يكونا بعيدين عن أعين الكثيرين، لذلك قرر أن يكون معه صريحاً، وأن يبوح له بأفكاره وهواجسه.

ورغم وجود الكثير من المشاهد التي تستدعي السؤال أو التعليق في المليحة، وفي هذا الوقت بالذات، إلا أن الإِثنين كانا مشدودين إلى عالم داخلي يبعدهما عما حولهما. قال هاملتون بعد فترة صمت غير قصيرة:

ـ لا أريد أن أذكر لك، يا صاحب الجلالة، المصاعب والمشاكل التي واجهتنا خلال الشهور الماضية، ربما يكون سمو الأمير فنر قد شهد بعضها، وحدثك عنها، لكن بعد سفره، وبعد كثير من المؤتمرات والاتصالات، ومع جهات متعددة، بدا لي أنه من المستحيل الوصول إلى نتائج.. بل وأكثر من ذلك، كنت أفكر أن أطوي أوراقي وأقرر واحداً من أمرين: أما البقاء هناك دون التفكير نهائياً بالعودة إلى هنا، أو أن اتخذ قراراً معاكساً...

ولما بدت الجملة الأخيرة غير واضحة تماماً، خاصة وأن رافقتها ابتسامة من هاملتون، فقد تطلع إليه السلطان وانتظر بقلق. تابع هاملتون بلهجة مرحة:

ـ طبيعي إذا كنتم تقبلون أن أكون ضيفكم، وإذا كان وجودي هنا مفيداً لكم.

ضحك السلطان وتطلع إلى البعيد، تابع هاملتون بلهجته الأولى:

ـ لا أنكر، يا صاحب الجلالة، أننا توصلنا إلى بعض النتائج المهمة،

لكنها دون ما كنا نريد أو نتمنى. ورغم الجهود، والانتظار، فقد تأكدت أن هذا هو أقصى ما نستطيع الوصول إليه.

وتغيرت النبرة، أصبحت محايدة:

ـ هذا ما استطعت الوصول إليه شخصياً وتبقى الأمور مرتبطة بالمفاوضات التي ستجري هنا، وأرى أن تتشددوا، وأن تحاولوا بكل ما تستطيعون من الجهد والقوة لكي تقنعوهم لتقديم تنازلات إضافية.

وخلال بضع ساعات، وهما يسيران، وهما يجلسان قريباً من العين، أو يتوسدان الرمل، شرح هاملتون للسلطان، أن الظروف في المرحلة الحالية، اختلفت كثيراً عن السابق، قبل سنتين أو ثلاث سنوات. فالمرحلة الجديدة أخذت صيغتها شبه النهائية، ولم يبق إلا أن ترتب الأمور هنا وهناك، وأن توقع الاتفاقات.

ورغم وضوح الكلمات ودقتها، وفهم معانيها، إلا أن الصورة، مع ذلك، لم تكن واضحة. فالمشاكل التي تعاني منها السلطنة كثيرة ومتداخلة. والإنكليز ليسوا بعيدين عن معظم هذه المشاكل، بل أكثر من ذلك، كان يحس السلطان أنهم وراءها. والآن لا يعرف كيف يفاوضهم، أو كيف يتفق معهم.

قال السلطان بعد أحاديث متنوعة:

ـ اللي قلته، يا الصاحب، مفهوم، وعلى الراس والعين، بس أريدك تعلمني: جماعتك، هناك، بعدهم يريدّونا أو تغيروا صار هواهم صوب ثاني؟

ـ بكل تأكيد يريدونكم، يا صاحب الجلالة.

ـ بس أشوفهم حاطين رجل بالسهل ورجل بالوعر... يا الصاحب.

ولم يفهم هاملتون ما عناه السلطان، سأل بلهجة بدوية:

ـ سم يا طويل العمر؟

ـ أقول: كل ما وصلنا تقولون: على مهلكم، يواش يواش، وكل ما تسالمنا وقلنا اتفقنا يقولون: خلنا نفكر، وكأنهم مراهنين على غيرنا...

لم يعلق هاملتون. كان يريد من السلطان أن يتابع، أن يقول كل ما عنده. تنحنح السلطان، جلا صوته، وأضاف، فجاء صوته من الصدر:

ـ حنا من سنين كنا طالبين رأس ابن ماضي، يا الصاحب، وكنا قادرين عليه بس كل ما شدينا تحوشونا عنه، تقولون ما يصير، وحنا نعض على جروحنا ونسكت. وراح يوم وجا الثاني، وشفتم شلون صار، وما وافقتم معنا إلا بعد شلعان القلب...

واستدار السلطان لكي ينظر إلى عيني هاملتون:

ـ ما هو بس كذا.. هالحين، ابن ماضي، بلياكم، وحده، وبدون معونتكم، ما يقدر يسوي شيء. وما ندري نغير عليه، ونطارده، أو نخليه يحرّ الديرة ويسوي اللي ما يتسوى!

قال هاملتون باستعجال ورد فعل:

ـ أظن أن مسألة ابن ماضي منتهية، يا صاحب الجلالة، ويمكن أن تطوى، فقط تحتاج إلى أمرين: الأول أن لا تقترب السلطنة من أصدقاء بريطانيا، ألا تطمع ببلدانهم، وأن لا تهددهم أو تزعجهم، والثاني، أن يتم الاتفاق بين السلطنة وبريطانيا، وأن يتحدد هذا الاتفاق على شكل معاهدة...

وتغيرت لهجته، سأل وكأنه تذكر الأمر عرضاً:

ـ لم أسمع من جلالتكم وجهة نظركم بخصوص المعاهدة التي حملها سمو الأمير فنر؟

وخلال أسابيع من التفكير والاستعداد، وبعد أن بعث السلطان إلى الحويزة والعوالي عدداً من رجاله المباشرين، لكي يطلعوا على الأوضاع هناك، ويتقصوا الأخبار بدقة، وبعد أن قلّب الأمور وسأل الكثيرين رأيهم بالمعاهدة، والموقف الذي يجب أن يتخذه، والمطالب التي يجب أن يطالب بها، وصل إلى الطريفة وليم بتلر.

لقد سبق للسلطان أن التقى بتلر عدة مرات، وكانت تربطهما علاقة أقرب إلى المودة والصداقة، أو بالأحرى هذه هي عواطف السلطان. فهذا

العسكري الذي خاض حروباً عديدة، وعاش في أماكن كثيرة، اكتسب، بالإضافة إلى اللون البرونزي، طباع البلدان التي عاش فيها، وقدرة على التفاهم مع الآخرين. يتذكر السلطان أن المفاوضات التي جرت بينهما، أكثر من مرة، جرت في الهواء الطلق، وفي جو من الحفاوة والمودة والتفاعل، وقد ساهم بتلر ذاته في خلق هذا الجو، ثم في الوصول إلى النتائج.

الآن وقد وصل بتلر إلى الطريفة، كان يفكر أن يواصل سفره إلى موران، وأن يلتقي بالسلطان هناك، لكن السلطان، بمجرد أن عرف بوصوله، بعث إليه يخبره أنه متوجه إلى العوالي، ويقترح عليه أن يلتقيا في عين دامة أو عين بنات، وأبلغ عنان بسيوني، الذي حمل الرسالة والاقتراح، أن يؤكد على أن يكون اللقاء في أحد هذين المكانين.

الذين شهروا لقاء الإثنين في عين بنات، وقد وصل السلطان قبل ضيفه بيوم، يقولون إن مشهداً مثل هذا لا يقع إلا في الصحراء، وبين فرسان حقيقيين.

فبتلر الذي وصل إلى عين دامة بالسيارة عند العصر، هيأ نفسه لأن ينتقل من هناك إلى عين بنات على ظهر جواد، والمسافة بين المكانين لا تتجاوز العشرين كيلومتراً، لكنه يريد أن يقطعها بموكب يليق بالفرسان، وأن يستمتع بالطبيعة أيضاً. ولذلك هيأ نفسه للانتقال في الصباح الباكر من اليوم التالي. ولأن الأمر أعد سلفاً، فقد جُهزت الخيول في عين دامة قبل أيام، وهيئ الموكب، بمن فيه نافخ البوق وضارب الطبل، إضافة إلى المرافقين والحرس، والحاشية، وكان ضمن الموكب أيضاً القنصل وعدد من العاملين معه.

ولأن عنان بسيوني وآخرين انتقلوا بين عين دامة وعين بنات عدة مرات، وقد استعملوا السيارات في انتقالهم، فقد تم الاتفاق على الكثير من التفاصيل، بما فيها مكان التقاء الفارسين، وتوقيت وصولهما، وما يتطلب لذلك من الاحتفال والتعبير عن الاهتمام والحفاوة.

على مسافة مائة متر من الظهرة، حيث تتفرع التلال هناك، لتشكل فيما

وراءها مجموعة من الأودية، وحيث تنبسط الأرض انبساطاً طلقاً، حتى تبدو مثل منصة، تشرف على التلال من ناحية، وعلى الأودية وتشعباتها من ناحية ثانية، التقى بتلر والسلطان.

وصل السلطان إلى الظهرة قبل بتلر بنصف ساعة، باعتبار أن عين بنات لا تبعد إلا مئات الأمتار، ومع أن المسافة قريبة، فقد ركب إليها واحداً من أهم جياده، ولأنه المضيف، فقد تعمد أن يكون هناك قبل وصول ضيفه.

بتلر وصل بالموعد المحدد. ترجل عن جواده قبل مسافة مناسبة. توقف للحظات، عدل ملابسه وقبعته الفلينية المقاومة للشمس، ثم سار بخطوات واثقة قوية باتجاه السلطان، وسار السلطان باتجاهه. التقيا في منتصف المسافة، تعانقا طويلاً وشد الواحد على يد الآخر، وكانت يد كل منهما تطوق كتف الآخر، وقد ترافق ذلك مع صيحات البوق، وصهيل الجياد، وضربات الطبل، وبعض طلقات في الهواء.

كان لقاء مؤثراً حافلاً إلى أقصى حد، وكأنه مشهد تمثيلي يجري في هذا المدى الرحب اللامتناهي. ورغم أن أغلب التفاصيل قد تم الاتفاق عليها، وحضرت بعناية، فإن المشهد، مع ذلك، تجاوز التمثيل أو المظاهر. الذين شهدوا تلك اللحظة قالوا إن الرجلين أكبر من تحضير الآخرين وأقدر. فالسلطان الذي أراد أن يقود ضيفه إلى نهاية الظهرة، لكي تكون البداية، المرور فوق أنهار الدماء، حيث حُضرّت عشرات الخراف، وكان في الوسط كبش كبير، وقد اقترح يونس شاهين أن يذبح في نفس الوقت، وأن يمر السلطان وضيفه في الوسط... أن هذه اللحظة التي تهيأت بعناية كبيرة، واستعد لها الكثيرون تم تأخيرها، لأن بتلر أحب أن يلقي نظرة على الأودية، وقد استجاب السلطان بمودة وتلقائية، ولأنهما توقفا هناك فترة أطول مما كان متوقعاً، فإن أخطاء كثيرة وقعت في المراحل اللاحقة. فقد أشعلت أعواد البخور مبكراً، وضرب حاملو الطبول الخلفيون طبولهم، وتهيأ الذين يصبون القهوة، في الوقت الذي كان السلطان وضيفه بعيدين عند الظهرة!

أما كيف تقدم السلطان ويتلر بعد ذلك، وكيف أفلت رأس أو اثنان من الغنم المعدة للذبح، بعد أن حصل التأخر، وتراخى الذابحون، وكيف تم تدارك حصان أفلت فجأة، وربما جفل من منظر الذبح أو لون الدم، ثم كيف تجنب بتلر الدماء فدار حول الذبائح، وشاركه السلطان، وقد تشاءم من ذلك مهيوب، وأبلغ السلطان في اليوم التالي، وغير هذه من الأمور. . . أن كل تلك التفاصيل التي راقبها الحرس والخدم، وتناقلوها فيما بينهم أول الأمر، ثم انتقلت إلى المرافقين، وقيل إنها وصلت إلى مستويات أعلى، لا تغيّر ولا تقلل من جو الاحتفال والاهتمام في ظهيرة ذلك اليوم من أيام الشتاء الدافئة، في عين بنات، ذلك المكان الذي كان يشكل ملتقى التلال بالأودية، وكان أيضاً نقطة فاصلة، أو بالأحرى علامة من العلامات، بين موران والعوالي. ومن هناك كانت تفترق الطرق أو تلتقي.

لماذا اختار السلطان هذا المكان بالذات؟ وهل كان يعني شيئاً أو موقفاً؟

لقد احتار المؤرخون، فيما بعد، كثيراً، بهذه التفاصيل، وفسروها تفسيرات لا نهاية لها! طبيعي لا يمكن الوقوف عند كل ما قيل عن الأسباب، لكن ما لفت النظر أن المكان يقع بين العوالي وموران، ويطل على الجبال والأودية أيضاً، وقد فهم من ذلك أن السلطان مستعد للاحتمالين، معاً، وأنه قادر عليهما أيضاً!

أما الذي دعا السلطان لأن يأتي بحصانه الأدهم، وهل كان إنذاراً لبتلر أو شوقاً يتوقعه نتيجة هذا اللقاء، فلم يستطع أحد أن يكون متأكداً. علماً بأن السلطان في الكثير من المعارك التي خاضها، وفي اللحظات الحاسمة، أثناء دخول مدينة، أو تقبل استسلام قائد من القادة المعادين، كان يركب فرسه المحببة إلى قلبه، كان يركب الصبحة لأنه يتفاءل بها.

وبعد ذلك. . . ما الذي دعا بتلر إلى تجنب المرور فوق دماء الخراف التي نحرت؟ هل لنفور بضع الخيول، أو لإيقاد أعواد البخور في وقت مبكر، دلالات أو تفسير؟

وأن يتم اللقاء بين السلطان وبتلر يوم الاثنين، هل هو أمر عرضي أو مقصود؟ بعض حرس السلطان يؤكد، اعتماداً على حالات مشابهة، أن السلطان تعمد أن يكون اللقاء في ذلك اليوم بالذات. طبيعي يبقى هذا مجرد تقدير لما يحتمل أن يكون السلطان قد أضمره، مع إشارة أنه حين بعث يخبر بتلر أنه سيكون في عين بنات، قال لعنان بسيوني، ثم لرسول آخر تبعه في اليوم التالي، وبتأكيد لفت النظر، ولكي لا يترك التباساً من أي نوع، أن اللقاء سيكون يوم الإِثنين. ربما لأن هذا اليوم يرتبط بذاكرته بما سمعه من جدته حول بركة هذا اليوم.

ومما عزز هذه التفسيرات أن السلطان يتفاءل برؤية الهلال، وحين يكتمل القمر، إذ يعتبر ذلك من حسن الطالع. وأن يصادف لقاؤه الآن: القمر يوشك أن يكتمل بعد يوم أو اثنين، فقد جعل ذلك بعض المرافقين والمستشارين في حالة من الغبطة أقرب إلى الخفة. أما السلطان ذاته فقد مازح عدداً من الحرس، ووقف معهم أكثر مما يقف عادة، ونبههم أن يكونوا أكثر حرصاً «لأن الضيف غالٍ علينا، وحنا بالعوالي ما هو بموران».

اللقاءات الأولى كانت احتفالية، فقد تبادل السلطان وضيفه الزيارات، وتخلل هذه الزيارات أحاديث وذكريات، وقد شارك فيها الكثيرون. أما يوم الثلاثاء، فقد كان اللقاء في الخيمة الكبيرة، ولم يحضره سوى عدد محدود من المستشارين، وكان هاملتون يترجم.

في هذا اليوم ذكر أكثر من واحد أن الدنيا اسودت، والمطر انهمر قوياً مدراراً، كما لم يروه من قبل. كان يسقط على الخيمة الكبيرة مثل الحجارة، والرجال داخل الخيمة يتناقشون بحدة، كأنهم القطط في شباط. وقد روى يونس شاهين فيما بعد، أن بتلر في مرحلة معينة قال: لا، فرد عليه السلطان: قتلتني، ولا يمكن أن أقبل. قال بتلر: هذا كل شيء، ولا أستطيع أن أتقدم معك خطوة واحدة. قال السلطان: أخذت نصف مملكتي وجعلتني الآن عارياً أمام رعيتي، ولا أعرف كيف أقابل الناس أو كيف أنظر إلى وجوههم. وكاد بتلر أن يرد على السلطان، لكنه فجأة توقف. فدموع السلطان كانت تتساقط على وجنتيه بغزارة، وكانت تنصب على

لحيته، ولا يعرف كيف يوقف دموعه أو كيف يتصرف. وبتلر الذي كان صلباً مثل صخرة، وكان يريد أن يصل إلى النتائج التي حددها سلفاً، وكانت خارطة قد فردت على طاولة كبيرة، وقد تبادل الاثنان، وتبادل الآخرون النظر إلى هذا الجسد الميت، غير المفهوم، وغير الواضح، لكن فجأة، وحين رأى بتلر دموع السلطان وانفعاله، وتأكد في لحظة من اللحظات أن السلطان سوف يغادر الخيمة، وسوف يركب حصانه ويأمر حاشيته أن تتبعه. في تلك اللحظة، «وهي لحظة ضعف مجنونة» كما وصفها بتلر في وقت لاحق، اضطر، أو وجد نفسه مضطراً، لكي يستجيب لبعض مطالب السلطان، أو أن يرضيه.

ومثل ما يحصل في لحظات الضعف، أو في لحظات القوة، ورغم أن بتلر قال كلمة اعتبرها واضحة وكاملة ونهائية، فإن القلم الأحمر الذي كان يحمله في يده، وكان يشير به أغلب الأحيان ليوضح أكثر مما يكتب أو يؤشر، في تلك اللحظة صدرت عن بتلر كلمة حادة، وقد ترجمها هاملتون. قال مخاطباً السلطان بنزق أقرب إلى الضعف، وأكد ثلاثة من المستشارين وخمسة من الخدم أنهم رأوا دموعاً على خده، وقد مسحها بسرعة وغضب:

ـ إسمع.. ويجب أن تسمع ذلك جيداً يا صاحب الجلالة: إنني إذا أخذت منك في هذا المكان فإنما أعطيك هنا.

وأشّر بالقلم الأحمر. كانت الإِشارة كبيرة أقرب إلى الدائرة، أو إلى البالون، وكانت في الجهة المقابلة، مما كان يعتبره السلطان حدوده ونهاية سلطنته. تطلع السلطان إلى الدائرة، إلى البالون الأحمر الكبير. مسد لحيته، التفت إلى أكثر من ناحية. وقال بطريقة مسرحية:

ـ إسمع يا الصاحب..

ابتسم بحزن، وكانت بقايا الدموع في عينيه وعلى لحيته:

ـ والله وبالله وتالله، لولا معرفتكم، لولا أن الواحد يريد يخلص، ما كنت أقبل، لكن ما يخالف...

وابتسم أكثر، ثم أضاف:

ـ ويلزم تعرف يا الصاحب: إنكم إذا غبنتونا هذه المرة لكن لا بد تعوضون علينا، وهذا دوم يحصل بين الأخوان والشركا!

هذه الليلة، وكان البدر قد اكتمل، تحولت في أعين، ثم في ذاكرة، كل من شهدها، كل من كان موجوداً، إلى شيء خارق، ولم ينسها أي من الذين كانوا في عين بنات...

بعض المؤرخين الذين زاروا المنطقة في وقت متأخر، قالوا إن الريح حين تهب في هذه الفترة من السنة، تكون مفعمة بروائح زكية نفاذة، تسلب الإنسان وعيه، وتجعله أقرب إلى الخدر، وهي تؤثر على المخلوقات كلها، خاصة إذا كان القمر بدراً. أما الحيوانات فإنها تصبح عصبية وأقرب إلى الهياج.

وقالت بعثة أميركية زارت عين بنات، بعد سنوات عديدة، أن الكواكب، في هذا المكان، وخاصة حين يكون القمر بدراً، تولد طاقة كهرومغناطيسية قوية ومؤثرة، وقد قاسوا المسافة بين التلال وفتحة الوادي، وقاسوا المسافات بين الفتحات ذاتها، ووضعوا علامات لقياس ارتفاع المياه، وقذفوا حبلاً برأسه كرة معدنية في العين ليعرفوا أين تصل، وأخيراً قالوا إن كل ما حصلوا عليه من معلومات لا بد أن يبعثوا به إلى المختبر لكي يحللوه، لأنهم لا يستطيعون أن يفسروا بعض الظواهر، ولم يُحك بعد ذلك عن هذه الأمور!

عرف هاملتون بوفاة زوجة الأمير فنر خلال الفترة الأخيرة من إقامته بلندن. شعر بأسى لدى سماعه الخبر. قال في نفسه: «الموت هو الحارس الأمين والدائم، الذي لا يفارق الإِنسان، وهو الوحيد الذي لا يتخلى عن مهمته، ولا يتعب منها، لكن من حسن حظ هؤلاء البدو، أنهم يختلفون عنا. نحن نعيش الحياة كلها وهذا الهاجس لا يفارقنا، حتى في أمتع لحظات حياتنا، أما هم فإنهم لا يتذكرونه، مهما اقترب منهم. أكثر من ذلك يريدون أن يتجاوزوه بسرعة، لكي يستقبلوا الحياة الأبدية، التي لا تعرف الموت أبداً».

ورغم أنه حاول تخفيف أثر الصدمة، من خلال هذا التفسير، إلا أنه وجد نفسه يحزن على فنر، وفي لحظات معينة اعتبر أن الأمر غير منطقي أبداً، خاصة بالنسبة لامرأة في عمر الزهور، كما يقولون، وبالنسبة لشاب يريد أن يبدأ الحياة بقوة وعنفوان.

حين ذهب ليودع المس ماركو أبلغها الخبر. قالت وهي تشهق:

ـ عجيب أمر هؤلاء الناس، أنهم يولدون، ويتزوجون.. وأخيراً يموتون، قبل الأوان وبصمت، لماذا يفعلون ذلك؟

لم يكن سؤالها يستدعي الإِجابة، ولم يجب. تابعت كأنها تحدث نفسها:

ـ في أحيان كثيرة لا يعرف الإِنسان أين هو الخطأ، وربما يكون هذا هو أقسى العذاب!

رد هاملتون بانفعال:

ـ وإذا ترافق عدم المعرفة مع الصمت، فعندئذٍ لا يستطيع الإِنسان أن يساعدهم، أن يكون مفيداً لهم.

ـ عزيزي هاملتون، دعني أقل شيئاً محدداً: صحيح أن الحديث عن المشاكل يمكن أن ينسي الإِنسان، وقد يخفف عنه جزئياً ومؤقتاً، لكن حين يعود إلى نفسه، فإن هذه المشاكل، خاصة الموت، تتضاعف، حتى لتغدو بالنسبة له الحقيقة الوحيدة.

رد هاملتون يريد أن يغير الموضوع:

ـ إننا، يا عمتي، نتحدث عما نعيشه، عما نعرفه، وهو شيء خاص بنا نحن، أما بالنسبة للآخرين، فإن لهم أيضاً أفكارهم وطريقتهم في النظر والتفسير.

ـ لكن مع ذلك يبقى الموت هو الموت، ولقد رأيته بنفسي عشرات مرات، مئات المرات، وكان دائماً واحداً.

ـ ولكن هناك نظرات مختلفة، بل ومتعارضة، للشيء الواحد، بما في ذلك الموت.

تنفس بعمق وتابع بنبرة مختلفة:

ـ الموت بالنسبة لنا هو نهاية كل شيء، لا أريد أن أمس معتقداتك، أو أتكلم عما تعتقدينه ما بعد الموت، لكن بالنسبة لهم فإن الحياة هي مجرد محطة، نقطة عبور من حالة إلى أخرى، وهذا ما يعطيهم، بالإِضافة إلى القوة والشجاعة، القدرة على مواجهة الطبيعة والفقر والأحزان وعشرات المصائب الأخرى. إنهم، في بعض الحالات، يتلذذون بما يعانونه، تماماً كما يعاني عندنا بعض الرهبان، يحسون بمتعة نتيجة هذه المعاناة لأنهم يؤملون الكثير بعد أن يجتازوا هذه التجربة القاسية. وكما هو الحال بالنسبة لرجال البحر أو الذين خاضوا الحروب، إذ بعد أن تكتمل التجربة، بعد أن يجتازوها، يمتلؤون بالفخر والكبرياء، لأنها أصبحت تاريخاً ورصيداً معاً، وبعد ذلك يواصلون الحياة ويشعرون بمتعتها، ربما أكثر من قبل.

قالت وهي تقف إلى جانب النافذة، وتنظر إلى الشارع، وربما كانت تتذكر فنر حين رفع إليها يده مودعاً:

ـ يمكن أن نقول أي شيء، لكن، مع ذلك، أعتبر أن العدو والصديق معاً هو الموت، إنه يضع حداً، كما ينبغي الأمر، بالنسبة لأي شيء، وهو، في حالات كثيرة، يخفف الآلام، وأخيراً فإنه النقطة الأخيرة، التي تنهي الانتظار والترقب والتوقع.

في نهاية الزيارة، وبعد أن تحدثا حول أمور أخرى، في محاولة للنسيان، سألته وهو يلبس معطفه ويتهيأ لمغادرتها:

ـ لا أدري فيما إذا كان يتطلب الأمر أن أكتب إليه بضع كلمات، أم تتولى أنت نقل حزني وأسفي، لحزنه وأسفه؟

ـ سأنقل عواطفك يا عمتي، وسوف أشعره بحزننا جميعاً.

ـ أرجو أن تفعل ذلك.

في موران، وبعد أن وصل بساعات، سأل عن فنر، فقيل له إنه في البادية، وقد لا يعود قبل أسابيع. وحين سأل عنه السلطان، أجابه وهو يهز رأسه بأسى:

ـ واللي صار بغيبتك، يا الصاحب، ما تحمله جبال، بس يلزم أن البني آدم يتحمل...

وظل هاملتون صامتاً ينتظر، زفر السلطان وتابع:

ـ والبني آدم، يا الصاحب، إذا شاف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته، والحمد لله، فنر، هالحين أحسن من قبل، شدّ وتماسك، قال لي: يا يوبه أريد القنص، قلت له توكل على الله. وتعرف هالحين الصيد واجد: إذا ضرب له حبريتين ثلاث، وإذا طارد الغزلان، وإذا استراح على عين ماي وانتظر القطا تراه ينسى، وإن شاء الله ما تمر أيام إلا ويرجع لنا فنر اللي نعرفه واللي نريده.

ولأن رحلة فنرة طالت. ولأن المشاكل التي يفترض معالجتها كثيرة، ولا تحتمل التأجيل، فقد انصرف إليها السلطان ومعه هاملتون. كما أجلت موضوعات كثيرة لأن السلطان كان يريد فنر معه في هذه الفترة وهو في

عين بنات، وحين سأل بتلر عن أولاد صاحب الجلالة، وكان يقصد فنر بالدرجة الأولى، لأنه التقى به خلال زيارته الأخيرة إلى لندن، فقد رد عليه السلطان، وهو يتطلع إلى هاملتون:

ـ وتعرف، يا الصاحب، أن البلاد إذا ما كان رجالها يحامون عنها هنا وهنا تراها تضيع، فقلنا لخزعل أنت بهذا المكان، وقلنا لفنر وأنت بهذا المكان، وتراهم هالحين مع رجالهم يدافعون ويحاربون!

بعد أن عاد فنر من رحلة الصيد، تبين لهاملتون أن الأمر تجاوز حده كثيراً، لأن فنر وهو يتحدث عن الحبارى والقطا كان يتحدث بطريقة مهووسة، وكأن ليس في الكون غير هذا الموضوع، قال للسلطان، وقد تخير وقتاً مناسباً لكي يحدثه على انفراد:

ـ . . . وأرى، في الظروف الحالية، ولمصلحة فنر بالذات، أن نسافر . . .

وحين تطلع إليه السلطان بتساؤل، أقرب إلى الاستغراب، تابع:

ـ فنر لم يكن بهذا الشكل من قبل، يا طويل العمر، وكأنه بهذه الطريقة يريد أن ينسى، أن يهرب من المشاكل الأساسية. . . هز رأسه، وكأنه يؤكد ما قاله، وتابع:

ـ إذا أخذ هذا الطريق يمكن أن يصل إلى درجة يقضي عمره كله وراء الحيوانات والطيور، ولذلك من الأفضل أن نجد له طريقاً آخر. عليه مهمات كبيرة يجب أن يقوم بها، ولا بد أن يتحمل مسؤوليتها.

بدا للسلطان كلام هاملتون حكيماً، رد بانفعال:

ـ وبدل اللي راحت نقدر نزوجه ألف، بس أريده يكون معنا، يناظرنا زين، ويقول: ها يا جماعة الخير: تريدون مساعدة تريدون عون؟ أما إذا ظل وحده فتراه راح علينا وراح منا، وما يندري بعدها شنهو اللي يصير!

رد هاملتون بانفعال:

ـ في الكثير من الحالات، يا صاحب الجلالة، الصدمات تعيد خلق الرجال وتصقلهم، شرط أن تواجه هذه الصدمات بعقل وحكمة.

ـ الحق اللي تقوله، يا محروس السلامة.

ـ وأرى، في هذه الفترة بالذات، وبعد أن تم الاتفاق مع حكومة جلالة الملك، أن تبذل الجهود من أجل انتزاع اعتراف الدول لأن اعترافها قوة للسلطنة وجزء من المعركة، ويمكن لفنر أن يلعب دوراً أساسياً في الوصول إلى هذه النتائج.

قبل أن يسافر فنر في رحلته الجديدة، تعمد السلطان أن يقيم مجموعة من الاحتفالات، لكي يعبر عن القوة والنصر، ولكي يواجه دعايات وتحريض ابن ماضي، والذي نشط كثيراً، ولم يترك أحداً إلا وأعلمه أن خريبط باع الديرة كلها، وليس العوالي وحدها، إلى الإِنكليز. ولأن الظروف تحسنت، سواء بوصول المعونات المادية، أو باستمرار سقوط الأمطار، فقد كانت الاحتفالات التي أقيمت، والولائم التي رافقتها، من الفخامة والضخامة إلى درجة لم تترك أحداً إلا واضطرته لأن يتحدث عنها بشكل أو بآخر. وهذا الذي يفعله السلطان لم يكن نابعاً من الرغبة أو الكرم الذي عرف عنه فقط، إذ إن هاملتون قال له وأكد ذلك أكثر من مرة، «أن أهمية الدولة وقوتها لا تدرك ولا تعرف إلا إذا رآها الناس رأي العين، وفي مرحلتها الجديدة والمختلفة عن السابق».

وتذكر السلطان كيف اضطر خلال المرحلة الماضية لأن يتوسّل إلى الناس، ويستدين من الكثيرين، لتأمين حاجاته الضرورية. الآن يريد أن يثبت للقريب والبعيد، للصديق والعدو، أنه تجاوز المصاعب كلها، وأصبح قادراً على أن يفعل كل شيء. ويريد بشكل خاص أن يصفي ما تبقى لابن ماضي من قوة، استعداداً للالتفات إلى الداخل وترتيب وضعه تماماً.

ولكي يصل إلى هذا الهدف وجّه عناية خاصة إلى رجال الدين وشيوخ المساجد، وإلى أولئك الذين يتحدثون كثيراً عن الآخرة، لأن لهؤلاء علاقة وثيقة بالكثيرين، بمن فيهم البدو، ولكي يثبت لهم أنه قادر أن يفعل الكثير من أجلهم.

قال لفنر الذي استعاد شيئاً من نشاطه وبدأ يستعد للسفر:

ـ . . . جماعتنا وحنا نعرفهم: أكثر منهم سوالف عن الآخرة ما تلقى، وأكثر منهم حب للدنيا ما تلقى. يريدون الدنيا والآخرة جميع، لكن ظني أنهم ما يعرفون إلا الدنيا. ناظرهم شلون يأكلون، وناظر عيونهم شلون تُوِجّ إذا جا طاري الحريم. أما إذا جاءت سوالف الطعام فيتلمظون وريقهم يشط.

وضحك السلطان وهو يضيف:

ـ وعندنا، يا وليدي، دواهم: قريشات بالجيب، وتفضلوا يا جماعة الخير، وبالليل عندهم ما ملكت أيمانهم!

وهز رأسه أكثر من مرة وهو يضيف ساخراً:

ـ وإذا رادوا زود يا حلّت البركة: هذا نومي البصرة، وهذا الليمون، وبهم حيل يمصون ريقهم ويتلمظون!

بعد الكثير من الاحتفالات والولائم، في موران والعوالي والحويزة، وأكثر منها هدايا وأعطيات هنا وهناك، سافر فنر وهاملتون، وبدأ السلطان يستعد لمرحلة جديدة.

تعمد السلطان أن يكون عبدالله البخيت ضمن الوفد الذي يسافر مع فنر. لأول مرة، منذ سنين، يجرؤ السلطان على اتخاذ قرار مثل هذا، فابن البخيت ليس شخصاً ضرورياً أو مهّماً فحسب، وإنما لا يمكن الاستغناء عنه، أو استبداله، لأن لا أحد يستطيع أن يكون، بل لا يمكن لعشرة أن يعوضوا عنه. ولأنه كذلك لا يسمح له بأن يمرض، أو أن يغيب أو أن يسافر. حتى عندما أراد الحج، لكي يثبت للذين يشككون بإيمانه وتقواه، أنه مؤمن ويؤدي الواجبات كلها، رفض السلطان. قال له وهو يضحك:

ـ حجك وحدك ما هو مقبول، يا ابن البخيت، يحتاج لك محرم!

وحين تحرك عبدالله البخيت بطريقة معينة، وباعد قليلاً ما بين ساقيه، تابع السلطان وهو يضحك:

ـ هذا كله ما يفيدك، ويلزم تنتظر إلى أن نحج جميع!

أسباب تعلق السلطان بعبدالله البخيت من الكثرة والتنوع إلى درجة أن كل ما يمكن أن يقال أو يفترض صحيح.

الذين سمعوه يحدث السلطان، ومن معه حول غزوات العرب، وما يتعلق بهذه الغزوات من التفاصيل والشعر، وما قيل فيها وعنها، يؤكدون أن ابن البخيت راوية الغزوات، وأن السلطان يحبه ويقدمه لهذا السبب.

والذين سمعوا ابن البخيت يتلو عن ظهر قلب، ما قاله أبو علي القالي في الأمالي، يقولون إن السنوات السبع التي قضاها في الأزهر، والعصي التي تلقاها على رجليه، جعلته يحفظ درسه جيداً!

والذين وافاهم الحظ لكي يكونوا من الربع، أي مجلس السلطان الخاص، وسمعوا ما يرويه ابن البخيت من النكات، يقولون إنه لم يتعلم في مصر سوى البذاءة والنكات الفاضحة. ويؤكدون أكثر من ذلك أن شيخه الأعمى، والذي علمه الصرف والنحو، علمه أكثر من ذلك دروس النساء. بل ويبالغون فيقولون أن وصل به الأمر إلى الاختلاف مع شيخه، لأن الشيخ اكتشف أن تلميذه الفتى تجاوزه كثيراً في هذا الفن، بل أكثر من ذلك راود قطر الندى خدينة الشيخ، وراودته عن نفسها، وظلت هذه المراودة، وما يستتبعها قائمة إلى أن اختلفت قطر الندى مع ابن البخيت فشكته إلى شيخه فطرده الشيخ!

أما الذين يقدرون معرفة ابن البخيت باللغة، بقواعدها، وبصرفها ونحوها، فإنهم مستعدون للشهادة أن الرجل في مصر لم يغادر الأزهر إلى سيدنا الحسين أو إلى الست زينب، وقضى السنوات الطوال في ظلال المسجد، كما هو حال العلماء الأجلاء الأفاضل، إلى أن أتقن اللغة هذا الاتقان.

رجال الدين لا ينظرون إلى عبدالله البخيت بارتياح أو مودة، ليس لأنه لا يعرف، أو لأنه زنديق أو هرطوق، وإنما لأنه يعرف أكثر مما ينبغي، ويعرف أكثر من ذلك كيف يكشف أكاذيبهم وتلفيقاتهم، حين يريد. ليس ذلك فقط، فإنه يحفظ من الآيات والأحاديث والقصص التي تقول أي بشرٍ هم: كيف يأكلون، وكيف يسرقون وكيف يراودون النساء. طبيعي لا يتحدث في هذه الموضوعات إلا في جو آمن وأمام الناس موثوقين. فقبل أن يبدأ، يتلفت مثل ثعلب، ينظر نحو البعيد أول الأمر، إلى المداخل والأبواب، فإذا اطمأن تماماً، يبتسم ثم ينظر إلى الوجوه القريبة، وغالباً نظرة متفحصة ويتساءل:

ـ ها، يا جماعة الخير، حنّا كم واحد ونعرف بعضنا زين، ومثل ما قالوا: الأرض مخبورة والخطئ مشبورة، فإذا أحد غيرنا يسمع الكلام لا بالله ما عندنا شيء نقوله، أما إذا كان بينّا...

ويتبارى الذين يسمعون في التأكيد أن ما سيقوله لن يبرح المكان. عند

ذاك يبدأ، وهو متأكد أن الذي يقال سينقل؛ وقبل نهاية السهرة، وبعد أن يتعب الرجال من الضحك، يقول:

ـ اللسان ما به عظم، فاستروا، يا جماعة الخير لأنه عليه الصلاة والسلام وصّى بالستر.

وتنتقل إلى رجال الدين أغلب القصص التي تروى، لكن بعد أن تموه أو تحرف، في محاولة للتستر على عبدالله البخيت. ولأن أحداً لا يستطيع أن يروي كما يروي هو، إذ يتعمد الإِطالة والتداخل في أغلب الأحيان، فإنه يلجأ إلى إدخال أسماء من الصعب حفظها، أو يطعمها بأبيات من الشعر، فكان ينفي علاقته بالرواية التي تنقل، المنسوبة إليه، فإذا أصروا يقول بما يشبه الغضب:

ـ . . . وإذا تريدون خلنا نذبحها على قبلة. . .

يتطلعون إليه بعيون متسائلة، يتابع دون أن يفارقه الغضب:

ـ أنا أعرف مثل هذه السالفة. . . بس غير سالفتكم، وإذا تريدون. . أقولها وأنتم أحكموا!

في بعض الأحيان يوافقون على أن يسمعوا، وأغلب الأحيان لا يريدون، لأنهم يخافون من قصة جديدة تضاف إلى ما يُروى!

الذين يعرفون ابن البخيت في حالات خاصة، حميمة، يقولون إن أبرز مزاياه صوته. فحين يغني لا أحد يتمالك نفسه أو يبقى عاقلاً. وأكد واحد من خدم السلطان، وقد قال هذا الكلام في لحظة انفعال، أن «ابن البخيت إذا غنى تسقط الحوامل وتحمل العواقر ويرمي السلطان عقاله». ويبدو أن هذا الخادم سمع جزءاً من هذا التعليق في إحدى السهرات الخاصة، ورأى مرة السلطان مأخوذاً منفعلاً، وربما رمى عقاله أيضاً!

الذين لا يحبون الغناء، ولا يطربون إلا لتجويد القرآن، يحبون قراءة ابن البخيت، رغم اللكنة المصرية والإِطالة، ويبررون محبتهم «أن مخارج الحروف عند ابن البخيت واضحة وليس كما عند المصريين بغنُّة وإدغام».

أما لماذا سافر عبدالله البخيت إلى مصر، وكم من السنين قضى هناك، ولماذا رجع، فحول ذلك من القصص الكثير الكثير.

في كل مرة يسأله السلطان لماذا سافر إلى مصر يرد بضيق:

ـ دائماً لقمة اليتيم كبيرة يا طويل العمر!

وحين يلح السلطان بالسؤال يلتفت إلى الآخرين ويقول:

ـ ما ينراد لها سؤال. يا جماعة الخير، قال عليه الصلاة والسلام: أطلبوا العلم ولو في الصين، فإذا راح العبد الفقير لمصر كبيرة عليه؟

فإذا لم تعجب الإِجابة السلطان، وظهر على وجهه عدم التصديق، يتابع وهو يتطلع إليه من جديد:

ـ الحقيقة، يا طويل العمر، وهذا الكلام بينّا، رحت بنيّة أرجع مع رعية غنم من طريق قنطرة شرق وغزة. رحت متسبب، لكن اللي يصل مصر ما هو مثل اللي يطلع منها. سنة بعد سنة أسوّف بالرجعة، وكل يوم أقول: باكر أو اللي عقبه، ومرت السنين، والله، سبحانه وتعالى، سادّها بوجهي. والجماعة هناك يقولون: أدرس، تعلم صنعة يا ابن الحلال تأمن الفقر، لكن ما سمعت كلامهم، ومثل ما تشوف عيونكم: لا رجعت بغنم ولا رجعت بصنعة، رجعت أهفي: ثوبي وعباتي...

ويضحك، وحين يضحك تتغير ملامحه، يصبح كتلة من المرح والنغم، فإذا هدأ أضاف:

ـ وإذا كانت اليد قصيرة وما بها حيلة، قلنا نشوف غير اليد، دوّرنا هنا... هنا، ما طلع إلا...

يتوقف فجأة، يتلفت أكثر من مرة، متظاهراً، بالتردد والخوف، ثم يضيف بنبرة جديدة:

ـ أي نعم ما طلع معنا إلا هاللسان، وهذا اللي رجعنا به.

وظلت الروايات حول سفره كثيرة ومتناقضة، فالذين يحبونه يميلون إلى اعتبار سفره إلى مصر خيراً وبركة «لإنه تعلم العلوم كلها، واللي ما يصدق، هذا الميدان يا حديدان». أمّا الذين يكرهونه أو يخافون منه أو من لسانه، فإنهم يؤكدون أن مصر علمته البذاءة والسفاهة وسلاطة اللسان وشرب الحشيش، ويستشهدون على ذلك بأنه ينام إلى الضحى، وأن

عينيه، خاصة حين يفيق، مثل عرف الديك، كما أنه لم يتزوج رغم تقدمه في العمر!

أما من أي القبائل، أو أي الأماكن عبدالله البخيت، فإن موران التي لا تتسامح بأنسابها، فقد تسامحت معه، لأنه حين سئل أول مرة، أو بأكثر دقة، في بداية علاقته بحاشية السلطان، أجاب: تميمي. وهذا الجواب، رغم وضوحه، يعني أحد أمرين: أنه فعلاً من تميم، وهذا مقبول؛ أو كما يقول البدو عادة: من ضيع نسبه قال: أنا تميمي؛ وهكذا ووفق على أنه من تميم، ولم يتقصَّ أحد نسبه، كما أنه لم يكن ميالاً لأن يتحدث في الأمر. وانتهى إلى أنه من هناك.

العجرمي الذي يناطح الغمام حين لا يجد أحداً يناطحه، لما سمع ما يقوله عبدالله البخيت أو ما ينقل عنه في أمور الدين، سأل باستنكار: «قلتم لي ابن البخيت؟ وقلتم إنه تميمي؟ شوفوا.. هذي مورانا، وانقلوا هذا الكلام عن لساني: إذا راح للهند أو للسند، إذا راح لمصر أو ردّ من مصر، هذا دين محمد، ما أحد يقدر يقول فلاني وتركاني، وحنا أهل الدين وأدرى بأموره، مثل ما هم أهل مكة أدرى بشعابها فلا يتدخل ولا يقترب.

وابن البخيت، قال وكذلك السلطان. «العجرمي أب للجميع وأبد لا يُفتى ومالك في المدينة» فلما سمع العجرمي ما قاله ابن البخيت وما نقل عن السلطان، قال وهو يبتسم: «ومثل ما قلت لكم، يا جماعة الخير، الناس اللي يفهمون، المتعلمين، اللي راحوا وشافوا، أبد ما يتعدون». واعتبرت هذه الجوانب مصالحة ورضا. وقد أرسل السلطان للعجرمي هدايا عديدة للتكريم، أما عبدالله البخيت فقد زاره ثلاث مرات خلال أسبوعين، وخلال الزيارات الثلاث ظل مستمعاً وسائلاً أكثر من أي شيء آخر. وهذا أدى إلى علاقة ودية بين الاثنين، خلافاً لعلاقته مع رجال الدين الآخرين.

هذا كله بعض عبدالله البخيت، ولذلك أصبح يعرفه القريب والبعيد، وتأكدت المعرفة وتكرست، بعد القصة التي حصلت في حملة وادي

الفيض، فأثناء معركة الحويزة، وحين اكتشف السلطان محاولة لاغتياله، بدّل حرسه الخاص، وشدد عليهم في التدقيق والانتباه. وصدف في اليوم الأول أن جاء ابن البخيت يريد الدخول على السلطان فمنعه الحرس. قال لهم بصوت أبوي:

ـ يا أولاد الحلال، أنا ابن البخيت، ويسموني أبو بادي، ويلزم تعرفوني، إذا موكلكم واحد منكم، أما اذا ما عرفتم ابن البخيت، أبو بادي، فلا كنتم ولا كان سلطانكم!

وحين احمرت عيونهم ونحّوه بقوة. وقالوا له:

ـ دونك مهيوب شوفه واطلب الأمر منه.

رد وهو يضحك:

ـ أنا أطلب السماح من مهيوب؟ مجانين أنتم؟ ضحك وتغيرت نبرة الصوت:

ـ يا أولاد الحلال، أخير لكم تعرفون عمكم، أنا عبدالله البخيت، وخاف، إذا ما عرفتوني، باكر تندمون!

صرخ أصغر الحرس وأكثرهم حركة وعصبية:

ـ الزم حدك ورح شف مهيوب، وخله يعطيك كلمة السر أو وريقة عليها ختمه، وإلا سنعناك إذا طلبت بهذا المكان!

رد عبدالله البخيت بهدوء وبغيظ معاً:

ـ اسمع يا وليدي، أنا شيبة مثل أبوك، أنت جديد، وطويل العمر يريد ناس يحمونه ما يريد ناس يتحامون به، فقل لمهيوب: عمي عبدالله، أبو بادي، وصل.

قال كبير الحرس:

ـ الظاهر أن جلدك يحكك يا ولد، والأحسن أن تتركنا وإلا...

صرخ عبدالله البخيت:

ـ يا أبو منصور، يا غيرة الدنيا والدين إذا ما ردتنا فأرض الله واسعة وهذا حدنا وياك.

تناقل كل الذين كانوا، أو وصلوا على سماع الصوت، أن السلطان ذاته خرج إليه، وحين عرف ما حصل بينه وبين الحرس قال كلمة ترددت كثيراً فيما بعد:

ـ اللي ما يعرف ابن البخيت ما يعرف السلطان، وأريد من كل واحد منكم يعرفه مثل ما يعرف وجهه، وأبو بادي ما يقف بينه وبيني حارس أو بواب.

قال مهيوب في اليوم التالي:

ـ . . . وهذا الصغير، اللي بعده يرضع حليب أمه، واللي ما عرف شيخنا عبدالله البخيت، قلنا له: اتوكل على الله يا ولد، اسرح بالغنم أو دوّر لك ديرة ثانية، لأنا نريد ناس يعرفون العدو من الصديق.

ومن الهوايات الأخرى التي يمارسها عبدالله البخيت خفية، ولا يعرفها إلا أقرب الأصدقاء، وأكثرهم به التصاقاً: الفراسة وقصّ الأثر. ولأنه لا يزال يتعلم، وغير واثق من فراسته تماماً، خاصة بالقادة العسكريين وشيوخ القبائل الذين يحيطون بالسلطان، فإنه ينفي أية معرفة بالفراسة، بل ويسخر ممن يفترض فيه مثل هذه المعرفة!

أما قص الأثر فقد عرف عنه لأنه اكتشف ذات يوم بطل قصة حدثت في قصر الروض، وخيّرت القصر كله. فأثناء حملة وادي الفيض، ولأن السلطان غاب سنة أو تزيد في هذه الحملة، فقد وجد، عندما عاد، أن واحدة من أحب محظياته إلى نفسه، يمامة، حاملاً في شهرها الخامس. غضب السلطان وهدد وتوعد، ولما حاول أن يعرف من يكون أب الجنين، أقسمت يمامة وبكت أنها لم تلتق برجل. ورغم المحاولات التي بذلت معها لكي تعترف، فأقصى ما قالته وما تتذكره أن عفريتاً اسود دخل فيها، وكانت نائمة. إذ فجأة وجدت بطنها تمتلئ، وعندما هبت خائفة من نومها، أحست بثعبان أسود يخرج من بين رجليها وينساب. تطلع إليها لحظة واحدة، وضحك، ثم ترك الغرفة. هكذا روت القصة لقابلة القصر، وهكذا روتها القابلة. أما حين روتها بنفسها للسلطان، فقد روتها بتفاصيل أكثر، قالت، وكان ابن البخيت يسمع:

ـ كنت نايمة، يا سيدي. كنت بسابع نومة، ما شفت وما حسيت إلا وبطني امتلأ، وأن شيء دخل، وظل يزحف حتى وصل من هنا إلى هنا، وأشارت إلى ما بين ساقيها وحتى الرقبة. خفت أصرخ أو أتحرك، ظليت بمكاني. وبعد سويعة حسيت أن هذا الشيء يريد يطلع، قلت لروحي: خليه يا بنت يطلع، تركته يطلع، ما تحركت إلى أن طلع كله، شوي وعلقت النور. . وأشوف ذاك العربيد الأسود عند الباب، الله لا يراويك مثله يا سيدي، وعند ذاك عرفت أن العفريت ركبني.

ظلت يمامة مصرة على هذه الرواية، لا تغير فيها إلا أجزاء صغيرة.

قال عبدالله البخيت للسلطان، وغمز بعينه:

ـ أي نعم، يا طويل العمر، العفاريت في الظلمة تسرح تمرح إذا ما انقرأ في البيت سورة ياسين.

بعد بضعة أيام اكتشف عبدالله البخيت العفريت: كان جدوع التكروني، سياف السلطان.

أما كيف عرف ابن البخيت فهناك ثلاث روايات على الأقل:

الأولى تقول إنه جلب ثعباناً وطلب من يمامة أن تريه كيف دخل وكيف خرج؛ والثانية تقول إن لولوة، خادمة الأميرة وطفة، وكانت صديقة يمامة، لكنهما اختصمتا، أبلغت ابن البخيت أو السلطان. أما الرواية الأخيرة فتقول، إن عبدالله البخيت سكت على الموضوع أسبوعاً كاملاً، إلى أن نسي أو كاد. وتخيّر ليلة ليس فيها قمر، ورش كمية من الطحين من باب غرفة يمامة حتى مهاجع الحرس، ويبالغ بعض الخدم فيقول إنه رش شوالاً كاملاً، وهذا ما هداه إلى جدوع التكروني، لأن الآثار بين غرفة يمامة والمكان الذي خرج منه جدوع كانت واضحة!

خلال اليومين اللاحقين، وإلى أن اختير سياف جديد، واستكمل التحقيق مع يمامة، قبل قتلها وجدوع، انتشرت إشاعة بين الخدم، وقد أخافتهم كثيراً، أن عبدالله البخيت مرّي وليس تميمياً، لأن لا أحد يقصّ الأثر بهذه القدرة أو الكفاءة إلا بنو مُرّة، وكل التمويه الذي لجأ إليه كان باتفاق وتدبير بينه وبين السلطان، ليعرف ما يدور في القصر! ولذلك

خرجت في هذه الفترة مسروقات كثيرة، كان قد مضى عليها شهور. وقد رميت في أماكن واضحة، وأثارت الاستغراب والتساؤل!

بعد هذه الحادثة بعدة شهور سرت شائعة، لم يعرف مصدرها ومن أشاعها، وكان البخيت والسلطان في رحلة قنص، تقول إن ابن البخيت كان في مصر نشالاً معروفاً، وقد قضى في السجن هناك خمس سنين أو ستاً، وبعد أن انتهى سجنه طرد ومنع من العودة، وتفصّل الإشاعة، فتقول، إن النشالين من الذكاء والبراعة، بحيث يختارون ضحاياهم من المغفلين والغرباء بعناية واتقان. وهذا لا يكون إلا نتيجة التعليم والتدريب، تماماً مثل العلوم الأخرى! ويختمون القصة: أن ابن البخيت قضى في مصر سبع سنين، تعلم خلال الشهور الأولى النشل، ومارسه في الشهور التالية، إلى أن قبض عليه وسجن، وبعد انتهاء مدة سجنه طردوه فجاء إلى موران وأصبح من خدم السلطان!

القصص التي تروى عن عبدالله البخيت، غريبة ومضحكة، وهي من الكثرة والتناقض إلى درجة أن شيخ الصاغة قال يوماً:

ـ إذا كتبت مذكراتي، ذات يوم، وهذا شيء غير مستبعد، فأخشى أن يحتل عبدالله البخيت في هذه المذكرات مساحة تفوق ما يحتله السلطان!

وبعد فترة صمت أضاف:

ـ . . . وهؤلاء البدو، إذا فلت منهم واحد، فمن الصعب أن يلحق به أحد!

أما عنان بسيوني، والذي يعتبر أن له جذوراً بدوية، فيجد في عبدالله البخيت لقاء بين الذكاء الفطري، المتمثل في صفوة البدو، وبين القدرة على التعلم واكتساب الخبرات، وإمكانية تجاوز أبناء المدن، المترهلين، الكسالى، والذين لا يرون القمر إلا حين يصبح بدراً، والذين لا يميزون بين الحية والحبل!.

تلك العلاقة الخاصة والحميمة التي نشأت بين ابن البخيت وبسيوني، تشبه لقاء اثنين في مكان غريب، أو بين ناس غرباء، ولذلك فإن ما يتولد من هذا اللقاء يكتسب خصوصية ووداً يفوق ما ينشأ في وسط آخر.

قال عنان بسيوني ذات ليلة للسلطان:

ـ لا أريد أن أجاملك، يا صاحب الجلالة، ولا أريد أن امتدح الرجال الذين تعتمد عليهم، ان لهم من الكفاءة، وفيهم من الثقة، ما يجعل الإنسان فخوراً أنه واحد منهم.

والسلطان الذي بدا عليه السرور لسماع هذا الكلام، قال وخرج الكلام عميقاً من صدره:

ـ وقل على نياتكم ترزقون!

رد عنان بمرح:

ـ لقد عرفت في حياتي أشخاصاً كثيرين، أما مثل ابن البخيت فلا يوجد إلا نادراً، إذ بالإِضافة إلى المعرفة، فإن يفيض ذكاء وإنسانية...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ونحن المصريين، إذا كنا نفاخر بالدم الخفيف، فقد تفوق علينا ابن البخيت!

أما لماذا اتخذ السلطان هذا القرار الصعب، بأن يستغني عن عبدالله البخيت، وأن يبعثه بهذه الرحلة، والتي قد تطول، فكان لديه هدفان، الأول، أن يسرّي عن فنر، أن يجعله يعود إلى ما كان عليه، خاصة وأن العلاقة التي تربط الإِثنين يغلب عليها الود، ويمكن لابن البخيت أن يؤثر عليه ويعيده مثلما كان، أو كما قال بنفسه للسلطان:

ـ ... وتستغرب، يا طويل العمر، إذا قلت لك: حتى الحجر يتحرك ويحس، لما يكون مع ابن البخيت!

وحين ابتسم السلطان ونظر إليه، وبعد أن أمال رأسه ونظر بشكل جانبي، ليشعره بالمبالغة، تابع. وكأنه لم يسمع:

ـ ويلزم تسأل الخويا، قبل كم شهر، حين كنا بعين بنات: أنا، بإذني سمعت، وكلهم قالوا، إن الحجر اهتز، والخيل هاجت، والنبع ارتفع لما صحت: أوف.

ولما ضحك السلطان أضاف ابن البخيت:

ـ وما هو بس كذا يا طويل العمر، أنا بزماني سمّعت الأصقى، وحكّيت الموتى، وبمصر سويت اللي ما يتسوى!

قطب السلطان جبينه وقال بجد مصطنع:

ـ وشنهو عندك بعد يا عيسى ابن مريم ويا موسى ابن...

وضحك بقهقهة، وبعد قليل:

ـ صحيح يا ابن بخيت: شنهو اسم أبو موسى؟

ودارت عينا عبدالله البخيت مثل هرّ محاصر. وتساءل:

ـ صحيح.. موسى ابن من؟

وبعد أن ضحك وضحك السلطان، قال عبدالله البخيت بصوت متآمر:

ـ أحسن شيء، يا طويل العمر، أن الواحد ما يقترب من الأنبياء، لأن هذولي يشوّرون. ولا يحتملون كلمة زايدة أو كلمة ناقصة!

ـ القول قولك، يا أبو بادي!

أما السبب الثاني الذي دعا السلطان لأن يكون عبدالله البخيت مع فنر، فهو عمير، إذ يريده أن يخرج عمير من رأس فنر نهائياً.

قال له يوصيه:

ـ هذا ابني، يا عبدالله، أريده يكون سلطان، ما أريده ينتهي: قال الله وقال رسوله. يلزم يعرف شنهو اللي قاله الله والرسول لكن عنده ألف قضية وقضية غير هذي.

وتنفس وصمت، وبعد فترة:

ـ ترى عمير وأمثاله يخرّبون ديرة، ويحوسون عشيرة، وحجتهم: قال الله وقال رسوله، وحنا بهذا الزمان نعرف دربنا، ما نريد عمير وأمثاله يحكمونا، ولا نريدهم يسوونا مثل الكدش: البراقع حول عيونا ويقولون: امشوا.

ولم يكن البخيت بحاجة إلى كل هذا التحريض. كان يعرف عمير وأمثاله، وكان يريد جواً مناسباً ليقول رأيه فيه. والسلطان الذي يعرف رأي ابن البخيت، قال له وهو يبتسم:

ـ . . . بس تدير بالك: أبد لا تجيب طاري عمير. احك عليهم كلهم، بس لا تذكره، لأنك تعرف: ثلثين الولد خاله، خاف يجفل وتنقلب عليك وعلينا.

ـ لا توصِ حريص، يا طويل العمر. خلي الأمور عليّ ونام وأنت مرتاح، أو مثل ما قال سحيم:

توسدني كفاً وتثني بمعصم   علي وتحوي رجلها من ورائيا
واشهد عند الله أن قد رأيتها   وعشرين منها أصبعاً من ورائيا

ضحك السلطان بصخب، وبعد أن هدأ سأل، وبرقت عيناه:

ـ يا وذّ، يا أبو بادي، أشوف ما عندك إلا «ورائيا»، خاف هذي وراها شي؟

رد عبدالله بنغم:

فيا ليتني والعامرية نلتقي   نرود لأهلينا الرياض الخواليا

قال السلطان وهو يمسح لحيته ويفكر:

ـ برجعتك، من بد ولازم، نزوجك، رضيت ما رضيت ما هو بكيفك، يلزم نزوجك، حتى تعرف الحياة وتخلص من حسراتك وأوجاعك.

رد ابن البخيت، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ يعدن مريضاً هن هيجن داءه   ألا إنما بعض العوائد دائيا

وبعد أيام قليلة سافر الوفد، لكي يتصل بالدول وينتزع منها اعترافاً بدولة جديدة قامت!

وانشغل قصر الروض، أكثر من فترات سابقة، باستقبال الوفود وبأخبار المناطق، وأيضاً بمشاكله الداخلية.

أوفد السلطان ثلاثة من أكبر أبنائه مع عدد من الرجال الذين يعتمد عليهم، إلى رؤساء العشائر، خاصة في مناطق الحدود، ومعهم الهدايا والدعوات لزيارة موران. ولم تمض أسابيع قليلة على هذه الدعوات حتى تقاطر الشيوخ ومعهم الأقرباء والمرافقون. وعاشت موران في جو من الاحتفال والحركة لم تشهده منذ حملة وادي الفيض. فالعرضات التي جرت، والسباقات التي أقيمت، رافقها الكثير من النشاط والحركة في الأسواق، إذ صرفت الأموال التي وزعت، أو معظمها، في شراء الحاجات، مما جعل الكثيرين يشعرون أن مصاعب السنين السابقة قد مضت وانقضت، بل وأخذت تصبح ذكرى من ذكريات الماضي.

وفي هذه الزيارات والدعوات، وقد حضرها الكثيرون، بدا السلطان في أحسن حالاته، إذ رغم غياب ابن البخيت، والفراغ الذي تركه، فقد تمت الاستعانة بالعديدين لإِضفاء جو من المرح والود على الدعوات، كما أوعز السلطان لرجاله أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من أجل راحة الضيوف وتلبية حاجاتهم وطلباتهم. أما أسطبل الخيول الذي كان يعتبره السلطان موازياً للجناح الغربي من قصره، ولا يقل عنه أهمية وسرية، حيث لا يصله إلا أقرب الأصدقاء، فقد فتحه أيضاً. صحيح أن ذلك تم على مضض وبالتدريج، لكنه فتح. وقد حمل ذلك ابن حنيحن، مسؤول الإسطبل، على تهريب عدد من الخيول المهمة والنادرة. أما مهيوب، فحين علم بالأمر، علق بنوع من الغضب أمام عدد من الحرس، ولم يأبه بأن يصل كلامه للسلطان:

ـ جنون يا جماعة. الخيول اللي جمعناها بدم قلوبنا، من هنا وهنا، ولنا سنين وسنين نسوس بها ونربي، بين يوم والثاني صارت لها جناحات وطارت!

أما عثمان العليان الذي تفاءل كثيراً واعتبر أن المشاكل المالية قد تراجعت أو زالت، نتيجة توالي الأمطار، والمعونات التي وصلت، إضافة إلى التدابير التي اتخذها في جمع الأموال، فقد أحس في مرحلة معينة أن الأمور إذا تركت إلى مزاج السلطان وأوامره، فلا بد أن تخلق المشاكل من جديد، وقد تصبح أكثر صعوبة، لأن «التجار شغلتهم» الوحيدة هي الحساب، حساب الربح والخسارة. صحيح أنهم يعطون، بعض الأيام، بسبب الخوف أو الطمع، لكن يريدون مقابل قيّاتهم، تماماً مثل اللي يطشّ الحب يريد بدل الكيس عشرة. أما إذا انقضت السنة، وراح الحب بالقاع، أو أكلته الطيور فمن كل بد ولازم إنهم يصيحون ويلطمون وتلعلع أصواتهم: صرنا يا جماعة الخير نأكل من رأس مالنا. خسرنا الأول والتالي، وكل شيء راح، وباكر تشوفونا نشحد!».

قال عثمان للسلطان ذات ليلة بعد أن سافر شيوخ الحويزة:

ـ . . . وتعرف، يا طويل العمر، هذول البدو قاتلهم الطمع، وابد ما يشبعون. أما إذا تعودوا عادة فالله يستر، ما نخلص من حلوقهم ابد. قبل ما يحول الحول نلقاهم بوجوهنا، وهات أكل وقهوة وسوالف إلى أن نعطيهم من جديد، وإذا ما عطيناهم، ويعتبرون أنه صار لهم حق، نصير مثل اللي قاتلين أهلهم. . .

وكاد يسترسل، لكن السلطان ضحك وقال:

ـ هالحين حنا بحاجتهم يا عثمان، وتشوف عينك: ابن ماضي وغير ابن ماضي، كل واحد يلوح ويدز عطاياه ويطرّش خوياه، ويقول لهم: تعالوا، خذوا اللي تريدونه، بس تصيرون من جماعتنا.

وبعد قليل:

ـ ويلزم بهذي الأيام نحرص عليهم، لأنهم صاروا ألعن من

الحصينيات، يديرون عيونهم هنا. . وهنا، ويسمعون، وينشدون، فإذا ما كنا معهم خد وعين، إذا ما عطيناهم وشيمناهم، ترى يصير فينا مثل ما صار باللي قبلنا: قلوبهم معنا وسيوفهم مع غيرنا.

تنهد السلطان وتابع:

ـ والخيل، يا عثمان، إذا ما أنشد عليها، تبغّل، وخويك، أبو منصور، ما يريد، بهذي الأيام، خيول، يريد حدود وطاعة ويريد الناس تصير ويّانا.

رد عثمان بسرعة:

ـ أنا معك يا طويل العمر، بس يلزم تعرف: العين بصيرة واليد قصيرة، وأخاف، إذا كان بيدنا شيء اليوم نصبّح ما نلقى.

ـ وكّل الله يا رجال.

ـ توكلت عليه.

وضحك عثمان وبعد قليل أضاف بمرح:

ـ بس أريد غيري يتوكل عليه!

لقد أصبح السلطان متأكداً أن الشوط يكاد يقترب من نهايته، إد بعد المناقشات الطويلة، والتي تخللتها التحديات ومحاولات إثبات القوة، مع هاملتون أولاً، ثم مع بتلر، لا بد الآن من بذل كل الجهود من أجل تحسين الشروط والتمدد دون إعلان أو موافقة، ومحاولة فرض أمر واقع جديد، مع عدم الوصول إلى المجابهة أو الاختلاف.

وإذا كانت لابن ماضي بقية من رمق في العوالي، ويمكن أن يبعث بعدد من المتطوعين على ظهور المراكب، أو أن يحرض بعض الأئمة وشيوخ القبائل في الداخل، فقد أصبح بعد توقيع المعاهدة مثل قط محاصر، يضرب هنا وهناك، ليس من أجل أن يفرض الشروط، أو أن يحصل على المكاسب، وإنما لكي يهرب، قبل أن تطبق عليه القبضة الأخيرة وتخنقه.

وابن العليان الذين يفهم دوافع السلطان، والضرورات التي تملي اتخاذ

مثل هذه المواقف، لم يكن قادراً على تلبية كل مطالبه أو إقناعه. قال له في نهاية المناقشة:

ـ يلزم على قدر بساطنا نمد رجلينا، يا طويل العمر.

ـ اسمع مني زين، يا عثمان: أنت سافرت وشفت بس يلزم تعرف: بهذي الأيام البساط مثل السيل: يمد ويجزر، فإذا جزرنا بمد أخذنا، وإذا مدينا بجزره ترانا ما نلقي شي، وأنت أدرى!

بدت الكلمات والفكرة التي قالها السلطان ذات دلالة، لكن عثمان لا يعرف كيف يترجمها. قال بعد فترة صمت طويلة:

ـ اللي تقوله، يا طويل العمر، صحيح، بس هذه الدنيا غدارة، وخاف يصير بينا مثل ما يصير بين الصياد والسمكة: يمدّون لنا حتى يصيدونا!

ـ وكل الله يا رجّال، وكل مشكلة ولها حلال!

وبنفس القدر من الاهتمام الذي أولاه السلطان لشيوخ الحويزة، اهتم بالعجرمي «وأهل الآخرة» كما يسميهم.

كان يود لو أن ابن البخيت إلى جانبه في هذه الفترة، خاصة أثناء لقاءاته مع العجرمي، فهو قادر على أن يلعب دوراً، وليس دوراً واحداً، مع الشيخ، ومع أمثاله. إذ يسعف ذاكرته ببعض الأحاديث، ويقدم له الأدلة والبراهين التي تؤيد وجهة نظره، وقادر أيضاً أن يضحكه، وأن يثير عجبه، وبعض الأحيان يطرح عليه أسئلة، تبدو بريئة، لكنها مقلقة، من شأن هذا كله أن يجعل العجرمي يبحث عن البخيت ابن البخيت، كما كان يسميه، تحبباً.

رغم هذا الفقد الذي أحسه السلطان لغياب ابن البخيت فإنه لم يندم، لأن الشيوخ الآخرين يتطيرون من «هامان» كما يسمونه، إذ يقعد لهم بالمرصاد ويأكل ما يأفكون! ولذلك فهم لا يريدون أن يكونوا أعداء له، ولا يمكن، أيضاً، أن يكونوا أصدقاء. والحل أن لا تشوفه عيونّا ولا تسمعه أذانّا، وبعدها كل واحد ذنبه على جنبه».

قال السلطان لهؤلاء الشيوخ ذات ليلة:

ـ . . . وتعرفون، يا أولاد الحلال، أن الجهاد ما هو بالسيف وحده. الجهاد باللسان، بالفعل، ويجوز بالقلب.

توقف لحظة، تنفس بعمق ثم تابع:

ـ السيف إذا كان وحده، وإذا كان هدفه الغنايم ما هو بسيف إيمان، وما يختلف عن سيوف غيرنا من الحكام.

وعاد إلى النبرة الأولى:

ـ وأنتم، أهل العلم والدين، تفهمون وتعرفون، وهمّ بعد تقدّرون، ولهذا السبب، الجهاد في النفس، مع الأهل، أهم من الجهاد ضد الأعداء.

اكتفى السلطان بهذا القدر من الكلام، وطلب من مهيوب في اليوم التالي، أن يرسل للحاضرين هدايا تتناسب مع أهميتهم. فخرجت من القصر أعداد كبيرة من أكياس الرز والسكر، ومعها صفائح السمن، إضافة إلى الخراف، وبعض الخيول. وقد وزعت بعناية، وشارك في الإشراف على التوزيع، بناء لتوجيهات السلطان: رأفت شيخ الصاغة، وعثمان العليان. وكتب رأفت مع كل هدية رسالة رقيقة، وقد ختمها السلطان بخاتمه. وبعد أن اطلع عثمان العليان على اللائحة الأخيرة للتوزيعات، كتب «موافق». ومهرها بتوقيعه! فلما وصلت هذه الهدايا إلى رجال الدين وأئمة المساجد، وتأكدوا من قيمتها، وقرأوا الرسائل المرفقة بها، كانوا في أحسن حالات الرضا والسرور!

كل هذه الأمور كانت تجري، والجناح الغربي من القصر في حالة أقرب إلى الصخب والاضطراب. إذ رغم هموم السلطان وانشغالاته. فقد تزايدت المطالبة من قبل الأمهات والأبناء معاً، أن تجري احتفالات تماثل تلك التي جرت لفنر، خاصة بعد أن اعتبر عدد من الأولاد أنفهسم، قد بلغوا مبلغ الرجال، ومما يؤكد ذلك أن السلطان نفسه أوفدهم إلى شيوخ القبائل، وشاركوا في الدعوات ورقصوا العرضة مع الكبار، وترافق ذلك الإلحاح مع حالة الرخاء التي عمت القصور، فبدا أن إمكانية من هذا النوع

سهلة، وربما مرغوبة، لأن الوضع الجديد أصبح مهيأً ومساعداً، فالأسباب للمطالبة والإلحاح قائمة.

ومما دفع فضة بشكل خاص لأن تطالب ولأن تلحّ: غياب خزعل في الحويزة، وقد طال غيابه، وترافق مع إشاعات كثيرة؛ ثم سفر فنر بعد ذلك.

وهي حين ألحت على ضرورة أن يقيم السلطان الاحتفال. هيأت، بالاتفاق مع ابن حنيحن مسؤول السواس في القصر، عدداً من الخيول بعدد أبنائها الذكور، ورغم أنها تعرف استحالة الموافقة على ما تريد، فقد كانت تؤمل أن يوافق السلطان على الاحتفال باثنين أو ثلاثة من أبنائها، رغم أن راكان كان الوحيد من هؤلاء الأبناء الذي أوفده السلطان لدعوة عدد من الشيوخ.

ومثلما حرصت وجاهدت فضة، وإن كانت بحذر وسرية، فإن كل زوجة من زوجات السلطان بذلت جهداً من أجل الوصول إلى هدف مماثل، أو حاولت أن تمنع تكريماً من هذا النوع. وإذا كانت تقاليد القصر، وحزم السلطان، قد حالا دون أن تتقابل النسوة أو أن يتخاصمن، فإن الخدم، رجالاً ونساءً، قاموا بذلك نيابة عنهن!.

المعارك التي حدثت خلال هذه الفترة، في القسم الغربي من القصر، من الكثرة والتنوع إلى درجة أنها لم تترك أحداً إلا ووصلت إليه، ولم يبق أحد إلا وصار طرفاً فيها بشكل أو آخر. حتى السلطان الذي وصلت إليه قال كلمة ظلت تتردد في القصر. فبعد أن جاءه مهيوب يبلغه أن ابن العريفان وابن الفرحان يطلبان مقابلته لكي يلتمسا إعفاءهما من الاستمرار في العمل، لأنهما فقدا إمكانية السيطرة، نتيجة المكائد والخصومات، قال السلطان:

ـ الله أكبر.. الله أكبر، إنما أولادكم وأموالكم أعداء لكم...

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ قدرنا على البعيدين والغُرب، وقدرنا على العدى، وأقرب الناس ما

قدرنا عليهم؟ وما ندري هم معانا أو علينا؟ وإذا هالحين بهذا الشكل يلزم للبني آدم يتوقى ويفتّح عينيه زين!

ولم يتأخر السلطان في إيقاع عقوبات صارمة بعدد كبير من الخدم، إذ قيل إن الجلد بدأ من الفجر واستمر إلى ما بعد منتصف النهار، كما أبعد عدداً من الخصيان، رغم الاحتجاج الذي نقل إليه. أما بالنسبة للنساء فقد أرسل إليهن مهيوب مع تهديدات لا تنفك تتزايد وتعنف. وقد أدى ذلك إلى هدوء القصر بعد ثورة السلطان. وتراجع العريفان وناهي عن الاستقالة بعد أن تم إرضاؤهما، ووعد السلطان أن يكون موجوداً، وإن يتدخل ليضع حداً لهذه الفوضى. وبدا أن هذا الدرس قد علّم الجميع. لكن أياً من النساء لم تتوقف ولم تسلّم. صحيح أن واحدة بدأت قبل الأخرى، أو أن واحدة تأخرت، خوفاً أو انتظاراً، لكن لم تكد عدة أسابيع تنقضي حتى هاج القصر من جديد.

قال طالع العريفان لناهي الذي رفض أن يعود للعمل مرة أخرى:

ـ اسمع يا ناهي...

صمت، حتى كاد ينسى أنه قال كلمة لينبهه، وبعد فترة طويلة بدأ يحدث نفسه:

ـ صحيح أنه سلطان، يأمر وينهى، يقول يصير وما يصير، لكن كل هذا بس علينا. أما الحريمات، فكل واحدة منهن الله أكبر: إذا ما جاء معها بالدادا يجي بالمرحبا، وإذا ما فاد بالإِثنين، عندها...

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ سأل:

ـ أقول أو ما أقول يا ناهي؟

ـ يلزم تقول يا أبو جازي، فرّج وقول اللي بقلبك!

ـ أي نعم، كل واحدة عندها سلاحها: الشركسية تبرق، والعجمية تغنج، والسودا توج، والعُربية تعج، والكرجية تناظر وتقول: وين تروح من هذا الفج!

ضحك ناهي الفرحان، حتى كاد ينقلب على ظهره، وبعد أن هدأ:

ـ صرت شويعر يا أبو جازي!

ـ والله. وبالله وتالله، اللي يعيش مع هالحريمات يلزم يصير شاعر، وإذا ما صار يصير سلطان أو مجنون!

تراجع ناهي قليلاً إلى الوراء، نظر إلى طالع العريفان بجدية وسأل:

ـ وأنت، يا أبو جازي، لو كنت بمكانه، شنهو اللي تسويه؟

ـ أنا؟

ـ أي نعم، أنت...

ضحك، وبعد قليل:

ـ خلنا نحلم، يا ابن الحلال.

ـ لو كنت مكانه، أي نعم، لو كنت بمكانه: ليلة كرجية وليلة عجمية، وليلة اجمع سودا على بيضا ومعهن واحدة شركسية أو تركية، وبعد ما أشبع وارتوي أنام وأنا سلطان!

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ أو كان صرت مثله: أناظر يمين واضرب يسار، اغمز وحدة وأنام مع الثانية، وأقول لنفسي ولمن حولي: كافر اللي يرد عطايا الله، وكافر اللي ما يرضى عبيد الله!

ـ وبآخر الليل تكون رضيّت واحدة وزعّلت مية!

ـ يا ناهي، يا ابن الأوادم، وهذا الكلام يقص راس، لكن البني آدم يلزم بقوله: لو كنت مكانه كانت تلحفت واحدة، ورضيت بولدين أو ثلاثة، ويا رب الستر والسلامة، لكن إذا البني آدم جن ما أحد يحميه وينفعه، وآخرته يرعص ويخمص، أو يهزّ ويرجف، والله يستر من البلواي اللي جايّات.

وإذا كانت القصص القصر واضطراباته قد زادت عن حد معين، فلا يمكن أن تعالج إلا من داخل القصر، ومن امرأة من نساء القصر، ما دام السلطان مثقلاً ومشغولاً.

فأمي زهوة التي غابت شهوراً، وقيل حول غيابها الكثير، وبعد أن

لبست الرمادي، عادت إلى الأسود من جديد، قالت تهاني: «حبها لفنر خلاها تغير ثيابها». وقالت لولوة: «ابن عليان عنده جيش من النسوان» وقالت قابلة القصر «المرأة تتزوج حتى تلد ولو سخل، وهذه ما بها ماء» وقال السلطان: «الشيخة شيخة ويلزم تظل شيخة».

قالت أمي زهوة يوم طهور تركي ابن وطفة، وقد جمعت معظم نساء السلطان، رغم أن وطفة لم توجه الدعوة إلا لبعضهن. قالت وهي تدق الأرض بعصاها:

- عندي كلِمات... يا بنات.

ولما وجدت أن الصخب والهرج لا زالا مستمرين، صرخت تهاني، وكان صوتها حاذاً كأنه بوق:

- يا جماعة: اسكتن واسمعن.

لما استمر الصخب، دقت الشيخة الأرض بقوة أكبر وصرخت:

- هي.. هي.. ترى اللي تسمع أخير لها وأحسن.

ساد الصمت تماماً، وكأن لا أحد في المكان، قالت بحدة:

- ترى أبو منصور ترك الحبل على غاربه، وأنتن، كل واحدة منكن مثل العنز، ما إن راح عنها الراعي حتى فلتت، ويلزم تعرفن هذا القصر قصر الرحمان، وإذا كانت كل واحدة توهمت أنها كبرت وصارت، وقالت لروحها: ماأحد يردني ترى أنتن غالطين، ما هو بس كذا، إذ الواحدة منكن تريد تجرب حظها، تريد تقول: صار ما صار، تراها تمسك الباب، وهذا اللي أقوله هالحين ما هو كلام ليل أو كلام نسوان، أنا هالحين شفت أبو منصور، ومن راسي لراسه، قال لي: ما نريد طلايب ولا دوخة راس، والأحسن أن كل واحدة تحافظ على عرضها وتربي أولادها. وبعد هذا الكلام، ما عندنا كلام واللي ما يصدق يشوف بعينه أحسن.

وقع هذا الكلام على النسوة مثل الحجارة أو مثل البرَد. قالت فضة في محاولة لأن تسيطر على الجو فتستعيد المبادرة:

- أنت تعبانة يا عمتي، ويلزم أنك تستريحي.

ردت أمي زهوة بخشونة:

ـ اسمعي يا فضة، وخلي غيرك يسمع: أبو منصور قال: الطلايب زادت، والحريم فجمن، وأنا براسي ألف قضية وقضية، فإذا كل واحدة قاعدة لي ركبة ونص، وتقول: ليلتي وأولادي، ترى ما عندي ليل من نهار، وما عندي ولد أخير من ولد، الكل عندي مثل حبات الرمل ومثل قطرات الماء... واللي ما تفهم هذا الكلام وتلزم حدها، نعرف كيف نخليها تفهم.. وتفهم زين.

وتلتفت أكثر من مرة ثم صرخت.

ـ يا تهاني...

وحين اخترقت تهاني الجمع وتقدمت منها، قالت لها بصوت حاد:

ـ أبو منصور عشاه الليلة عندنا، وأنت هالحين قاعدة هنا تقسمين سوالف؟ يا الله، السودا بوجهك. يا الله، أمشي قدامي.

كان يمكن لهذه الفوضى أن تغيب فترة لتعاود الظهور من جديد، لولا أن وقعت عدة حوادث في القصر.

فلولوة، خادمة الأميرة وطفة وجدت مقتولة بالقرب من الإسطبل، وقد ظهرت على جثتها علامات زرقاء. قيل إنها تعرضت إلى التعذيب قبل القتل، ربما لإنها قاومت، أو لأسباب أخرى. وقيل إن هذه العلامات من تأثير السم، وقد همست عدة نسوة أن السم كان لوطفة، لكن بالصدفة، ولأسباب لم تعرف أبداً تناولته لولوة فماتت.

كان من الممكن أن تمر هذه الحادثة دون نتائج، أو نتائج محدودة، لولا أن عدة أمور ذات علاقة حصلت: فالسلطان الذي اعتبر أن فضة وراء الاضطرابات التي حصلت في القصر، أراد أن يعاقبها، فهجر جناحها لأسابيع، وقد استقر خلال هذه الفترة في جناح وطفة. صحيح أنه كان ينتقل ويغيب لعدة ليالٍ هنا وهناك، لكن في يوم مقتل لولوة كان السلطان عند وطفة، وقيل إنه لاطف لولوة وسألها إن كان لها مطالب، وقد أكدت ثلاث من الخادمات ذلك. وقيل إن السم أعدّ للسلطان وليس لوطفة أو لولوة. ومما زاد في تعقيد الموقف أيضاً إن اثنين من الخصيان: الغريفي

وتمام، وكانت تربطهما بلولوة علاقة، قتلا بعد ثلاثة أيام، قتلا في غابة النخيل، في أقصى الشمال الغربي، وقد سمع في الليل المتأخر إطلاق رصاص، واختلفت التفسيرات حول ما حصل. ومن الطبيعي أن يتردد اسم ابن ماضي وأسماء أخرى وقد حمل ذلك السلطان على أن يتوجه إلى الرحيبة، وأن يقضي هناك أياماً امتدت إلى أسابيع، وخلال ذلك عاد ابن البخيت.

لم يبق أحد في القصر إلا وتذكر يمامة وقصتها بعودة ابن البخيت، وترافق ذلك مع الكثير من الحذر والمخاوف والهمس، خاصة وأن السلطان عاد إلى قصر الروض، وعاد إلى القصر النشاط والحركة، لاستقبال المسافرين ومعرفة ما حصل معهم في سفرتهم التي امتدت زهاء شهرين ونصف، وقد شملت بلداناً عديدة.

أكد عدد من الحرس الخاص للسلطان أنه أعدت لجلالته الجهة الشرقية من المضافة، لتكون ديواناً ومكاناً للإقامة والمنامة، وقد فسر الأمر لأسباب أمنية، وفسر أن غضب السلطان لم يبارحه، ولذلك يريد أن يعاقب القصر كله. وفسر أيضاً أن الأشغال الكثيرة التي تراكمت خلال هذه الفترة جعلته يبقى مع رجاله.

أمي زهوة زارت السلطان في مجلسه، وأسرّت تهاني لعدد محدود من صديقاتها، وبشكل مضطرب، أن الشيخة نقلت إليه أخباراً خطيرة، وحين حاولت الصديقات أن يستوضحنها، قالت بهمس لا يكد يسمع: الواحد يشوف بعينه أحسن من أن يسمع. أما مهيوب فقد عقد خلال يومين متواليين اجتماعات طويلة مع ابن العريفان وناهي. وأكد الخدم الذين صبوا القهوة، أو رأوا الرجال حين خرجوا، أن الابتسامات كانت تملأ وجوههم.

أما فنر الذي خاف عليه الكثيرون، وظلت بذاكرتهم صورته عندما توفيت زينة، وإلى حين سفره، فقد فوجئوا أنه عاد قوياً معافى. صحيح أن الحزن لم يبارحه بشكل كامل، لكنه بدا، في لحظات معينة، مرحاً وأقرب إلى التبسط. وقد قضى اليوم الأول مع أبيه على انفراد. حتى عبدالله البخيث لم يكن معهما. وأكد اثنان من حرس السلطان أنه في الليل

المتأخر، وبدل أن ينتقل السلطان وفنر إلى الجناح الغربي من القصر، أكد هذان الحارسان أنه أرسل وراء موضي فجاءت إلى مجلس السلطان، في الجهة الشرقية، وقد قضت معهما ساعة أو تزيد قليلاً ثم غادرت.

في الأيام التالية عاد فنر إلى الجناح الغربي، وقد استقبل الكثيرين، وبدا طبيعياً، مع شيء من التحفظ، إذ كانت إجاباته عن الأسئلة الكثيرة التي كانت تطرح، أن السفرة كانت نافعة، وأنه رأى الكثير. قطمة قالت إن الأمير، وخلال فترة قصيرة سوف يغادر قصر الروض إلى سكن خاص. وقد فسر كلامها كل من سمعه بشكل مختلف عن الآخر.

هاملتون لم يعد، وحين استفسر السلطان عن تأخره، أوضح له فنر أن السفرة كانت مرهقة، وقد رغب أن يقضي أسبوعين في نهايتها مع عائلته في ولز، وأكد أنه لن يتأخر عن ذلك.

الوحيد الذي ظل غائباً، وطال غيابه خزعل.

قال السلطان في إحدى المرات، عندما سئل عن أخبار الحويزة:

ـ طمنوا بالكم، كل شي بخير، وأبو مشعل هناك.

وبدا للكثيرين أن الأمور أخذت تستقر، وأن الفترة الجديدة، إذا لم تحصل خلالها مفاجآت، تختلف عن السابق.

وغرق القصر في الصخب والهمس والانتظار.

رغم فرح السلطان بعودة فنر، والاهتمام الذي خصه به، فقد ظل قلقاً: «الصاحب ما يخلي فرحة تتم، يلزم يشوف الجماعة وحده، يسولف معهم، يقول لهم فلاني وتركاني، وبعد ما يتفاهم وياهم، يرجع ويقول: يصير وما يصير». ومع ذلك لم يعتبر السلطان أن تأخر هاملتون مثل مرات سابقة، أو يوجب الغضب. قال لابن البخيت الذي كان يحدثه عن الأسفار بطريقة عجائبية، وكيف أن «الصاحب» كان نعم الصاحب:

ـ . . . وصاحبنا، يا أبو بادي، ما هو شلون ما كان، هذا صاحب ويعتمد عليه!

وحاول ابن البخيت أن يلفت النظر إلى أهمية «الصاحب»، خاصة في إنكلترا، وكيف كان يتصرف، ونظرة الآخرين إليه. قال له السلطان بمرح:

ـ هذا، يا ابن الحلال، عند جماعته شيخ، ولولا أن الجماعة يريدون خاطرنا، ويعرفون قيمتنا، كانوا دزوا جماعة ما تشريهم بفلس وفلسين.

ـ والشهادة لله، يا طويل العمر، إنه شهم وباله طويل. . .

وضحك ابن البخيت وتلمظ ثم تابع.

ـ وبعد الاحتفالات والعزايم، وبعد ما يركض هنا وهنا، يقول لنا أنا وطويل العمر، فنر: ها يا جماعة إذا ما أنتم تعبانين خلنا نروح هنا أو هنا، لأن البني آدم يلزم له يشوف، يتونس ويبلّ قلبه.

يستريح قليلاً، يتذكر، ثم يضيف:

ـ وما خلينا شي إلا وشفناه. وظني أن فنر، هالحين، أحسن من قبل، ويمكن تعتمد عليه، وهذا ما هو بس رأيي، هذا رأي «الصاحب».

ولم يتأخر هاملتون، عاد. وبدا أن أموراً كثيرة لا بد أن تحسم بعودته، قال السلطان لفنر يوصيه:

ـ أريدك، يا وليدي، ما تفارقه. يحبك، وتفهم عليه زين، وأريد منك تعرف سره، لأن هذول الإنكريز ما يعطون سرهم لأحد، إلا إذا تأكدوا...

وضحك ثم تابع:

ـ خلنا نحاول، وما يندري بعدها نصل أو ما نصل.

ـ رد فنر بإنفعال:

ـ صحيح، يا يوبه، إنه منهم، لكنه يحب موران ما هو شلون ما كان...

وتلفت أكثر من مرة، ورغم أنه بدا متردداً، إلا أنه همس:

ـ وقال لي كل شيء. قال: يمكن موران تصير أكبر وأهم دولة، بس يلزم تعرف كيف تتصرف، كيف تكون.

ـ هذا الكلام، يا وليدي، له ألف معنى ومعنى، ويلزمنا ننتظر ونشوف حتى نتأكد.

قال هاملتون للسلطان، وكانا وحدهما:

ـ ... أريد، يا صاحب الجلالة، أن أعطي نفسي حرية التحدث وأن أقول لك قناعاتي وتصوري لبعض الأمور، وأرجو أن أجد لدى جلالتكم الوقت والرغبة...

تطلع إليه السلطان يريد أن يعرف ما وراء هذه المقدمة. وهاملتون الذي يتحسب من هذه النظرة، تحمل وانتظر: قال السلطان:

ـ يا ابن الحلال، حنا ندوّر على النصيحة دوارة، ونتمنى اللي يجينا ويقول لنا اللي يلزم نسويه.

بعد فترة صمت، وكأن هاملتون لا يعرف من أين أو كيف يبدأ، قال بانفعال:

ـ لا أريد أن أتحدث كإنكليزي وإنما كصديق، وليس الأمر متعلقاً

بتبرير الصيغة التي كانت قائمة. أريد أن أتحدث عن أفكار وتصورات المستقبل، إضافة إلى توضيح بعض الأمور. . .

قاطعه السلطان:

ـ وحنا نريد نسمع منك، يا ابن الحلال.

ـ الفترة الماضية كانت في منتهى الصعوبة والارتباك. كانت صعبة بالنسبة لكم، كما كانت بالنسبة لإنكلترا، وكانت صعبة بالنسبة لي شخصياً. لقد جئت إلى هنا، يا صاحب الجلالة، لكي أكون مفيداً ولأني أتصور أن هذه المنطقة يمكن أن تلعب دوراً تاريخياً. لقد اختلفت مع الكثيرين، وخاصمت الكثيرين، لأنه كانت لنا تصورات مختلفة لدور موران ومستقبلها. وربما تذكر، يا صاحب الجلالة، إني ابتعدت فترة، بل فكرت أن أعتزل، أن أبقى في إنكلترا نهائياً. وقررت في لحظة من اللحظات أن أهجر السياسة إلى مجال عمل آخر، لكني قاومت، ضغطت على أعصابي، ولم أترك لقناعاتي الشخصية أن تقرر مواقفي، كل ذلك بهدف أن نصل إلى معادلة، إلى صيغة، يمكن أن توفق بين ما نطمح إليه، ما نريده، وبين ما هو ممكن.

والسلطان الذي يعرف كيف يرفع صوته فوق أصوات الآخرين، ويكون، بعض الأحيان، المتكلم الوحيد، خاصة حين يخشى «المجانين»، كما يقول لنفسه، والذين يعرفون كيف يهيجون الناس ويدفعونهم إلى العنف والغضب، فإنه في أحيان أخرى، يعرف كيف يستمع، وكيف يدفع الآخرين لأن يتكلموا.

قال لهاملتون:

ـ والله. . . يا ابن الحلال، وما لك يمين عليّ، كنت أريد من زمان تفتح قلبك وتتكلم وتقول. . .

توقف لحظة، ثم أضاف بنبرة مختلفة.

ـ ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: صديقك من صدقك.

تابع هاملتون، وكأنه لم يسمع:

ـ السياسة ليست الرغبات، وليست الأفكار التي يتعلمها الطلاب في

الجامعة. السياسة شيء آخر تماماً: إنها صراع القوى والمصالح والإرادات والممكنات، وهذا الصراع من التعقيد والتشابك إلى درجة يبدو بعض الأحيان مستحيلاً، أو دون حل، خاصة بالنسبة لأفراد وقوى، وحتى لشعوب، معزولين وبعيدين... تنهد وهز رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ هناك، في لندن، تلتقي الطرق، يا صاحب الجلالة، وحيث تلتقي الطرق تصل المعلومات والتقديرات والاحتمالات، وهناك أيضاً الرجال الذين يناقشون ويقررون، ولا يملك الإنسان البعيد مثلي إلا أن يسمع الصدى، أن يتلقى النتائج، وأيضاً أن يتحمل الصدمات...

ضحك بمرارة وأضاف:

ـ لقد كنت، بالنسبة لكم، غير مفهوم، وكنت شخصياً أريد الابتعاد، وكانت الأمور ذاتها في مرحلة التكوين، ومن خلال شبكة العلاقات المتداخلة والمعقدة كنتم تطالبونني بالإجابة عن أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها، وكنتم تطالبونني بمواقف وأمور لا أستطيع اتخاذها أو البت بها، وهذا ما كان يحرجني، يجعلني غير قادر على الإجابة أو على التصرف. ولذلك كنت اصمت، وكنت أهرب...

وضحك مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة، وأضاف وجاء صوته منتصراً:

ـ الآن، بعد هذي السنين، يمكن أن أعطي رأي لجلالتكم حول بعض الأمور وأكون أكثر ثقة وأكثر اقتناعاً، لأن ما أقوله ممكن، وقد ينفذ!

تقدم السلطان نحوه قليلاً وبدا عليه الاهتمام، قال وقد اشتعل كله:

ـ أي بالله، يا الصاحب، اتركنا من الشي اللي صار، هذا فات ومات، هالحين أريد أفهم منك عن هذي الأيام واللي بعدها.

قال هاملتون وهو يتطلع إلى السلطان بطريقة استفزازية، وكأنه يرد على نظراته:

ـ المشكلة في الماضي، يا صاحب الجلالة، لم تكن موران، ولم تكن ابن ماضي أو غيره. المشكلة، بالنسبة لبريطانيا، كانت أكبر من ذلك وأكثر تعقيداً...

هز رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ الدول الكبرى، يا صاحب الجلالة، لديها علاقات وعليها التزامات، بحيث تتعامل مع الآخرين ضمن منطق مختلف تماماً عمن يكون عنده مشكلة واحدة وفي ومكان محدد، ويتعامل بهذه المشكلة وحدها.

تنحنح، فجاء صوته مصقولاً:

ـ طبيعي لا يمكن، الآن، أن نخوض في كل الموضوعات، لكن لا بد من التأكيد أن بريطانيا كانت محرجة وحائرة تجاه أصدقائها وأعدائها معاً. لأنها لا تعرف كيف تتصرف، من ترضي ومن تغضب. أما الآن، وبعد أن تحددت الأمور جميعاً، فيمكن أن نتحدث، وأن نتفق، وأن نصل إلى النتائج المطلوبة.

وفي هذا اللقاء، وبكثير من المهارة والتواطؤ وسوء النية من الطرفين، فهم السلطان أن عليه أن يطوي أعلام الفتح والغزو والضم، لأن الأمور تم الاتفاق عليها بين اللاعبين الأساسيين، وليس أمام اللاعبين الصغار إلا أن يلعبوا في الوقت الضائع، أو دون أن يشعر اللاعبون الكبار، فقط من أجل تسجيل بعض النقاط أو تحسين المواقع، وقد فهم السلطان أيضاً أن لدى بريطانيا من أبنائها، من يلعبون في الملاعب الأخرى، وهؤلاء يتناقشون ويختلفون، ويمكن أن يورطوا بريطانيا أو أصدقاءها.

ورغم أن أجزاء كثيرة من المناقشة والحوار كانت واضحة إلا أنها لم تكن محددة، وكانت تقتضي الكثير من الجهد والمهارة من أجل تحديدها. قال السلطان في نهاية ليلة طويلة من المناقشات والأسئلة وتبادل الأفكار والأدوار:

ـ لا أحد يعتب، يا الصاحب، وما أحد يقدر يسوي كل اللي يتمناه، أو ينفذ اللي يريده، بس يلزم تعرف أن جماعتك ما حلبوا معنا صافي...

هز رأسه وابتسم بحزن، وربما مرت في ذاكرته صور كثيرة، وأضاف:

ـ كل اللي رادوه منا قلنا لهم: ما يخالف حلت البركة، وعلى العين والراس. وراحت سنة وراحت اللي بعدها، ولما التقينا من جديد: يا الله يا جماعة الخير، هالحين يلزم نسوي اللي اتفقنا عليه، لكن يخلف الله، لا

أحد يتذكر. واللي حكوا معنا، اللي كانوا، ملح وذابوا، ما أحد يعرف وين صاروا، وليس ما شفناهم من بعد. وبدينا من جديد، وأنت تذكر السوالف كلها.

وخلال بضعة أيام وبضع ليالٍ من المناقشات والخلوات والأسئلة، وقد شارك فنر في أغلب هذه اللقاءات، وشارك ابن العليان ويونس وبسيوني وشيخ الصاغة في بعضها، بدا واضحاً للسلطان أن عليه الكف عن التحرش بأصدقاء بريطانيا، خاصة من جهة حدود الحويزة، وأن يلتفت إلى ترتيب وضعه الداخلي، وتضمن له بريطانيا، بالمقابل، الدعم والمساندة، مالياً وسياسياً، وسوف يصبح ابن ماضي جزءاً من التاريخ الماضي.

والسلطان الذي يدرك هذه الحقيقة، بل ووافق عليها، ضمناً، مع بتلر، تظاهر بالغضب أول الأمر، واعتبر أن بريطانيا خدعته وتخلت عنه، كما خدعت وتخلت عن ابن ماضي. حاول أن يذكّر هاملتون بحملة وادي الفيض، وكيف أن قواته لم تقف عند حد، وكان يمكن أن تواصل زحفها، وترفع راية الإسلام، لولا أن بريطانيا تدخلت ووقفت في وجهه، ومع الغضب تظاهر بالحرج أيضاً، إذ لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول لقواته، لقادته العسكريين، الذين تحملوا الكثير وانتظروا إلى أن تحين الساعة المناسبة، لكي يواصلوا زحفهم. وهاملتون الذي يدرك، مثل السلطان تماماً، عدم جدوى بحث الموضوع مجدداً، قال له وفنر يسمع ويتابع:

- . . . وكما ذكرت لجلالتكم قبل أيام: المسألة تقررت في لندن، ولا نملك الحق أو القدرة على تغيير النتائج.

رد السلطان بحدة:

- الحق ما هو عليكم، يا الصاحب، وما أقصدك أنت، أقصد الجماعة هناك، لأن جماعتنا، تجار موران، وهم يتبايعون: يتشارطون. وحين يقسمون يقولون: أوله شرط آخرته سلامة. .

وبعد قليل وبلهجة حزينة:

- الحق علينا، كان يلزم من يوم ما تسالمنا، من يوم ما حطينا أيدينا

بأيدين بعض، نقول هذه شروطنا، ونريد كذا وكذا، بس طيبتنا، ثقتنا بأصدقائنا، أوصلتنا إلى هذي المواصيل، وهالجين تعال يا خريبط: فهّم الناس، رضيّها، وقل لهم: جماعتنا، الإنكريز، سووا بنا اللي تشوفه عيونكم، وما نقدر نقول أي شي!

قال هاملتون، وخرج صوته عميقاً.

- لا أريد، يا صاحب الجلالة، أن أكرر على مسامعكم ما قلته وما فعلته في لندن من أجل أن أخدم هذا البلد الذي أحببته وأشعر أني مرتبط به. إني لو فعلت ذلك أكون مخادعاً، ولا يهمني ألا إرضاؤكم.

رد السلطان بحزن:

- الذنب ما هو ذنبك ابد، يا الصاحب، وحنا نقدر خدماتك وافضالك...

ولم يدع هاملتون السلطان يتابع، رد بلهجة واثقة:

- المهم، يا صاحب الجلالة، في هذه المرحلة الدقيقة من التوازن الدولي أن تكون السلطنة دولة قوية ومؤثرة، وهذا أهم بكثير من أن تكون كبيرة وضعيفة.

هز رأسه عدة مرات، وكلّم نفسه:

- نعم، أن تكون دولة قوية وجاهزة للاستفادة من التطورات العالمية...

وتغيرت النبرة:

- ومثلما تغيرت أوضاع موران خلال السنين السابقة، مستفيدة مما جرى في المنطقة، قد تتهيأ الفرصة مرة أخرى، وعند ذاك يمكن أن يعاد النظر بأمور كثيرة، يا صاحب الجلالة...

وعاد إلى النبرة الأولى:

- المهم الآن أن نعمل كلنا من أجل أن تبني دولة قوية، أقوى من كل من حولها في المنطقة. والدولة القوية تستطيع أن تفرض شروطها، كما تعرفون، يا صاحب الجلالة.

السلطان الذي بدا عليه الحزن والتفكير معاً، لم يشأ أن يسلّم بسهولة،

أو أن يعلن موافقته، قال كأنه يحدّث نفسه:

- اللي قلته صحيح يا الصاحب، وكل كربة إلا ولها ألف حلال.

ابتسم السلطان، تطلع إلى فنر أكثر مما تطلع إلى هاملتون وأضاف:

- وجماعتنا قالوا:

فلو قولة يا ليت تطفي عن الحشى سعير الضماير قلت ليته تهيا لي
فكل ما قضى وما فات عنا وما انقضى غدا طرق ريح واسمر الليل جلجال
بقي لي عوض ما فات تذكار ما مضى وحزني عليهم وين ما رحت يبرى لي
فلا شدة إلا ويرجى لها فرج ولا كربة إلا ولها ألف حلال

أي نعم، ويلزمك تسمع يا فنر: كل شدة إلا ويرجى لها فرج، والله كريم.

ولأن السلطان طرب للأبيات التي رددها، وابتسم، وتطلع إلى فنر بإمعان ليدرك أين وصلت، فإن هاملتون شاركه الابتسام، وهز رأسه عدة مرات، دلالة أنه فهم وتذوق ما يعنيه ذلك الشعر. وبعد أن طال الصمت قال هاملتون:

- وما أراه، يا صاحب الجلال، أن الأهم، في هذه المرحلة، هو كيف يمكن السيطرة فعلياً على العوالي، كيف يمكن أن تكون جزءاً عضوياً من موران، لأن القضاء نهائياً على ابن ماضي مرتبط بإمكانية السيطرة الداخلية.

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

- اسمح لنفسي أن أقول، يا صاحب الجلالة، باعتبار أني عرفت بلادكم جيداً، عرفت الحويزة والعوالي، أن المشكلة الأساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس في العوالي، فأهل هذه البلاد يعتبرون أنفسهم متقدمين، قياساً لموران والحويزة، كما يُعتبرون أهل مدن، وتقدرون أن السيطرة على المدن أصعب بكثير من السيطرة على البوادي...

رد السلطان:

- إذا علاقة الجماعة هناك انتهت بابن ماضي، فتدبيره وتدبير العوالي علينا، يا الصاحب، وأبد ما يكون لك فكر.

ـ لا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن العالم الخارجي كله لا يتحدث في هذه الأيام إلا عن العوالي. صحيح أن ابن ماضي تحرك واتصل، وصحيح أن بريطانيا غضت النظر عن بعض تحركاته واتصالاته، لكن تبقى هناك ثلاث مشاكل أساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس هناك، وثانياً: بريطانيا كفيلة بحل مشكلة ابن ماضي: سوف تتخلى عنه نهائياً أو تجد له تدبيراً مناسباً. أما النقطة الأخيرة فهي كيف تستطيع السلطنة أن تعيد إلى الأقفاص القوى التي أطلقتها من أجل القضاء على خصومها، خاصة وأن هذه القوى إذا لم تجد أحداً تحاربه ترتد إلى الداخل، ولا بد أن تحارب وتدمر قبل أن تتدمر أو أن تنتحر!

هز رأسه عدة مرات، تطلع إلى فنر بإمعان، ثم أضاف:

ـ أرجو أن يفهمني صاحب السمو الأمير فنر بهذه الملاحظة، كيف يمكن معالجة وضع ابن عمير ومشعان وابن مياح والآخرين الذين يشبهونهم؟ لا أقصد التحريض، ولا أقصد الإساءة، لكن أمثال هؤلاء يشكلون هماً وتحدياً كبيراً للسلطنة في المرحلة الجديدة.

رد السلطان وقد شعر بالتحدي:

ـ هذول، يا الصاحب، جماعتنا، وحنا أدرى بهم، بس شنهو قولك بجماعة غيرنا؟

للحظة ارتبك هاملتون، تطلع إلى فنر قبل أن يجيب السلطان:

ـ كما ذكرت لجلالتكم: إذا التزمت سلطنة موران بالمعاهدة، وإذا لم تتحرش بأصدقاء صاحب الجلالة البريطانية، فإن كل الامور الأخرى سوف تجد هنا التفهم الكامل والتأييد...

وبعد فترات صمت وتفكير، وبعد أن بدا السلطان أقرب إلى الاقتناع، لكن دون أن يظهر عليه التسليم أو الموافقة، وفي لحظة تخيرها هاملتون جيداً، قال:

ـ لدينا مفكر نعتز به، يا صاحب الجلالة، قد قال عن بناء الدولة والسيطرة على الشعب كلاماً حكيماً، ولديه رأي لمعالجة وضع مثل وضع العوالي، وأرى أن تسمعه...

ضحك السلطان مثل طفل، وبعد أن هدأ، قال:

ـ مثل ما قلت لك، يا الصاحب، قبل كم يوم، حنا ندور على النصيحة، ونعطي عليها جمل، فهات، شنهو اللي قاله صاحبكم؟

ابتسم هاملتون قبل أن يبدأ:

ـ يقول، يا صاحب الجلالة: «على كل من يضع يده على الممتلكات، ويود الاحتفاظ بها، إن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما: عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

مط السلطان شفته وهز رأسه موافقاً، وبدا كأنه يستعيد، في ذاكرته، ما قاله هاملتون. أضاف هاملتون:

ـ وحول نفس الموضوع، يا صاحب الجلالة، يضيف أيضاً: «في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة، فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

وفي ذلك اللقاء استعاد السلطان ما قاله هاملتون مرة ثانية ومرة ثالثة، وبدا له أنه يعرف هذا الكلام، لكن ليس بهذا الوضوح، وأنه طبق جزءاً من هذه الأفكار، لكنه لم يطبقها كلها. قال لهاملتون: وبدا كأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا اللي قاله صاحبكم حنا سويناه: جلسنا بالعوالي شهور وشهور، وقلنا للناس: خلكم، يا أولاد الحلال بأشغالكم وأعمالكم، وكل ما نريده منكم أن تعرفوا أن دولة جديدة قامت، وأن ابن ماضي صار أثر بعد عين.

وبعد قليل وبإنفعال:

ـ ولا بد صار لك علم: أبو مشعل، ولدنا خزعل، له شهور، ويجوز مضت عليه سنة، وهو بالحويزة، يداري الناس ويعيش معهم، وما قلنا له تعال، وهو ما جاء!

ولم يتأخر السلطان ليدرك ما هو ممكن في هذه المرحلة، لذلك فإن أول ما فعله: بعث إلى العجرمي هدايا عديدة: مصحفاً مذهباً وصله خلال هذه الفترة من الهند، وكمية وافرة من الطيب النادر، وفرساً مشهورة كثر عنها الحديث في الأشهر الأخيرة، إضافة إلى مجموعة فاخرة من الثياب. ولم ينس أن يبعث أيضاً مبلغاً من المال.

استغرب العجرمي وصول كل هذه الهدايا. كاد يرتاب بدوافع السلطان. تذكر ما حصل لسلفه، محمد العلقاوي، قبل سنوات. فما كادت تنهمر عليه الهدايا من السلطان، حتى قتل بعد فترة قصيرة، وكان في طريقه لصلاة الفجر. ورغم حزن السلطان عليه، فقد سرت إشاعات قوية أنه كان وراء مقتله! إلا أن الزيارتين اللتين قام بهما عبدالله البخيت، وخلال أسبوع واحد، بددت الكثير من الشكوك. الزيارة الأولى كانت بهدف أن يطلعه على ما شهده ولمسه أثناء سفرته، خاصة عن أحوال المسلمين في البلدان التي زارها: الجوامع التي رآها في تركيا، والأذان الذي يرتفع خمس مرات، والناس وهم يندفعون إلى المساجد، وكيف يصلون ويطيلون الصلاة، وعن الحنين الذي يملأ صدورهم لزيارة الأماكن المقدسة.

وابن البخيت حين يتحدث يعرف كيف يثير دهشة الشيخ وإعجابه، ولا ينسى أن يورد الطرائف التي صادفته هنا وهناك، وأن يتوقف عند عجائب الطبيعة: البرودة، أمطار الصيف، الخضرة على مدى البصر، الأنهار الكبيرة، والتي لا تتوقف عن الجريان طوال السنة. وكاد يحدثه عن النساء في الشوارع والمطاعم، وفي كل مكان زراه، كاد يقول له أن الجمال الذي

شهده: شقرة الشعر، وبياض البشرة وعري الزنود والسيقان، إضافة إلى زرقة العيون، لا يمكن للإِنسان أن يصادفه إلا في الجنة. كاد يحدثه عن ذلك، لكنه تردد. ثم تذكر المهمة التي كلفه بها السلطان، فانعطف مرة أخرى إلى جو التقوى!

في نهاية الزيارة الأولى، قال ابن البخيت بدعابة.

ـ . . . ويلزم يا شيخنا في يوم الأيام، تزور هذي البلاد، لأن الشوف ما هو مثل السوالف!

ـ عوذة، عوذة، وتريدني أروح، بآخر أيامي، يا ابن البخيت، إلى ديرة الكفر؟

ـ حتى يزداد إيمانك، يا شيخنا، وتشوف بأي نعيم حنا عايشين!

ـ خلني بأرضي، يا ابن البخيت، لأن العين إذا زاغت القلب يزيغ.

وبعد قليل وكأنه يحدّث نفسه:

ـ اللهم ثبت العقل والدين.

الزيارة الثانية التي قام بها عبدالله البخيت للشيخ العجرمي كانت بعد يوم واحد من زيارة أخرى قام بها عدد من رجال السلطان، وكان معهم ابن العليان ومهيوب. وبدا من زيارة هؤلاء، ما سبقها وما رافقها، أن وراءها غرضاً مباشراً. هكذا أحس العجرمي، بل أكثر من ذلك بدأ يهجس بهذا الهاجس منذ الساعات الأولى لما قبل الظهر، فالخبر الذي أبلغ به في ضحى ذلك اليوم، أن وفداً من القصر سيزوره، جعله في حالة من التساؤل أقرب إلى القلق. «ماذا يريد خريبط؟ وما معنى الهدايا والاهتمام؟ وهذه الزيارة، من سيأتي وماذا سيدور؟».

ومثلما يحصل في حالات كثيرة مماثلة، ورغم أن عثمان العليان همس بإذن مهيوب وغمزه أن لا يجري الحديث في الموضوع بسرعة أو مباشرة، إذ لا بد أن يخوضوا في أمور عامة وعديدة، إلى أن تأتي اللحظة المناسبة، عندها تتم مفاتحته بالأمر. رغم هذا الاتفاق، ولم تكد فناجين الشاي تأتي، بعد القهوة حتى ضحك ابن العليان، خاصة حين خيم الصمت، وقال:

ـ . . . إذا الواحد بفمه حصوة، يا شيخنا، ما يقدر يحكي أو يقول قبل ما يرميها.

رد العجرمي بمودة وحزم معاً:

ـ سم يا ابن الحلال، والرسول، مثل ما قالوا، مبلغ ما هو ملوم.

كان العجرمي مستعداً لكل الاحتمالات، وكان طبعه الحاد، وعناده يجعلانه بنظر الكثيرين شخصاً صعباً. إما إذا بدأ الحديث، خاصة مع الخصوم، فإنه، إضافة إلى القسوة، يعرف كيف يسخر، وكيف يحرض الآخرين. الآن، وقد استقبل وفد السلطان، كان على ثقة أن لديه ما يقوله، أو أن لديه طلباً، وكان رده بهذه الطريقة لكي يخلق طمأنينة، ولكي يهيّئ لنفسه موقعاً قوياً إذا أراد أن يحارب.

سأل عثمان العليان مهيوب:

ـ تتكلم أو أتكلم؟

رد مهيوب وهو يبتسم:

ـ سم، طال عمرك. . .

ولكي يهيّئ العجرمي نفسياً تابع مهيوب:

ـ ويا ليت كل التكليفات والطلبات مثل طلبنا هالحين من أبو مشعل!

قال العجرمي بحزم، هذه المرة، ودون مودة:

ـ سموا. . . يا جماعة الخير.

فرك عثمان العليان يديه وقال:

ـ طلب منا طويل العمر نصلك، نبلغك تحياته، ونسأل عن خاطرك وصحتكم وطلب منا نبلغك أنه يريد يناسبك، يريد بنتك!

فوجئ العجرمي بالطلب، تطلع حواليه أكثر من مرة، تطلع إلى الوجوه التي تترقب منه كلمة، وغرق في الصمت. لديه ابنتان لم تتزوجا بعد، الكبيرة، وقد بلغت الأربعين، أو تجاوزتها قليلاً، من زوجته الأولى، وهي بالإضافة إلى يأسها من الزواج، فقد أصبحت المسؤولة عن البيت والأولاد، ولم يعد أحد يفكر أو يطرح مسألة زواجها، حتى هي، أصبحت

تتأذى وتحتد إذا جرى الحديث ليس عن احتمال زواجها بالذات، وإنما عن أي زواج. أما الثانية، من زوجته قبل الأخيرة، فإنها لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، ولا يزال ينظر إليها كطفلة، خاصة وأنها جاءت لأمها: جميلة الملامح، وإن تكن صغيرة الحجم. هل يريد السلطان الكبيرة أم الصغيرة؟ وهل تصلح أي منهما للزواج.

كاد في لحظة من اللحظات أن يقول كلمة واحدة لينهي الموضوع، «ما عندي بنات للزواج». لكنه فكر في نتائج هذا الجواب، وتذكر الهدايا التي وصلته خلال الفترة الأخيرة، خاصة تلك الفرس التي أصبحت حديث موران، بعد أن ركبها مشهور، الابن الأوسط للشيخ العجرمي، وأخذ يختال بها في أسواق المدينة، وبدا يهيّئ ويقسّم مواليدها، لمن سيكون أول بطن، والبطن الذي يليه، ولام الشيخ نفسه أن تصرف بسرعة، خاصة بالمال الذي أرسله السلطان، إذ دفعه بكامله لابنه الكبير، مشعل؛ ومشعل الذي بدا غاضباً، أول الأمر، لأن مشهور استولى على الفرس، لم يتأخر لكي يبعث بالمال، مع اثنين من التجار، وقد سافرا إلى مصر، من أجل شراء رعية غنم، «ومعها كم راس خيل» وأوفد معهما راعياً لكي يعود بالغنم عن طريق غزة هاشم.

مرت هذه الصور والأفكار برأس الشيخ، ولا يعرف كم مضى عليه وهو صامت. حين رفع عينيه إلى الذين ينتظرون، قال، وخرج صوته مسكيناً:

ـ سلّموا على أبو منصور، وقولوا له أبو مشعل يمر بك بعد يومين، وإن شاء الله يصير خير!

كاد مهيوب يستوضح ويتأكد، لأنه يريد أن يحمل جواباً محدداً للسلطان، إلا أن ابن العليان غمزه أن لا يفعل، إذ من اللائق، ومن الأفضل، أن يترك للأب فرصة، لا ليرفض، وإنما لكي يبرر قبوله، وليشعر أيضاً أنه قادر على أن يقول لا أو نعم.

قال عثمان العليان، وهم يستأذنون للانصراف:

ـ قال الأقدمون، يا أبو مشعل: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان» وحنا، والله يشهد، إن كلمتنا كانت من القلب. . .

ابتسم، نظر إلى مهيوب، ثم أضاف:

ـ ما هي كلمتنا حنا، يا أبو مشعل، كلمة طويل العمر، ومثل ما قلت: حنا رسل، واللي علينا سويناه!

قال العجرمي، وكانت نظراته لا تستقر في مكان:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير.

بين زيارة الوفد للعجرمي وعودته، جاء من أبلغ السلطان أن للعجرمي بنتين وليس بنتاً واحدة، كما ذكرت قابلة القصر، حين سئلت. وقال هؤلاء أن البنت الكبيرة كبيرة، ولا يتذكرون هل ولدت قبل السيل الذي أخذ العارض كله أو بعده بسنة، لكنهم يتذكرون أن العجرمي تزوج قبل السيل بسنتين أو ثلاث سنين، ويتذكرون أيضاً أن الولد الأول مات، وقد حزن عليه العجرمي كثيراً، وجاءت بعده بنت، ولا بد أن تكون هي هذه.

ولم ينتظر السلطان. بعث يستفسر من جديد، بعث لسؤال القابلة، وأمي زهوة، ونساء أخريات، وحين تأكد أن للعجرمي بنتين في بيته، شعر بالخطأ أنه لم يسم ولم يحدد. قال أمام عدد من خاصته:

ـ بنت الحرام وريدة، تحسب أن الدنيا والناس هم بس اللي ولدوا على يدها، وما تدري أن قبل إبراهيم نوح وقبل نوح آدم. . .

وهز رأسه بأسف، وبعد قليل صاح:

ـ هاتوا ابن البخيت، يمكن يلقى لنا فتوى.

حين وصل عبدالله البخيت، كانت عيناه حمراوين، ويمشي متعثراً. دخل وسلم، وكان أقرب إلى الخمول والصمت. سأله السلطان، بعد أن طلب إليه القهوة، بمداعبة.

ـ اشوف، يا عبدالله، وكأنه عندك قصور نوم!

رد بنزق:

ـ تسهّرونا للفجر، وبعدها تروحون تنامون، وحنا نعدّ النجوم، فإذا أخذنا غفوة تصيحون: وين فلان وين فلان، وحنا، الواحد منا، مثل الذيب، عين مفتحة والثانية ما تعرف تجاري أختها أو تنام.

ـ هاتوا قهوة لأبو بادي!

وبعد أن دارت القهوة عدة مرات، وبعد أن صحا عبدالله البخيت، وطلب السلطان من الذين كانوا في المجلس، أن يتركوه وابن البخيت، سأله، وكان صوته مليئاً بالقلق:

ـ وقعنا بمشكلة، يا عبدالله، وما لنا غيرك!

استيقظت حواس ابن البخيت تماماً:

ـ خير، يا طويل العمر؟

وأبلغه كيف بعث بابن العليان ومهيوب وعدد من رجاله إلى العجرمي ليخطب ابنته، وربما تكون فرصة العمر بالنسبة للعجرمي أن يزوج ابنته الكبيرة، والتي لا يعرف عمرها هل ولدت قبل سيل العارض الكبير أو بعده بسنة أو سنتين. وأضاف السلطان أنه حين فكر بأن يناسب العجرمي كان يريد الابنة التي وصفتها له وريدة، وهي صغيرة وجميلة.

وإذا كان ابن البخيت يتظاهر بأنه هزم، في أغلب المعارك التي يكون فيها السلطان الطرف الآخر، فقد وجد فرصته الآن لأن يداعب السلطان، أن يثيره. قال وهو يترنم:

ـ لا تنكحن عجوزاً إن دعوك لها   وأن حبوك على تزويجها الذهبا

وأن أقول وقالوا إنها نصف   فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

أي نعم، الذي ذهبا، هذا الذي قاله ابن قتيبة، في كتاب النساء، أما إذا أردت رأيي، يا طويل العمر، فإن المرأة الكبيرة، المجربة، أفضل من الصغيرة، لأن الصغيرة لا تترك الرجل ينام، وأنت تعرف أن اللي ما ينام تحمر عيونه، فإذا وعّوه قبل ما يشبع نوم يصير نقمة على نفسه وعلى غيره!

ـ الله يخزيك، دعيناك تصير لنا عون تراك طلعت علينا فرعون!

رد ابن البخيت بجد:

ـ أشهد بالله أن العجرمي، أبو مشعل، غالٍ عليّ، وإذا كان الواحد غالي، فأهله غالين، وبنته الكبيرة يلزم تتزوج، يلزم تفرح. الله خلقها، مثلها مثل غيرها، وحرام أن تجي للدنيا وتروح دون ما تعرف رجّال، والله سبحانه وتعالى، راح يحاسب رجال موران كلهم إذا تركوها تموت بلا زواج، دون ما تفرح.

ـ اسمع يا ابن البخيت: همومنا كثيرة وما نريد زود، وهالحين، ما بعثنا وراك، وما ردناك إلا حتى تعاونا، فاترك كلام الهزل واحك جد لي.

بعد أن ضحك ابن البخيت بقهقهة، قال بمرح:

ـ فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بادواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يرون ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

قال له السلطان وهو يبتسم:

ـ اتركنا من هذه السوالف يا عبدالله، وهالحين نريدك تدوّر لنا حل.

ـ تريد حل أبو موسى أو عمرو بن العاص يا طويل العمر؟

ـ أريد يظل العجرمي من جماعتنا، فإذا قال: الكبيرة، وقلنا: لا، وقعت بيننا إلى قيام الساعة، وهذا أبد ما نريده.

ـ يعني أبو منصور يريد الصغيّرة؟

ـ أي نعم، يا ابن الحلال، وهذا ما ينراد له سؤال!

ـ قال الشاعر:

يكاد حباب الماء يخدش جلدها ... إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
ولو لبست ثوباً من الورد خالصاً ... لخدّش منها جلدها ورق الورد
يثقلها لبس الحرير للينها ... وتشكو إلى جاراتها ثقل العقد
وأرحم خديها إذا ما لحظتها ... حذاراً للحظي أن يؤثر في الخد

ـ اسمع، يا عبدالله، اخطينا وفزعناك من نومك، لكن، والله، إذا ظليت تقص عليّ شعر فلان وفلان، وتقول فلاني وتركاني، لاخليك تتزوج الكبيرة...

وضحك السلطان، ثم تابع:

ـ تذكر... قبل سفرك، قلت من بد ولازم نزوجك، رضيت ما رضيت ما يهم، وهالحين أقول للعجرمي: يا أبو مشعل: الجماعة جوا يبغون يخطبون لابن البخيت، سمعوا عندك بنت بعمره، وخجل يقول لك، وأريدك ما تردني يا أبو مشعل، ويلزم نقرأ الفاتحة.

حاول عبدالله البخيت أن يضحك، لكن وجد أن فكيه لا يطاوعانه، وبدا له أن السلاطين يستطيعون أن يفعلوا كل شيء، بما في ذلك إجبار الإنسان على أن يتزوج. قال وهو يعتدل في جلسته:

ـ اللي يريده أبو منصور هو اللي يصير.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وقال عليه الصلاة والسلام: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، إن القلوب إذا كلّت عميت»، وأنا وأقول الصدق، يا طويل العمر، بعدني ما غفيت، بعدما قال المؤذن: الله وأكبر، وقلت لروحي: نم لك ساعة زمان يا ابن الحلال حتى تستريح، إلا والجماعة فوق راسي: «قم، قم ولا تتأخر، طويل العمر يريدك». وقمت وجيت على نيتي، ما أعرف كبيرة أو صغيّرة، وأنت، طال عمرك، بلا سلام وبلا دستور: الكبيرة ما نريدها، الصغيرة نريدها، وأنا بين النايم والصاحي، ما طلع معي إلا شعر وسوالف.

وأمر السلطان بالقهوة من جديد.

في نهاية اللقاء قال عبدالله البخيت:

ـ وكل الله، يا طويل العمر، وما يصير ألا تريده!

في اليوم التالي، قبل أن يزور عبدالله البخيت العجرمي، استفسر من وريدة، وغيرها من نساء القصر، عن اسم البنت وعمرها، وفيما إذا كانت لها أخوات أخريات، ووريدة التي كانت خائفة مرتكبة، قالت إنها تعرف فقط نجمة، في سن الزواج. وعادت وذكرت حفيظة، وأكدت أن حفيظة عمرها سبع سنوات، أو ربما أقل. أمي زهوة، حين بعث يسألها، قالت،

عن طريق سرور: «العجرمي من زوجته موزة ما عنده بنات إلا نجمة، وهي وحدها بسن الزواج».

أثناء الزيارة، وقد حاول ابن البخيت أن يجعلها زيارة طبيعية، وامتداداً للزيارة السابقة، تطرق إلى موضوعات بعيدة، ولكي يوحي للعجرمي بالأمان، قال، وقد تخير لحظة صمت مناسبة:

ـ ربما تذكر يا شيخنا ما قاله قيس بن ذريح.

هز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ قال:

لو أن امرأً أخفى الهوى من ضميره ... لمتّ ولم يعلم بذاك ضمير

ولكن سألقى الله والنفس لم تبح ... بسرك والمستخبرون كثير

وقال مسلم ابن قتيبة: «لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة، لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة، ويبعدها وهي قريبة، ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك. ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته!».

والعجرمي الذي ابتسم لأنه أعجب بما سمع، أو بما تخيره ابن البخيت، كان واثقاً أيضاً أن هذه الزيارة لها علاقة بزيارة الأمس، ولذلك بدا مبتسماً، مستعلماً، منتظراً، بل وأكثر من ذلك كان يريد أن يعرف ما وراء رغبة السلطان. قال بعد أن تهيأ:

ـ يا عبدالله، أدري إنك عالم قبل ما تكون من جماعة السلطان، ويلزم أن أقول لك شي ما قلته لغيرك، من قبل، قالوا: «لا تقرب السلطان إلا كما تقرب الأسد، فإن طاوعته اتعبك وإن خالفته أتعبك»، وهالحين أريد أن أسمع منك.

ـ أنا وأنت شي واحد، يا أبو مشعل... سم.

ولما ظل العجرمي صامتاً، ابتسم ابن البخيت، وزفر ثم قال:

ـ حنا، يا أبو مشعل راس مالنا نشيله ويانا وين ما رحنا وين ما جينا، وما عندنا غيره...

وأشار إلى رأسه وإلى صدره، وتابع:

- بس هذا ما يكفي، يلزم نداري زمانّا، صحيح إنّا ما نريد نصير سلاطين، لكن ما نقدر نعادي السلاطين، وإذا السلطان راد. . .

رد العجرمي بنزق:

- يا أبو بادي. . المسألة ما هي مسألة نجمة، نجمة له، بس أخاف باكر يصل الكفار إلى هنا ويقول لي: تعال يا أبو مشعل أفتي، وهذي ما أقدر عليها!

وابن البخيت الذي ردد اسم نجمة عدة مرات، لكي يميزها عن أختها الكبيرة نعيمة وعن أختها الصغرى حفيظة، بدا متشككاً من سرعة الموافقة، فاختلطت عليه الأسماء من جديد، قال لكي يعيد النقاش إلى مجراه:

- ويلزم أقول لك، يا أبو مشعل: طويل العمر قال: راح نناسب الشيخ العجرمي، راح نطلب منه بنته نجمة، بنت المرحومة موزة. قلت له على الخير والبركة يا طويل العمر، وبالرفاه والبنين، لأن الطيبات للطيبيين والطيبين للطيبات.

- وبعدها، ما بي غير شي، يا عبدالله؟

- علمي، يا أبو مشعل، يريد يناسبكم، وهذا كل شي.

- إذا كانت بس هذه فعلى خيرة الله، له نجمة والدنيا قسمة.

الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة زواج السلطان كانت كبيرة وباذخة لدرجة لم تترك أحداً إلا وجعلته يتكلم أو يتساءل. والسلطان الذي أراد من هذه المناسبة أن تعبّر عما وصلت إليه السلطنة من حيث القوة والرخاء، كان يريد أيضاً أن يعطي درساً لنساء قصر الروض، فالمرأة قريبة وعزيزة بمقدار طاعتها وامتثالها. وكان يريد السلطان أيضاً: أن يحاول بشكل غير مباشر، إغراء فنر، أن يجعله يغار أو يقتنع أن زواجاً جديداً أمر سهل للغاية، يجب أن يفكر فيه، وأن يقدم عليه بأسرع وقت ممكن. أما أن يعذب نفسه، أن يتأرمل في هذه السن، وأن يعتبر زينة بداية الخليقة ونهايتها، فعندئذٍ لا بد أن تكون حياته السابقة في عين فضة قد أفسدته،

ولذلك لا بد من أجل إصلاحه ان يبذل جهداً، وأن ينتظر الوقت المناسب.

ابن العليان وعبدالله البخيت اللذان حضرا بداية احتفالات الزواج انسحبا في وقت مبكر، دون أن يحس بهما أحد، وقد تعودا أن يفعلا ذلك حين يشعران أنهما بحاجة إلى «بنزين» خاص تعودا عليه في الأماكن الأخرى، حيث عاشا.

قال ابن العليان يسأل عبدالله البخيت:

ـ ما هو قولك ببنت العجرمي؟

وحين ضحك ابن البخيت بقهقهة، وهو يهز رأسه، تابع عثمان:

حنا، يا أبو بادي، اللي بعنا وشرينا بالسوق وما نعرف اللي بعناه أو اللي شربناه، وهذا ما يجوز من الله!

وبعد قليل وهو يدق كأسه بكأس ابن البخيت:

ـ وتأكد، باكر، إذا الله حاسبنا، إذا سأل شنهو اللي بعتوه وشنهو اللي شريتوه، راح يجلدنا ألف جلدة، لأنّا ما نعرف! يجلد ويقول: تستاهلون يا أولاد الحرام، لأن اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس! وما كان يلزم تبيعون سمك بماي!

هز ابن البخيت رأسه حزناً، وبعد قليل، وهو يرفع إلى عثمان رأسه بميل واضح:

ـ لكن خويك ما تركها على غاربها. صحت على وريدة: تعالي يا ولية: هذه البنية اللي تعبنا حتى حصّلناها لطويل العمر شلونها؟ طويلة، قصيّرة، حلوة، قولي...

ـ وأخذت منها حق أو باطل؟

ـ قالت كثير، يا أبو عزيّز، وفهمت من كلامها مثل ما حدّث المدائني، والأحسن أقول لك ما قاله هذا الشيخ نقلاً عن امرئ القيس، وقد بعث امرأة لترى امرأة وتصفها له، فقالت: «أبيت اللعن لها فرع كأذناب الخيل المظفورة، فإذا أرسلته قلت عناقيد ممطورة، أسفل منه جبهة

كالمرآة المصقولة، أسفل منها عينين عبهرة، لم يرعها قانص ولا قسورة، بياضها كبياض المحض العقيق، وسوادها كسواد دامس الغسق، بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يكن فيه قصر ولا به طول، حفّت به وجنات كالأرجوان، في محض بياض كالجمان، وفم كرأس رمانة، شبهت بالدر النظيم أسنانه، يتقلب فيه لسان ذو حلاوة، وبيان يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان كالزبد يحلجلان ريقاً كالشهد، ركب في عنق لمن يراه، يتصل به عضدان مدملجان كأنهما في نقائهما اللؤلؤ أو المرجان، فيهما ساعدان لا يرى فيهما زندان، شرعت فيهما كفان، فيهما بنان كالفضة قمعت بالعقيان المدمجة، يحيط بها كالقراطيس المدرجة، تنتهي ذلك منها إلى خصر يكاد منها، لولا رحمة الله، تبين في كفل يقعدها إذا ما قامت، ويوقظها إذا هي نامت، يحملها فخذان مدملجان كأنهما قلبان، وساقان أجردان، يحمل ذلك كله قدمان لطيفان محدودتان كحّد السنان فتبارك الله كيف صغرهما ولطفهما، يطيقان حمل ما فوقهما، أما ما وراء ذلك، أيها الملك فإني تركت ذكره. . .».

يعد هذا التدفق الذي بدر من عبدالله البخيت، ويبدو أنه حفظه منذ زمن طويل، ورواه مرات كثيرة، ونتيجة للسرعة، فإن عثمان العليان لم يستطع أن يرسم صورة واضحة عن هذا الكلام كله.

قال وهو يزفر:

ـ أنت، يا ابن البخيت، الله خلقك حتى تدوّخ الناس، وحتى ما تقول لا حق ولا باطل!

ـ كل هذا الكلام وما عجبك شي؟

ـ حنا سألناك، يا ابن الحلال، البنت مزيونة؟ تسوى التعب وشلعان القلب أو شي ثاني؟

ـ شي ثاني!

وضحك ابن البخيت بصخب، وبعد قليل أضاف:

ـ ناظر العجرمي: أسود مزنجر، طوله شبر وحلقه فتر، أنفه قبة،

وعينه ميلة شارع اليهود، ومثل قطاة ما لاقت ماي، والأم، الله يرحمها، ما شفناها، لكن خلّفت وقالت: في أمان الله، وأنت، يا الشيخ، رضع وفض، والباقي عندك يا أبو عزيز!

ـ يعني الأوصاف اللي قلتها ما تلقى منها شي؟

ـ إنما الشعراء يتبعهم الغاوون. لأنهم دائماً، يا أبو عزيز، بدل ما يفرحون بما خلقه الله، يخلقون أوصاف وأوهام ويضيعون فيها، ويفرّحون نفسهم عليها ويريدونا نفرح معهم، لكن النتيجة أنهم لا يفرحون ولا يفرّحون!

ـ يعني طويل العمر الليلة تزوج سخلة؟

ـ لا بالله تزوج تيس!

وسار ركب السلطان إلى العوالي وكان ضمن الموكب الخاص: هاملتون والعجرمي وفنر، إضافة إلى عبدالله البخيت وعدد من المستشارين، وكانت نجمة مع السلطان في هذه السفرة.

لأول مرة، منذ سنوات، يمتلئ قصر الروض بالغيظ، أكثر من الغيرة أو الحقد. ولأول مرة تجمع نساء السلطان رابطة التضامن أزاء الوافدة الجديدة. وإذا كانت العادة، في زيجات سابقة، أن ترصد العروس، بكثير من العناية، لاكتشاف عيوبها، وكانت في الغالب عيوباً خفية أو هينة، سواء من ناحية الشكل، أو التصرف، أو ربما أكثر خفاء من ذلك! فقد كان دائماً يوجد من يتصدى للدفاع عن التي تدخل القصر لأول مرة، وإذا لم يكن ذلك نتيجة الاقتناع في الغالب، فلا أقل من محاولة ضم الطير الجديد إلى سرب من الأسراب المتنازعة. كان يشار إلى الجمال، إذا كانت جميلة، وإلى العراقة إذا لم يسعفها الجمال. وكان يشار أيضاً إلى مواضع خاصة لا تلحظها العين بسهولة، كصغر السن، أو دماثة الخلق، وبعض الأحيان إلى الملابس التي ترتديها، أو حتى إلى العطر الذي تستعمله ويفوح ليملأ المكان، كل ذلك، في محاولة لتسجيل بعض النقاط.

كانت نجمة العجرمي موضع إجماع القصر في الرفض والإنكار. فقبل أن تصل، ورغم استمرار تكذيب أخبار هذا الزواج، حتى قبل الزفاف بليلتين، فقد رسمت لها صورة تبعث على الإضحاك والشفقة في آن واحد. وإذا كانت أية من زوجات السلطان لم تكلف نفسها عناء التحدث في الأمر، لأن كل واحدة منهن تعتبر نفسها أكبر وأهم من الخوض في زواج مثل هذا، والذي ظلت أسبابه أو دوافعه غير واضحة، فإن الخادمات قمن

نيابة عن السيدات بإشاعة الأخبار: «من يوم موت لولوة والعجرمي له مثل ظله، يكتب له حجب ويشمّمه الزعوط، وبين الاثنين يبخّره ويدهنه، وما عاد يأمن لأحد؛ قبل ما يمد يده إلى طعام يلزم اللي طبخة يأكل منه؛ وما يشرب قهوة إلا من يد فرحان المدلول. ما هو بس كذا ما عاد أحد يعرف وين ينام ومتى. وبعد ما تعّبه العجرمي ودوّخه قال له: دواك عندي. وشنهو الدوا؟ هذي المسخوطة، المعظّمة، اللي ما أحد يشريها بنواة، وهذه اللي طردتها زوجته الأخيرة، هي اللي صارت الدوا» وتضحك التي تتكلم لتضيف الأخرى: «والله العليم أن الصناديق اللي جت معها كلها بلاوي: سفوف ودهون وسخام البين، لأنها ما تركت أحد يقرب منها، وكانت أحرص عليها من الذهب والحرير، ما هو بس كذا، سفّرتها كلها معها، وكانت عمتها احرص منها وهم يحمّلون الصناديق: ديروا بالكم، على مهلكم، خاف تقع، خاف تنفتح، وعلى روسهم وهم يشيلون ويحزّمون» وتضيف الأولى «على قولك، وإلا اللي تريد ترجع، اللي تريد تلقى لها مكان بقصر الروض، تطرح به شي، تطرح ولو حجر. هذي ابد، أخذت كل شي معها».

وقد تأكدت الإشاعات وترسخت حين سافر العجرمي مع السلطان. لأول مرة، يسافر. ولأول مرة يحرص السلطان على أن يكون معه. وهذا يفسر أيضاً كيف تم انتزاع الفرس التي هرّبتها فضة، ثم هيأتها لتكون هدية لابنها راكان، حين يتم الاحتفال به على أنه بلغ مبلغ الرجال. انتزعها السلطان دون تردد وبعث بها إلى العجرمي قبل الزواج بأسابيع.

مرافقة العجرمي للسلطان إذن لم تكن بسبب صلة النسب التي قامت خلال الفترة الأخيرة، كما أشيع، وإنما بسبب الدور السحري الذي بدأ يمارسه على السلطان منذ أن داهمته تلك الكوابيس حول احتمال قتله أو تسميمه، وأن ذلك يتم، كما أكد بعض الذين سمعوا العجرمي، من داخل القصر، ومن أقرب الناس إليه.

فضة كانت أول وأكثر نساء السلطان التي شعرت بالإهانة، وأوعزت لخدمها وعبيدها أن لا يتركوا شيئاً يمكن أن يُروى عن العجرمي ألا ويجب

أن ينقلوه لكي يعم ويشيع، وجارتها النساء الأخريات بعد بضعة أيام. حتى وطفة التي خافت، أول الأمر، نتيجة مقتل لولوة ثم حزنت بعد انقطاع السلطان، لم تتأخر في الإيعاز إلى الخصيان والخدم لأن يتحركوا. ومثل عادة الخدم دائماً، فقد بالغوا كثيراً، وأكدوا أن العجرمي وراء مقتل لولوة، ودليلهم على ذلك أنه وحده المستفيد مما حصل. يضاف إلى ذلك أنه رفض الصلاة على جثمان القتيلة، حين طلب منه، وكان تبريره: «المغدورة قتلت نفسها ولم يقتلها أحد».

طالع العريفان، مثل عادته، انشغل بتأمين مستلزمات الزوجة الجديدة، بعد أن خصّها السلطان بواحد من الأجنحة الثلاثة الفخمة التي بنيت بعد أن ترك خزعل قصر الروض، وقد استغرب الوضع الجديد في القصر، إذ كانت العادة أن تكثر الطلبات في مثل هذه الحالات، وأن تتعارض إلى أقصى حد، بقصد خلق جو من الإرباك والتحدي أكثر مما هي لإزعاج الوافد الجديد. هذه المرة بدت الأمور مختلفة. قال طالع لعرفان الهجرس الذي جلب له «فرمان» السلطان، المختوم والموقع عليه.

ـ ما تقول لي يا عرفان: اشوف بنت العجرمي تختلف عن غيرها من نساء طويل العمر «كل شي يلزم يكون منتاز منتاز» وبدل الواحد اثنين، ويلزم اليوم قبل باكر، ما تقول لي شن هي السالفة؟

ـ أنت أدرى، يا أبو جازي، صار لك سنين بالقصر، وتعرف الصغيرة والكبيرة.

رد بتورية:

ـ كل كبيرة عرفناها يا عرفان، بس هذي، لأنها صغيرة، ضاعت علينا.

ـ لأنها شيخة وبنت شيوخ يا أبو جازي!

تطلع إليه ابن العريفان، ابتسم ابتسامة كبيرة هز رأسه عدة مرات وقال:

ـ هالحين عرفنا السبب، وإذا عرف السبب بطل العجب!

كان الاثنان يشيران إلى أن العجرمي لا يُعدّ ولا يذكر حين تسمى القبائل ويسمى الشيوخ!

ومثلما كانت طلائع موكب السلطان في مرات سابقة قواته العسكرية، فقد كانت طلائعه هذه المرة أمواله ورسله. صحيح أنه تمهل في عدة محطات على الطريق، إذ استقبل عدداً كبيراً من الشيوخ، وأطال إقامته في عين بنات. لقد فعل كل ذلك لكي يتيح لرجاله تهيئة استقبال لائق، وتأمين وصول الأموال والهدايا إلى الذين وُجّهت إليهم.

عبدالله البخيت التزم بتوصية السلطان «أريدك تلازمه مثل ظله يا أبو بادي، وإذا سها عن الصلاة، أو تاهت عليه القبلة، تذكره وتدلّه»، وبعد أن يبتسم السلطان، يقرب فمه من أذن عبدالله ويهمس:

«وصلاتي وتسليمي على سيد البشر عدد ما زها بالنبت نوار الأرياف».

وحين يدير ابن البخيت رأسه عجباً لأن السلطان أخذ يردد القصيد، يضيف السلطان وهو يطبطب على كتفه:

ـ وأريدك يا عبدالله تفهّمه أنه إذا كان يعرف الله ويسبحه مرة حنا نعرفه مثله ونسبحه ميّة مرة!

وابن البخيت الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور ليوم أو ليومين، لا يستطيع أن يمثل طوال أسابيع. ليس ذلك فقط، فإن السلطان ذاته، وفي أحيان كثيرة، ومهما أبدى من الجد، أو مهما وصل به الورع، كان يروق له في حالات التعب، ومع رجاله المباشرين، أن يسمع النكات، أن يقهقه، ولا يتردد في أن يخوض في أحاديث النساء أيضاً.

الآن، في هذه الرحلة الطويلة والبطيئة، ونتيجة وجود العجرمي، فقد سادت تقاليد جديدة، أقرب إلى الصرامة، فلم يبق أحد إلا واستغرب وتساءل. ومما زاد في الإرباك أيضاً أن نجمة كانت المرأة التي ترافق السلطان، إذ لو كانت امرأة غيرها، أو لم يكن العجرمي أباها، لاستطاع ابن البخيت أن يخترق هذا الحاجز الصلب من الجدية، وأن يجد طريقة لإشاعة جو جديد من المرح يساعد على تحمل أعباء الرحلة.

قال لابن العليان وهما في عين بنات:

ـ تعرف يا أبو عزيّز؟

نظر إليه عثمان بتساؤل دون أن يجيب. تابع:

ـ والله، لو أن الجماعة اللي سموا هذي العين عين بنات يعرفون أن شيخنا راح يمرح هنا لكان سموها عين هباب أو عين غراب!

السلطان الذي كان يتمشى غير بعيد مع هاملتون وفنر، وكانوا يستعيدون ذكريات أيام ماضية. طرقت سمعه ضحكة عثمان العليان الصاخبة، ابتسم، وبدأ يتوجه نحو الاثنين، وحين أصبحت المسافة كافية لأن يتبادل معهما الحديث سأل:

ـ ها، يا جماعة الخير، أشوفكم تركتم الخويا وانفردتم، وكأن ابن البخيت يريد يطلع قصور السوالف، ويريد يضحك عن أجداد أجداده.

قال ابن بخيت، وقد اتخذ مسلكاً جاداً وهو يرى العجرمي مقبلاً:

ـ «قيل لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقه؟

فقال: لا بد للمصدور من أن ينفث».

لما وصل العجرمي سلم ونقّل نظراته في الوجوه، لكي يكتشف ما إذا كان الذي سمعه هو الحديث الوحيد أم تم اختياره لأنه جاء. قال لابن البخيت:

ـ شنهو اللي قلته يا عبدالله؟

ـ قلت، طال عمرك، كلام لعبيد الله بن عبدالله...

ـ قله مرة ثانية.

ـ قيل لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقه؟ فقال: لا بد للمصدور من أن ينفث.

ـ وغيره قال، يا ابن البخيت: «إياكم والغناء فإنه مفتاح الزنا».

ـ لكن ما أحد غنى يا شيخنا.

ـ سمعت الطرقيعة من بعيد، قلت لروحي: قم وشوف شن هي السالفة، وصلت وأنت تروي الحديث.

ـ وتعرف يا شيخنا أن عمر بن عبد العزيز قال: «والله إني لاشتري المحادثة من عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعدو بألف دينار من بيت مال المسلمين. فقيل له، يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك وتنزهك؟ فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف الدنانير، أن في المحادثة تلقيناً للعقول، وترويحاً للقلب، وتسرحاً للهم وتنقيحاً للأدب».

قال العجرمي يخاطب السلطان مداعباً، أو ربما ساخراً:

ـ ابن البخيت شويخ، ما هو شيخ، يا طويل العمر، يعرف الأحاديث زين، لكن، ظني، إذا ماني مخطي، دايماً يدير النار نحو قرصه!

ـ والله يا شيخنا كنت أظن أن رأيك بي أحسن!

ـ رأي بك يا عبدالله زين، بس أريدك أحسن وأحسن.

ـ ما دام ترافقنا بهذي السفرة الطويلة، وشفنا، وتعلمنا، يلزم أن البني آدم يتعلم أكثر ويصير أحسن. . .

وضحك ابن البخيت وأضاف:

ـ وإذا كنت سمعت عني شي، من قبل، طال عمرك، فهالحين عرفتني وخبرتني!

هز العجرمي رأسه عدة مرات وقال:

ـ اللي سمعته كثير، يا ابن البخيت، بس كنت أقول لهم دايماً: يا جماعة هذا ابن البخيت ما مثله، عالم وصاحب أدب، وبسفرتنا، والشهادة لله، تأكدت.

قال عثمان العليان ليخلق جواً مرحاً:

ـ إذا اعتمدنا، يا طويل العمر، على ابن البخيت، مثل ما اعتمد عمر بن عبد العزيز على ابن مسعود، أن المحادثة بألف دينار، ترى فلوسنا كلها ما تكفيه، لأن سوالفه كثيرة!

رد ابن البخيت بمرح:

ـ إذا ما حصّلنا حقنا بالدنيا نحصله بالآخرة، لا تخف يا أبو عزّيز، وعلى نياتكم ترزقون!

كان عبدالله البخيت يريد، قبل أن يغادر عين بنات، أن يصيح أوف، وكانت الرغبة ذاتها عند ابن العليان، وربما عند السلطان أيضاً، لكن ذلك الجو الثقيل، اضطر هاملتون لأن يغادره خلال ثلاثة أو أربعة أيام متوالية، واصطحب معه فنر أيضاً، لزيارة الآثار القريبة، مرة أخرى، ولكي يشغل نفسه جزءاً من أول المساء في تدوين ما وصل إليه من نتائج، أما ما تبقى من السهرة فكان يقضيه في الاستماع إلى أحاديث الدين والفقه، أو في معرفة أسماء أولاد فلان وفلان من المعارف!

عنان بسيوني الذي ذهب أكثر من مرة إلى الطريفة وعاد، من أجل أن يساهم، مع الآخرين، في إيصال الأموال التي بعث بها السلطان، ومن أجل تهيئة استقبال يليق بهذه الزيارة، وبعد أن حضر أكثر من أمسية، وكان أبرز المتحدثين العجرمي، قال لابن البخيت وهما يذهبان إلى النوم:

ـ حتى في الأزهر، الجماعة يعرفوا يبتسموا، يقولوا نكتة، دا راجل حقنة، فالله يساعدك، يا أبو بادي، انك تحملته كل الفترة دي.

ـ بالنسبة لي، يا بك، كلها كم يوم، وبعدها في أمان الله، لكن السؤال: شلون أهله تحملوه؟

ـ وشلون راح يتحمله أبو منصور؟

ـ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها!

ـ الله يساعد الأرض وهو فوقها والله يساعدها عندما يصير ببطنها!

الاحتفالات التي أقيمت في العوالي كانت من الفخامة والأهمية بحيث جعلت العجرمي ذاته، يشعر بالقوة والفخر، فهو ليس شيخ موران وحدها، وليس قريب السلطان فقط، أنه الذي يُفتي، والذي يعطي. وعلماء العوالي، الذين اجتمعوا إليه عدة مرات، وتبادل معهم الأفكار والآراء، خرجوا بانطباع أن «الشيخ العجرمي يمكن التفاهم معه، لأنه، بالإضافة إلى سعة علمه، صبور جلود، ويعرف أن لكل مقام مقال». أما السلطان الذي بدا فخوراً بهذه النتائج، فقد طلب من العجرمي ومن فضيلة العلماء أن

يواصلوا النقاش، وأن يتوصلوا إلى النتائج المحمودة. وانصرف إلى الأمور الأخرى.

العوالي التي ظلت، خلال الفترة الماضية كلها، قلقة منتظرة، وعرضة للكثير من التقلبات، ما لبثت أن شعرت بالرحة، نتيجة الأمطار التي سقطت، والأموال التي صرفت. وبدأت أصداء ابن ماضي وتأثيراته تتراجع، فقد مل الناس الحرب، بعد أن أنهكهم الجوع والموت، وشعروا أن الذين يتحاربون لا يعنون لهم شيئاً خاصاً أو هاماً.

الفقراء في العوالي استمروا كذلك، أو ربما ازداد فقرهم، لأن الحرب سدت أمامهم أكثر السبل. أما الأغنياء فقد خافوا أول الأمر، أخفوا أموالهم وتظاهروا أنهم فقدوا كل شيء، بل وتظاهروا بالفقر أيضاً. لكن، والأمور تعود إلى ما كانت عليه، فيرجع البيع والشراء، وتمتلئ الأسواق، أظهر الأغنياء أموالهم من جديد، وبدأوا يشترون ويبيعون، وأصبحوا أكثر غنى من قبل، خاصة نتيجة الأموال التي تأتي من هنا ومن هناك!.

أما الذين كانوا من رجال ابن ماضي، ويحاربون معه أو باسمه، وبعد أن انهارت الدفاعات التي بناها، وانسحب القادة، وتقدمت قوات خريبط، فقد تواروا خلال الأسابيع الأولى، حتى إذا هدأت المعركة عادوا من جديد، وهذه المرة على أنهم رجال خريبط والمتحمسون له. ثم ما لبثوا أن أصبحوا كذلك فعلاً. وهكذا استمر السوق نفس السوق، وزعماء الأحياء نفس الزعماء، وكذلك شيوخ القبائل، والذين كانوا أغنياء.

قال بعض الفقراء وهم يشهدون الدول تذهب وتأتي غيرها:

ـ في هذه الدنيا كل شيء يتغير إلا الفقر والفقراء، الفقر يبقى والفقراء يزدادون!

ولم يعرفوا لماذا يحصل هذا كله، ولماذا يبقون هكذا!

ابن مشعان الذي أراد أن يصل إلى عين بنات لكي يصطحب السلطان، أو ليكون في ركابه، لم يسعفه الوقت، فقد تأخر في ترتيب أموره واستدعاء القوات اللازمة، فتم الاتفاق أن يكون الاستقبال بالطريفة، وبشكل يناسب أهميةِ الزيارة.

قال هاملتون للسلطان:

ـ المهم الآن أن نكسب الناس، أن نرضيهم، لأن الرضا الداخلي ينعكس على الخارج، خاصة في هذه الفترة الحرجة. والناس ليسوا مرتبطين بابن ماضي، وإنما مرتبطون بمصالحهم وأمنهم، فإذا تأمنت المصالح، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم، فإن الفرص المتاحة للوضع الجديد أكبر بكثير مما كانت متاحة من قبل، خاصة وأن ابن ماضي قد استبد بالناس وكلفهم ما لا يطيقون، إضافة إلى ويلات الحرب والدمار.

لم يكن السلطان بحاجة إلى دروس نظرية، كان يريد رجالاً، وكان يريد تنفيذ شيء يمكن أن يلمسه الناس. وإذا كان قد بعث عدة رسل لابن مشعان كي يتصرف بحكمة وتعقل، وأن يكسب رضا الناس، أكثر مما يحملهم على الإذعان، فإن ابن مشعان فهم الرسائل جيداً، خاصة بعد أن اختبر الأمر بنفسه، فلم تمضِ فترة حتى أصبح إنساناً آخر.

قال عبدالله البخيت، حين كان يستعرض السلطان التغير الذي حصل لابن مشعان:

ـ وحنا بمصر، يا طويل العمر، تعلمنا من الجماعة الكثير، تعلمنا منهم المذهب الشافعي والنكت.

رد السلطان بمرح:

ـ وما قولك باللي ما يتعلم، يا عبدالله؟

ـ هذا أبد ما يصير، يا طويل العمر.

ـ صار، يا ابن الحلال!

ـ إذا صار يلزم أنت تذبحه قبل ما يذبحه عدوك!

قال السلطان لابن مشعان في أول لقاء في الطريفة:

ـ العوالي ما مثلها: هواها وماها وناسها...

رد ابن مشعان بانفعال:

ـ العوالي، يا طويل العمر، تقدر تقول إنها غير موران، هنا...

وتلفت إلى أكثر من ناحية؛ ثم أضاف:

ـ الناس هنا يقدّرون، يفهمون، ويمكن تصل معهم للي تريده.
ـ تراك نسيت ماء موران يا ابن مشعان.
ـ ابد ما ينّسى، يا طويل العمر، بس يلزم الإنسان يعرف اللي حوله ويفهمه.
تابع السلطان بمداعبة:
ـ وما تركت ديرة أو عشيرة، يا ابن مشعان، إلا وزرعت فيها، وعسى أن زرعك طاب.
رد ابن مشعان، وقد شعر بالحرج:
ـ الناس، يا طويل العمر، للناس، فإذا الواحد ما مالحهم يحسبونه غريب!
رد ابن البخيت بمرح:
ـ يمالحهم، ما يخالف، بس ما يلهم ملحهم كله!
ـ الملح، يا ابن البخيت، ذرة وينشبع منه، ما هو مثل غير شي.
ومثلما انصرف السلطان إلى استقبال الوجوه والتجار والمشايخ وزعماء العشائر، كما فعل في زيارته السابقة، فعل هذه المرة، وزاد على ذلك بأن زار الكثيرين، وصلى في أكثر المساجد، وكان العجرمي وأغلب رجاله معه دائماً. ولم تقتصر زياراته على الطريفة وما حولها، فقد بدأت تتسع وتمتد، فلم يترك مكاناً في العوالي إلا وزاره. وحين يضطر للبقاء في مكان معين أياماً يبعث بفنر وعدد من رجاله لكي يقوموا نيابة عنه بالزيارة، والتي يرافقها التبسط في الحديث والهدايا والسؤال عن الزرع والمطر. وكان عرفان الهجرس دائماً واقفاً إلى جانب السلطان، ومستعداً دائماً لأن يكتب ما يمليه عليه.
ـ اكتب يا عرفان، وأبد لا تنس شيء، ومن رجعتنا تذكرني، لأن الجماعة طلباتهم مستقيمة ويستاهلون!
قال للعجرمي ذات ليلة، وكانا وحدهما:
ـ أنت، يا أبو مشعل، ما عدت شيخ موران وحدها، فالعوالي تبعتك، والحويزة، وكل أرض وكل ناس تبع السلطان تبع لك يا أبو مشعل!

والعجرمي الذي بدا مهموماً لثقل هذه المسؤوليات واتساعها، كان في داخله يرقص طرباً. فإلى فترة قريبة كان يرتاب بالسلطان، ويود لو أن العلاقة بينهما بعيدة، لكن حين لمس الحب والتقدير، فقد انتعش وتغير.
قال رداً على هذا الكلام:

ـ الله يقدرنا يا أبو منصور، لأن هذه المسؤوليات عليها حساب في الدنيا والآخرة.

ـ ولا بد أنك لاحظت، طال عمرك، أن جماعة العوالي غير جماعتنا، فيلزم أن الواحد يطّول باله ويأخذهم على قدر عقولهم.

وضحك السلطان ثم أضاف:

ـ ولا بد أنك تخبر ابن مشعان شلون كان وشلون صار بهذي الأيام؛ وأهل العوالي إذا داريناهم وشيمناهم، إذا عطيناهم، وقلنا لهم حلت البركة، فهم معنا ما هم مع غيرنا، لا مع ابن ماضي ولا غير ابن ماضي!

ـ الصدق اللي تقوله يا أبو منصور، وكثيرين منهم قالوا لي هذا الكلام.

ـ وما يخفاك، طال عمرك، أن المشايخ هم عماد الدولة والدين، فإذا ارضيناهم، وإذا اقتنعوا، ترانا بألف خير.

رد العجرمي بانفعال:

ـ اترك هذه المسألة عليّ يا أبو منصور، وإن شاء الله ما تكون إلا راضي!

وبانفعال مماثل رد السلطان:

ـ بارك الله فيك يا أبو مشعل، وحنا لولاكم ما نسوي شي.

وبعد قليل وبهمس:

ـ وإذا احتجت قريشات، يا أبو مشعل، حتى تعطي هذا وذاك، ترى الفلوس واجدة، بس أنت تؤمر.

هز العجرمي رأسه ولم يجب.

أربعة شهور متوالية لم يهدأ خلالها السلطان أو أحد من رجاله. ورغم التعب والسفر المتواصل، بدا له أن النتائج التي تم التوصل إليها مرضية. لم يكن هذا رأيه وحده، كان رأي أغلب المستشارين، وبدا كل واحد من هؤلاء متفائلاً. حتى العجرمي الذي يفضل أن يبقى قريباً من السلطان وملازماً له، ما لبث أن انفرد، وأخذ يقوم بزيارات خاصة، وترافقت هذه الزيارات مع وعود كثيرة ببناء المساجد وتحسين أحوال المشايخ. ورغم أنه اعتبر المال، في بداية الأمر، مفسدة، ويجب ألا تلجأ إليه الحكومة، فقد وجد أن حالات معينة لا يمكن أن تعالج إلا عن طريق المال، مما اضطره لإشعار السلطان. قال لجلالته ذات ليلة:

- . . . والجماعة هنا، يا أبو منصور، تعودوا عادات ما هو من السهل يتركونها، وهم دراويش ومساكين، فإذا حنا ما تصدقنا عليهم ما من أحد يتصدق، ومن رأي نخصص لهم شي.

- حلت البركة، يا أبو مشعل، بس أنت قول.

- أنا بيدي، يا طويل العمر، ما أمسك قرش واحد، أنا أقول اصرفوا والوكيل هو اللي يصرف.

- ما يخالف، طال عمرك، وحنا دايماً نريدك كبير، وهذي الأمور الصغيرة لها ناسها، بس أنتم اللي تناظرون وتأمرون، وهم اللي ينفذون!

- على خيرة الله!

في إحدى الليالي، وعلى حين فجأة وصل القنصل البريطاني، كان السلطان بين دارة ودريم، على مسافة من الطريفة، وقد وصلها وبنى معسكره، وقرر أن يستريح بعد هذه الرحلة الطويلة.

القنصل، رايان سميث، رغم دمائته، ورغبته في تقديم المساعدة، واستعداده لتسهيل المعاملات إلى أقصى حد، عكس إيجلتون الذي كان قبله، بدا في تلك الليلة إنساناً آخر:

ـ إن حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى تبلغ جلالتكم، بمزيد الأسف، أنها مضطرة لإعادة النظر بعلاقاتها مع حكومتكم، وقد تكون مضطرة لاتخاذ تدابير عاجلة في مناطق الحدود بعد الاعتداءات الخطيرة والمتكررة التي قامت بها قوات جلالتكم.

فوجئ السلطان بالزيارة، وفوجئ أكثر بلهجة القنصل الجافة والحازمة، ولم يكن يدري بوقوع الاعتداءات. قال للقنصل بتبسط، لكي يزيل الغضب:

ـ أول مرة تفهمنا، الله يسلمك، شنهو اللي صار، وبعدها تقول لنا يصير وما يصير!

ـ إن حكومة صاحب الجلالة تعتبركم مسؤولين مباشرة عن الاعتداءات.

والسلطان الذي يمكن أن يغضب ويحتد لأمور أقل من هذه بكثير، احتمل غضب القنصل، وقدر أن حوادث معينة وقعت، ولم تصل إلى علمه. قال للقنصل:

ـ كل مشكلة، يا ابن الحلال، ولها حل، بس علّمنا شنهو اللي صار.

ازداد القنصل غضباً، فقد أحس أنه موضع سخرية نتيجة التجاهل الذي يبديه السلطان، إذ لا يعقل أن أخبار الحويزة لم تصله، لكن مثل عادة البدو دائماً: يعرفون كل شيء، لكنهم يتظاهرون أنهم لا يعرفون أي شيء، بهدف أن يختبروا الخصم، أن يجدوا ثغرة في كلامه أو مواقعه لكي يبدأوا الهجوم. القنصل يعرف هذه المعلومة، وقد اختبرها بنفسه، ولذلك اعتبر أن السلطان يلعب معه هذه اللعبة.

وصول هاملتون وفنر، وقد تخلل اللقاء في الدقائق الأولى، الحديث باللغة الإنكليزية، أزال الالتباس وغيّر الجو.

اعتذر القنصل، بشكل عابر، لأن جلالة السلطان لم تصله بعد أخبار

الاعتداءات الخطيرة التي وقعت من قبل قوات ابن مياح على مناطق الحدود وعلى القوافل، وأن هذه القوات توغلت إلى مسافات كبيرة، والعالم كله لا يتحدث إلا في هذا الموضوع، وأن بريطانيا وأصدقاءها، إذا كانوا قد تحملوا في الماضي، فلم يعودوا قادرين على السكوت.

بدا الذهول على السلطان لسماعه هذه الأخبار. ظل فترة طويلة صامتاً، يهز رأسه وقد ارتسمت أمامه ثلاثة وجوه: وجه خزعل والذي يشبه وجه الحصان، ووجه ابن مياح بنتوئه وأنفه الحاد والذي يشبه الذئب، أما وجه عمير، والذي كان يتداخل مع الوجهين السابقين، فكان يتغبر كل لحظة، ولم يستطع أن يتصوره بدقة.

ظل السلطان مطرقاً مفكراً مهموماً، والعادة أن لا أحد يستطيع أن يكسر الصمت، إلا إذا سمح. والقنصل الذي تضايق من هذا الصمت، اعتبر أن اللعبة البدوية الماكرة لا تزال هي المسيطرة، وان أخذت في الطور الجديد شكلاً مختلفاً.

قال لهاملتون شيئاً باللغة الإنكليزية، رد عليه هاملتون بكلمة أو اثنين. تنحنح وخاطب السلطان:

- جئت إلى هنا، يا صاحب الجلالة، لكي أقدم احتجاجاً باسم حكومتي على هذه الاعتداءات، ولكي أبلغكم أيضاً أن حكومة صاحب الجلالة تحتفظ لنفسها باتخاذ الإجراءات التي تراها مناسبة، بما في ذلك الرد العسكري.

فتح السلطان عينيه، وعبّرت نظرته، وقد تطلع إلى الذين حوله، عن الغضب والتوسل معاً، وبدا أنه غير قادر على الرد. تابع رايان سميث:

- وقد طلبت مني حكومتي أن أبلغها بالإجراءات التي سوف يتخذها صاحب الجلالة.

قال هاملتون:

- هل تسمح لي يا صاحب الجلالة؟

رد السلطان بانفعال وحزن:

- أنت يا الصاحب معنا من يوم ما تركنا موران، وتعرف كل شي،

وحنا، الله الوكيل، لا علم ولا خبر، بس هذا الكلب ابن الكلب، ابن مياح يريد يخربها بينّا وبينكم، ولازم هو اللي شعلها.

قال هاملتون:

ـ أستطيع أن أشهد وأؤكد أن حكومة صاحب الجلالة السلطان ليست على معرفة أو صلة بالحوادث التي يشير إليها سعادة القنصل، وإذا وقعت بعض الحوادث فلا بد أن تكون بفعل عناصر محلية موجودة هناك، وربما تكون نتيجة استفزاز الطرفين. هذا أولاً؛ وثانياً أن العلاقة التي تربط الحكومتين من القوة والمتانة إلى درجة تؤهلهما لأن يعالجا حوادث مثل التي تشير إليها، ولا تقتضي بالتالي أن تتعرض العلاقات بين الحكومتين إلى التوتر أو سوء التفاهم.

بدا السلطان مرتاحاً إلى أقصى حد. تحرك في مجلسه أكثر من مرة، وكأنه يريد أن يقترب من هاملتون، أما نظراته فقد كانت مليئة بالامتنان. كان يفكر أن يقول شيئاً مثل الذي قاله هاملتون قد لا يكون بهذا الوضوح أو بهذا الترتيب، لكن هذا ما يعنيه.

تابع هاملتون:

ـ أما بالنسبة للإجراءات اللاحقة، فأعتقد أن إحدى القضايا التي ستكون لها الأولوية في المعالجة هي هذه القضية، وسوف يتخذ جلالته الإجراءات الحازمة لمعاقبة المسؤولين أولاً، ولعدم تكرار مثل هذه الحوادث في المستقبل.

ـ تمام، يا الصاحب، هذا اللي ببالنا وهذا اللي راح نسوّيه، ولو قدرنا اليوم قبل باكر.

هكذا رد السلطان بانفعال، ثم أضاف بعد أن تلفت:

ـ وحنا، إن شاء الله، متحركين بين يوم والثاني، ولا بد أصل الحويزة بنفسي، وأنت طمّن الجماعة هناك، وسلم لنا عليهم كثير السلام، وقل لهم: طويل العمر تأثر واجد، وهذا اللي صار ما يهون عليه، ولا يسمح به. أما المستقبل، فمثل ما قال الصاحب.

وهذه المحطة بين دارة ودريم المعروفة بمياهها الدافئة، والموصوفة

لأمراض كثيرة، كانت رغبة العجرمي منذ بداية الرحلة، فالأوجاع التي تعاوده، بين فترة وأخرى، خاصة في الركبتين والورك الأيسر، تقعده أياماً وأسابيع، وقد ذكر له الكثيرون، وبعضهم جربها بنفسه، «أن غطستين بهذي الماي، والثالثة يطلع البني آدم سليم معافى، ما هو بس كذا يحس بالنشاط والقوة». وأكد له اثنان من المسنين زارا هذه المياه معاً، أنهما كانا مقعدين، وكانا يشكوان من آلام مبرحة بالظهر والسيقان، إضافة إلى المفاصل كلها، وما كادا يقضيان أسبوعاً واحداً حتى عادا شابين، وأسر له أحدهما أنه لم يصبر أكثر من شهر حتى تزوج من جديد!

والسلطان حين اختار هذا المكان، كان يريد إدخال السرور على قلب العجرمي، كما أنه كان بحاجة ماسة للراحة والتفكير بما يجب أن يفعله في المرحلة القادمة. الآن، بعد هذه الزيارة، لم يستبد به القلق فقط، وإنما أصبح إنساناً آخر: امتلأ بالغضب والحدة، واعتكف في خيمته لا يريد أن يرى أحداً. أما الشتائم التي كالها لرجاله في الحويزة، فقد سمعها الكثيرون.

العجرمي نتيجة الأخبار والجو الذي رافقها لا يعرف هل يبدأ العلاج أو يرجئه، خاصة وأن سخونة الماء أزعجته بعد أن ذهب في اليوم الأول، فاكتفى بأن شمّر عن ساقيه، حتى الركبتين، ودلاهما في الماء، لكن وهو يحاول النهوض، بعد دقائق، انزلق ووقع على جانبه الأيمن، فأصبح الألم الذي يعاني منه ليس مقصوراً على جانب واحد، وإنما امتد وشمل الجانبين!

قال هاملتون لفنر بعد أن انقضت الليلة الأولى، وانقضى اليوم الذي يليها والسلطان معتكف:

ـ السياسة، يا صاحب السمو، لا تكون بالهروب منها أو بالغضب، يجب أن تواجه المشاكل مهما كانت قاسية وصعبة، وأن نتخذ قرارات مهما كانت مؤلمة.

وفنر الذي هز رأسه موافقاً، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ جماعتنا بالسياسة مثل ما يتصرفون بالزواج والسفر: يلزم يبيتون

استخارة وينتظرون الخميس، يوم السعد!

بدت الفكرة طريفة لهاملتون، واستغرب أنه لم ينتبه لتصرفات مثل هذه، وبعد أن استفسر من فنر عن أيام السعد بالنسبة للزواج والسفر والحرب والبيع والشراء، قال في محاولة لئلا يجرح:

ـ معظم الشعوب العريقة لها معتقداتها وطقوسها وأساطيرها، ولا يعرف الإنسان كيف نشأت، أو دلالاتها الحقيقية الدقيقة!

ولم يتأخر الاثنان في الاستئذان للدخول على السلطان وبحث الأمور معه.

قال هاملتون بعد مقدمات ومجاملات طويلة:

ـ كنت أتمنى، يا صاحب الجلالة أن تبقى فترة في العوالي، لكن يبدو أن الظروف ستضطرك للسفر، ولا بد أن أشير هنا أن الأوضاع خلال الشهور الأربعة، أثناء وجودكم هنا، قد تحسنت كثيراً، وربما لو أتيح لكم أن تبقوا فترة أطول لاستطاع جلالتكم أن يصفى ما تبقى لابن ماضي من رجال ونفوذ...

زفر السلطان مثل خنزير، وتطلع إلى فنر، وكأنه يقول له دون كلمات: «شفت أخوك خزعل؟».

قال هاملتون بنفس النبرة:

ـ أرى، يا صاحب الجلالة، أن نستفيد مما تحقق، من خلال وجودكم، وأن يتابع صاحب السمو الأمير فنر المهمة نيابة عنكم، إلى أن تفرغوا من أمر الحويزة.

قال فنر بانفعال:

ـ أنا رجلي على رجل أبوي، وما يصير يروح يحارب، يروح للحويزة. وأنا هنا بالفي والمي!

ضحك السلطان بحزن وهز رأسه عدة مرات، وقال بعد فترة صمت:

ـ الحرب يا وليدي بكل مكان، وماهي بس بالتفك، واللي يقوله الصاحب عين الصواب.

ـ وأنت تروح وحدك للحويزة؟

ـ لا يا وليدي، اللي يروحون كثر، ويجوز ما أروح، يجوز أطرّش جماعة اعتمد عليهم، ويجوز أخوك خزعل كفانا شر هالأخباث.

وضحك السلطان ضحكة صغيرة وسأل:

ـ وخالك يا وليدي، شلون نعامله؟ شلون نتعامل معه؟ هذا حيّرنا وما لقينا طريقة نتفاهم معه، يركص من هنا لهنا يسبسب ويصيح...

رد فنر بانفعال:

ـ الدولة، يا يوبه، أكبر مني ومن خالي، ويلزم عمير يمسك حده وما يتعداه، وإذا زاد عن الحد: لا والله، هذا ما يصير، وما نسكت، لا عليه ولا على غيره!

وفي هذه الليلة تم الاتفاق على أن يكون فنر نائباً للسلطان في العوالي، وأن يبقى معه هاملتون وعدد من المستشارين، وأن يسافر السلطان خلال يومين، وأقصى حد ثلاثة أيام، من أجل معالجة أمور الحويزة.

قال هاملتون في نهاية اللقاء:

ـ وإذا اقتضى الأمر أن أسافر لبريطانيا لمعالجة بعض القضايا، فأنا جاهز، يا صاحب الجلالة، أرجو فقط إشعاري، مع رسالة من جلالتكم توضحون لي التفاصيل، وسوف نتوصل إلى نتائج مناسبة.

الشيخ العجرمي، رغم الآلام، لا زال يحن إلى غطستين أو ثلاث في المياه المعدنية، أما حين أبلغه السلطان أنه سيعود إلى موران بالسيارة، فقد قلب شفته السفلى، فبانت كأنها ملصوقة في وجهه، وكان معنى ذلك أكثر من الرفض، كان معناه الاستنكار.

وتأخر السلطان يوماً آخر، لكي يصادف سفره يوم الأربعاء! وسافرت معه نجمة، وعدد كبير من الحرس والمرافقين. أما الشيخ العجرمي، فقد اختار الأشخاص الذين سيبقون معه، واختار الركائب التي يفضلها، ونقل خيمته من المكان الذي كانت فيه إلى مكان أقرب من نبع المياه المعدنية في عين دامة.

لقد ما تغير قصر الروض خلال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي: الانسجام، أو الاتفاق الضمني، الذي قام بين نسائه، في الموقف تجاه نجمة، انهار قبل أن ينقضي الأسبوع الأول على السفر؛ بل أكثر من ذلك، علاقات التعايش التي كانت سائدة في فترات سابقة تحولت إلى عداء مكشوف، وإلى إشاعات واتهامات لا تهدأ ولا تنتهي؛ الرضا أو الصمت الذي كان يميز بعض النساء أو بعض العلاقات، أصبح تحدياً مباشراً، مع استعداد لا يخفى للعراك والتصادم.

فضة، أم راكان، التي شعرت بالمذلة والانكسار لأنها فشلت في إقناع السلطان بإقامة احتفالات البلوغ، وقد هيأت من أجل ذلك الخيول والمغنين، وأشاعت في القصر كله أن الاحتفال الذي سيقام لراكان في القصر سوف تتحدث عنه موران لسنين وسنين، وفشلت أيضاً في أن تكون الزوجة التي ترافقه في سفرة العوالي، ما لبثت أن حوّلت هذا الانكسار والفشل إلى عنف وتحديات، إذ لم تتوقف يوماً واحداً عن تحريض العبيد والخصيان والخدم من أجل فرض السيطرة، باعتبارها تحتل الجناح الأوسط في القصر، ولأنها لا تزال أهم، وربما أحب، الزوجات للسلطان، وهي أم الابن الأكبر الموجود حالياً في القصر، وكانت تريد بكل الوسائل أن تفرض إرادتها وتخضع الجميع.

وراكان نفسه، الذي كان أقرب إلى الرهبة، وقد ظل لأسابيع قليلة سابقة يتخوف من الظهور أو المشاركة في مجلس الرجال، بسبب صغر سنه، أو لأنه لا يعرف ما يجب أن يقول، تحول إلى النقيض بين يوم وليلة: الصوت الخافت الخجول أصبح عالياً، والخوف أصبح تحدياً، وقد

أثار ذلك استغراب الكثيرين وتساؤلهم. وإذا كان هذا الخوف قد عزاه خدم فضة إلى الاحترام وحسن التربية، ويعزوه غيرهم إلى الخجل، فإن الأكثر معرفة يؤكدون أن راكان لم يبدأ الكلام إلا في سن متأخرة، ربما بعد الرابعة أو الخامسة. والسبب موضع اختلاف أيضاً. فالذين يحبونه يقولون إن مربيته الصومالية هي السبب، نتيجة تعلقه بها، وعدم انسجامه مع غيرها، لذا تأخر في تعلم العربية. ويؤكد هؤلاء أنه كان يعرف الصومالية كأحد أبنائها، ولكن حين فصل عنها نسي هذه اللغة! أما الذين يكرهون فضة، أو يعادونها، فإن لهم رأياً آخر: حين تأخر راكان في الكلام، أو على الأقل في ترديد بعض الأصوات، أخذت فضة تضربه ضرباً مبرحاً، وكرد فعل لهذه المعاملة فقد صام، وكادت تيأس منه، وهذا ما دفعها لأن تنجب ولداً ثانياً، ثم ثالثاً بسرعة، وأن تبذل معهم جهداً خاصاً من أجل أن يتكلموا، لكي تثبت للسلطان أن أولادها لا يشبهون خالهم، دخل الله، الأخرس، رداً على إشارة السلطان في تفسير وضع راكان، وقد جرحتها هذه الإشارة!

لسبب من الأسباب إذن ظل راكان بين أخوته الأكبر والأصغر، الصامت الأعظم، إلى أن حلت عقدة لسانه. قيل أن زنجياً أعور هو الذي حلّها، إذ بعد أن تفل في حلقه سبع مرات، تكلم. أخواله يقولون إن صمت الصغر إفادة في الكبر، فقد تعلم الكثير، وصرف طاقته كلها لكي يسمع. أما الذين يكرهونه فيقولون إن لسانه لا يزال مربوطاً، ويؤكدون أن الجني المكلف بهذه المهمة ما زال في داخله، ورغم الدوخة التي أصيب بها هذا الجني، نتيجة رقية الساحر الأسود، إلا أنه يعاود الصحو والظهور بين فترة وأخرى، ويستدلون على ذلك أن راكان يحمل معه باستمرار نفاخة، وكثيراً ما كان ينفث منها في حلقه، إذا ضاق نفسه، أو أصابه السعال، لكي ينوّم الجني ويحل لسانه!

الآن، بعد غياب السلطان، وباعتبار أن راكان أكبر الأخوة، فقد أصبح سيد قصر الروض.

ما كادت بضعة أسابيع تنقضي على سفر أبيه، حتى امتلأ القصر فجأة

بالأخبار والإشاعات أن أمراً خطيراً وقع. لذلك عم الخوف ورافقه التحسب والانتظار، وفرضت حراسات مشددة، كما جرت علميات تفتيش لعدد من أجنحة القصر، وبدأت تسري الهمسات أن الرجال الثلاثة الذين جاءوا قبل شهور، بحجة أنهم هاربون من ابن ماضي، وقد وافق السلطان على رعايتهم وتقديم المساعدة لهم، قد قبض عليهم لأنهم حاولوا اغتيال راكان. وأكدت الإشاعات أن السلطان ذاته كان هدفاً للاغتيال، لكن تغيبه عن القصر، ثم سفره بعد ذلك، حالا دون تنفيذ هذه المهمة، فاستعاضوا عن السلطان براكان، وسرت إشاعات أيضاً أن للرجال الثلاثة شركاء عديدين بين خدم القصر.

قصة الاغتيال إذن، والتي ظلت مجهولة التفاصيل، غيرت قصر الروض، وغيرت راكان بالذات.

كان يقف في باحة المجلس، وحوله حرسه الخاص وعدد كبير من العبيد والخصيان، والرجال الثلاثة مطروحين على الأرض، وقد ربطت أيديهم إلى خلف ظهورهم، ويصرخ:

ـ ها... تعترفون أم لا؟

ولأن الرجال لا يريدون أن يعترفوا، أو ليس لديهم ما يعترفون به، وحين يتطلعون إليه، إلى الذين حوله، ويصمتون، يصيح بقوة:

ـ إذا ما تريدون تعترفون هالحين نشوف.

ويلتفت إلى رجاله وبحزم يصدر أوامره:

ـ طقوهم وكسروا عظامهم.

ثلاثة أيام والعمليات ذاتها تتكرر. في اليوم الرابع، وبعد أن توقف التعذيب، قيل إنهم اعترفوا. وقيل إنهم أصبحوا بين الحياة والموت، ولم يعودوا قادرين على احتمال الضرب أكثر من ذلك وقيل إنهم اعترفوا بشيء واحد: «بعودة طويل العمر، السلطان، نقول كل شيء» ولذلك وضعوا في سجن القصر، وشددت الحراسة عليهم!

قبل أن ينقضي أسبوعان أو ثلاثة على ذلك وصل عدد من أقرباء

فضة: وصل اثنان من أخوتها، وأولادهم، ووصل أيضاً الكثيرون من أقرباء أقل درجة، مع رجالهم وحرسهم، مما اقتضى إجراء تبديلات في إشغال القصر، سواء الأجنحة الفارغة، أو تلك التي كانت الضرورات الأمنية تقتضي ذلك، ورغم أن دغيم السرهود احتج بشدة، نتيجة احتجاج الآخرين، فإن حالة الإرهاب التي فرضت، وما رافقها من تعديات وكلمات كبيرة، خاصة من الوافدين الجدد، والذين أصبحوا حول راكان مثل السوالو، اضطرت الكثيرين إلى الإذعان أو السكوت.

ابن العريفان الذي تخوف كثيراً، أو بالأحرى توجس، من حالة الهدوء والانسجام التي رافقت زواج السلطان من بنت العجرمي، قال لناهي بعد القبض على الثلاثة:

- اسمع يا ناهي: من قبل قالوا: إذا ردت تذل رجال سلّط عليه حريمة، وإذا ردت تذل حريمة سلط عليها العجيان، وإذا ردت تخلص من العجيان خليك بعيد عنهم!

وناهي الذي كان ضجراً نزقاً لا يعرف لمن يوجه لومه، فبعد أن قرر مغادرة القصر، اضطرته علاقته مع ابن العريفان، إضافة إلى وعود السلطان، أن يبقى. الآن لا يعرف هل يبقى هل يراقب ويضحك أم يحزم أمتعته ويرحل..

قال لابن العريفان:

- يا أبو جازي سالفتنا طويلة، وظني ما نقدر نكون بعيدين، واللي اشوفه: بليلة ما بها ضو قمر، نشيل ونرحل، لأن الجماعة إذا بلشوا ببعضهم هالحين، باكر يدورون هنا هنا حتى يلقوا من يتعاركون معه، وحنا بوجه الطوف، وخاف تقع بروسنا!

- لو كانوا، يا ناهي، ثلاثة أو أربعة، ويمكن يتفاهمون، لقلت لك: يا الله بينا، خلنا نرحل، بس هذول سوالفهم كثيرة وما تنتهي، وظني أن الدور ما يلحقنا، إلا إذا تحرشنا، وقلنا يصير وما يصير، عندها يصيرون علينا مثل الذياب، فخلنا بعيدين نشوف ونضحك!

ـ يا ابن الحلال، يا أبو جازي، والله لولا أنك معرّت بي لكنت أنا هالحين بمصر، لكن قلبي ما يطاوعني اترك خوي وامشي. . .

وبعد قليل وبحزن.

ـ وإذا تسمع شوري نترك الحمل على ابن السرهود ونسرحب ونرحل، نمشي دون ما يحس أحد!

ـ لكن هذا شيبة، وما عنده غير ختمه، يا ناهي، فإذا تركناه، مثل الجراد يأكلونه. . .

ضحك بصخب، وبعد قليل:

ـ لكن أنا وأنت، يا ناهي، ماخذين الناس على قدر عقولهم: يقولون كلمة وبعد ساعة ينسونها، وحنا ما نسوّي إلا اللي بروسنا، نقول لهم: حلت البركة، وما يخالف، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه، وإذا غابوا عنا، إذا مر يوم والثاني تتغير الأمور.

ـ قلت لك نوبة، يا أبو جازي: حنا وحدنا نطلع بسواد الوجه، هذول يعرفون كيف يتفاهمون، وباكر يقولون: «أولاد الحرام الغرب هم السبب، وحنا ولا شي بينّا»، ويصيرون مثل السمن والعسل!

ـ أبد، يا ناهي، هذول مثل العقارب، إذا ما تقربت منهم أنت بألف خير، وأنت تعرف: العقرب يلدغ نفسه إذا ما لقى أحد يلدغه!

ـ ما يخالف، بس الأيام بينا وتشوف.

ـ وكل الله، يا رجال!

لو أن الأمور اقتصرت على الرجال لأخذت شكلاً عنيفاً وسريعاً. ولو أن نساء السلطان الأخريات ظللن بعيدات أو متفرجات، لاستطاعت فضة أن تفرض ما تريد، لكن كل امرأة لديها القدرة على المقاومة حتى اللحظة الأخيرة، وبأساليبها الخاصة والمبتكرة.

أول النساء التي وقفت في وجه فضة قريبتها: العنود.

فهذه المرأة التي ملأت قصر الروض خلال فترة معينة، ما لبثت أن اختفت. حملت من السلطان، وفي شهرها الثالث أو الرابع غادرت

القصر، لتقيم عند أهلها، فلما عادت بعد سبعة شهور، كانت تحمل على صدرها طفلاً، وقد اختارت له بنفسها الاسم، سمته جاسر. ورغم فرح السلطان بوصول خبر الولد أولاً. ثم وهو يراه بعد ذلك، فقد ظلت العنود في القصر أقل من سنة، حملت خلالها وارتحلت من جديد إلى أهلها. وفي هذه الرحلة التي طالت، أنجبت بنتاً، وأيضاً سمتها الشماء، لكنها ظلت بعيدة فترة كافية، وحين جاءت من جديد مع ولديها، كانت تريد أن تحمل وترجع، لكن السلطان كان في الحويزة، وقد طالت إقامته. وطالت إقامة العنود في القصر. وفضة إذا كانت تريدها أن تبقى بعيدة، فقد حرصت أن تبقى على ودٍ معها، لكن الخدم، رجالاً ونساءً، لا يتركون شيئاً يسير كما يرغب السادة، فمن خلال الثرثرة والإشاعات، والأخبار التي تنتقل، وكثيراً ما يطلب من يرويها لمن يسمعها أن يبقيها سراً، فقد قال الخدم أن العنود التي تزوجت السلطان مضطرة، كانت تحب أحد أقربائها، وهذا ما كان يحملها على أن ترتحل إلى هناك، وأن تبقى فترة طويلة!

كان الكثير مما يشاع يصل. صحيح أنه يصل بعد فترة، ومحرفاً، لكنه يصل. والعنود التي كانت تنتظر الوقت المناسب لكي ترد اللطمة، وجاءت مرات ما بين حملة الفيض، وسفرات السلطان إلى أماكن عديدة، واستطاعت أن تحمل، لكن لأن هذه الفترة اختلطت فيها الأمور، وتضاربت الأوقات، متى كانت العنود، ومتى كان السلطان، ولأنها رجعت بولد بعد شهور، فقد أصبحت أقوال الخدم على السنة بعض النسوة، خاصة حين جئن لكي يهنئن ويباركن بالمولود الجديد. كانت نظرات النساء تحمل تساؤلاً: هل هو من السلطان أم من غيره؟ والعنود التي تعرف كيف تفهم النظرات، وكيف تفسرها، كانت تريد الوقت المناسب لكي ترد.

قصر الروض، رغم أنه امتد واتسع، فقد ظل من يسكن القسم الأوسط منه، أكثر أهمية، وبالتالي تحدد درجة العلاقة بينه وبين السلطان. ولأن العنود احتلت الجزء الجنوبي من هذا القسم ويعتبر من أفضلها، ولم يطلب منها السلطان أن تتخلى عنه، ولم تتخل هي، رغم غيابها، فقد ظلت بنظر نفسها وبنظر الآخرين، إحدى النساء المفضلات عند السلطان.

خلال فترة «الاغتيال» احتل راكان هذا الجناح، بناء لطلب أمه. لم يكتف بذلك، طرد سكانه إلى أقصى الأبنية الغربية في القصر. وكانت الحجة أن خطة القتلة اقتحام القصر، خاصة المكان الذي كان فيه، ولذلك لا بد من تشديد الحراسة.

العنود عادت في هذه الفترة بالذات، كانت خالية البال أن الجناح المخصص لها قد تم إخلاؤه، ما كادت تعرف حتى انفجر الخلاف الكبير.

ذهبت بنفسها إلى القسم الشرقي من القصر، ورغم أنها ظلت قريبة من السور، تحت أشجار النخيل، إلا أنها بعثت عبدها عريمان مع ابنها جاسر، لكي يستدعيا راكان. ظلت واقفة وهي ترتجف حتى جاء، قالت له بحزم أقرب إلى الإهانة:

ـ اسمع يا راكان، من هالحين إلى ساعة، إذا ما لقيت بيتي مثل ما كان أقلب الدنيا على راسك وعلى راس أمك.

فوجئ راكان واضطرب حاول أن يستوضح، أو أن يتظاهر بعدم معرفة ما حصل، قالت له وهي تتحرك:

- قلت لك كلام تفهمه زين، وإذا صارت الفضائح، فأنت اللي تبغيها، وتحمّل!

قال الذين حضروا هذا المشهد، والذي لم يستمر إلا دقائق قليلة، أن الاثنين كان يرتجفان حين انتهت المقابلة، وانتهى الكلام. وقالوا أيضاً أن الاثنين كانا يشتمان، رغم أن أحداً لم يسمع الآخر، وأن كل واحد اتجه باتجاه مخالف للآخر. لكن لم تمض ساعة، أو أكثر قليلاً، حتى أعيد الجناح إلى ما كان عليه قبل شهور. غادر حرس راكان، وأعيدت الأشياء التي حملت من الجناح. ورغم أن فضة تدخلت وحاولت أن تمنع، لكن الأمور انتهت كما أرادت العنود.

قالت موزة، خادمة فضة:

- سيدي راكان ما يجب الشر، وما أحب يزعل عمته، قال لها اللي تؤمرين به يصير، وما قدر يتراجع عن كلمته.

وبعد أن تتنهد تضيف:

- وعمتي فضة كانت نايمة، ما عرفت باللي صار، ولما شافت العنود قالت لها: «وتعرفين، يا بعد عيني: ابن ماضي دز رجاله للقصر يريد يقتلنا، لكن ربك سلم، وراكان الله يسلّمه قال: يلزمنا رجال حولنا يحمونا، لكنه خاف وقال: ما نقدر نتعدى على عمتي، قلت له: عمتك العنود لو كانت هنا أول من يوافق، وهالحين، وبعد ما تأكدنا واطمنينا، وبعد ما جت عمتك، يلزم أنك ترجع الأمور مثل ما كانت».

قالت العنود وتريد الآخرين أن يسمعوا:

- هذا بيتي، وبيت أولادي، والسلطان يدري، وما أحد يقدر يشيل حجر، وإذا كان الخصيان تصرفوا هالمرة، المرة الثانية نشيل روسهم، ويلزم كل واحد يسمع!

هذه الإهانة انتقلت بسرعة في قصر الروض، وكانت بمثابة تعريض واضح، لأن فضة لديها من الخصيان أكثر مما لديها من الخدم، وكان هؤلاء أغلب الأحيان في جناح النساء، فقد جاء من نقل أن الخصيان لا

يقومون بنقل الرسائل بين فضة والسلطان فقط، وإنما لهم أعمال أخرى، ولم يضيفوا إلى ما قالوه شيئاً آخر!

كانت هذه الحادثة بداية لكسر هيبة فضة وتحديها.

وطفة التي كانت غارقة في الحزن، بسبب مقتل لولوة وهجر السلطان، ما لبثت أن قالت أشياء كثيرة، وتبعتها نسوة أخريات. صحيح أن الكثير لم يقل مباشرة، لكنه قيل عن طريق الخدم «فضة هي اللي قتلت لولوة، فبعدما جت هذي المنجمة احترقت الدنيا» هكذا قالت إحدى خادمات وطفة، وما حصل أن منجمة غجرية جاءت واستقرت في جناح قريب من فضة، وبدأت تستعمل كل براعاتها في السحر: حضرت للسلطان دواء القوة، فلم يفد؛ حضرت دواء المحبة فلم يقربه، حضرت دواء العين فلم يجدِ، وأخيراً قالت لفضة: ما لنا إلا دواء كسر العظم، وحضرت هذا الدواء لكي تتناوله وطفة، لكن موزة أخطأت حين أكدت أن هذا الدواء للمحبة، فشربته لولوة وقضت». هكذا رويت قصة نهاية لولوة، ومما يجعل هذه الرواية مقبولة أن المنجمة غادرت القصر في اليوم التالي ولم يرها أو يسمع بها أحد بعد ذلك.

أما القصص التي تتطرق إلى المغامرات التي تجري بين القسم الأوسط من القصر وأجنحة عديدة، بما فيها أجنحة الخدم والحرس، وكان الخصيان أبطال هذه القصص، فإنها من الكثرة والتنوع والطرافة إلى درجة أن الكثيرين لا يصدقونها، أو تظهر على وجوههم علامات التساؤل والاستغراب حين يسمعونها!

فضة لا ترد على القصص، ولا تكلف نفسها الظهور، سواء في الدعوات أو الحفلات، إذ تبقى أغلب الوقت معتصمة بجناحها، ويستغرب الكثيرون كيف تستطيع أن تلازم الجناح أسابيع متتالية دون أن يراها أحد، ومع ذلك قادرة على الرد هنا وهناك، وأغلب الأحيان، باحكام، وبالوقت المناسب. فالمرات التي تعرض خدم وطفة إلى الضرب كثيرة لدرجة تكاد تتكرر بين يوم وآخر. ودائماً هناك أسباب وجيهة، بدءاً من النظرات المعادية، وانتهاء بالسرقة أو التحرش بالنساء.

الأيام التي خلت من الوقائع المثيرة لم تخل من الإشاعات، أو من الأصوات في الليل المتأخر، وبعض الأحيان إطلاق الرصاص. وحول مثل هذه الحوادث تتعدد التفسيرات والتأويلات إلى درجة أن لا أحد يعرف حقيقة ما حصل.

ما كادت ثلاث شهور تنقضي على هذا الجحيم، وبعد أن بعثت موضي رسولاً لفنر، حتى حزمت أمتعتها واستعدت للرحيل. فعلت ذلك بكثير من الخفاء، ومع ذلك لم يبق الخبر سراً، وحين تدافعت النسوة لوداعها، كانت فضة إحدى الزائرات، لكنها جاءت بمفردها، وتعمدت أن تختار وقتاً لا يكون فيه أحد غيرها. لقد فعلت ذلك استثناء، لخشيتها أن تنقل موضي للسلطان صورة عن القصر تمسها.

بدت فضة ودودة إلى أقصى حد. عبرت عن أسفها، وبحزن ظاهر، لمغادرة موضي، وقالت إنها ستبلغ السلطان بكل ما رأته وما سمعته، ولديها الشهود، وأشارت، بشكل غير مباشر، أن من الأفضل ألاّ يتشوش باله في المرحلة الحالية، لأن الأعباء التي تثقله الآن تكفيه. ولم تنس أن تقدم هدية ثمينة لموضي، وقبلتها بحرارة، كما لم تنس قطمة أيضاً!

موضي قبل أن ترحل بساعات قليلة قالت للعنود وإحدى قريباتها:

ـ الله يساعد اللي يعيش بهذا القصر، لأن اللي ما يموت يجنّ...

وبعد ذلك، وكأنها تخاطب نفسها:

ـ وإن شاء الله ما اشوفه بعد هاليوم.

ابتسمت العنود بحزن وردت.

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، هذا قصر أبو منصور، وإن شاء الله بعودته ترد الأمور مثل ما كانت وأحسن.

ـ الواحد يتمنى، يا خالة، بس ظني أن هذا أبد ما يصير، لأن النخر وصل فوق فوق وعسى أن الله يسلم!

قالت العنود برجاء:

ـ وإذا لي طلب عندك يا موضي، أنك تقولي لطويل العمر: غيبتك

طالت، والقصر دون أصحابه ما يسوى، والدنيا بعدك غير دنيا. . .

وبعد قليل وكأنها تخاطب نفسها: وكل ما جا يوم قبل أحسن وآمن!

بين عودة أمي زهوة من الرحيبة، حيث بقيت هناك خمسة شهور، وقد اضطرت لقضاء الفترة بسبب الكسر الذي أصاب رجلها، وبين عودة السلطان إلى موران، لم تتجاوز الأيام.

فالشيخة التي وصلت قبل أيام وكانت تستند إلى عكاز وكتف تهاني، وبدت مترهلة متعبة، وما كادت تستقر في قصر الروض، حتى بدأت تصلها الوفود والأخبار، للسلام، ولإعلامها بما حصل خلال غيابها. وإذا كانت فضّلت أن تبقى مستمعة، لكي تعرف بالدقة الكاملة ما حصل، فقد بدت متأثرة وأقرب إلى الغضب. ورغم أن فضة كانت أول النساء التي زارتها، فقد أحست أن هذه السرعة في الزيارة، ليست من عادتها، ثم ما تخللها من المجاملات والمحبة الفياضة، جعلتها تشك بالدوافع، وتميل إلى تصديق ما قيل لها بعد ذلك من النساء الأخريات، ثم من الخدم، وعن طريق تهاني أيضاً!

قالت الشيخة للسلطان:

ـ . . . وأنت تعرف، يا أبو منصور: الله يمتحن عباده، وأنا كنت ناوية أرجع بعد جمعة أو ثنتين، لكن رب العالمين قرّمني، انكسرت رجلي وبركت، وظني أنك أنت هنا، بموران، ما ظني أنك سافرت. بالي مرتاح، وقلت: إلى أن يفرجها رب العالمين واتعافى. . .

توقف، تجر نفساً عميقاً، ثم تتابع:

ـ أنت غايب، يا طويل العمر، وأنا غايبة، وأتاري هذولا الحريمات ينراد لهن رسن وفرك إذن، لأن ما سمعته ما يرفع الراس.

ضحكت بحزن، ثم تابعت:

ـ عندك هموم تهدّ جبال يا أبو منصور، وما أريد ازيد همومك، لكن، مثل ما قالوا: البني آدم ما يترك، ولا يروح بعيد، إلا إذا كان بيته وحريمه بأمان. . .

توقفت قليلاً، هزت رأسها عدة مرات ثم أضافت:

ـ ما أريدك تصدق كل شي، وأنا نفسي ما صدقت، لكن اللي صار بغيبتنا ما لازم نسكت عليه...

غيرت جلستها، اقتربت قليلاً، وجاء صوتها أقرب إلى الهمس:

ـ وأنت تعرف، يا أبو منصور، هذولا النساوين إذا انتركن الله وأكبر، ما بنقدر عليهن، وكل ما كان الواحد آدمي، وما يريد الشر، يركبن ظهره ويطوطحن، وهذا اللي صار. وأريد منك تسمع السوالف اللي صارت بغيبتنا...

زفر السلطان، وبعد قليل، وبصوت حزين:

ـ والله البني آدم احتار: هنا أو هنا، مع أعدائه أو مع أصحابه وأهل بيته.

ولم ينتظر السلطان ليسمع كل شيء، أو ليجمع الوقائع والشهود. فقد بدأ:

جمع ثمانية من الخصيان، وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد، وفي يوم واحد أمر بقتلهم. أخذوا إلى نهاية الجهة الغربية، غير بعيد عن إسطبل الخيول، شدوا إلى أشجار النخيل، وإلى أوتاد كانت في وقت سابق مرابط للجمال، وأطلق عليهم الرصاص. لقد تم ذلك عند الضحى، في اليوم الخامس من عودة السلطان، ودفنوا جميعاً في حفرة واحدة.

وكان قد أمر قبل ذلك أن يحضر جميع نسائه، حضرن، كن لأول مرة يشاهدنه منذ عودته من السفر، جئن بعواطف متباينة أشد التباين: الشوق والخوف ورغبة الحديث. قال عرفان الهجرس بعد سنين عديدة:

ـ قبل صلاة الصبح بساعة أو أكثر، كنت غرقان بالنوم، ما اشوف إلا وهو فوق رأسي: قم يا عرفان. والله فزيت، قمت. قال: تعال، مشى ومشيت وراه. كنا وحدنا بالمجلس، لا أحد إلا الحرس، والحرس بعيدين. قال لي: معك ساعة واحدة يا عرفان، ما تترك أحد نايم، والقصر تفرغه من الجماعة اللي هم فيه، كل واحدة تلقى لها خشة وتقول لها هذا مكانك، وهذا أمر أبو منصور. وما أريد حتى كلمة، حتى قولة نعم.

تخلص وترجع، واللي يقول لا تضربه، تدقه دقة زينة، وتكفيه على وجهه، وتقول: هذا أمر أبو منصور. وبعدها تجيني بهذا المكان. والله ما كذبت خبر: وصلت قصره، صحت بأعلى صوتي: يا أهل الدار، معكم ساعة، وهذا أمر السلطان، وما أحد يبقى بمكانه. الناس قاموا خايفين، بين مصدقين ومكذيبن، ويدون طول سالفة: واحدة تصرخ لا بد أشوف طويل العمر. الثانية: هذا بيتي وبيت أولادي. الثالثة رح وخل طويل العمر يجي بنفسه. والأولاد بين يفركون بعيونهم أو يبكون، المهم، بعد أن تأكدوا، وقلت لهم: اللي ما يشيل برضاه يشيل غصب، والعصا حاضرة. وأنا نفسي أقول هذا الكلام وماني مصدق، وكأن ببطني واحد ثاني اللي يحكي ويقول، لكن عيون أبو منصور وهي تقدح شرار خلتني اسوي اللي ما يتسوى. ما مضت ساعة زمان إلا وكان القصر خالي. لما رجعت كانت الشمس توها طالعه. كان طويل العمر ومعه ابن عباد وعبدالله البخيت. أعطاني وريقة بكبر راحة اليد، وعليها أسماء، قال لي: تأخذ عشرة من الحرس تجيبهم وتجي. والله سقتهم مثل الغنم. تطلع إليهم أبو منصور، رازهم من فوق لتحت وقال: خذهم عند الإسطبل وانتظر.

بعد ساعة زمان بعث واحد: اربطهم وانتظر. ربطناهم. وما مضت ساعة إلا واشوف يوم القيامة: أبو منصور ومعه كل حريمه، ومعه عشرة أو أكثر من حرسه الخاص. وبعد ما وصل قال: هذا اليوم ما أحد ينساه بعمره. وبعد ما اسرّ بشي لمهيوب، التفت إلى النساء، وكان قد طلب منه الوقوف عند نقطة الحراسة الغربية. قال، وخرج صوته حاداً: هالحين يلزم تبحرن زين. وخلال دقائق انتهى كل شيء: اطلق الرصاص على ثمانية من الخصيان وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد».

لقد جرى كل ذلك بسرعة، وبصمت، لم يكن يسمع خلاله صوت أنفاس الذين كانوا يراقبون المشهد ولا يصدقون عيونهم. وفي مكان غير بعيد، في حفرة كانت تذبح على أطرافها الجمال، ألقيت الجثث ثم أهيل عليها التراب، وانتهى هذا المشهد كله.

وفي القصر، في القسم الذي أُخلي من فضة والعنود وسهيلة، وفي

القاعة الكبيرة السفلى، حيث كان السلطان يقيم بعض الولائم الخاصة، طلب من نسائه جميعاً أن يحضرن.

بعد شهور طويلة، كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته: «يوم الثلاثاء، السابع من شهر ربيع ثاني، من السنة الماضية، يوم مشهود في موران، يوم الدم والخوف، لأنه كان يوم الموت في قصر الروض. فقد ذكر لي من أثق بهم أن السلطان أمر بإعدام اثنين وعشرين رجلاً من خدمه وعبيده، بسبب ما نقل إليه عن الأخطاء التي ارتكبوها أثناء غيابه في العوالي. طبيعي لا يمكن التحقق من صحة الاتهامات التي وجهت إليهم، لأنه لم تجر أية محاكمات أو حتى تحقيقات، فخلال فترة قصيرة جمع هؤلاء الرجال وأطلق عليهم النار. وقيل إن نساء السلطان حضرن تنفيذ هذا الحكم، بناء لطلب السلطان نفسه! أما بعد ذلك فقد قيل لي أن السلطان أرغم نسائه على أن يلتهمن مقادير كبيرة من الملح والفلفل، وقد دعاهن للغداء على مائدته، وحين رفضت إحدى النساء طلب من حرسه الخاص ضربها، وقد تسببت هذه القضية في حالات مرضية اطلعت شخصياً على قسم منها، علماً بأن الطبيبة الإنكليزية المكلفة بالإشراف الصحي على نساء القصر ذكرت لي أن الأمراض التي عالجتها، وإن كان معظمها متعلقاً بالمعدة، إلا أنها تشك أن تكون كميات الملح أو الفلفل التي قيل إن السلطان أرغم نساءه على تناولها، كانت السبب. لأن ذلك ترافق مع أعراض أخرى. وهذه الحالة إذا كانت تتسم بالقسوة والغرابة، فإنها تدل على إحدى طرق السلطان في التصرف».

أما حقيقة ما حصل في ذلك الثلاثاء، فلم يعرف على وجه اليقين، لأن الأخبار التي لم تغادر القصر خلال اليوم الأول والثاني، ما لبثت أن أخذت أشكالاً وأسباباً لا حصر لها. فمحاولة الاغتيال التي ذكر أن راكان تعرض لها، قيل إنها السبب فيما جرى. والذين يؤكدون هذه الرواية يستندون إلى اعترافات الرجال الثلاثة، وقيل إنهم لم يدلوا بها إلا بعد أن أعطاهم السلطان الأمان، فاعترفوا على الخدم والعبيد الذين كانت لهم علاقة بابن ماضي، وهؤلاء الذين تم إعدامهم. وقيل إن الأمر متعلق بقضية

أسبق من ذلك، وهي قضية مقتل لولوة، وقيل إن وطفة أو ربما السلطان كان الهدف، ولهذا انتقم السلطان ليعطي درساً للذين يعملون معه، خاصة في القصر. ومما زاد في تصديق هذه الرواية أن أغلب الخصيان الذين أعدموا كانوا من خصيان فضة، ومما يؤكد هذه الرواية أيضاً الأمر الذي أصدره السلطان بإخلاء القسم الذي كانت تشغله في القصر.

وغير هاتين الروايتين روايات كثيرة حول أخطاء بالغة الحساسية بالنسبة لعدد من نساء السلطان أو الخادمات والمربيات! وهذه الروايات ظلت تروى بتكتم شديد، وتختلف من واحد لآخر، ومما ساعد على قبولها، أو على الأقل قبول عدد منها، أن زيجات سريعة تم ترتيبها بين بعض الخادمات والمربيات وعدد من العاملين في القصر، خاصة وأن ولادات عديدة قد تمت على يد وريدة، وقد أثار استغرابها أن أطفالاً سوداً ولدوا لآباء وأمهات بيض أو العكس. وقد دعا هذا إلى إعادة تذكر الكثير من القصص التي كادت تغيب وتنسى في خضم الأحداث التي لم تتوقف يوماً واحداً في قصر الروض!

وإذا كان الخدم والعبيد هم الذين عادة ينقلون الأخبار، فقد أصيبوا بالخرس هذه المرة، وظلوا كذلك أسابيع وبعضهم ظل شهوراً لا يصدق ما حصل. أمي زهوة التي غابت فترة طويلة، وكادت تنسى، رجعت بعد هذه الشهور، وبعدما حصل في يوم الثلاثاء، قوية متجبرة إلى درجة تثير الرعب. فقد تأكد الجميع أنها وراء كل ما حصل. وأصبحت في هذه الفترة، إذا مشت في القصر، أو إذا تطلعت لإنسان، تجعله يرتجف، بمن فيهم نساء السلطان بالذات. أما العكاز الذي كانت تستعين به في فترة النقاهة فقد أصبح ملازماً لها بصورة دائمة، وأخذت تستعمله استعمالات شتى، حتى تحول بمرور الأيام إلى جزء من شخصيتها. بل وبالغ بعض الخدم أن العكاز إذا شوهد أو سمع صوته، يثير الفزع ويجعل الناس صامتين.

نجمة احتلت القسم الأوسط من القصر وحدها. فضة، بعد أسابيع انتقلت إلى الجناح الذي شغله خزعل من قبل، أما العنود فقد حلّت في

الجناح الذي خصص من قبل لنجمة. وسهيلة، والتي لم تخلف، ماتت بعد بضعة أسابيع من يوم الثلاثاء ذاك، وقد اختلفت الروايات حول أسباب موتها!

أولاد السلطان تعرضوا لعقوبات كثيرة: قطع المخصصات، سحب الخيول، تجريدهم من السلاح، إضافة إلى إعادتهم جميعاً إلى المدرسة الخاصة، مع تنبيهات السلطان القاسية التي قالها للأدريسي، المعلم الجديد الذي اختاره لأولاده:

ـ اللحم لك والعظم لنا، يا شيخ، وإذا واحد قال لا علمني باسمه وما عليك.

ولف الصمت قصر الروض، وعاش فترة طويلة في ظلام دامس. وظل هكذا إلى أن تفجرت أحداث جديدة، وجرت أمور لم تخطر ببال!

ابن العليان، بوصول الأموال، أصبح طفلاً لا يعرف كيف يخفي فرحه، أو كيف يهدأ. في اليوم الواحد يحاول عدة مرات أن يختلي بالسلطان، من أجل أن يعرض عليه الأفكار والمشاريع في كيفية توظيف الأموال، والسلطان في عالم آخر: إذا لم يكن مشغولاً باستقبال رؤساء القبائل، فلا بد أن يكون مشغولاً مع شيوخ الدين، أو مع الرسل والعيون الذين بعث بهم هنا وهناك يحملون الرسائل أو يتقصون الأخبار. وحين يبقى لديه وقت، أو بالأحرى حين يقتطع ذلك الوقت، فمن أجل أن يقضيه مع الصاحب بشكل خاص. أما ابن العليان، الذي تحوّم عيناه كالصقر، ويريد أن يعرف كل قادم جديد، فلكي يقدّر كم من الأموال سيتم اقتطاعها قبل الوصول إلى اتفاق مع السلطان، كان يحس أنه في سباق لا يرحم مع الزمن. قال له السلطان حين وجده ملحاً هكذا:

ـ أنا وأنت، يا عثمان، باقين بالهديرة، فإذا ما سولفنا اليوم نسولف اللي عقبه، خلنا هالحين نشوف اللي يسافرون اليوم أو باكر.

ـ أنا وأنت باقين، يا طويل العمر، بس الفلوس ما هي بباقية..

قالها عثمان بحزن، وحين تطلع إليه السلطان باستغراب تابع:

ـ إذا ظلينا نعطي فلان وفلان، على هالمنوال، وبدون حساب، ترى حسبتنا راح توقف.

ـ وكلّ الله يا ابن الحلال، وهالحين عندنا فلوس تكفي وزود!

العجرمي الذي تأخر أربعة شهور، وبعد أن وصله الرسول الثالث من السلطان، يطلب منه العودة للضرورة عاد. عاد ومعه ممرض عجمي، هو

واحد من الثلاثة الذي جاءوا إلى عين دامة للاستشفاء، وقد تولى هذا تمريضه والعناية به طوال إقامته هناك.

بدا العجرمي، بعيون كل الذين رأوه، قوياً وأصغر سناً وأكثر سُمنة. حتى العكاز الذي كان يستعين به بدا زائداً، لكنه لم يتخل عنه، لأنه أصبح جزءاً منه. والسلطان الذي كان عاتباً لغيابه الطويل، لم يتمالك نفسه أن تساءل حين رآه:

ـ هذا اللي تشوفه عيني مشعل أو أبو مشعل؟

وحين ضحك العجرمي بصخب وزهو، قال السلطان:

ـ ما يصدق الواحد إلا إذا شاف بعينه!

وبعد قليل:

ـ وبس نخلّص شغيلاتنا، يا أبو مشعل، يلزم نمرح أنا وأنت شهر أو اثنين هناك، حتى نصير مثل ما صرت!

قال عبدالله البخيت لابن العليان:

ـ من قبل قالوا: جبة العجمي فيها سبع وسبعين رقعة، وهذا العجمي اللي جاي أتاري عنده سبعة وسبعين دوا وما تدري شلون طبخ العجرمي من جديد. وهالحين بين آغاتي وعيني سلبه عقله، وما تدري شنهو عنده سوالف بعد.

رد ابن العليان بصخب:

ـ ما يغرك، يا ابن البخيت، وأنت تعرف شلون يعلفون الضحية قبل ذبحها، والدجاج قبل ما يبيعونه!

لم تمض أسابيع قليلة إلا ورتب السلطان كل شيء، قال لابن البخيت وهو يبتسم.

ـ . . . تذكر سالفتنا القديمة يا عبدالله؟

ولم يمهله لكي يتذكر، قال وهو يقهقه:

ـ اللي تهرب منه، واللي تخافه، لا بد تلقاه، تماماً مثل الموت والحياة، وأنا من عندي نبت عنك وخلّصت السالفة.

وابن البخيت الذي توجس ثم خاف، بدا له السلطان يعني الكلمات التي يقولها، تساءل، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ تمون ياطويل العمر، بس علمني شنوهي السالفة؟

ـ ما علمك عمك؟

ـ عمي؟

ـ اسمع، يا عبدالله، وبدون ما نطوّل الكلام. ذاك اليوم أنا وابن العليان نسولف، قلنا يلزم أن عبدالله يكمّل دينه، قال لي ابن العليان: إبشر يا طويل العمر، وبنتي جاهزة، قلت له توكلنا على الله، قرينا الفاتحة واتفقنا، وأنا أمرت ابن الهجرس والعريفان يحضرون كل شي.

لدقائق بدا عبدالله البخيت مدهوشاً، لا يصدق ما تسمع أذناه، أما الكلمات التي ظل يرددها دون وعي فكانت: «بالله عليك يا طويل العمر؟» والسلطان الذي أخذه الفرح، وتأكد أنه أوقع بابن البخيت ضربة قاضية، قال ليحسم الأمر تماماً:

ـ وحنا أمرنا لك بشوية قريشات حتى تتزهب وتحضّر روحك!

ولم ينتظر صاح بأعلى صوته:

ـ يا عرفان... يا ابن هجرس...

وجاء عرفان يركض. سأله السلطان:

ـ حضرتم كل شي لعمك عبدالله؟

ـ كل شي حاضر، يا طويل العمر!

ـ هات القريشات.

وبخفة قط خرج عرفان الهجرس. حتى تلك اللحظة كان عبدالله البخيت يظن أن في الأمر مزاحاً، أو لا يتعدى مؤامرة بريئة من مؤامرات السلطان، وكان هو ذاته يشارك في مثل هذه المؤامرات ويبرع فيها إلى أقصى حد. أما أن يكون هو ذاته الضحية، وبهذا الاتقان، فقد ظل يؤمل أن ينتهي هذا الكابوس ويخرج سالماً. لكن حين عاد ابن الهجرس وبيده صرة كبيرة، وبعد أن ناولها السلطان ورماها لابن البخيت، فقد تأكد أن

الأمور تجاوزت المزاح، وأصبحت شديدة الخطورة. تساءل بمسكنه:

ـ أريد استأنف يا طويل العمر!

رد السلطان بنفاد صبر:

ـ يا ابن الحلال خلصنا، تزوج، افرح كم يوم بهذي الدنيا. . .

وبعد قليل وقد تغيرت اللهجة:

ـ وإذا قلت فلاني وتركاني، يا عبدالله، وبعد ما أعطينا كلمتنا وقلنا موافقين، ترى هذا حدنا وياك!

قال عبدالله بيأس:

ـ اللي تشوفه يا طويل العمر!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ كل شيء بهذي الدنيا يصير إلا أن الواحد يتزوج غصب عليه، أو بدون ما يدري!

ـ خلصنا يا عبدالله!

في وقت لاحق، وبعد أن تأكد ابن البخيت، سلّم تماماً، بل وفي لحظات معينة بدا مقتنعاً، قال للسلطان في يوم تالٍ:

أقول بأعلى الصوت ما بي جِنّة   وما بي إلا حب من ليس ينصف

ضحك السلطان وهز رأسه عدة مرات، وقد امتلأ بشعور الظفر، وبعد أن هدأ قال:

ـ وأريدك يا عبدالله تزور العجرمي، إذا نفسه اشتهت خلنا نلقى له بنت الحلال اللي تسنّعه زين!

ضحك ابن البخيت بصخب وتساءل:

ـ اشوف زكاتك كلها، يا طويل العمر، طالعة بالجيزات!

ـ خلي الناس تفرح وتدعي لنا بطول العمر!

ـ والعجرمي. . . أخاف، يا طويل العمر، الزيجة تلهيه عن ذكر ربه، أو تنسّيه الشغيلات اللي تريدها منه!

ـ ما عليك، هالحين أنت روزه، وبعدها الله كريم.

بعد الزيارة الأولى، والحديث عن عين دامة وعين دارة، أشار ابن البخيت، بطريقة لا تخلو من مكر، أن الرجل إذا تقدم بالعمر، يحتاج إلى صبية تعتني به، لتقوي عظامه وتمنحه القوة والثقة، وذكّر بالرسول والصحابة والتابعين. والعجرمي الذي صمت وابتسم، كان يصغي إلى ابن البخيت بكثير من الاهتمام، ولم يقل لا ولم يقل نعم.

في الزيارة الثانية، وكانت بعد بضعة أيام، ودون مقدمات، وقد استعد ابن البخيت، قال وهو يترنم:

إذا قبل الإنسان ممن يحبه ثناياه لم يأثم وكان له أجرا
فإن زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها وزرا

رد العجرمي بدعابة:

ـ أشوفك اليوم تشعر، يا ابن البخيت.

ولم ينتظر ابن البخيت، ترنم:

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل اسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

قال العجرمي وهو يلوي رأسه قليلاً ويحدّق بعبدالله البخيت:

ـ عندك سالفة يا عبدالله؟

ـ أي بالله، طال عمرك، وما هو بس كذا:

اصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
أراني إذا صليت أقبلت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

رد العجرمي وهو يرفع اصبعاً مهدداً، لكن بدعابة:

لئن عدت لما أنت ذاكره لأصلبنك في جذع من الشجر

ابتسم ابن البخيت وتابع:

أمست تهددني بالقتل واحزني والقتل لي راحة والموت مقدور

رفع العجرمي يديه الاثنتين وقال، وكان صوته متواطئاً:

ـ كفى، يا ابن البخيت، كفى. . .

وبعد قليل:

ـ هالحين تأكدنا: لا بد أنك عاشق أو تحمل رسالة!

ـ وأنت الصادق، يا أبو مشعل: عاشق واحمل رسالة.

ـ ممن؟

ـ من طويل العمر.

ـ هات، علمنا، خلنا نسمع.

ـ مالي صبار، طال عمرك، ويلزم اعلمك. . .

ضحك، هز رأسه، تلفت في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن لاأحد غيرهما يسمع، والعجرمي الذي تلفت بدوره، تأكد أن في الأمر ما يستدعي الانتباه والاهتمام، وحين استبطأ ابن البخيت، صرك بأسنانه، وجاء صوته حاداً:

ـ هات، لا تنطّف روحنا.

ـ اسمع يا أبو مشعل. . .

وتلفت من جديد، ثم تابع:

ـ قبل كم يوم، وبعد ما شافك طويل العمر، والإفادة التي حصّلتها من عين دامة، قال لابن العليان: «اسمع يا عثمان: اثنين عزيزين علينا، أبو مشعل وابن البخيت، وخاصة أبو مشعل، أخذنا منه، ونريد، بعد ما صار شاب، وبقوة الحصان، نعطيه» قال ابن العليان «بنات موران ولا أكثر» قال له طويل العمر: «أريد منك، أريد بنتين من بناتك، واحدة لأبو مشعل والثانية لابن البخيت، رد عليه ابن العليان: «ما لقيت لي يا طويل العمر غير هذول الشيبان، القاضين، واللي ما بيهم حيل؟» قال له طويل العمر: «هذول أقوى من الشباب، يا عثمان، هذول مجربين، والواحد منهم بعد خيره بظهره، وما تغرك السنين أو المظاهر» وسكت ابن العليان، ما قال ولا كلمة، وطويل العمر، بدون سؤال أو دستور. ما خلى الأمور تمشي كذا، ناب عني، يا أبو مشعل، واتفق على أن أتزوج واحدة من بنات

العليان، وهالحين قال لي شف أبو مشعل، إن كان بنفسه خلنا نمشي ونكمّل الأمور، وإذا لا عفا الله.

استراح قليلاً، ثم أضاف:

ـ هالحين علمتك كل ما عندي، يا أبو مشعل، وما أدري أنا غلطان أم لا، لأني قلت اللي قلته؟

قال العجرمي، وهو يبتسم:

ـ اللي يريده أبو منصور يصير!

قصر الروض الذي خيم على جناحه الغربي الصمت خلال الشهور الأخيرة، حيث أصبح مثل سجن، إذ هدأت فيه الحركة، ولم تعد له مطالب، وقل زواره، بعد أن أعفي دغيم بن السرهود، وحلّ مكانه ابن العريفان، وبعد أن تغيرات مواقع بعض نساء السلطان، وبنيت أجنحة جديدة ناحية الغرب، ما لبث القصر أن تغير: بدأت فيه الحركة مع وصول الأموال. أعاد السلطان المخصصات، أمر بأن توزع كميات من القماش والحلويات، إضافة إلى تجديد بعض الأجزاء القديمة من الأجنحة.

هذه الحركة غيّرت الكثير.

الشيخة التي بدت قوية متجبرة، وقد عُزي إليها الكثير مما جرى في القصر، وخلقت جواً من الرعب، أصبحت هي ذاتها أسيرة هذا الرعب. كانت تنوي أن تحرض السلطان، أن تدفعه إلى القسوة، لكن لم تتصور أن تبلغ به القسوة إلى إعدام هذه الأعداد الكبيرة. بل أكثر من ذلك شعرت بالندم، وشعرت بتعاطف مع أغلب النساء. صحيح أنها لم تقم بزيارة أي منهن، لكن كانت تبعث بعواطفها مع تهاني، وكانت أكثر حرصاً أن تعرف أخبار كل واحدة من نساء السلطان. قالت لنفسها، ثم قالت لتهاني بعد ذلك، وكانت تريد من تهاني أن تنقل عن لسانها، «الرجال من يومهم مجانين، أو خوافين، وأولاد الساعة. يظنون حالهم أقوياء حيل، لكن مثل الأطفال ما يعرفون شلون يتصرفون. إذا مدوا أيديهم، الله يستر، يخربون كل شي، وما يدرون شنهو اللي يصير واللي ما يصير!

وهكذا بعد أن ظلت أمي زهوة خلال فصل الشتاء بطوله حبيسة جناحها، وإذا خرجت قليلاً فلكي تلتقي بالشمس والهواء النقي، ولم تقرب

مجلس الرجال إلا مرتين أو ثلاث مرات، وفي هذه المرات لم تتكلم ولم تسلّم. . . الآن، بعد أن شعرت بالانفراج، أو لأنها لم تعد قادرة على الاحتمال أكثر من ذلك، فقد خرجت من جناحها، كما تخرج الحيات: تململت، ثم مرت على الأجنحة، وكأنها تتفقدها، سألت أكثر مما تكلمت، ثم عادت بسرعة، وكانت خائفة، أو لم تستطع التكيف.

العنود التي تعوّدت أن تقضي أطول فترة عند أهلها، لم تفعل خلال هذه الفترة كلها، ورغم أن القصص القديمة عاودتها وكذلك الإشاعات التي كانت تتنقل في قصر الروض سابقاً، لم تفكر أن ترد عليها أو أن تنتقم، خاصة بعد أن أصبح خصومها ضحايا مثلها، فاكتفت بأن أرسلت على أمها واثنتين من أخواتها، فجئن لزيارتها وقضين معها شهوراً. أم العنود قامت بزيارة فضة عدة مرات. وكادت فضة أن تزور العنود، لكنها، بعد أن قررت، عادت وأجلت الزيارة، ثم نسيتها.

قالت العنود لأمها، لكي تنقل الكلام لفضة ولأمي زهوة:

ـ بقصر الروض، يلزم كل واحد يكون له ظفر وناب أو أكثر، وإلا راح مأكول مذموم، وإذا الواحد ما كان أقوى منهم سلخوه وأكلوه، وما يلقي من يقول الله يرحمه!

الشيخة التي فهمت ولم تفهم، هزت رأسها موافقة، لكن الرسالة وصلت إلى فضة، إذ بعثت مع أم العنود تقول:

ـ اللي خرّب بيوتنا: أولاد الحرام، اللي ما يعرفون إلا نقل الكلام، وكانوا يفرحون ويرقصون إذا تعاركنا. . . .

تبتسم بحزن ثم تضيف:

ـ بس الحق ما هو عليهم، الحق على اللي كان يتعارك بدون سبب، على اللي كان يقول لهم فلاني وتركاني. . .

وتهز رأسها:

ـ حنا المجانين، وحنا اللي قلنا لهم تعالوا: كلوا لحومنا. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ وظني أن العنود تفهمني زين!

بهذه الحركة الداخلية المتحفظة البطيئة بدأت تسري روح جديدة في القصر، روح ماكرة أكثر مما هي شجاعة، لكن فيها إصراراً وقدرة على المقاومة. حتى الصبية والأطفال الذين تضاربت مواقفهم وعواطفهم تجاه ما جرى، أصبحوا أكثر استعداداً للتحدي، أو لتقليد ما رأوه، في الحيوانات على أقل تعديل، ثم ما لبثوا أن اتخذوا مواقف أكثر عدوانية، خاصة وقد تأثروا بأجواء البيوت والأمهات والأخوات.

نجمة التي احتلت القسم الأوسط من القصر، لم يسمع لها صوت، ولم يزرها أحد، سوى عمتها، زوجة أبيها. زارتها مرات عديدة، لكن لم يرافق هذه الزيارات أي تغير في السلوك أو الحركة. بل أكثر من ذلك، حين سرت إشاعات أنها ماتت أثناء الولادة، لم يستطع أحد أن يكذب الخبر، رغم أن العيون ظلت شاخصة تتابع وترسم صوراً لما يمكن أن يحدث فيما لو تحقق هذا الخبر. حتى وريدة التي أشرفت على الولادة، تحركت بنشاط خلال الساعات، وحتى الأيام الأولى، لم تقل كلمات يمكن أن تفهم أو تفسر بشكل واضح.

الشيخ العجرمي الذي زار ابنته. بعد أن عاد من السفر، ثم بعد أن أنجبت ابنها الأول، بد بنظر الكثيرين شخصاً مختلفاً، فسرت إشاعات شديدة التكتم، وتباينت كثيراً، فيما إذا كان هو أم لا، خاصة بعد أن نقل الخدم استغرابهم، وظنوا، بعد التغير الذي لاحظوه، وكانوا لا يعرفونه معرفة دقيقة، أنه قد يكون شخصاً آخر، لكن ما لبثت الأمور، ثم الأخبار، أن أخذت مساراً لم يعرفه قصر الروض.

سأل ابن العريفان ناهي:

ـ قولك، يا ابن الفرحان، أن القصر هو القصر، وأن الناس هم ناسه؟

ـ ما تغير شي يا أبو جازي.

ـ تغير كل شي يا ابن الفرحان.

وضحك وهو يضيف:

ـ أثاري الدم، يا ناهي، يغير الدم، يغير البني آدم!

هز رأسه عجباً:

ـ والغريب، أن أمور كثيرة بالدنيا ما تصير إلا إذا الواحد خاف، أو. . .

ابتسم، هز رأسه عدة مرات، وتغير صوته:

ـ أو إذا كان عنده عقل أو ضمير، لكن، الظاهر أن العقل والضمير، بهذا القصر. . .

ـ أنت تسولف وحدك، يا أبو جازي، الضماير والعقول بهذي القصور ما لها مكان!

وخلال أقل من شهر تمت خطبة ابنتي العليان للعجرمي والبخيت. صحيح أنه تخلل الخطبة الكثير من الخلاف والبكاء والتهديد بالانتحار، إلا أنها تمت في النهاية، وإن جرى عليها بعض التعديل. فابنة العليان الوسطى التي كانت هي المرشحة للزواج بالعجرمي، وكان عمرها عشرين عاماً. استبدلت بالتي أصغر منها، بعدما حصلت تلك الاضطرابات. قالت الصغيرة لأمها بنوع من الاستسلام الحزين:

ـ اتركوا مديحة لابن البخيت، وأنا راح أتزوج هذا الشيبة!

والأم التي صدمت، ولم تصدّق أذنيها، أول الأمر، ما لبثت أن تطلعت إلى نهلة نظرة مختلفة: رازتها من قدميها إلى قمة رأسها، نظرت إليها بإمعان، ونظرت إلى عينيها بشكل خاص لتتأكد ما إذا الكلمات التي قالتها تعنيها أم لا، وحين رأت في عينيها موافقة أقرب إلى الحزم والتحدي، ردت باستسلام:

ـ إذا كان كلامك صحيح تخلصينا من الفضيحة. . .

وبعد قليل وهي تزفر بحقد:

ـ كلها بلاوي أبوك: أعطى كلمة للسلطان وما يقدر يتراجع، وكأنه السلطان رب العالمين، وما أحد يقدر يخالفه!

في قصر الروض، وبتكتم شديد، سرت إشاعات أن العجرمي،

الساحر، الذي يدير كل شيء، جاء من يسحره، فالعجمي، الذي جاء كممرض، تبين أنه ساحر أكبر وأخطر من العجرمي بما لا يقاس.

قالت فضة لأم العنود، بعد أن عرفت تفاصيل ما حصل:

ـ وتعرفين، يا بعد عيني، أن اللي يحفر لأخوه المسلم حفرة هو اللي يوقع بيها!

وابتسمت وهي تضيف:

ـ هو اللي سحر لطويل العمر، هو اللي خلّاه يتزوج بنته، وظنه أن السلطان إذا تزوج بنته يملك الأول والتالي، لكن جاء من هو أقوى منه، وإذا كان اليوم صار هذا الشي باكر ما أحد يعرف شنهو اللي يصير.

ورغم أن العجرمي تكتم على هذا الزواج، واحتج أن الرسول والصحابة كانوا يتزوجون دون أن يدري أحد، إذ يكفي لعقد الزواج موافقة الزوج ووكيل الزوجة وشاهدين، فقد تحدث الكثيرون في موران عن هذا الزواج، خاصة وأن الاثنين، ابن العليان والعجرمي، لم يكونا من رجال السلطان المباشرين، ولم يكن لأي منها علاقة بكل ما حصل، قال ابن الفرحان لعرفان:

ـ . . . اكتب يا عرفان، وإذا ما كتبت خذها على لساني: من يوم ما الله خلق هذي الدنيا: ديكين على مزبلة ما يجتمعون. وهالجين ناظر وشوف: ابن العليان والعجرمي، من هو اللي يريد يكون أقرب لطويل العمر؟ وإذا كان أبو منصور باله طويل ويتحمل، لكن هم، الواحد منهم ما يحمل الثاني، وناظر وتشوف عينك.

قال ابن هجرس وهو يبل قلمه بشفتيه، ويتظاهر بالكتابة:

ـ ما تقول لي يا ناهي: إذا الديوك تخاصموا، شنهو اللي راح يصير بالدجاج؟

ضحك ناهي الفرحان، حتى كاد ينقلب على ظهره، وبعد أن هدأ، أجاب:

ـ لا تخف، يا ابن الحلال، الدجاجات، يعرفن كيف يدبرن أمورهن، أي نعم يعرفن. . .

وبعد قليل، وهو يبتسم:

ـ ما هو مهم الديوك اللي فوق، الديوك اللي يتحاربون. . . المهم الديوك اللي يصلون!

وكاد العجرمي يفكر بالسفر إلى عين دامة، أو إلى عين دارة، لكي يقضي شهر العسل، فقد أحس أنه بحاجة لكي يهرب من نظرات الذين حوله، ومن كلام الناس، إضافة إلى الاستفادة من النتائج التي حصل عليها هناك، لكن مستشاره الصحي الذي ظل مرافقاً له مثل ظله لم يتركه يفعل. فقد هيأ له، كما قالت عدة نساء لهن علاقة مع نجمة، كل شيء: هيأ له الأطعمة التي يحتاجها، والأشربة المقوية، وهيأ له أيضاً بعض العطور التي كانت مخبأة ولا تخرج إلا بهذه المناسبة!

بعد أيام من الزواج سأل السلطان العجرمي. بطريقة مواربة، عن أحواله، فكان رده سريعاً وحاسماً:

ـ بوجودكم ونظركم يا طويل العمر، حنا بألف خير، وما يمكن تكون أحسن من كذا!

وحين أبدى السلطان استغرابه واستحسانه، وحاول أن يعبر عن ذلك قال العجرمي بفخامة:

ـ وما أريد أقول لك، يا طويل العمر، عن عين دامة. . . عين دامة تلزم للواحد كل سنة، لكن صاحبنا، بمعرفته ومودته، حضّر كل شي.

وضحك، ثم أضاف:

ـ وهذول العجم، يا طويل العمر، عجب. . .

وحين تطلع إليه السلطان باهتمام، أضاف:

ـ أي نعم؛ يا طويل العمر، هذول من الراس إلى الأساس، وأبد ما ينسون شي!

ضحك بصخب وبعد أن تطلع إلى جسده كله، قال:

ـ بس يلزم أن الواحد يطيعهم، يا طويل العمر، فإذا طاعهم سنعوه زين!

بعد هذه اللحظات المرحة بدا السلطان مهتماً أن يعرف كل شيء: ماذا يفعلون؟ كيف؟ وإذا كانت هذه الأمور قد قيلت بفخر، أو بتحفظ، فقد قيلت، وبدا للسلطان أن العجرمي يعني كل كلمة. قال له ببعض الحزم:

ـ هذه سالفة يلزم نوقف عندها يا أبو مشعل.

ـ أنا جاهز يا أبو منصور...

وبعد قليل:

ـ وخوينا حاضر، ويتمنى شغلة مثل هذه الشغلة لطويل العمر!

بعد أيام سُمّي حسين معتمدي مستشاراً في قصر الروض، وحين سأل عرفان الهجرس السلطان، وكان العجرمي موجوداً، ما إذا كان من الضروري إضافة صفة للمستشار، مثل المستشارين الآخرين، نظر السلطان إلى العجرمي، وتلفت أكثر من مرة، وقال بنفاد صبر:

ـ سمّه مستشار خاص، وهذا يكفي!

رأفت شيخ الصاغة الذي عرف قبل الآخرين بتسمية معتمدي مستشاراً للسلطان لشؤون «الصحة» قال وهو يزفر مثل ثور:

ـ اللهم يجيبك يا طولة الروح...

وبعد قليل:

ـ واللهم نجنا من الأعظم!

لـم تكد بضعة شهور تنقضي، حتى وصلت رسالة من السلطان إلى هاملتون. حمل الرسالة عنان بسيوني، ويطلب فيها أن يتوجه هاملتون، ومعه عنان، إلى لندن، لكي يتفقا مع الحكومة البريطانية على مجموعة من الأمور بخصوص الدول المجاورة، المرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات وعلاقات خاصة. ولكي يعرفا بالضبط، وكان هذا ما طلبه السلطان من عنان، موقف بريطانيا من مياح. فقد وصلت السلطان معلومات مؤكدة أن مياح اتصل بالإنكليز، أو الإنكليز اتصلوا به، وعرض عليهم أحد حلين: باعتباره مسيطراً على منطقة الحويزة، ويحظى بتأييد قبائلها، فإنه سيبقى خصماً، وسوف يشعل المنطقة كلها، ولن يترك بريطانيا وأصدقاءها يرتاحون أبداً، أو، وهذا هو الحل الثاني، أن تؤيده للاستقلال بالحويزة، وعند ذاك سوف يكون نعم الصديق، وسوف يستجيب لكل ما تطلبه وما تريده.

السلطان الذي اعتبر أن المعركة مع ابن مياح ستكون حاسمة، لم يكن مضطراً للاستعجال، خاصة بعد أن عرف عن العلاقة التي قامت بين ابن مياح وابن ماضي، وتأكد أن أموالاً طائلة صرفت في مناطق الحدود، وأن زعماء قبائل عديدة زاروا ابن مياح، وعادوا ومعهم الغضب والكلمات الكبيرة التي وصلت أصداؤها إلى موران، وكلها تتحدث «أن خريبط حاط يده بيد الإنكليز وباع البلاد، وأنه لا يعترف بالشرع والدين، وكل مستشاريه كفار».

خزعل الذي افترض أنه أمير للمنطقة كلها وقائد للقوات، أصبح أداة بيد ابن مياح. كان خزعل شجاعاً في معارك عديدة، لكن ليس مع

الخصوم الحقيقيين، إذ اندفع نحو قبائل الحدود، وبدل أن يستميلها، لجأ إلى تأديب حتى الذين لم يشاركوا في قطع الطرق أو نهب القوافل. وكان ابن مياح بمقدار ما يظهر خضوعاً ظاهرياً، يريد أن يحمّل خزعل كامل الأخطاء والمشاكل. السلطان الذي عرف تفاصيل كل ما حصل، وهو في موران، قرر أن يرجئ معركته، خاصة بعد أن بعث بعدة رسل لابن مياح يطلب منه المجيء إلى موران، وكان باستمرار يعتذر، مرة بحجة المرض، وأخرى بحجة أن هجوماً يوشك أن يقع، وبالمقابل كان يبعث للآخرين دون تردد بأقربائه المباشرين، مرة بعث ابنه، ومرة بعث أخاه لابن مشعان في العوالي، عدا عن الرسل الكثيرين الذين يبعثهم إلى شيوخ القبائل مع الهدايا.

لقد أصبح السلطان متأكداً أن شيئاً كبيراً يهيأ له. وأحس في لحظات كثيرة أن بريطانيا ليست بعيدة عن هذا الذي يجري. فإذا هدأت العوالي، تتحرك الحويزة، وإذا صمت ابن ماضي في هذه الجبهة تأتي المعلومات أنه تحرك أو يستعد للتحرك في الجبهة الأخرى. إضافة إلى ابن مياح وابن مشعان، «وثالثة الأثافي. . . عمير» كما يردد السلطان، لا يؤتمنون، ولا يهدأون.

أما العجرمي الذي شعر بالقوة والحيوية خلال فترة، فما لبث أن انتكس، ولذلك سافر فجأة إلى عين دامة، وقرر أن يطيل إقامته هناك، خاصة بعد أن أبلغه مستشاره، معتمدي، بعد أن التقى ساحراً هندياً زار موران بحثاً عن أعشاب تطيل العمر، وقد أكد له هذا الساحر أن العين لا تعطي كل قوتها إلا إذا كان القمر بدراً، كما هو مكتوب في كتب الهند القديمة، ويمكن أن تقوي الباه وتعيد الشباب. وإذا قضى الرجل بين ستة بدور وسبعة، واستعمل عطوراً من روح القرنفل الممزوج بالمسك، مع قليل من زيت الحوت، فإنه قادر على الزواج والإنجاب حتى سن المائة.

لذلك لم يتردد العجرمي في ترك موران والتوجه إلى عين دامة، وحين طالت إقامته بعث إليه السلطان برسالتين، الأولى للاستفسار عن صحته وراحته وفيها إشارة أن الشوق إليه زاد، وأن الكثيرين في موران يسألون

عنه، وقد استبطأوا عودته. رد العجرمي مع النجاب بجواب أنه بصحة جيدة، وطلب أن يُبلّغ السلام لكل من يسأل عنه، وأنه، حالما ينتهي من العلاج، سيعود إلى موران! أما الرسالة الثانية، فقد كانت أكثر وضوحاً، إذ أبلغه السلطان «أن بعض الأمور الجديدة تقتضي التشاور» لكن والقمر على وشك أن يصبح بدراً بعث مع النجاب الذي حمل الرسالة الثانية، «أننا نتوجه إلى طرفكم في فرصة قريبة، وحالما تكون صحتنا قادرة على تحمل أعباء السفر».

قال السلطان لابن البخيت، حين وصل النجاب الذي يحمل الرسالة الثانية:

ـ بردان طاح على متلحف ردونه...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ كنا نريده عون، هالحين حنا يلزم نسنده ونعاونه.

رد ابن البخيت بمرح:

ـ يا مسترخص اللحم عند المرق تندم!

قال السلطان بسخرية:

ـ والله، يا عبدالله، ضاعت علينا الأمور، وما نعرف من معنا ومن علينا.

ـ وقال أحدهم لأبي بكر: «إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، ضاعت الأمور».

وابتسم ابن البخيت ثم أضاف:

ـ أنا لا أفهم بالسياسة، يا طويل العمر، وما أقدر أقول رأي بالرجال وأنا متأكد، بس أشوف أكثر اللي يحوّمون حولنا لقامة وخرندعية، ويلزم طويل العمر يعرف رجاله...

وبعد قليل وهو يترنم:

يا باري القوس برياً ليس يصلحها لا تظلم القوس، اعط القوس باريها

قال عنان بسيوني للأمير فنر، قبل يوم من السفر:

ـ . . . ويقول طويل العمر: يلزم سمو الأمير فنر يطوّل باله، ومهما شاف أو سمع من ابن مشعان يحفظ ويسكت، لأن كل شيء بأوانه زين.

قال هاملتون، ويونس شاهين موجود:

ـ . . . سنركب البحر غداً، يا طويل العمر، وبعد أن نصل إلى السويس، نتوجه إلى القاهرة، ومنها نأخذ الطائرة إلى لندن.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ولولا البواخر كانت الأسفار صعبة. . .

رد يونس بتورية:

ـ وقبل البواخر كان يمكن للإنسان أن يسافر وأن ينتقل من مكان إلى مكان!

ـ ويصل إلى إنكلترا؟ إلى أميركا؟

قال الأمير فنر وهو يبتسم:

ـ المهم أن يسافر الإنسان ويرجع بالأخبار الزينة، وما يهم إذا سافر على جمل أو بالباخرة.

قال عنان بسيوني:

ـ وعلم الإنسان ما لم يعلم!

ابـن مياح في الحويزة وما ورائها الحاكم الفعلي، حاكم الأمر الواقع، لا يستطيع السلطان أن يعزله أو أن يتدخل في شؤونه. وهو بمقدار ما يتبع السلطان فإنه مستقل عنه. يطالب بالرواتب والمؤن والذخيرة إذا تأخرت، ولا يرسل من الغنائم أو الضرائب شيئاً، «لأن الحرب هي الحرب، يا طويل العمر» مملوء بالأحلام والرغبات والجموح، يريد أن يصل إلى آخر الدنيا، لكن لا يقوى على تجاوز مسافات معينة، لأن هناك مدافع الإنكليز والكفرة الذين يتبعونهم، وهناك خريبط الذي لا يختلف عن الذئب: لا ينام ولا يسهو، ومستعد للانقضاض في كل لحظة.

العلاقات بين الطرفين شديدة الحساسية: بين الحرب والسلام، ليست الصداقة ولا تصل إلى حد العداء. إذا احتدمت الأمور، وإذا جاء لوم السلطان، يصرخ ابن مياح مثل جريح: «هذا كتاب الله حكم بينا» أما إذا هدأت أو استقرت، فإن عمير عند ذاك هو الذي يفتي: «. . . وما حملنا السلاح إلا حتى نرفع راية الإسلام، ولمحاربة البدع، وللقضاء على الكفار. وراح يوم وجاء الثاني، حنا ما تغيرنا، وسلاحنا بأيدينا، خريبط هو اللي تغير، لوح له الإنكريز بعظمة لحقهم وترك خوياه، ويريدنا نصير مثله. لا بالله، حنا نريد نظل نجاهد، حاملين أرواحنا على أيدينا، واما النصر واما الشهادة، هذا كل ما نريده، وهذا خلافنا مع خريبط، وأنتم، يا ناس، يا أهل العقل والدين، تعالوا واحكموا من هو المخطي ومن هو المصيب؟».

بعد الكثير من المحاولات تأكد خريبط أن الحرب واقعة، ولكن يجب أن يهيّئ لها، وأن يحدد ساعتها، لا أن تفرض عليه.

ابن مشعان، وبعد الرسل والهدايا، وبعد أن عاش فترة في العوالي، «أصبح مستعداً للأخذ والرد»، كما يقول ابن البخيت، ولذلك لم يتركه السلطان.

قال ابن البخيت ذات ليلة للسلطان، وكانا وحدهما يستعرضان صفات الخصوم، وكيف يجب أن تكون المواقف منهم:

ـ . . . وابن مياح، يا طويل العمر، دوغري، تشيذي يقول أهل مصر، يعني عدل، بس عقله صغيّر مثل عصفور. أعند من حمار الشيخ عند العقبة. إذا كان معك أتعبك وإن كان ضدك أتعبك، وكان يلزم أقول لك رأي من سنين، لكن، طال عمرك، كنت حاضنه مثل ما الدجاجة تحضن بيضها، وأبد ما يصير أحد يحكي على ابن مياح. وراح يوم وجا التاني، ولما فقست البيضات ودرجات الفريخات، وصار كل الحويزة تعال هالحين دبره. . . هذه هي سالفته!

ـ وشنهو رأيك بابن مشعان يا عبدالله؟

ـ ابن مشعان، طال عمرك، بعد ما سمع طرب أهل العوالي، وشم وذاق طيب نِساهم، وبعدما عرف الحرير والظلال، صار ينظر لفوق، وظني أنه حاير، ما يعرف يكون مع السلطان أو ابن مياح، يريد الدين والدنيا، ويريد يكون هنا وهناك. . .

توقف قليلاً، تنفس بعمق، وأضاف بمكر:

ـ وأنا، يا طويل العمر، أميز الناس ما هو من كلامهم، وإنما من الكلام اللي ما يقولونه، أعرف الناس متى يحكون ومتى يسكتون، وشلون الواحد يتسوك، وشنهو اللي يقول للي يصب له القهوة أو يصب على يده الماء. وأعرفهم على أي سوالف يضحكون. . . وعلى أي جنب ينامون!

وضحك، وبعد قليل:

ـ ويلزم، يا طول العمر، تأخذني على قدر عقلي، وإن شاء الله ما تزعل مني!

ـ وبعد. . . يا عبدالله؟

ـ ما بعد هذا إلا الخير والسلامة، طال عمرك.

ـ وظنك. . . شنهو اللي يريده ابن مشعان؟

ـ ظني، إذا ماني مخطي، يا طويل العمر، يريد فيّ العوالي، ورمان الطريفة، ونساء وطفان!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وقالوا لي أن الوطفانية اللي عنده، يا طويل العمر، ما يبدلها بنساء الأرض، وهي اللي تشور وهي اللي تقول.

ـ وبنات وطفان مزيونات؟

ـ علمي علمك، يا طويل العمر، بس أهل العوالي يقولون كذا.

ـ وشلون نصل لهذي الوطفانية، يا عبدالله؟ شلون نخلّيها تسنّعه؟

ـ هذا. . . يا طويل العمر، اللي ما أعرفه، يلزمك تدور مفتاح: ساحر أو فتّاح فال، أو لا بد من ولاّدة أو مشاطة؛ فإذا لقيت مفتاحها ترى ابن مشعان بالحضن، وسالفته غير سالفة ابن مياح!

ضحك السلطان مثل طفل، وبعد أن هدأ سأل ابن البخيت:

ـ هذي السوالف منين لك يا عبدالله؟

ـ من الأجاويد!

ـ لا. . . يلزم تقول لي.

ـ أهل موران، طال عمرك، تعلموا من الغنم والأباعر، وما عندهم إلا لساناتهم وأبد يلوكون، ولا تحسبهم ما يعرفون، لا، يعرفون كل شي.

ـ وعني يعرفون ويسولفون؟

ـ هذي ما أعرفها، يا طويل العمر، والمجالس بالأمانات!

والسلطان رغم أنه يريد أن يعرف ماذا يعرف الناس، إلا أن الموضوع يحتمل التأجيل، سأل بنبرة مختلفة:

ـ زين وعمير. . . يا عبدالله؟

ـ عمير؟

هكذا سأل باستغراب أقرب إلى الاستنكار. أكد السلطان:

ـ أي نعم. . . عمير؟

ـ هذا، طال عمر، تسأل عنه فهمي الزوني!

ـ فهمي الزوني؟ بيطري الخيل؟

ـ ولو كان عندك، يا طويل العمر، بيطري، تكرم، الحمير والكلاب، يمكن يعرفه أحسن!

قال السلطان وهو يضحك:

ـ الله يخزيك، والله لؤمك لو يتوزع على موران كلها، يخربها!

ـ الله يسامحك يا طويل العمر..

ـ وبعد قليل:

ـ وباكر أو اللي عقبه، إذا انكشفت الروس تبين القرعات!

لما عاد هاملتون، بعد شهر وبضعة أيام، عاد إنساناً آخر: فقد جزءاً من وزنه، وبدا شاحباً وحزيناً. والسلطان الذي فوجئ بمنظره، تحسب بعد ذلك، خاصة وأنه لا يشكو من مرض.

وبكثير من الحيرة والارتباك، وهذا يحصل لأول مرة مع هاملتون، لخص للسلطان أن بريطانيا يهمها بالدرجة الأولى أمن الدول المجاورة، ولا يعنيها أمر ابن مياح أو غيره، إلا بمقدار ما تتأثر هذه الدول. أما بالنسبة للمعونة المالية، فإن بريطانيا تعاني الآن من أزمة مالية خانقة، ومع ذلك سوف تحاول أن تفي بوعودها، وتقدم المعونة. ربما تضطر للتأخر، أو لتقسيط بعض المبالغ، لكنها في النهاية ستفي بالتزاماتها بكل تأكيد.

لم يستطع السلطان أن يفهم أكثر من ذلك، ليس لأن هاملتون لا يريد أن يتكلم، كما كان يفعل في مرات سابقة، وإنما لأنه لا يملك معلومات أخرى، أو ليس متأكداً منها، إضافة إلى حالة من القلق أو التعب.

بعد يومين أو ثلاثة أيام في موران، وفي لحظة مناسبة، اختلى هاملتون بالسلطان:

ـ . . . وبعد تفكير، وبعد ما اطلعت وتأكدت، يا صاحب الجلالة، فأنا أريد أن أعلن إسلامي، أريد أن أصبح مسلماً، وأن أبقى في مملكتكم،

وأن أعيش هنا حياتي كلها، وسوف أبقى إلى جانبكم، أو في أي مكان تختارونه لي، فأرجو أن أسمع منكم كلاماً بالموافقة!

السلطان الذي دهش إلى أقصى حد، ولم يصدق أذنيه، تطلع إلى هاملتون بإمعان، ليتأكد أنه لم يتناول دواء الحصر، وليس هناك أسباب أخرى طارئة. بعد أن تبين له صحو الرجل، وقلقه أيضاً، سأله:

ـ أنت متأكد يا الصاحب؟

ـ متأكد وبكامل الوعي والقناعة والرغبة، يا صاحب الجلالة.

ولا يعرف السلطان كيف وافق على ذلك القرار بسرعة، إذ صرخ من فوره طالباً دعوة العجرمي. وخلال فترة قصيرة، وبوجود ابن العليان وابن البخيت وثلاثة من الحرس، أعلن هاملتون إسلامه، وردد وراء العجرمي الشهادتين، وبارك له السلطان إسلامه بكثير من الحميا والانفعال، كذلك فعل العجرمي والعليان والحرس، حتى ابن البخيت بارك له إسلامه، لكن في الليل المتأخر، وكان عائداً هو وعثمان العليان، وكانا، بصمت، يستعيدان وقائع هذه الليلة، سأل ابن البخيت ببراءة ملعونة:

ـ شنهو قولك، يا عمي، ما دام الصاحب أسلم، يلزم يتطهر أم لا؟

رد عثمان العليان، وقد فاجأه السؤال:

ـ المهم، يا عبدالله، الشهادة. قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وما عداها سنة.

ـ كذا رأيك؟

ـ ما دام شيخ الإسلام قبل إسلامه، يا عبدالله، فلا تدخل نفسك!

رد عبدالله البخيت بمكر:

ـ ودين الإسلام ما هو مثل غير أديان: متسامح، ويحمل وكريم.

وبعد قليل:

ـ اللهم انصر الإسلام!

هاملتون بعد أن عاد إلى العوالي، عاد باسم جديد: عبد الصمد، ولم يعد يعرف إلا بهذا الاسم. وكان يحبه، ويصر عليه، ويريد من الآخرين أن ينادوه به، وكان العجرمي من اقترح هذا الاسم، وقد وافق عليه هاملتون، وقبل أن يأوي إلى فراشه تلك الليلة فتح القاموس على كلمة صمد وقرأ كل ما يقابلها من معاني!

حين وصل إلى العوالي، كتب في مذكراته ما يلي:

«. . . الفرد، حتى في دولة صغيرة، يجب أن ينسجم مع منطق الدولة ومصالحها، وهو قادر ومهم بمقدار إمكانياته واستعداده لأن يكون جزءاً من هذه الدولة، أما إذا حاول العكس فلا بد أن يهزم، إذا لم يكن اليوم فغداً.

أما الأمبراطورية، كالأمبراطورية البريطانية، فإن منطقها ومصالحها من الضخامة والتشعب والتغير بحيث يجب على من يريد أن يكون من موظفيها الدائمين، وليس من موظفيها المؤثرين ـ لأن لا فرد يمكن أن يؤثر على أمبراطورية ـ أن يغير جلده مثلما تغير الحية جلدها، لكي يبقى مقبولاً ويُعطى الحق في أن يبدي رأياً، لا أن يفرض هذا الرأي.

في «مؤتمر الشرق» قالت الأمبراطورية كلاماً مخالفاً لكل ما قالته من قبل، ومخالفاً لعهودها والتزاماتها السابقة، لأن مصالح الأمبراطورية الجديدة، والظروف، تقتضي ذلك. صحيح أنني حاولت، وحاول غيري أيضاً، أن نذكّر بعهود بريطانيا ووعودها، وأن نلفت النظر إلى جملة ملاحظات، لكن كلامنا كان غريباً على أسماع السادة، وكان، في لحظات معينة، مزعجاً، ويريدون أن ننتهي بسرعة من هذه الثرثرة، لكي ندخل في صلب الموضوع.

طبيعي أفهم الدوافع التي أملت تغيير السياسة، وما جدّ من عوامل واعتبارات، لكن افترض أن شيئاً ما يجب أن يظل ثابتاً، وأن يكون مرشداً، وهذا ما افتقدته في هذا المؤتمر، الأمر الذي ولد في نفسي الكثير من المرارة وخيبة الأمل.

لا أستطيع في هذه السن أن أبدأ من جديد، أو أن أغيّر أفكاري وعلاقاتي، لقد أصبح الوقت متأخراً. ومع ذلك يمكن أن أعيد ترتيب الأولويات بالنسبة لما يجب أن أفعله، ويمكن أن أجد هامشاً للتوفيق بين ما تريده الأمبراطورية، وبين ما أستطيع أن أفعله، ضمن قناعاتي وعلاقاتي القائمة. سوف استغل الهامش المتاح لكي أحقق عدة أمور في آن واحد: سوف استمر في موران، وسوف أساعد هؤلاء الناس، الذين يبدون لي أنهم يستحقون المساعدة، ولديهم الاستعداد لكي يفعلوا شيئاً، على الأقل في هذه المنطقة. وسوف أواصل اكتشافاتي الأثرية والتاريخية، ليس بهدف إرضاء طموحي الشخصي، وإنما من أجل إلقاء الأضواء على منطقة مجهولة ومهمة في الوقت نفسه، وأنا متأكد، من هذه الناحية، أن الأبحاث التي سأكتبها عن المنطقة ستكون هامة وربما تصبح مرجعاً للباحثين في المستقبل.

الآن، أكثر من أوقات سابقة، أحس أن عمتي ماركو على حق، أولاً: تقول: يجب أن تذهب عميقاً في مجتمع معين، لمعرفته واكتشافه، وثانياً، يجب أن يقترب الإنسان من هذا المجتمع بروح من التعاطف والرغبة، لكي يصل إلى حقيقته. وهذا ما دعاني لأن أصبح مسلماً. إن الدخول في هذا الدين، رغم مشقته، يمكن أن يفسح لي مجالات وآفاقاً لم تتح لرحالة أو مكتشفين غربيين في السابق. أن الناس هنا يخافون من الآخر، والآخر، هو، بالدرجة الأولى، الدين الآخر، قبل أن يكون الشخص الآخر. هكذا أفترض، وهذا ما سأحاول التأكد منه.

لفتُّ النظر مراراً في «مؤتمر الشرق» إلى ضرورة أن تكون بريطانيا حاضرة للمساعدة في اكتشاف ثروات موران، لكن بدا لي أن هذا الأمر لا

يتمتع بأولوية تجعله هاماً أو عاجلاً، وهذا ما دعاني للموافقة على أن تكون هناك خيارات أخرى.

صحيح أن بعض الأمور تحصل بالصدفة، لكن يمكن أن تؤثر، وأن تخلق آفاقاً لم تكن بالبال. فبعد دعوة العشاء التي جمعتني بمستر ستيفن سنكلر، وكان مهتماً أن يعرف الكثير عن صحراء موران، لأن له تجربة في صحراء أستراليا، كما ذكر لي، فقد تطرق الحديث لاحتمال وجود بعض الثروات، فبدا سنكلر فضولياً، ثم أصبح بعد ذلك مهتماً، وأعلن عن استعداده لإرسال فريق من أجل البحث، وطلب مني المساعدة.

لن أتردد في تقديم المساعدة، فالأميركيون يبدون لي أكثر جرأة وأبعد نظراً، وليس هناك تناقض في المصالح أيضاً بينهم وبين بريطانيا، فالمهم أن يكون الغرب موجوداً.

ذكرت للسلطان عن مستر سنكلر، وأنه يمكن أن يساعد في أمور عديدة، في الكشف عن المياه والذهب والنفط. كان سعيداً، وسألني رأساً: كم يدفعون؟ ذكرت له أن الأمر سابق لأوانه، وأن المبالغ التي يمكن المطالبة بها تتوقف على نتائج البحث. هز رأسه، وسأل: وكم يحتاجون حتى يتأكدوا، لما قلت له أن الأمر يتطلب بضع سنين، شعر بالخيبة، هؤلاء الناس، في أمور المال، قليلو الصبر، يريدون كل شيء وبسرعة.

ابن مياح اصبح خطراً، لأن بريطانيا تأخذ بعين الاعتبار الأمر الواقع، ولا تهتم بما يدعيه الآخرون، مهما كان «تاريخياً» أو منطقياً. أكدت على السلطان ضرورة أن يتخذ إجراءات، ربما لا تتطلب الوصول إلى الحرب، لأن استقرار الوضع بهذا الشكل يمكن أن يؤدي إلى ما يعتبر أمراً واقعاً. هز رأسه ولم يجب إجابة حاسمة.

لا أستطيع التكيف بمرونة مع متطلبات الدين الجديد، بل أكثر من ذلك أبدو، حتى لنفسي، مختلفاً عن السابق. لا أريد أن أتسرع في إصدار الأحكام، أو توهم النتائج، لكن هذا ما أشعر به على الأقل، خاصة حين

أصلي مع الآخرين. إن نظراتهم تخترقني. وتجعلني مرتبكاً، وأغلب الظن أن الكثيرين غير متأكدين أو غير واثقين من إسلامي.

تبقى العوالي أفضل بكثير من موران، فالناس هنا أكثر فهماً وأكثر استعداداً للتعامل مع الأجنبي.

يدهشني فنر إلى أقصى حد، أنه يتطور بسرعة لافتة للنظر، ولديه استعداد للعمل، وقدرة على الفهم والاستجابة. ولولا المستشارون الذين لا يكفّون عن الثرثرة، وعن تقديم اقتراحات تتناقض يوماً بعد يوم لكانت الأمور أفضل بكثير. مع ذلك يجب أن لا اصطدم بالآخرين وأن أبذل جهداً، دون أن أشعره، بضرورة إعطاء الأولوية لبعض المشاريع، ولبعض العلاقات الأكثر أهمية من غيرها.

احضرت كمية وفيرة من الكتب، وأوصيت على كتب أخرى، أن الكتب من الأمور القليلة في هذه الدنيا التي تربط الإنسان، وتجعله بفكر بطريقة أفضل.

لن أستطيع أن أخطط لمشاريع طويلة الأمد، لأني التزمت مع سنكلر، ورجاله سيأتون خلال أسابيع قليلة، ويجب أن أهيّئ لهم الأمور، وأن أرافقهم إلى موران، وقد أُضطر أيضاً إلى مرافقتهم إلى بعض مواقع العمل. ولذلك سوف أمنح نفسي إجازة قصيرة لإعادة ترتيب الأمور».

عنان بسيوني الذي لاحظ أن هاملتون تغير كثيراً، بعد عودته من السفر، وسمع من قنصل بريطانيا «أن هاملتون لا يمثل السياسة الرسمية لصاحب الجلالة ملك بريطانيا، وأن له اجتهادات خاصة، وقد تكون غير مقبولة» وابتسم القنصل دلالة السخرية والاستخفاف، فقد قرّر أن طموحات الرجل تصطدم بالمصاعب، ولا بد أن تتكسر وتتراجع، خاصة عندما تتوضح الأمور لصاحب الجلالة السلطان، أو عندما يلمس بنفسه النتائج. عنان بسيوني الذي بدا متفائلاً، أصيب بصدمة قوية عندما جاءت الأخبار بأن هاملتون أعلن إسلامه، ثم حين جاء باسم عبد الصمد، وقد ترك لحيته تنمو، وبدا تقياً مؤمناً كما لم ير أحداً مثله من قبل. قال لنفسه «خيركم في

الجاهلية خيركم في الإسلام وأصبح هاملتون واحداً من الصحابة؟» وتذكر أبا سفيان.

سأل القنصل البريطاني ذات يوم عن إسلام هاملتون، رد عليه بعدم اهتمام:

ـ نحن لا نتدخل في مثل هذه الأمور الشخصية.

قال شمران العتيبي في سوق الحلال:

ـ ابشروا يا أهل السوق، الإنكريز صاروا مسلمين، وباكر واللي عقبه راح عيون أولادكم تصير زرق، واللي ما يصدق هذا هو العجرمي يروح وينشده.

وظل الموضوع يدور ويثير الكثير من السخرية والتساؤلات والاستغراب، لكن الأحداث التي أعقبته جعلت الكثيرين ينسونه!

مـرة أخرى. . . حان الوقت لكي تبدأ مرحلة جديدة.

ومثلما فعل خريبط في حملة وادي الفيض، وبعدها الحويزة، ومثلما فعل في حملة العوالي، بعث على أقربائه وأخوال أولاده، وبعث وراء رجاله المباشرين. كان قسم من هؤلاء قد ابتعد، نتيجة الأخطاء أو سوء المعاملة، أو نتيجة تقديم الآخرين عليهم.

ما أن وصلوا وضمهم اجتماع واحد، حتى بدأ السلطان:

ـ . . . وتعرفون يا جماعة الخير، من ثلاثين سنة وأكثر وحنا نركض من مكان لمكان، وطول هذي المدة ما عرفنا الراحة ولا غمضت لنا عين، وبتأييد من الله ومنكم، أنشأنا هذا الملك، وقلنا لأرواحنا يلزم أن الناس اللي تعبوا واللي شقيوا أن يستريحوا لأن، حتى الله عز وجل، خلق الدنيا في ستة أيام واستراح في اليوم السابع. لكن بينّا جماعة ما تبي ترتاح ولا تبي تريّح، وحنا ناخذ الناس على قدر عقولهم، نقول لهم: سبحانه وتعالى أعطى وتفضل، ويلزم نقنع ونحمده ونشكره، ونقول لهم يكثر خيركم يا جماعة، وطالت أعماركم، لكن أبد ما يسمعون ولا يفهمون. وهالحين، اللي بنيناه بثلاثين أربعين سنة، واللي ما صار إلا بعد ما نشف ريق الناس ولاقوا الأمرين، يريدون يهدمونه ويضيعونه.

وتتبدى على وجهه علامات الغضب والحزن. يتطلع إلى الذين يتابعونه لكي يختبر وقع الكلمات التي قالها، فلما يجدهم صامتين، وقد امتلأوا حذراً أقرب إلى الخوف، يتابع:

ـ وأنا، يا جماعة، صبرت وتحملت، وكنت أقول لنفسي: تحمل يا

خريبط، باكر الجماعة يقدّرون. لكن يوم بعد يوم، وكل ما سكتنا وطوّلنا بالنا يزيدون. وأنتم تعرفون، يا جماعة الخير، كل إنسان، حتى لو كان كبره كبر جمل، يصل إلى حد ويقول: هذا حدي. وما أقدر أشيل أو أتحمل أكثر من اللي تحملته...

وزفر بحزن، وتغيرت لهجته تماماً:

ـ وجماعتنا قالوا من قبل: من شاورك دخل ذمتك، وأنا، والشهادة لله، صار لي ليالي ما تعرف عيني النوم، وما بعثت وراكم إلا لأشاوركم، وأقول لكم اللي ببالي...

وخفض صوته تماماً، صار أقرب إلى الهمس، وخرج حزيناً جداً:

ـ هجس ببالي يا جماعة، وأقولها صراحة، أن أترك وامشي، ويلزمكم تدورون من بينكم واحد غيري...

وغصّ في الكلمة الأخيرة، وسقطت دمعة لم يستطيع أن يحبسها. خيم على الجلسة جو قاسٍ من التوتر والحزن. وخلال لحظات، ورغم تعدد العواطف وتباينها، بتعدد الرجال الموجودين، إلا أن تياراً واحداً خفياً سرى في الجمع، فجعل هذا العدد الكبير من البشر كتلة واحدة لا يُعرف أين بدايتها وأين تنتهي.

ومع أن الصمت لم يدم إلا فترة قصيرة، إلا أن هذه الفترة بدت بنظر الكثيرين طويلة شاقة. لم يتركها السلطان تمضي هكذا، قال دون أن يرفع رأسه:

ـ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وأنا، وأقولها بفخر، وأشهد عليها رب العالمين، قمت بواجبي وسويت اللي أقدر عليه، وما فكرت ولا بغيت في يوم من الأيام حمداً أو شكوراً، فإذا وافقتم على أن أستقيل، وأن أقضي ما بقي لي من أيام على هذه الأرض أتعبد ربي وما أبغي إلا مرضاته، فأكون لكم ممنون، وأولها وتاليها، ودوم، أنتم متفضلين، وبارك الله فيكم... هذا اللي عندي، وهذا اللي ردت أقوله لكم.

تبادل بعض المسنين النظرات، وكانت نظرات محرضة مليئة بالحزم ورغبة المواجهة. وحين لم يبادر أحد للكلام قال العجرمي:

ـ اسمع يا أبو منصور، وأريد من كل واحد أن يسمع. . .

وجال بنظراته في الوجوه، وكان أقرب إلى الغضب:

ـ حنا اللي بايعناك، وحنا اللي سلمناك هذي الأمانة. وأرواح الناس وأعراضها وأموالها دين برقبتك في الدنيا والآخرة، وأبد ما يجوز أن الراعي يتخلى عن الرعية، وأن صاحب الأمانة يترك أمانته. . .

وتغيرت نبرة الصوت:

ـ وحنا، يا أبو منصور، والشهادة لله، نعرف ما تلقاه من تعب وحسد ومغثة، وأنا، أكثر من غيري، أعرف أنك شايل على أكتافك هموم ما تشيلها جبال، وأعرف أن الناس ما يعرفون ولا يقدرون، بس يجي يوم يعرفون ويعترفون. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ لهذا السبب أريد منك، يا طويل العمر، ما تجي على لسانك كلمة أستقيل، أو كلمة أترك وامشي. ما هو بس كذا، أنا أقول نيابة عن الحاضرين جميعهم: حنا ما نسمح لك، لأن البيعة اللي بايعناك، وأشهدنا الله ورسوله، متمسكين بيها، وأبد ما نقبل غير شيء!

وإذا كان العجرمي قد استطاع أن يعبر عما يدور في رأسه بكلمات واضحة، وأن يعكس أفكار الكثيرين، إن لم يكن أفكار الجميع، فإن الذين تناوبوا الكلام بعده كانوا خليطاً من الرجال المنفعلين الغاضبين، أو الذين فوجئوا وذهلوا، فلجأوا إلى الصراخ أو البكاء، وتجرأ بعضهم فأشهر سلاحه، وسمعت أيضاً بعض النخوات والأهازيج، وكانت كلها أقرب إلى الصرير الهستيري الذي يتولد فجأة، ولا يمكن تمييز الكلمات أو لا يُعرف ماذا تعني أو ماذا يجب أن يُفعل.

قال وقيان الضاري، أحد أعمام السلطان، والذي لا يأتي إلى موران إلا نادراً، إذ يفضل أن يبقى مع صقوره بعيداً، وقد فوجئ بما سمع:

ـ اسمع يا خريبط إذا كان ملك آبائنا وأجدادنا تريد تضيعه بساعة غضب، أو لأن فلان قال كلمة، فترى السيوف هي اللي تحكم بينًا. . .

وتلفت بانفعال، كأنه يريد ممن حوله أن يشهروا سلاحهم، تابع وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ ويلزمك تسمع كلامي زين: قبل ما نتوجه لابن مياح، وقبل ما نرفع سلاحنا عليه، نرفعه بوجهك. إذا ظليت تسولف هذي السوالف الجايفة.

ضحك السلطان بعصبية، رفع عينيه إلى الوجوه، وقال بمرارة:

ـ يا عباد الله...

ـ هز رأسه عدة مرات وتغيرت نبرة صوته:

ـ والله وبالله وتالله صار لي سنين، يا جماعة الخير، أعض على جرحي وأنا ساكت، أقول تتعدل، أقول جماعتنا ويلزم نتحملهم، لكنها زادت...

قال العجرمي ليخلق جواً جديداً:

ـ اسمع يا أبو منصور، ويلزم أن الواحد يقول ضميره: حنا مقصرين، الواحد منا قاعد بالظلال يسولف، أو يقنص، وإذا حصّل قرشين يتزوج، وتاركين كل الحمل عليك...

رد السلطان بعصبية:

ـ ما يهمّ التعب، يا أبو مشعل، لو كانت المسألة مسألة تعب ما قلنا ولا كلام، بس المسألة ما هي كذا...

ضحك، تطلع إلى اثنين أو ثلاثة الأقرب إليه وأضاف:

ـ الخويا، أقرب الناس، اللي يشوفون ويعرفون، حتى هذول تلقاهم يقولون: خريبط ترك الدين ونسي الجهاد. يقولون خريبط باع البلاد. وما تخلص سالفة إلا ويطلعون بالثانية، وضعنا بين نار الخويا ونار العدى، وبعدها: هات يا خريبط، نريد يا خريبط، سو يا خريبط، لا تسوِ يا خريبط، فضاعت علينا الحسبة وما نعرف من هو اللي معنا ومن هو اللي علينا.

قال وقيان بحدة:

ـ اسمع يا خريبط: الحق كله عليك، حنا ما سويناك أمير إلا حتى

تحكم وترسم، وهذول اللي يقولون يصير وما يصير، اللي يقولون فلاني وتركاني، وتلقاهم أبد من الشمس للظلال، يلزم تسنّعهم زين، إذا طقيت كم واحد الكل يتعلمون ويصيرون.

ـ حنا يا عم ما نريد نقتل ونضرب، نريد الناس تفهمنا وتعاوّنا.

هكذا رد السلطان. قال طراد المجول أحد أصهار السلطان، وقريب فضة:

ـ أنا يا جماعة الخير عندي كلمة وأريدكم تسمعون: قبل كم يوم جانا جماعة، دزهم ابن مياح، وبعد السلام والكلام، طلّعوا ذهبهم وقالوا: الديرة كلها معانا، وخريبط مصبّح مسّي، وحنا جيناكم لأنكم عزيزين علينا، ونريدكم تعاهدونا: إذا ثرنا بوجه خريبط تكونون ويانا، وإذا خفتم أو لكم رأي ثاني فلا تكونوا مع خريبط، أبقوا على الحياد، لا معه ولا معنا... وهذا الذهب لكم.

مدّ وقيان الضاري رقبته مثل اللقلق وسأل:

ـ أي نعم... وشنهو كان جوابكم؟

ضحك طراد المجول، تطلع إلى الوجوه التي تتابع كلامه، وتطلع إلى وقيان الضاري وسأل:

ـ حنا... شنهو كان جوابنا؟

والتفت إلى أكثر من اتجاه، يبحث، وخرج صوته حاداً:

وين أنت يا عايد؟ وحين رفع عائد رأسه، خاطبه بحدة: علمهم شنهو كان جوابنا.

قال عائد، وبدا مرتبكاً:

ـ قال لهم عمي طراد: والله.. والله، لو ما كنتم ضيوفنا، ولو ما أكلتم من خبزنا وملحنا ما يطلع واحد منكم سالم.

سأل وقيان:

ـ وبعد... يا طراد؟

ـ ما أقدر أسولف لك بكل اللي صار واللي جرى يا عم، قالوا:

الإنكريز، قالوا: الدين، قالوا: خريبط ظالم وغاشم. بالمختصر، قلت لهم: يا جماعة، الأمور زادت عن حدها، وإذا أنا شيخ وقادر أن أحميكم إلى هالحين ترى ما أقدر أضمن بعد ساعة، والأحسن تشيلون، ما هو بس كذا، قلتم لهم تبلغوا ابن مياح: حنا، يا ابن مياح، مع خريبط، وأول من يرفع السلاح بوجهك، إذا ما رجعت للطاعة ولزمت حدك؛ وقلت لجماعته، اتركونا هالحين من هذي السوالف، والأحسن ترجعوا لعقولكم، لأن جماعتنا قالوا من قبل: سلطان غشوم ولا فتنة تدوم، وأنتم هالحين أهل الفتنة، والناس مع خريبط!

قال وقيان الضاري:

- من زمان يسولفون لي عنك يا طراد، والكل يذكرك بالخير، ويقولون شهم وما مثله!

تدخل السلطان من جديد ليعيد الأمور إلى سياقها الأول:

- مثل هذي السالفة ميّات، يا جماعة الخير، وغيرها أكبر منها، ولهذا السبب ما أريد أن أقف أمام الله يوم القيامة وحيداً، ومثل ما قال طراد: سلطان غشوم ولا فتنة تدوم...

ضحك وهز رأسه عدة مرات ثم تابع:

- إذا كان ابن مياح يسميني سلطان غشوم، وإني بعت البلاد، فأنتم، كل واحد منكم، تعرفوني زين، إذا كان فيّ عيب فعيبي أني متساهل، أني أسامح، ودايماً أقول: حنا أولاد اليوم وعفا الله عما مضى، لكن اللي براسه سالفة، الطمعان، والخاين، لا بد يلقى له خيمة أو عباة حتى يتظلل بيها...

وتغيرت نبرته تماماً:

- يرجع مرجوعنا، يا جماعة الخير، لأول الكلام: أنا أشوف روحي وحدي وتعبت، حملت عنكم سنين وسنين، وما أقول هذا الكلام حتى أمنّ عليكم، لا بالله، بس البني آدم لحم ودم، وإذا حمل يوم ما يقدر ثاني يوم...

ولما رأى الصمت مخيماً تابع بحزن:

ـ وأريد منكم، طالت أعماركم، تشوفون، وتلقون واحد غيري. . .

وابتسم وأضاف بسرعة:

ـ وأي واحد تختارونه وتبايعونه، أنا أول من يعاونه ويكون معاه. . .

كاد يتابع، لكن وقيان الضاري وقف، وبدا وجهه محتقناً أقرب إلى الحقد والاشمئزاز.

ـ بليا طول سالفة يا خريبط، تسمعني زين؟

وضرب الأرض بقائم سيفه وأضاف:

ـ حنا هالحين هنا حتى نشوف شلون نقدر نساعدك، نحمل كتف عنك، وغير سالفة اتركها، وأبد لا تجيب طاريها على لسانك، ومثل ما صار أولها يصير تاليها.

قال العجرمي:

ـ حنا أهل الدين وأهل الشرع، ونعرف اللي يجوز واللي ما يجوز، وأقول لكم كلمة وأنا مسؤول عنها. . .

قاطعه السلطان:

ـ قبل ما تقول، يا أبو مشعل، ولا مقطوع لكلامك، أريد أسمع الجماعة اللي ما تكلموا من قبل.

وأولئك الذين لم يتكلموا، لم يبدوا رأياً ولم يشاركوا، تبادلوا النظرات فيما بينهم، ومع الآخرين أيضاً، أصيبوا بالارتباك، إذ رغم أن أي واحد منهم يمكن أن يتحدث، ولفترة طويلة، ويمكن أن يقول شيئاً هاماً وجميلاً، إلا أنهم وقعوا في حالة من الحيرة. ولم يتردد بعضهم في أن يكز غيره، أو أن يتطلع إلى جهة أو أخرى، وكأنه ليس معنياً، ويريد من غيره أن يتكلم، أن يعبر عما يجول في خاطره. وهؤلاء الناس ليسوا جبناء أو لا يعرفون ما ينبغي أن يقال أو يفعل، لكن ضمن هذا الحشد، وفي مثل هذا الجو المنفعل، فإنهم يصبحون بشراً من نوع نادر: يفقدون ذكاءهم وقدرتهم على التعبير، بل ويصبحون، في بعض الأحيان، إذا اضطروا للكلام، أغبياء ومثيرين للسخرية.

كلمات السلطان التي ظلت طائرة في الهواء، والتي مسّت كل واحد من هؤلاء، ولم تشجع أحداً منهم على أن يبدأ الكلام، جعلت العجرمي يتقدم مرة أخرى. قال للسلطان وقال للآخرين:

ـ الجماعة جماعتنا، واقدر أنوب عنهم وأقول كلمتين...

قاطعه السلطان وسأل:

ـ توافقون يا جماعة الخير؟

وتراكمت الأصوات كما تتراكم حجارة الأطفال، جاءت سريعة، متتابعة، مختلطة، وكلها تعلن التأييد والموافقة. ضحك السلطان، تطلع إلى العجرمي، وقال:

ـ سم.. يا أبو مشعل.

ـ أقدر أقول، يا أبو منصور: عفا الله عما مضى، ما أريد أقول من هو المقصر ومن هو غير المقصّر، حنا أولاد اليوم...

تنفس بعمق وتطلع إلى الوجوه... ثم تابع:

ـ أي نعم... حنا أولاد اليوم، وأول شي نسويه: نجدد البيعة، وما نقبل كلام ثاني. أنت السلطان رضيت أو ما رضيت، وهذي أمانة برقبتك، يحاسبك عليها الله في الدنيا والآخرة، ويلزم تقول أمام الجميع: موافق!

والسلطان الذي هز رأسه عدة مرات وابتسم، ثم تطلع إلى الوجوه، قال بتردد:

ـ أقول نعم... بس بشروط...

رد العجرمي بعصبية:

ـ خلنا نقول يا أبو منصور، وبعدها إذا كان لك قول على العين والرأس.

قهقه السلطان ورد:

ـ سم... يا أبو مشعل.

ـ بعد تجديد البيعة، يا طويل العمر، يلزم كل واحد من الموجودين أن يتحمل ما يقع عليه، يلزم كل واحد يشمر عن زنوده، ويقول: أنا حاضر يا

طويل العمر، ما هو بس كذا، يلزم يعوّض قصوره، والشي اللي صار من قبل ما يلزم يصير.

ضحك وتطلع إلى الوجوه، وأضاف بلهجة حزينة:

ـ وحنا، يا أولاد الحلال، يلزم ننصف الرّجال، تحمل عنا الكثير، ركض من مكان لمكان، وهالحين، إذا ردنا نعاونه يلزم نشيل عنه كتف، وبدون ما يقول، لا بد أن نعرف شنهو المطلوب منا. أما إذا تركناه، إذا قلنا له: اذهب أنت وربك فحاربا، إنّا ها هنا قاعدون، فإذا تحملنا مرة، وثنتين، وثلاث، فالبني آدم له حدود، ما هو صخر، ولا هو حديد، فمن بد ولازم أن نعاونه.

ومثلما خرجت الأصوات جريئة حارة في الموافقة على أن يبقى، فقد أكدت مرة أخرى استعدادها للمعاونة. قال وقيان:

ـ ومثل ما قال شيخنا. ومثل ما قال السلطان. . .

وهزّ أصبعه في الوجوه متوعداً:

ـ وإذا أي واحد منكم عنفص، وقال فلاني وتركاني، ما يلوم إلا نفسه!

قال السلطان بلهجة مأساوية:

ـ ما أريد أقول لكم، يا جماعة الخير، كم تعبنا، وشنهو اللي صار معنا، يجوز لو تكلمت أخجل، ودائماً أقول لنفسي: هذا واجب يا خريبط، واللي يريد يصير جمّال يلزمه يعلي باب داره، لكن، والشهاد لله، تعبنا، وما بينا حيل أكثر من كذا، ونريد كل واحد منكم يعاونّا!

في هذا اللقاء، والذي امتد ساعات طويلة، وقصد أن لا يحضره أي من المستشارين، بمن فيهم هاملتون وعنان بسيوني ورأفت شيخ الصاغة وآخرون، والذي حضر جزءاً يسيراً منه عبدالله البخيت، ثم خرج بناء لاستدعاء عاجل، وقد رتب هذا الأمر مبكراً؛ في هذا اللقاء قيلت كل الأشياء التي كان يجب أن تقال ومثلما خرج السلطان من لقاءات مشابهة ظافراً، خرج هذه المرة.

وبعد أيام وهو يستعرض نتائج هذا الاجتماع مع مستشاريه وعدد من رجاله، سأله ابن البخيت:

- وإذا قلنا كلام ما تزعل يا طويل العمر؟

رد السلطان بيأس:

- مشكلتنا، يا عبدالله، أن الناس ما عادت تقول، وهذا اللي يخوّف....

وبعد أن زفر وتنهد، تابع:

- لو تكلموا تعرف كيف يفكرون، شنهو اللي يريدون، وهالحين يمكن تقول اللي ببطنك.

قال عبدالله البخيت وهو يترنم:

وسوى الروم خلف ظهرك روم   فعلى أي جانبيك تميل

قال رأفت شيخ الصاغة:

- الأستاذ عبدالله متفائل، إذ يعتبر أن الروم خلف الظهر، فماذا لو قلت له أن الروم في الظهر نفسه؟

رد ابن البخيت بنوع من التورية:

- وكل الله يا أبو حبيب، لأن الظهر ظَهَر!

قال هاملتون:

- المهم في هذا الاجتماع أن أفسح المجال لكل إنسان لأن يتكلم، لأن يعبر عن وجهة نظره، ولذلك يمكن اعتباره استفتاء على سياسة السلطان، وعلى مواقف المتمردين...

وبعد قليل وهو يتساءل:

- لكن هل يتابع وينفذ الذين كانوا هنا التزاماتهم؟

قال السلطان وهو يضحك:

- ... يا الصاحب: جماعتنا كلمتهم مهمة، والمهم أكثر أن تناظر عيونهم، لأن العيون تفضح، تقول كل شيء.

وقهقه ثم أضاف:

ـ وما تركت أحد إلا وناظرته، ناظرتهم جميع، كنت أريد أعرف: الكلام اللي يقولونه صحيح أو ما هو بصحيح، لكن، والشهادة لله، كانوا يقولون من قلوبهم.

كتب هاملتون في مذكراته: «. . . وضمن أمور أخرى، لا يمكن أن يحكم الإنسان بسهولة على تفكير هؤلاء الناس أو طريقة تعاملهم. المهم الآن أن أجمع الوقائع، أن أرقب التصرفات والحركات، وأن انتبه، بشكل خاص، إلى ردود الفعل، لأن البدو، بمقدار ما يبدون ودودين، فإنهم يحسنون إلى حد كبير إخفاء عواطفهم وردود أفعالهم. أنهم مثل القرب، فهم يمتلئون بخفاء، لكن إلى حد معين، إلى الحد الذي يستطيعون احتماله، وبعد ذاك ينفجرون ويعبرون عما في داخلهم.

«الاجتماع الذي عقده السلطان في الأيام الأخيرة، والذي سبقه ورافقه الكثير من الهدايا والدعوات، وتخلله أيضاً الكثير من التمثيل، كما نقلت إليّ الوقائع، يدل على أن هؤلاء الناس يمتلكون أكثر من طريقة للتفاهم. لا تكفي الكلمات، مهما كانت مقنعة، ولا يكفي الود مهما بالغ الإنسان في إظهاره. إن لديهم وسائل سبر مختلفة عن أماكن أخرى. أو بالأحرى أنهم يفهمون بعضهم بعضاً بطرق سرية للغاية. لا أريد أن أحوّل الأمر إلى مجموعة رموز سحرية، لكنهم، مع ذلك، يمتلكون وسائل إضافية، وإذا افترض الإنسان أن ما تراه عيناه فقط هو حقيقة ما يجري، فلا بد أن يقع في أخطاء فادحة.

«وفي إطار الوقائع العملية، استطاع السلطان، بقدرة فائقة، أن يكسب المعركة الأولى. لا أدري كيف ستسير الأمور فيما بعد، لكن المهم، أن لا أحد خرج من الاجتماع إلا وكان شاعراً أنه ظافر. والغريب أن الكثيرين، كما أعرف، لم يعودوا إلا بالكلمات والهدايا الشخصية، لكنهم مع ذلك كانوا مكتفين وراضين، ولم يطلبوا، أو لم يطمحوا بأكثر من ذلك. أن في الحياة الصحراوية أموراً كثيرة تستدعي التوقف والانتباه.

«ومن الأمور المهمة أيضاً، أن رجال الدين، أياً كان الموقف منهم، رجال مهمون إلى أقصى حد، ليس باعتبارهم يملكون جنوداً وقوى، وليس

لأنهم قادرون على التأثير على الآخرين مباشرة، ولكن لأنهم يمتلكون قدرة غير عادية على الكلام وتبرير المواقف، إضافة إلى السفاهة التي يتصفون بها، وهذه السفاهة بالذات تجعلهم قادرين على التحكم بالآخرين.

«أما العصبية القبلية، والقرابة، ثم المصاهرة، فإنها في هذه الصحراء، عبارة عن جداول الحياة الحقيقية. إنهم هنا يشعرون بروابط القرابة، كما لو أنها نوابض داخلية تتحكم وتحرك كل شيء. وكم استغرب أن رجالاً كثيرين التقيت بهم في موران والعوالي، وبمجرد أن يكتشفوا نوعاً من القرابة فيما بينهم، حتى لو كانت بعيدة، يتحولون إلى أصدقاء إلى درجة العشق والذوبان، وكأن أمراً خارقاً قد اكتشف.

«ماذا تعني الدماء في هذه الصحراء؟ وماذا تعني القرابة؟

«لا بد أن أخصص جزءاً من وقتي في المستقبل إلى دراسة هذه الظاهرة التي تستحق المتابعة والاهتمام، ليس باعتبارها شيء خارق، ولكن باعتبارها ظاهرة مميزة في هذا المجتمع البدائي. هل مثل هذه الظواهر موجودة في مجتمعات أخرى؟».

لم يدع السلطان هذا النصر دون أن يستثمره، فقد كلف كل واحد من الرجال بمهمات التعبئة والتحريض والاستعداد للمعركة الفاصلة، وأوفد عدداً من أولاده والأقرباء، مع الهدايا، إلى شيوخ القبائل، كما استبدل عدداً من أمراء المناطق. وبعث العجرمي أيضاً مجموعة من رجال الدين لكي تقيم في البادية. وقبل أن تمضي ثلاثة شهور على الاجتماع الأول دعا السلطان إلى اجتماع ثانٍ في موران، وهذه المرة لم يقتصر الاجتماع على الأقارب والرجال المباشرين، وإنما دعا عدداً كبيراً من زعماء العشائر ووجوه البلاد والتجار ودعا ايضاً ابن مشعان وابن مياح وعمير وآخرين كانوا تابعين لهم.

الذين حضروا الاجتماع الثاني، أو كانوا قريبين منه، قالوا إن موران عاشت أياماً لا تشبه أياماً غيرها؛ والذي يعرفون قصر الروض قالوا إن القصر، منذ بني، وأقام فيه السلطان، لم يشهد حشداً بهذه الضخامة وبهذه الأهمية.

ابن مياح الوحيد الذي لم يحضر الاجتماع، فقد اعتذر بسبب المرض، وأوفد اثنين من أقاربه. أما ابن مشعان فقد حضر، وحضرت معه مجموعة كبيرة من حرسه ورجاله، وجاء عمير قبل الاجتماع بأسبوع كامل، وبدا واضحاً من خلال اتصالاته وكلامه، ومن خلال جرأته بشكل خاص، أن الأمور لن تمر بسلام. فنر الذي كان في موران، ونقل إليه ما يقوله خاله عمير، بدا محرجاً أول الأمر، ثم غاضباً بعد ذلك، وقد طلب من أبيه أن يتولى بنفسه «تأديب» عمير، لكن السلطان ابتسم وقال أمام عدد محدود من رجاله:

ـ لا يا وليدي، عمير يظل، بالأول وبالتالي، خالك...

وطلب من فنر أن يقترب منه أكثر وهمس بأذنه:

ـ حنا نريده يطلّع اللي ببطنه، وكل ما تكلم أكثر، كل ما انحمق، عرفنا زين شنهو اللي ببالهم، ومن رأي تزوره وتشوفه.

بعد تردد لم يطل امتثل فنر. ورغم الغضب والفتور الذي تخلل بداية اللقاء، إلا أنه في مراحله اللاحقة أخذ شكل محاولة مستميتة من عمير في إقناع فنر لكي يتخلى عن أبيه، وكانت حجته مرة أن خريبط باع نفسه وباع البلاد للإنكليز، ومرة أخرى أن خريبط بعد أن تخلى عن الجهاد وصالح الكفار أصبح كافراً. وفنر لم يفكر جدياً بإقناع خاله، قدر ما كان يريد أن يعرف ما ينتوي عمله هو والآخرون. فقد جاء بهذا الهدف، وتذكر إحدى وصايا هاملتون «أن على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شيء».

ورغم أن الاجتماع انتهى دون نتائج، إلا أن فنر استطاع، بعد عتاب طويل، أن يمتص جزءاً من حنق عمير، واستطاع أيضاً أن يشككه بنوايا ابن مياح؛ صحيح أنه لم يستطع أن يفصله عنه، لكن ترك في نفسه ريبة أقرب إلى الخوف، عندما أشار إلى وجود مراسلات بين ابن مياح والإنكليز، وقد تم ضبطها، وهي موجودة في حوزة السلطان! كما أشار فنر إلى أنه يفهم دوافع الخال، خاصة من الناحية الدينية، وتذكر الاثنان، وبحزن، الشيخ

عوض، وعين فضة، وتمنى كل منهما لو أن الأمور أخذت مساراً آخر!

أما ما تلا ذلك من دعوات الوفود، والاتصالات التي جرت مع الشيوخ والوجوه، قبل الاجتماعات العامة، والهدايا التي قدّمت، والوعود التي تزيد وتكبر مع اقتراب يوم الاجتماع. إضافة إلى الحفاوة والاهتمام والمرافقين، فإن كل ذلك خلق دوياً ملأ موران من أقصاها إلى أقصاها. وإذا كان الكثيرون قد ساهموا في هذا الجهد الكبير، خاصة أقارب السلطان وأصهاره، فإن خزعل بدا الأكثر نشاطاً والأكثر دراية بمعاملة هؤلاء الشيوخ؛ حتى الذين كانوا يبدون تأييداً متحفظاً، أو يتحصنون بالصمت والكلمات العامة التي لا تعني موقفاً، ما يكادون يصلون إلى قصر الغدير، وبعد الغداء أو العشاء أو قبلهما، وخلال خلوات لا تطول، كان يخرج هؤلاء أكثر قناعة وأكثر استعداداً للوقوف في وجه «المتمردين وأهل الفتنة».

قال السلطان لخزعل بعد أيام من انتهاء هذه الاجتماعات، وكانا في حالة من التألق:

ـ . . . ويلزم أقول لك يا وليدي، أن الشغل اللي اشتغلته ما تقدر عليه حمولة. . .

وقهقة وتغيرت نبرة صوته وهو يتابع:

ـ وبك طبايع، ومع أنك ابني، واعرفك من يومك ذاك، إلا أنه ما ينحزر عليك؛ تنام نومة حيات الشتا، وما يفززك من نومك طوب، وبعدها: الشغل اللي يحتاج شهر تسويه بيوم!

وبعد قليل:

ـ ما تعلمني شنو هي السالفة؟

وخزعل الذي ضحك، وخرج صوته كالصهيل، رد بتواضع:

ـ كلهم جماعتنا، طال عمرك، ونعرفهم معرفة زينة، وأفضالنا عليهم كثيرة!

ـ لكنهم يسمعون منك ويأخذون برأيك. . .

ـ القريشات، طال عمرك، تخليهم يرتخون، فإذا ارتخوا كل شي يصير

سهل: القلوب تنفتح، والآذان تسمع، واللي تريده تصله!

كيف جرت الاجتماعات، وماذا قال ابن مشعان وعمير والآخرون، وكيف رد عليهم السلطان، وكيف رد العجرمي، وكيف أشهر وقيان الضاري سيفه وهدد وتوعد، ثم كيف روى طراد المجول وآخرون عن محاولات ابن مياح خلق الفتنة، وعندما لوح السلطان بمجموعة من الأوراق، قال إنها رسائل أرسلها ابن مياح للإنكليز. . . ان كل ذلك يروى بكثير من الإعجاب بما قاله السلطان، وبكثير من السخرية بما قاله ابن مشعان وواحد من أقرباء ابن مياح.

باختصار: ما جرى في الاجتماعات كان تنفيذاً لما اتفق عليه قبلها، ورغم الكلمات الغاضبة والاتهامات. فقد كان كل شيء معروفاً سلفاً. وانتهى الاجتماع الأخير بكلمة مؤثرة للسلطان، قال في نهايتها:

ـ . . . وبقلوبنا ما تلقون بغض لأحد أبد، وبنظرنا كل الناس طيبين وأجاويد، وحنا أهل الدين واللي ندافع عنه، ومثل ما قال الله عز وجل في محكم كتابه الفتنة أشد من القتل، فنريد من كل واحد يناظر زين ويروز خطوته قبل ما يدوس، وقدام الجميع أقول: عفا الله عما مضى، أما إذا واحد خرج على الجماعة فلا يلوم إلا نفسه، وما أحد كبير، وما أحد بعيد، إذا خرج على الطاعة، وأنتم يا جماعة الخير شهود.

رأفت شيخ الصاغة الذي حضر هذه الاجتماعات سجل عدداً من الملاحظات، لكن أكثر ما لفت نظره الحالة الصحية لمعظم الذين حضروا، فكتب في مذكراته الصحية ما يلي: «. . . وسوء التغذية علامة بارزة ويظهر في الهزال وصفرة العيون، فما عدا عدد محدود من الذين شاركوا في الاجتماعات، فإن الأغلبية الساحقة تظهر عليها مظاهر سوء التغذية، إضافة إلى الأمراض المزمنة، وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة. عدد العوران كبير جداً، ولافت للنظر، وكذلك الذين لا يسمعون. الذين يبدو عليهم الهرم المبكر عدد كبير أيضاً. أما المصابون بالأمراض الصدرية والفتوق، والذين يعانون من اختلال الغدد، فإنهم الأغلبية، أو هذا ما افترض، فتلك الطريقة في المشي أو الحديث، إضافة إلى التنفس، ولون البشرة، تدل على أنهم

مصابون لا محالة، وربما يكون ذلك نتيجة الفقر إضافة إلى نقص بعض المواد والأملاح الضرورية، وليس نتيجة التربية، كما قيل لي عندما سألت عدداً من الناس. أما المصابون بأمراض السكري فإنه يعلنون عن أنفسهم، ودون أدنى صعوبة يمكن تمييزهم.

«وهناك أيضاً أمراض عديدة، وسوف أتابع بعض الظواهر والحالات للإفادة منها في الدراسة التي...».

هاملتون الذي ظل يتابع اجتماعات موران عن بعد، فلم يظهر، ولم يعرف الكثيرون بوجوده، وبعد أن عرف أغلب التفاصيل، قال لفنر ذات ليلة:

ـ دعني اعترف بشيء أساسي، يا صاحب السمو...

وفتح فنر عينيه ليسمع الاعتراف، تابع وهو ينظر إلى مكان بعيد:

ـ أنا متأكد أن صاحب الجلالة السلطان لا يعرف ولم يطلع على ما جاء في «الأمير»، لكنه استطاع أن يصل إلى الكثير من القوانين الجوهرية التي وصل إليها صاحب «الأمير» وأملت عليه كتابة ذلك الكتاب...

وبعد قليل وهو يتطلع إلى فنر مواجهة:

ـ أمّا الذي أتيح له أن يطلع على تجارب الآخرين، وأن يستوعبها، وأن يمنحها من روحه وروح المكان الذي يعيش فيه، فعندئذٍ لا بد أن يحقق نتائج خارقة!

رد فنر بانفعال:

ـ صار لنا أيام طويلة بموران، الله يسلمك، وما نعرف شنهو اللي صار بغيبتنا بالعوالي، فيلزم أن نستأذن ونشيل، لأن ورانا ألف شغلة وشغلة.

قال هاملتون بدعابة:

ـ إذا وافق السلطان.

رد فنر بسخرية:

ـ أو إذا وافق ابن مشعان!

«لم تبق إلا ضربة واحدة، ولا بد أن تكون الأخيرة، وعندها تكتمل الدائرة، وينتهي كل شيء». هكذا قال هاملتون لنفسه بعد أن انتهى السلطان من ترتيب الأمور.

أما السلطان نفسه، فرغم القوة والثقة، لا يبدو متعجلاً. بل أكثر من ذلك تعاوده بين فترة وأخرى التساؤلات المرة: «هذول الإنكليز... ما يتأمنون، ويجوز مثل ما هم مادّين معنا، مادّين مع ابن مياح، وإلا منين الفلوس اللي يطرّشها هنا وهنا ومنين هذا الحيل» ليس ذلك فقط، إنهم في الفترة الأخيرة توقفوا عن تقديم المبالغ المتفق عليها، أو أخروها، يريدون أن يحرجوه، أن يضيقوا عليه. يشترطون أن تتوقف حوادث الحدود، ويشيرون، دون أن يقولوا ذلك صراحة، إلى عجزه وتردده في وضع حد لها، وهم الذين يمولونها. لقد أصبح أكثر ميلاً لترجيح مثل هذا الاحتمال!

خزعل لا يتوقف يوماً واحداً عن التساؤل: «متى نمشي طال عمرك؟» يريد أن ينتقم من ابن مياح الذي خدعه أكثر من مرة. السلطان يسمع، يهز رأسه، يصمت مرات ويجيب مرة:

ـ كل شيء بوقته زين يا وليدي. وأصعب الأمور بهذي الدنيا أربعة: الحرب والغدر والفراق والموت. الحرب إذا بدت ما تعرف متى تنتهي وشلون. أما إذا ما حضّرت روحك زين وما خليت عدوك دايخ وما يعرف تجيه الضربة منين فأغلب الظن أنها تأكلك قبل ما تأكل عدوك. ومن قبل قالوا: الحرب خطاها قصار، تبدأ بواحد لكن ما تخلص بعشرة، ولهذا السبب يلزم تتهيأ لها زين، يا وليدي، وإلا صرت أثر بعد عين.

والغدر، يا وليدي، يجيك من اللي ما تنتظر انه يجي منه، أو من اللي

امنته وخانك، وهذه ما هي صعبة وبس، تهدّ الحيل، فيلزم تظل عيونك مفتحة وتنام نومة الذيب.

أما الفراق فهو الموت الصغير، والموت الكبير إذا جاء ما احد يقدر يرده، يا خزعل، يا وليدي.

العجرمي الذي لم يتحدث في أمور الحرب يوماً من الأيام، أصبح معنياً بها أكثر من المحاربين. فبعد أن تزعم حملة التعبئة والتحريض، جاء من ذكّره بنهاية سلفه، وكيف قتل في ظروف غامضة، ولم يعرف القاتل أبداً. أما ما حصل معه، فقد أرسل إليه ابن مياح رسالة قصيرة «أنا وراك والزمان طويل وخلي خريبط يحميك». وإذا كان قد تكتم على هذه الرسالة فترة من الوقت، فإن المخاوف التي بدأت تطارده، في الليل والنهار، جعلته في وضع نفسي متدهور، الأمر الذي لم يخف على المحيطين به، بمن فيهم السلطان.

سأله السلطان ذات يوم، وقد بدا عليه الحذر الزائد من الذين يدخلون ويخرجون.

ـ اشوفك، يا أبو مشعل، ما أنت ولا بد...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ عسى ما وراك خلاف، وصحتك زينة؟

ـ الصحة زينة، يا طويل العمر، بس البال مشغول.

ـ ما لك حق ما تعلّمنا يا أبو مشعل.

ـ تهون يا طويل العمر!

قال ابن البخيت بمكر:

ـ البال ما يهدا ولا يستريح إلا بالصلاة والدعاء والتسبيح!

سأل السلطان بمكر مماثل:

ـ أخاف الخويا، معتمدي، شغلناه عنك، يا أبو مشعل؟

ـ يا جماعة الخير...

رد العجرمي بحنق، ولم يتوقف إلا لحظة قصيرة تابع بعدها:

ـ حنا وين والدنيا وين.

قال ابن البخيت بمرح:

ـ أهل العراق يقولون: عرب وين طنبورة وين!

فتح السلطان عينيه، وقد داخله الشك أن الاثنين يعرفان ما لا يعرفه، سأل بقلق:

ـ خير، يا أبو مشعل؟ سم.

وروى العجرمي كيف أرسل إليه ابن مياح عدة رسل ورسائل، وان كل رسالة جديدة تحمل تهديداً إضافياً، وما كان ينوي أن يزعج نفسه أو يزعج الأخرين بمثل هذه التهديدات، لولا أنها أصبحت جدية تماماً خلال الفترة الأخيرة.

السلطان الذي استغرب، أبدى استياءه لأن العجرمي لم يبلغه هذه الرسائل في حينها، لأن حامل الرسالة يمكن أن يكون مفتاحاً مناسباً لمعرفة الكثير من الأمور. ومع ذلك، ولكي يخفف السلطان من حذر أو خوف العجرمي قال بدعابة:

ـ وأنت تعرف، يا أبو مشعل، اللي يريد يسوي شي ما يشيل ويّاه طبل، ولا يصيح من فوق منارة!

بعد ذلك أصبح العجرمي، أينما سار، وأينما حلّ، يسير معه، ويكون حوله، مجموعة من الحرس المدججين، الأمر الذي أثار الكثير من السخرية والتعليقات.

قال شمران العتيبي، عارفة موران، وشيخ سوق الحلال:

ـ ابشروا يا أهل السوق لأن أرواحكم بأيدي أمينة ورزقكم مضمون، ما دام العجرمي هو اللي يقود جنود طويل العمر!

ابن البخيت الذي كان لديه الكثير ليقوله، وكان مملوءاً بالسخرية في هذه الفترة بالذات، خاصة وأن عدة خلافات ثارت في بيت العجرمي، وربما هي التي سبّبت له الضعف والاضطراب، وقد عرف ابن البخيت

أغلب تفاصيلها، إلا أنه لم يجد أحداً لكي يبوح له أو لأن يحدثه. قال للسلطان بعد أسابيع من مرافقة الجند للعجرمي، وكان في لحظة انفعال وتألق:

ـ ابن مياح عن العجرمي أبعد من الأرض عن السما، يا طويل العمر بس الخوف من القريبين، الخوف من اللي ينامون على الوسادة الثانية. هذا هو اللي قاطع ظهره!

وفهم السلطان وضحك.

لم يكن العجرمي الوحيد الذي تغير وبدا مختلفاً، ابن العليان تغير أيضاً واختلف. فإذا كان قد تدبر مصاريف الاجتماع الأول، ووجد المبررات للهدايا والعطايا، وظل ودوداً قريباً من السلطان، فإن الاجتماع الثاني سبّب له هموماً كبيرة وإحراجات ليس لها نهاية. فحتى إلى أيام قبل الاجتماع الأخير كان السلطان وحده الآمر بالصرف، وكان وحده الذي يُعطي وتصرف عطاياه، أما عندما اشترك خزعل بالصرف أيضاً، فقد خرج ابن العليان عن طوره.

قال له السلطان بود حازم:

ـ . . . ما عليك يا عثمان، المهم أنت اصرف، وبعدين إذا طلعوا الجماعة زينين أو شينين فهذي علينا، أنا مسؤول.

ـ والفلوس منين، يا طويل العمر؟

ـ ما عندك فلوس هالحين؟

ـ عندي، طال عمرك، بس وريقة من يدك وريقة من يد خزعل، تخلص، وأبوك الله يرحمه!

ـ حنا، يا عثمان، نعرف شنهو القدر اللي عندك، وما راح نصرف إلا اللي نقدر عليه، فوكل الله ولا تخف.

ـ خوف ماني بخايف يا طويل العمر، بس إذا خلصت الفلوس أتوقف، وبعدها تركضون هنا وهنا، وما تلقون، وعندها أنتم اللي تفشلون، تسود وجوهكم وما تقدرون تناظرون الناس!

بدت الكلمات الأخيرة قاسية، ولم يكن عثمان يعنيها، لكنها وردت على لسانه هكذا، قال السلطان بحزم ودون مودة:

ـ أنت ما عليك، اصرف وهذا هو!

والسلطان الذي توقع مصاعب مالية في وقت مبكر، لم يترك الأمر إلى حين وقوع هذه المصاعب، فقد احتاط لها، إذ أرسل العديدين، مع الهدايا، لكي يطلب القروض، وقد جاءته بعضها، وكانت أكثر مما قدر، فاحتفظ بها لكي يفاجئ ابن العليان، ولكي يواجه الاحتمالات الصعبة في معركته الأخيرة مع ابن مياح.

مرة أخرى، قيل أن الشيخة، مثلما أخرجت صفائح الذهب في معركة وادي الفيض، فعلت هذه المرة. وقيل إن العجرمي قدم أموالاً طائلة للسلطان. أما القروض التي تلقاها من دول مجاورة، ومن تجار موران والعوالي فكانت كبيرة. وقد ساهم فنر أكثر من الآخرين في تأمين هذه القروض. وسرت إشاعة قوية أن الصاحب هو الذي استطاع الحصول على مبالغ كبيرة من الذهب، على شكل قروض وهبات، من شركات كانت تريد أن تستخرج الذهب من موران والعوالي.

كل هذه الجهود والاحتياطات، لم تقنع ابن العليان ولم يشارك فيها. وعندما اقترب موعد الاجتماع الثاني، وبدأت الأموال التي كانت تحت يديه تتسرب مثلما تتسرب مياه الأمطار في الرمال، فقد امتنع عن زيارة القصر، وبدا نزقاً عصبياً، وكثيراً ما بعث برسائل غير مباشرة إلى السلطان. فبعد أن ظل ملازماً للقصر، ليرقب القادمين، وليعرف مدى علاقتهم بالسلطان، وليحاول، قدر ما يستطيع، أن يحد من العطايا ويمنع الإسراف، فإن الأمر عندما بلغ حداً معيناً، وعندما تجاوز خزعل الحدود التي كان يتصورها أو يفترضها، فقد قرر وبحزم أن يمتنع أولاً عن الذهاب إلى القصر، وبعث مع عرفان الهجرس برسالة شفوية إلى السلطان، بعد ذلك، وأصرّ عليه أن يبلغها، أو أن يبلغ قسماً منها على الأقل. قال لعرفان بحدة:

ـ تبلغ طويل العمر: الفلوس قليلة، وإذا كفت اليوم باكر ما تكفي. . .

وزفر مثل ثور وهو يضيف:

ـ وتقول له: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

ابتسم بحزن، تطلع حواليه ونبر بعداء:

ـ . . . وإذا ظلت الوريقات تصلني مع الأختام: «ادفع لحامله»، ترى باكر راح اكشف عن قرعتي وأقول لكل واحد يجي ومعه وريقة: انقعها يا وليدي واشرب ماها، لأن طويل العمر مفلس، ويضرط من طيز وسيعة . . .

ولما اكتشف أنه قال في لحظة انفعال كلاماً غير لائق، هز رأسه بأسف وأضاف:

ـ هذا الكلام اللي قلته، يا عرفان، بينا، وما يلزم تقوله لطويل العمر . . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ يلزم تقول له: الفلوس وشّلت، مصبحة مسية، وعليه أن يشد يده.

يصمت قليلاً ثم يضيف بحنق:

ـ وما أدرى من أي فج طلع لنا هذا الغضب، اللي ياكل وما يشبع: خزعل . . .

وتتغير اللهجة:

ـ وتقول لطويل العمر: اصرف اللي تريده، بس خلصنا من هذا الغول، خزعل!

وإذا كان السلطان قد تدخل أولاً لكي يحد من إسراف خزعل ومبالغاته، وبعد ذلك لكي يقدم دعماً لمالية ابن العليان، لم يتوقعه، فإن الأمور لم تعد إلى مجاريها، ولم تتعدل العلاقات بين السلطان وابن العليان إلا في وقت متأخر. وقد كان هناك سبب لم يشر إليه أحد بشكل مباشر، فالشركة الإنكليزية التي جاءته بتوصية من صديق لابن العليان، وهو تاجر في الهند، لكي تبحث عن الذهب في موران، ولكي تحدد ما إذا كانت هناك ثروات أخرى يمكن استثمارها، وقد وعدت أن تقدم الكثير من القروض، إذا وجدت ما يمكن أن تستثمره، والتي جابت موران من أقصاها إلى أقصاها، وتوقع عثمان العليان الكثير، هذه الشركة، بعد عمليات البحث والتحري، انتهت إلى نتيجة سلبية، إذ أعلنت أنها ستتحمل هذه الخسائر، وتغادر موران غير آسفة، لكنها، مع ذلك استبقت شركة صغيرة،

وبعدد محدود من الرجال، لكي تواصل البحث عن النفط.

حين أقام السلطان احتفالاً كبيراً في قصر الروض بمناسبة بلوغ ثلاثة من أولاده مبلغ الرجال، وكان راكان قد فرض نفسه، واعتبر أنه قد أصبح رجلاً بكل معنى الكلمة حتى دون احتفال، وكان الولدان الآخران: جازي ابن جوهرة وضاري ابن وطفة، وبدا لعثمان العليان أن هذه الاحتفالات سوف تكلفه الكثير، فقد استأذن أن يسافر إلى العوالي، «لأن سمو الأمير فنر طلب قدومي من أجل ترتيب الأمور المالية»، وكان لديه سبب آخر، أكثر أهمية، أن يبحث مع هاملتون «أمر هؤلاء الإنكليز الذين لا يعرفون كيف يشتغلون».

السلطان الذي وافق على سفره، قال لابن البخيت مازحاً:

ـ اتاري عمك، يا عبدالله، ما يريد ينعزم حتى ما يفك كيسه ويعزم الناس!

رد ابن البخيت بدعابة:

ـ خلي عمي، يا طويل العمر، بهمه، لأنه طول الليل ما ينام...

فتح السلطان عينيه باستغراب وتساؤل. تابع ابن البخيت بمكر:

ـ إنما على نياتكم ترزقون...

وضحك وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

ـ عمي، يا طويل العمر، الطمع ذابحه، يخاف إذا نام يسها عن فلوسه، أما إذا عدّها وتفرّج عليها فيغشى من الضحك؛ وعمي الثاني ما ينام لأن الخوف ذابحه، يتصور إذا غفا جا ابن مياح وجره من فراشه!

قهقة، وهز رأسه ثم أضاف:

ـ وكلفوني، يا طويل العمر، أن أنام عنهم الاثنين...

وبعد قليل وبدعابة:

ـ وابد، يا طويل العمر، ما تلقى أحسن من المطبل بالدنيا المزمر بالآخرة، لا فلوس يخاف عليها ولا أشباح تطارده.

هز رأسه وهو يضحك، وتابع بعد قليل:

ـ وكان يلزم أظل وحدي، ولكن أنت، طال عمرك، حطيت العلاّقة برقبتي، وزوّجتني. . .

ولم ينتظر:

ـ لكن، والشهادة لله، بنت العليان ما مثلها بين البنات، وهي تقول: ناظر مالك، حارس جهنم، لا يرتاح ولا يريح وما تعرف تقصد هذا أو ذاك!

أقيمت الاحتفالات بقصر الروض، وكانت بمثابة رد اعتبار ومظهراً من مظاهر القوة والثقة. ورغم أن فضة ووطفة بالذات كانتا تريدان من هذه الاحتفالات تحدياً للنساء الأخريات، ولخلق صيغة جديدة للتعامل في القصر، فإن حزم السلطان، وتلك الطريقة التي تعامل بها، جعلت الأمور تأخذ مجرى آخر. قال ابن العريفان للمغنين الذين أحضرتهم فضة:

ـ بوجوهكم تروحون لسوق الحلال، هناك يمكن تلقون واحد يريد يطهر ابنه، أو واحد يريد يزوج أمه أو عمه، وإذا ما اتفقتم معهم على الطبل والزمر، تطبلون وتزمرون على أرواح موتى المسلمين، وهاكم القريشات اللي وعدتكم بيها أم راكان!

أفراد الفرقة الموسيقية استغربوا، ظنوا الأمر دعابة، أو سوء فهم، نتيجة اختلاف اللهجة. ولما أصرّ عليهم ابن العريفان أن يغادروا، لأن الحفلة ألغيت، وكانوا يرون الحركة حولهم، فقد اكتفوا بأن تبادلوا النظرات وابتسموا. أما عندما سمعوا بسوق الحلال، وبالطهور والزواج، فقد ظنوا، لأول وهلة، أن الاحتفالات انتقلت إلى هناك، وحينما اكتشفوا عدم وجود شيء سخروا ثم جمعوا أدواتهم لكي يعودوا إلى العوالي، «لأن موران التي لا تعرف الطرب ولا ترقص على النغم لا تستحق أن يبقى فيها الإنسان».

قال شمران العتيبي، الذي عرف ببعض تفاصيل ما جرى:

ـ يا أهل السوق:

إذا كان رب البيت بالدف ناقراً فشيمة أهل البيت كلّهم الرقص

ابن البخيت الذي يعرف الكثير، ولا يستطيع أن يتكلم، خاصة في مثل هذا الظرف، حيث تطبق عليه القيود من كل جانب، وكان السلطان ذاته،

في حالة من الأنشغال والهم والذهول، فقد انشغل بجمع أشعار البادية فلما جاءه الابن الأول، وقد سماه باسم أبيه «بادي»، انشغل بهذا الولد. السلطان بعث إليه بهدية وأبيات من الشعر نظمها بنفسه، لقد فعل ذلك لكي يفاجئه، كما اعتبرها التفاتة خاصة لأم المولود، لأنه يرى عبدالله كل يوم، ولم يكن بحاجة إلى المراسلة أو اتباع هذه الطريقة غير المباشرة!

مرت شهور من التعبئة والحركة، والانتظار، كان السلطان خلالها يريد التأكد أن الإنكليز لن يدافعوا عن ابن مياح، ولن يستخدموه ورقة للضغط عليه. وكان يحاول أيضاً أن يجزئ معركته، فبعث إلى ابن مشعان بالهدايا والعيون، وبعث إليه بأكثر من رسول مع وعود أن يجعله حاكماً لأية منطقة إذا تخلى عن ابن مياح. أما عمير، «فإنه الثور الهائج واللي ما يحمله حتى رب العالمين». إذ رغم الرسال والفتاوى، ورغم الوعود الكثيرة، فلا يعرف غير: «الإنكريز الكفار، وكافر كل من يتعاون معهم».

أما ابن العليان الذي بقي أكثر من ثلاثة شهور في العوالي، ورغم النتائج الإيجابية التي حصلت، من حيث تنظيم الأمور المالية، فقد عاد متشائماً. وإذا كان قد اتخذ موقف الحزم والتقتير، منذ أن كلفه السلطان بالأمور المالية، فقد أراد، مجدداً، أن يبرز المصاعب التي تواجه السلطنة. وقد أشار بشكل خاص إلى انحباس الأمطار، وبالتالي احتمال أن تكون هذه السنة من السنوات الصعبة. مع العلم أن جزءاً من التشاؤم الذي لازمه هو نتيجة إخفاق شركة الذهب، وكان يوليها اهتماماً كبيراً، وفكر أن يكون شريكاً فيها، عكس ما اقترحته الشركة، عن طريق صديقه التاجر في الهند، أن يكتفي بنسبة معينة كأتعاب.

قال له السلطان، وقد اجتمعوا في بيت العجرمي، وكانوا مجموعة قليلة، وبعد أن أعاد عثمان العليان ما كان ذكره:

ـ . . . ومرت علينا سنين أصعب، يا عثمان، وصارت سوالف وأخبار، وجماعتنا، كل واحد منهم، حوصلته حوصلة بعير، فلا تخف.

ابتسم وهز رأسه، ثم أضاف:

ـ ومثل ما قال عليه الصلاة والسلام: تفاءلوا بالخير تجدوه، وهذا

شيخنا، أبو مشعل، يعرف شلون كانت أحوالنا، وهذا ابن البخيت ما يعرف إلا سوالف التاريخ: صارت بالسنة الفلانية، ووقعت بالسنة الفلانية، وبعدها ظلت الدنيا بخير، وعاش الناس وخلفوا، فيلزم نطول بالنا، ويلزم نوكل الله، ونتفاءل.

رد ابن العليان بسخرية ونزق:

ـ وقال المولى: اسعَ يا عبدي وأنا معك، وقال عليه الصلاة والسلام: لا أخاف على أمتي من الفقر، أخاف عليها من قلة التدبير.

قال ابن البخيت، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ آخ من المال، هو اللي يوقع بين الأخوان، وهو اللي يخرب البيوت ويجر الحروب.

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ وأنا مرتاح: لا خيل عندي أهديها ولا مال. . .

قاطعه خزعل بمرح:

ـ خيل موران كلها على حسابك وتحت أمرك، يا أبو بادي!

رد بتورية:

ـ تكفيني الكحلة اللي عندي!

قال العجرمي كمضيف:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير، وهالحين نقول لكم، وبدون أمر عليكم، تفضلوا، العشاء جاهز!

سنوات الخير إذا أقبلت على الصحراء، فإنها تصل متمهلة، هادئة، ورغم أن الناس يستقبلونها بكثير من الرضا والفرح، إلا أنهم لا يحبون أن يتحدثوا عن ذلك بزهوٍ أو بصوت عالٍ، فهم يخافون أنفسهم قبل أن يخافوا الآخرين، «لأن العيون الشريرة لا تتوقف يوماً واحداً عن المراقبة والحسد، وتنتظر الوقت المناسب لتقضي على كل شيء». لقد حصل ذلك، في موران والحويزة، مرات لا حصر لها. إذ ما تكاد تأتي الأمطار المبكرة، ويتوقع الناس سنة لا يجوعون فيها، حتى تدبّ الحركة في الأسواق، فيزيد البيع والشراء، توقعاً أن الذين يشترون سيكونون قادرين على أن يدفعوا إذا باعوا محاصيلهم من التمر أو الشعير، أو حين تعود القطعان من البادية، بعد أن تكون قد شبعت وسمنت، ويوافق البائعون على الانتظار. ما يكاد مثل هذا يحصل حتى تزحف أرتال الجراد وتأتي على كل شيء. أو يقبل الوباء فيقضي على الكثير من البشر والحيوانات، وعند ذاك يتطلع الناس إلى بعضهم بحزن، ويتطلع الذين باعوا إلى المشترين بتساؤل، فيرد هؤلاء على النظرات بأسف، وغالباً ما يتم الاتفاق، وبشكل غامض، على صيغة ما، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لأن المصيبة لا تترك مجالاً للمساومة أو الضغط!

أما إذا جاءت سنوات المحل فإنها لا تعرف التمهل أو الهدوء، تأتي قوية عاصفة، وترافقها، منذ وقت مبكر، نذر لا تخفى على الكثيرين. فالرياح الزرقاء، وهي الرياح الشديدة البرودة والجفاف، لا تقتل المواشي وحدها، ولا تطرد الغيوم، أو تذروها كما تذرو الرمال فقط، وإنما تأتي قبل أوانها من السنة، فتتلف أواخر المحاصيل، وتجفف ما بقي من

الغدران، وتجعل الناس في حيرة، هل يزرعون أم يسافرون أم يغزون ويقتل بعضهم بعضاً؟ ورغم أن الناس يعرفون غريزياً نذر الجفاف، إلا أنهم مولعون بأن يخدعوا أنفسهم، فيتظاهرون، أزاء بعضهم، بنوع من التفاؤل والتوقع. حتى إذا انتصف الشتاء ولم يبق أمل من أي نوع، فإن الغضب حين ذاك يصبح هو الأقوى، ويتغلب على ما عداه من العواطف والتصرفات. والغضب إذا بدأ لا يتوقف ولا يهدأ إلا في وقت متأخر، إذ يتحول إلى حزن أقرب إلى الأسى، بعد أن يكون الشيء الكثير قد حصل ما بين بداية الغضب ومجيء الأسى ثم حلول الأحزان.

والشيوخ والأقوياء والكبار إذا كانوا قادرين على أن يعطوا الحياة، في هذه الصحراء، مسارات واضحة، ويمكن التحكم بها، في سنوات الخير، ويكون الأصغر سناً، أو الأدنى مرتبة، أقدر على فهم هذه المسارات والاستجابة لها، فإن سنوات الجفاف تغير كل شيء، إذ يفقد الشيوخ والأقوياء والكبار سيطرتهم وذكاءهم، أو يصبحون أقل قدرة على الإقناع أو التحكم، كما يصبح الأصغر سناً والأدنى مرتبة، من الشراسة والعنف، بحيث لا يفهمون ولا يستجيبون، بل ويبدون أكثر رغبة واستعداداً لأن يخالفوا ما أصبح ثابتاً وقوياً من الصيغ والأفكار والعلاقات. والكبار الذين يدركون هذا الجموح في وقت مبكر، ويفهمون كيف يمكن أن يتجاوز كل حد، فإنهم في الأغلب يصبحون أكثر ليناً وأكثر استعداداً للمسايرة والتسامح.

والمدن والبلدات، وحتى القرى، وبطرق لا تخلو من المكر الغريزي، إضافة إلى الإرث الذي انتقل من جيل إلى جيل، أقدر على احتمال القحط ومواجهته من البادية. فالناس في الأماكن المستقرة، وبطرق غامضة، يتعلمون وضع بعض الأشياء في الزوايا، أو بعيداً عن الاستعمال، لعدم حاجتهم أليها، ثم ينسونها لتصبح هذه الأشياء هامة وذات قيمة كبيرة في سنوات القحط، إذ فجأة يتذكرونها أو يستخرجونها لتساعدهم على مواجهة الأيام الصعبة. كما أن الناس في المدن، ومنذ وقت لا يدركه أحد، تعودوا عادات أصبحت جزءاً من حياتهم، حيث

أصبحوا أكثر قدرة على التكيف، وعلى التعامل، وحتى على الاحتيال.

في البادية الأمر يختلف، إذ ما تكاد الأرض تقسو، حتى تهزل الماشية، ثم تبدأ تتساقط. صحيح أن أصحابها يتراكضون ليذبحوا، أو ليبيعوا قدر ما يستطيعون، لكن ذلك لا يدوم إلا أياماً، وعلى أبعد حد، أسابيع قليلة، لتبدأ الحياة بعدها عارية مكشوفة، تماماً كما هو حال الصحراء ذاتها، أو حال الشجرة التي تنفض أوراقها مع أوائل موجات البرد.

ولما كان سكان المدن أكثر قدرة واستعداداً على مواجهة مثل هذي السنين، فإن البدو، رغم مكرهم، وذلك الغموض الذي يغلف حياتهم، سرعان ما يصبحون مثل الأشجار التي تنفض أوراقها، بل أكثر من ذلك، يصبحون مثل أشجار الحور تماماً: قامات طويلة، هزيلة، عارية، وشديدة الحركة والارتجاف.

وعندما يبدأ الالتفات، ثم التحفز فالغضب، فإن الكثيرين يتحسبون ويخافون. وهذا ما حصل في ذلك العام. إذ ما كادت سنة «التحليل والتحريم»، كما سمى الكثيرون الاجتماع الذي عقده خريبط، ثم أخذت السنة ذلك الاسم، تبدأ حتى توقع الكثيرون أياماً صعبة.

قال عثمان العليان لابن البخيت بنزق أقرب إلى الغضب:

ـ . . . وقلنا له: اتركوا الخرابيط، اتركوا الإسراف ومرد الفلوس، لأن القرش الأبيض يفيد في اليوم الأسود، لكن لا حياة لمن تنادي. . .

توقف ريثما يجر نفساً عميقاً:

ـ وهالحين: تعال يا عثمان؛ دبر الأمور يا عثمان؛ نريد فلوس يا عثمان؛ لو كان عثمان نبي الله يوسف ما قدر يسوي شي!

قال عبدالله البخيت بسخرية:

ـ لا تخف، يا رجال، طويل العمر يدبر كل شي!

ـ أي بالله، عرفان الهجرس ينقش له الوريقات وهو يطجّ عليها أختامه، وحوّلوها لابن العليان: وتعال يا عثمان اصرف. . .

وفجأة صار نزقاً:

ـ ما تقول لي يا عبدالله منين نصرف؟ منين نجيب فلوس؟

ـ علمي علمك، الله يسلمك...

ـ لا... أنت كل ساعة وكل يوم راسك لراسه، تسولفون وتتسامرون، ويلزم تقول له: ما يصير يا طويل العمر، هذا إسراف وقلة دين...

ضحك عبدالله البخيت، وقال:

ـ لو كنت مكانك، أمين صندوق: اضيّع المفتاح، أو أغيب، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك أتماوت!

صرخ عثمان العليان، وكأنه يؤذّن:

ـ سويت كل هذا، يا عبدالله، وأكثر، بس أبد ما يفيد!

ـ إذن ما عليك إلا تصبر لأن الله مع الصابرين.

وبعد قليل وبحزن:

ـ وأنا، لك عليّ، أقول له كل شي، لكن لا رأي لمن لا يطاع، خاصة إذا كان مثلي: مفلس، وما هو عنتر ولا عنده عسكر.

ـ أنت اقرأ على رأسه، قل له، وعسى أن الله ييسرها، وبعدها إذا ما فاد الحجام يفيد الكي، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك نشيل ونمشي، وللكعبة رب يحميها!

ابن مشعان بعد أن عاد من العوالي، كان لديه من المال والحلال ما يجعله مكتفياً، وينتظر الوقت المناسب لكي يتحرك وليعلن الموقف الذي يلائمه، وليس كما يريد عمير أو ابن مياح، وليس كما يريد خريبط أيضاً. لكنه اضطرب وتغير في هذه السنة السوداء. إذ ما كادت نذر المحل تطل برأسها، وبدأ رجال عشيرته يتلفتون ثم يتساءلون، حتى أدرك أنه إذا كان قادراً على السيطرة في السنين السابقة، لأنها كانت سنين أقل قسوة، وإن لم تبلغ سنين الخير، خاصة وأن أغلب رجاله عادوا من العوالي بأشياء كثيرة، فقد بدأ يتحسب ويتلفت. فلما جاءته رسالة من ابن مياح، يطلب منه أن يلتقوا في الجمرة «لأن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن لأحد أن يصير ويتحمل»، فقد وافق.

في الجمرة تم استعراض كل شيء: الانتصارات التي تحققت، وقد كانت نتيجة التضحيات والإقدام. وراية الإسلام لم ترتفع إلا من خلال الجهود التي بذلوها، وكانوا أساسيين فيها، ثم جاء بعد ذلك عمير. حتى سنوات المحل التي مرت لم تكن قاسية وصعبة مثل هذه السنة، لأن «المجاهدين» كانوا قادرين على انتزاع الغنائم من الكفرة. الآن يجب أن يبدأوا من جديد. قال عمير الذي وصل إلى الجمرة متأخراً بضعة أيام:

ـ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا كما صلح أولها، وليس أمامنا إلا الجهاد، ولا يمكن أن نصبر أو نسكت، لأن الناس معنا بقدر ما نكون معهم.

قال ابن مياح:

ـ وتذكر يا عويد: كنا نقول للواحد مت يموت، هالحين إذا قلنا

لواحد من جماعتنا: دونك الفرس وردّها للماء، يأخذها وكأنك قاتل أبوه.

تنفس بعمق وأضاف:

ـ الناس ضاقت أرواحها ـ يا عويد ـ ضاقت من الجوع ومن الكفر، وإذا طاعنا الناس اليوم ما تدري شنهو اللي يصير باكر، إذا ظلينا شادّين عليهم.

في الجمرة تم الاتفاق أن تتحرك البادية كلها. وفي منتصف الربيع تحركت.

قال الكثيرون: «لو دامت لغير خريبط ما وصلت له، ومثلما جاء في سنة المحل يذهب في سنة المحل». وقال غيرهم: «هذه السنة لا تشبه غيرها من السنين، فإذا مرت على خريبط فإنه يعيش مائة سنة، لكن الظن أنه يمشي».

رجال ابن ماضي الذين انتقلوا من العوالي إلى جهة الحويزة، قالوا، وبصوت عالٍ، ووصل كلامهم إلى رجال ابن مياح «خريبط اللي ساعده وقوّاه الإنكريز، ولولاهم ما وصل العوالي ولا ظل هناك يوم، لكن بعد ما تركوه يلزمه هالحين يدفع الثمن، ويوفي ديونه وديون غيره، واللي يبلع إبرة يزق مخراز.. وتشوفون».

ورجال البادية الذين سمعوا لم يكونوا بحاجة إلى فتاوٍ كثيرة أو إلى إقناع، خاصة في مثل هذه السنة، فالطبيعة هي التي تفرض وتقرر ما يمكن أو ما يجب أن يكون. ولذلك ما إن بدأت الحركة وأعقبها الدوي، حتى بدأ التوقع يعمّ أن خريبط لن يصمد ولن يبقى، وبلغ الأمر أن تراهن الكثيرون، وقالوا بصوت عالٍ: «الإنكريز ما لهم صاحب، ومثل ما تركوا غيره أمس يتركونه اليوم!».

كتب مؤرخ خريبط بعد سنين «لقد أفلحت الخطة البريطانية في جعل موقف خريبط أدق من الشعرة وأحد من السيف... ذلك أن روح النقمة عليه شملت أنحاء بلاده، وكان ابن مياح في مقدمة الثائرين، وسرت روح الحماسة في نفوس العشائر والقبائل، على صعيد غرض واحد: المطالبة بإعلان الجهاد، ولقيت هذه الدعوة الصدى المستجاب في أرجاء البلاد،

وانتشرت إشاعات السوء أكثر من ذي قبل: خريبط باع نفسه للإنكليز، فلا بد من تنحيته عن القيادة».

وكتب مؤرخ محايد ما يلي: «أن وضع خريبط أصبح مهزوزاً. ومع ذلك ظلت الدبلوماسية البريطانية ترى فيه القوة الفعلية الوحيدة التي تعتزم التعاون معها». ولذلك فإن محاولات الاتفاق ظلت ممكنة شريطة أن تحدد بدقة الصيغة ويتفق على الشروط.

ولم يترك خريبط الثورة تصل إليه، جنّد رجال المدن ورجال الدين، واستغل العلاقات والفجوات التي يعرفها، وساهم بتكوينها، خلال فترات سابقة، وانطلق إلى البادية قبل أن تصله البادية.

قال ابن البخيت الذي كان يتابع أدق التفاصيل، ويعرف أكثر الأسرار خفاء:

ـ يا طويل العمر، اسمع مني واترك، لكن يلزم أقول.

وحين ابتسم السلطان، تابع عبدالله البخيت بجرأة أكبر:

هذول الإنكريز ما لهم رب، هذول مع الواقف، وهم معك وما هم معك، فإذا ظليت مع القناصل، وكتابنا وكتابكم، ترى راحت عليك، أما إذا لاقيتهم بعد نص الطريق، وقلت لهم يصير وما يصير، تراهم يفهمون عليك أحسن.

وهز رأسه عدة مرات وأضاف بحزن:

ـ قلنا لك، يا طويل العمر: ابن مشعان: الوطفانية، وخد وعين، لكن اللي يشورون عليك ما يعرفون إلا كلمة واحدة: السيف.

استراح قليلاً، بدا مضطرباً لا يعرف هل يتابع بنفس اللهجة أم بغيرها. رد عليه السلطان:

ـ ما تركنا شي إلا وسوينانه، يا عبدالله، وأنت تدري.

ـ أدري، يا طويل العمر، بس ابن مشعان غير عمير وابن مياح.

ـ لا تغتر: الكلب أخو السلوقي، وهالحين تشوفهم شلون صاروا جميع.

قال العجرمي بفخامة وأن بدا خائفا:

ـ أرى، يا طويل العمر، أن نوافق على أن يكون حاكماً للحويزة حقناً لدماء المسلمين، لأن ابن مياح شايف الموت قدامه وراكض عليه، وأخاف عليكم منه!

رد السلطان بغضب وسخرية:

ـ لا تخف، يا أبو مشعل، إذا جا الموت ما أحد يقدر يرده!

ـ المهم أحقن دماء المسلمين.

ـ دماء المسلمين، يا شيخنا، ما عليها خلاف، لكن ابن مياح ما هو مصلي على النبي ويريد أكثر من الحويزة!

وقرر السلطان أن لا يسمع، ومثلما اندفع إلى البادية، لملاقاة خصومه قبل أن يصلوه، فقد واصل المعركة. كان متأكداً أن الإنكليز، كما قال له ابن البخيت، مع الواقف، ولذلك فإن أي تنازل سوف يقود إلى تنازل أكبر، وأي محاولة للصلح أو الموافقة سوف تؤدي إلى الهزيمة.

ركز هجماته، في بداية المعركة، على ابن مشعان، لأنه كان الأضعف، ومتردداً أكثر، وخلال بضع معارك استطاع أن يفتح ثغرة، ما لبثت أن اتسعت، مما اضطر ابن مشعان للاستسلام، خاصة بعد أن تمردت عليه فئات من قبائله.

أما مع ابن مياح فقد طلب من خزعل أن يشاغله وأن يستدرجه، وهكذا بدأت معارك الكر والفر بين الطرفين، ومع هذه المعارك الرسل والرسائل، والوعود والكمائن، فلما حقق السلطان انتصاره على ابن مشعان، اندفع لملاقاة ابن مياح، لكن عناد أحدهما اصطدم بعناد الآخر، والقسوة التي بدرت من كل طرف جعلت المعارك تطول، فلما دخل الصيف الكبير، في هذه السنة القاسية، بدا أن الطرفين قد تعبا، ويواجهان الفناء الكامل إذا حاولا الاستمرار، ولذلك فقد تراجعت المعارك ثم هدأت، انتظاراً لوقت آخر.

ولم يترك السلطان الوقت يفوته، فقد بعث بعنان بسيوني إلى الإنكليز

وراء الحدود، وإلى ابن ماضي أيضاً. وخلال هذه المباحثات تم الاتفاق على كل شيء!

ولما بدأت المعارك في منتصف الخريف مرة أخرى، اندفع السلطان بقوة كبيرة ليجهز على ابن مياح، وذكر عدد من جنود السلطان أن التعليمات التي تلقوها كانت قصيرة: «لا نريد أسرى» ولذلك فإن الدماء التي سالت في صحاري الحويزة، وعند البسيمة بالذات، خلّفت أشجاراً شديدة الخضرة، كما يذكر المسافرون الذي يغادرون الحويزة من نقطة الحدود هذه. وما كانت هذه الدماء لتتوقف لو لم يسر النبأ أن ابن مياح قد قتل. لكن ما حصل في الواقع أنه أصيب بجرح بالغ، وتم نقله إلى المؤخرة. لما علم السلطان بدا سعيداً إلى درجة أنه لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، ولم يتوقف عن الحركة والسؤال طوال تلك الليلة.

قال لابن البخيت الذي كان يساهره:

ـ والله.. والله يا عبدالله بعدما ظفرت بابن مياح لأخليه درس لكل بني آدم!

وابتسم وأضاف بثقة:

ـ الموت له راحة، لكن ما راح اخليه يموت، وإذا عشنا تشوف!

ورغم أن ابن مياح هزم وجرح، «إلا أن السلطان أصرّ على إحضاره، فأحضر محمولاً على نقالة من سعف النخيل إلى السلطان في خيمة أعدت له، وكان الجريح في حالة خطرة أعجزته عن الكلام، وأبصر السلطان بعينيه تلك الحال التي آل إليها أحد قادة جيوشه الأكفاء فتألم ولزم الصمت برهة وجيزة كان وجهه خلالها يطفح بالغضب الشديد المخيف» وبعد ذلك «نقل الجريح إلى بيته في الرويفة، وطلب السلطان من طبيبه أن يعالجه». كان يريده حياً، ويريد أن يعرف مدى الإصابة. أما حين تأكد، وجاء أقرباء ابن مياح، بعد أيام، ومع الأقرباء اثنتان من نسائه، لطلب العفو، فقد كان السلطان كريماً! قال للوفد:

ـ قولوا لأبو جازي ما يخالف، عفيت، وعفا الله عما مضى!

عمير الذي كان أقرب إلى الزرافة، والذي تبين قامته من بعيد، وأول ما يظهر منه رقبته، ثم إذا اقترب تظهر أسنانه، والذي لا يتعب ولا يتوقف عن الحركة، قبض عليه حرس السلطان، حين كان عائداً يقود مجموعة صغيرة باتجاه معسكر ابن مياح. حاول أن يقاوم، أن يفعل شيئاً، لكن مقاومته انتهت حين شعر أن الرجال الذين أمامه، والذين يشهرون بنادقهم، يفهمون شيئاً واحداً: القتل، ولا شيء غير القتل، أكثر مما يفهمون الكلمات التي يمكن أن يقولها، ولذلك قرر أن يستسلم.

حين وصل إلى معسكر السلطان، والتقت النظرات، سأله السلطان:

ـ وهالحين. . يا عمير؟

رد بسخرية:

ـ ما تغير شي، يا خريبط.

ـ يعني ما أنت خايف؟

ـ ومن هو اللي يخاف من الحق؟

ـ لا تتمرجل هالحين، يا عمير، والأحسن، أن تطلب السماح، وأن نبدأ صفحة جديدة. . .

ـ كل يوم صفحة جديدة، لأن كل يوم يلزمه خمسة فروض، إلى أن يقبض الله أمانته.

ـ يا عمير، أنت كبير وعاقل، والأحسن ما تحملنا دمك ونندم وتندم!

ـ اسمع يا خريبط، وكنت أريد غيرك يسمع: الروح يقبضها اللي وهبها، والناس في هذي الدنيا عابرين، ولا تغتر، إذا اليوم ملكت وظنيت أنك قوي، رب العالمين أقوى، وحنا كنا معك، واليوم حنا قوم، والخلاف حول الجهاد، والجهاد ما ينتهي إلى قيام الساعة وما دمت أنا اليوم أسيرك تقدر تسوي اللي تريده.

ولم يستمر خريبط في النقاش، أرسل عمير إلى العوالي، قال للذين أرسله معهم:

ـ . . . وتقولون لفنر: في عين دامة قلعة عمرها ألف سنة، بناها خليفة للي يعصون، وهناك مكان عمير، إلى أن يتوب أو يموت!

وأرسل عويد المشعان إلى موران، إلى سجن قصر الروض. أما ابن مياح فقد تركه. قال لرجاله، وللعجرمي وابن البخيت وآخرين كانوا موجودين:

ـ إذا حبست ابن مياح ومات عندي يقولون خريبط قتله، لكن إذا مات بين حريمه، وبأرضه، فأنا عفيت عنه، وما لي بموته علاقة أو سبب!

ومع أول أمطار الشتاء بدا وكأن كل شيء قد انتهى، فالسلطان عاد إلى موران تسبقه أخبار الانتصارات، والطبيعة في هذه السنة اختلفت عن السنة السابقة، أو هكذا تبدو، إضافة إلى التوازن الذي حصل نتيجة موت الكثيرين وهجرة غيرهم، وما تولد بسبب ذلك من الأحزان التي وصلت إلى بيوت كثيرة شغلتها، وأخيراً هذا التوقع الذي لا يتوقفَ ولا يهدأ في موران والحويزة والعوالي: ماذا يحمل الغد؟

العجرمي الذي بدا فرحاً مثل طفل، وقد طلب من مهيوب، وألحّ عليه ألا يخبر السلطان، بزيادة عدد الحرس، «لأنه بآخر الحروب تكثر الثارات يا أبو شبل، ويلزم أن الواحد يحرص ويتوقى» أما مع السلطان فقد كان واضحاً تماماً:

ـ . . . وتذكر يا طويل العمر: كان رأي من أول يوم أن الجماعة ما يفهمون إلا بالسيف، خاصة ابن مياح، وأي تساهل يطمّعهم ويخربون الأول والثاني!

أما عثمان العليان الذي لم تتوقف شكاواه يوماً واحداً، ورغم أنه شدد وراقب واختصر الكثير من المصاريف، فقد بدا في حالة أقرب إلى الرضا بعد انتهاء المعارك، لأن الغنائم التي تم الاستيلاء عليها، كانت كبيرة، وكانت حصة السلطان أكثر مما توقع. قال لعبدالله البخيت، وهما يستعرضان ما حصل:

ـ . . . والحرب، يا عبدالله، ما هي لعبة، ينراد لها كل مصباح ألوف مؤلفة. . .

ويهز رأسه ثم يضيف:

- لكن ربك سلّم وسترها، وابتداء من اليوم يلزم نفكر بطريقة ثانية.

وقصر الروض، رغم أن المدة التي غابها السلطان قصيرة، فقد كان يخبئ له مفاجآت عديدة: ثلاثة مواليد جاءوا أثناء غيابه، مصالحة فضة والعنود، وقد قامت الشيخة بهذه المصالحة، إضافة إلى خمسة من أبناء السلطان، اثنين منهم أبناء فضة، ينتظرون، مع الخيل، لتحديد يوم الاحتفال. وفضة التي لم تعترض ولم تحتج في المرة السابقة على إلغاء الحفلة الغنائية، فقد أصرت على أحيائها هذه المرة، وإصرارها غلّفته، لكي يوافق السلطان، بحالة الفرح نتيجة الانتصارات، أكثر مما هو لاحتفالات البلوغ.

طالع العريفان، وهو يرى الموسيقيين الذين جاءوا من العوالي يدخلون قصر الروض مع آلاتهم، وكان أيضاً يرقب حركاتهم وتصرفاتهم، قال لناهي الفرحان:

- اسمع يا ابن الفرحان، ترى من اليوم يلزم الواحد منا يصير طبال أو زمار، وإلا راحت علينا، باكر يقولون: ما لكم شغل بهذا المكان، ويلزم تلقون لكم شغل بالسوق!

رد ناهي وهو يضحك:

- من فمك لباب السما، يا رجّال، يكون الله راضي علينا، ونخلص!

- بعد اليوم ظني ما راح يخلص أحد، لأن طويل العمر صار خيال الشقرا، وحاكم البر والبحر، وتعرف أن الواحد ما يخلص من اللي ينتصرون ومن اللي ينهزمون!

- خلنا هالحين نشوف الطبالين والزمارين، وبعدها الله كريم، إما نصير مثلهم أو نرحل!

- القول قولك يا ناهي، خلنا نشوف!

وقيان الضاري الذي كان يتلقى التهاني إلى جانب السلطان، كان في أزهي حالاته، فقد وضع على خصره، لأول مرة، مسدساً إلى جانب

السيف، وكان هذا المسدس هدية من الشيخ العجرمي، وقد انتهز فرصة مناسبة لأن يقول وهو يتطلع إلى السلطان:

ـ «. . . ويلزم للقائد العظيم أن يكون فيه خصال واقرة نافرة: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة ونجدة الأسد وحملة. . . شنّهو يا وقيان؟ حملة شنهو. . . الله يلعن الشيطان شلون ينسي الإنسان. . .

ونسي الخصال الأخرى، ولكي يداري نسيانه، تابع بإنفعال وهو يضرب الأرض بقائم سيفه:

ـ وبالموجز المفيد، ناظروا أبو منصور، وفهمكم كافي ووافي!

ابن البخيت الذي ظل، أغلب الوقت، يسمع ويراقب، أحس أن المكان يضيق به، إذ لم يدخل أحد إلا وبدأ يشيد بالسلطان ويثني على ذكائه وشهامته، وتوقف الكثيرون عند موقف السلطان من ابن مياح، وكيف عفا عنه وتركه، رغم أنه كان أشد الخصوم وأكثرهم شراسة، ولم يذكر أحد أن ابن مياح فقد اثنين من أولاده، إضافة إلى العشرات من أصدقائه، والمئات من جنده، عدا عن الجرح البالغ الذي أصيب به. قال في نفسه: «وينك يا أيام مصر؟ الواحد مفلس، وما يعرف يتعشى أو ينام بدون عشا، وراضي؛ هالحين، الواحد حصل كل شي لكن يحس أن نفسه صادّة، وما هو راضي، وما يدري يظل أو يمشي!».

مرّ شهران. الأفراح لم تتوقف ولم تنقطع في قصر الروض. فرقة العوالي الموسيقية أحيت في القصر عدة حفلات: للبلوغ، والانتصارات، ولمجيء ولد جديد للسلطان أيضاً، سماه نصر! وكادت فضة أن تقنع السلطان بإقامة حفل بحملها الجديد، غير أن السلطان نظر إليها بطريقة معينة، مع إشارة بيده، فخجلت ثم سكتت! ومع ذلك فإن الفرقة انتقلت، وبكثير من التكتم والحذر، إلى بيت العجرمي، لقراءة المولد النبوي، وبمناسبة مرور ثلاثة شهور على الابن الجديد الذي رزق به من بنت العليان، وقد سماه خريبط، تيمناً باسم السلطان.

ابن البخيت الذي حضر الحفل، قال للسلطان في اليوم التالي:

ـ . . . وهذول، يا طويل العمر، زمّارين وطبالين، اليوم هنا وباكر

بغير مكان، وما يتأمنون، والرأي أنهم يتوكلوا على الله ويشيلون، وإلا انفضحنا!

والسلطان الذي فتح عينيه بدهشة، صمت قليلاً ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ والله اللي تقوله صحيح يا عبدالله، ويلزم يشيلون.

وبعد قليل، وبأسى:

ـ والله يلعن النسوان من حواء وأنت نازل، لأنهن كلهن صويحبات يوسف، وما من وراهن إلا المشاكل والمصايب، والله يستر!

قبل أن ينقضي الشهر الثالث وصلت الأخبار إلى موران: ابن مياح ترك الرويفة، ولا أحد يدري أين ذهب.

قال السلطان لما بلغه الخبر: الله يستر.

وقال ابن البخيت لعثمان العليان:

ـ . . . وتعرف، يا عم: إذا الذيب انجرح ما أحد يقدر يقف في وجهه، وكل اللي صار كوم واللي راح يصير كوم، ومثل ما قال طويل العمر: الله يستر!

سأل عثمان العليان مثل طفل:

ـ وقولك هالحين أن الحرب واقعة مرة ثانية؟

ـ أما أنها واقعة. . . واقعة، لكن الأهم، هذي المرة من اللي راح تأكله ومن اللي راح تخليه!

ـ الله يبشرك بالخير. . .

قالها بحقد، وبعد قليل:

ـ لو ظل الواحد بعيد كان راسه بارد، لكن شلون تركنا الدنيا كلها، تركنا البسط والعز، الفي والمي وجينا لوجع الراس. . . والإفلاس؟

رد ابن البخيت وهو يضحك، لكي يخفف عن ابن العليان:

ـ وكّل الله يا عم، وعسى يكون آخرها مثل أولها!

السلطان الذي كان قوياً وواثقاً، تذكر كلمة قالها له العم دحيم قبل سنوات: قال له:

- «واسمع زين يا أبو منصور: لا تقرب الجريح والمظلوم والمجنون إلا بعد ما تعدّ للألف، لأن الواحد منهم يريد يستوفي حقه قبل ما يصل ربه».

ولذلك تحسب هذه المرة إلى أقصى حد، خاصة وأن الكثيرين تحدثوا عن الأفراح والعطايا والإنكليز، وكيف أن ابن مشعان وعمير وابن مياح كانوا على حق فيما قالوه، أما التقوى والدين، وحتى الأخلاق، فقد أصبحت شيئاً من الماضي!

لما بعث إليه المستر ميلر يطلب إليه الاجتماع مع ابن ماضي لكي تبحث الأمور بصورة كاملة ونهائية، من أجل الاتفاق وتخطيط الحدود، لم يتردد.

ابن البخيت الذي رافق السلطان، وقد استعاد عدة مرات قصة سقيفة بني ساعدة، والتحكيم الذي حصل بين علي ومعاوية، وكأنه يريد أن يحفظ كل كلمة، قال بنوع من المكر، وكان يحدث عثمان العليان:

- ويلزم البني آدم يحرص ويتوقى، لكنه كان مثل الجمل: يريد وما يريد. ولما تلاقى مع ابن ماضي كان أزرق، مثل الريح، لكن ما مرت ساعة إلا وارتخى، وبعدها قال لي: قال ابن ماضي: عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم، اترك الماضي، انساه، ومن اليوم نبدأ صفحة جديدة...

وضحك، وكان ضحكه قهقهة، وبعد أن هدأ أضاف بسخرية:

- هذي الدنيا أعجب من العجب، لأن الواحد كل يوم يشوف ويسمع شي جديد، وكل يوم يطلع له قلب جديد!

وبعد قليل:

- وهذا الإنكليزي، اللي كان خايف، وما يعرف شلون يسوي حتى ما يزعل واحد أو الثاني، صار غريب. خريبط يسولف مع ابن ماضي، وابن ماضي يصيح: قهوة، وبعد القهوة؛ شاي قهوة نوبة ثانية، وأحاديث وسوالف... واتفقوا طال عمرك.

صرخ ابن عليان بنزق:

- خلهم يتفقون حتى نخلص.

ابن مياح الذي خرج من الرويفة، واستطاع أن يجمع الكثيرين، وكان يريدها معركة حاسمة، كانت كذلك، لكنها كانت يائسة أيضاً. فقد ظل يحارب هو ورجاله ببسالة، وحقق بعض الانتصارات، لكن خريبط، بالاتفاق مع الإنكليز، ومع ابن ماضي، تركوا له خطاً خلفياً لكي يتسرب منه، فلما وصل إلى هذا الخط، ودخل فيه، انتهى كل شيء.

قال مؤرخ خريبط: «وانحصر بقواته في زاوية، وكان أمامه أحد أمرين: إما القتال أو الانهزام، بيد أن السلطان الذي كان يقود قواته بذاته أفسد عليه الأمر الأول اذ دهمه بسرية من السيارات المسلحة بالرشاشات فقالت كلمتها الفاصلة. أما ابن مياح فقد انهزم متلجئاً إلى الإنكليز، فأخذوه إلى ظهر دراعة حربية. وحيال إصرار السلطان وإلحاحه على الإنكليز بتسليمه مع من معه من رفاقه، فقد قبلوا بذلك، وأرسلوه في الطائرة إلى خيام جلالته».

وقال مؤرخ محايد: «وكان ابن ماضي يدعو إلى منح حق اللجوء للمحاربين، ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه بالرأي، وهكذا تمت إعادتهم للسلطان خريبط».

أما ما جرى بعد ذلك فإن الروايات تتعدد وتتناقض إلى درجة كبيرة، وقد يتطلب الأمر انتظار وقت طويل قبل أن تعرف الحقيقة. ومع ذلك فإن ابن مشعان وعدداً من رجاله، خاصة الأقرباء المباشرين، قد وضعوا في سجن قصر الروض، وظلوا هناك إلى أن مات ابن مشعان، وقد حصل ذلك قبل أن تنقضي سنة على سجنه. وبعد وفاته نقل من بقي من السجناء إلى سجن موران، وظلوا هناك. أما منازل العشيرة، والقرى التي كانت تقيم فيها فقد هدمت، كما تمت مصادرة أعداد كبيرة من الخيول والجمال التي كانت لهم.

ابن مياح الذي وضع في خيمة غير بعيدة عن السلطان، ظل وحده فيها

بضعة أيام، وقد جرت خلال هذه الأيام احتفالات لم تشهدها البادية خلال سنين طويلة، وكان يراد له أن يسمع وأن يشهد، دون أن يرى، مدى فرح السلطان بالنصر، وأكد عدد من خدم السلطان أن ابن مياح رفض أن يتناول خلال هذه الأيام شيئاً، عدا الماء. إذ كان الطعام الذي يمد إليه من طرف الخيمة، يعيده، بعد لحظات، دون أن يقربه.

أما حين نقل إلى موران فقد عصبت عيناه، ونزع عقاله، وقيل إنه بدا هزيلاً متعباً، وكأنه لم ينم طوال الليالي السابقة. ولما رفع إلى السيارة التي أقلته، كاد يقع. وأكد واحد من الحرس الذين رافقوه أنه طوال السفر لم يتكلم كلمة واحدة.

وضع في زنزانة وحده في سجن قصر الروض، وقد زاره طبيب السلطان عدة مرات خلال الأسبوع الأول، ولما استمر رفضه للطعام، اضطر الطبيب لمعالجته. وقبل أن ينقضي شهر على سجنه توفي. وأكد أحد أقرباء العجرمي، وقال ذلك بهمس لأصدقائه، أن الحرس «أعانوه» على أن يموت بسرعة.

الرويفة التي كانت ذات يوم بلدة عامرة، وكانت بساتينها مضرب المثل، لم يبق منها سوى بعض الآثار التي تحكي أن بشراً سكنوا وعاشوا هنا في يوم من الأيام. أما العشيرة فقد رُحّلت من مساكنها. أما الذين ظلوا في سجون خريبط من الرجال والأطفال، فقد تفاوت عددهم، لأنهم لم يسجنوا في مكان واحد، والكثيرون منهم ماتوا أو كبروا في هذه السجون.

عمير ظل في قلعة عين دامة سنيناً عديدة، ولم يعفُ عنه السلطان بعد هذه السنين رغم أنه أصيب بالعمى. وطوال سنين القلعة، ثم بعد ذلك. وإلى أن مات في وقت متأخر، ورغم أن كل عضو من أعضاء جسده قد ضمر أو تخلف أو عجز، فإن العضو الوحيد الذي نما وظل قوياً: لسانه. وهذا اللسان لم يهدأ ولم يتوقف. وقال الكثيرون، ممن سمعوا عمير، أو نقل لهم ما يقوله، أن الخطر إذا جاء يوم من الأيام، يكون نتيجة ما يقوله عمير، ونتيجة ما يريد أن يوصله إلى الناس.

ومن جديد بدأت موران تتعود على الحياة، دون الفرسان الذين ملأوا حياتها فترة طويلة من الزمن!

قال شمران العتيبي، وكان حوله الكثيرون:

ـ . . . وهذي موران بالها طويل، تحمل وتحبل، لكنها أبد ما تنسى، وما هو بس كذا، ما تستعجل، فإذا كانت اليوم بهذا الشكل، ما أحد يدري شنهو اللي يصير باكر أو اللي عقبه. . .

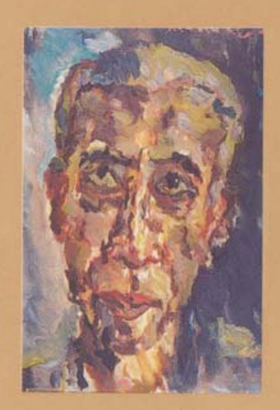
وهز رأسه، وأضاف وكأنه يحدث نفسه:

ـ والدم، يا جماعة الخير، يجر الدم، وتشوفون!

وقت الهزائم يجب أن نستعيد وقائع التاريخ؛ والتاريخ، أول كل شيء، وقبل أي شيء، هو الذاكرة. وإذا كنا قد رأينا الكثير خلال القرن العشرين، فيجب أن يتحول إلى ذاكرة، لتجنب الأصعب والأكثر مرارة. أو كما يقول تشيخوف: «لقد آن الأوان! ثمّة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية تتهيأ».

«إننا لن نشارك في الحياة (القادمة) ولكننا نحيا اليوم من أجلها. إننا نعمل ونتألم من أجل خلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا».

وتقاسيم الليل والنهار استعادة للماضي من أجل التهيؤ للمستقبل.



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمرون قصاب باشي

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار

* تركز مدن الملح، بصورة جلية، على العناصر الملحمية بحيث ينتقل القارئ ضمن مراحل تطور المجتمع على نفس الخطى التي قطعها أبناء ذلك المجتمع إبان ذاك التحول.

روجر الن

* إن عبد الرحمن منيف يقدم نموذجاً جديداً للبطولة الروائية المضادة للبطولة التاريخية، إنها بطولة اللابطولة. إنها البطولة الروائية التي ترى كل معاني البطولة وقيمها وسموّها ونبلها في الحياة، فهي بطولة العصر العربي الراهن الفاقد لكل البطولة. إنها بطولة التردي والانحدار والانحطاط.

عبد الرزاق عبد

* لعل تجربة مدن الملح تكون أوسع وأجرأ تجربة روائية عربية تناصية وأكثر تطوراً في حدود معرفتنا بالرواية العربية.

نبيل سليمان

* مدن الملح بروحها الملحمية. . . أوديسا اجتماعية، تنقلنا إلى حقبة من ماضي جزء من العالم العربي في مرحلة من الزمن.

اي. تي. اي - كرونيكل

ISBN 9953-68-103-1



المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي